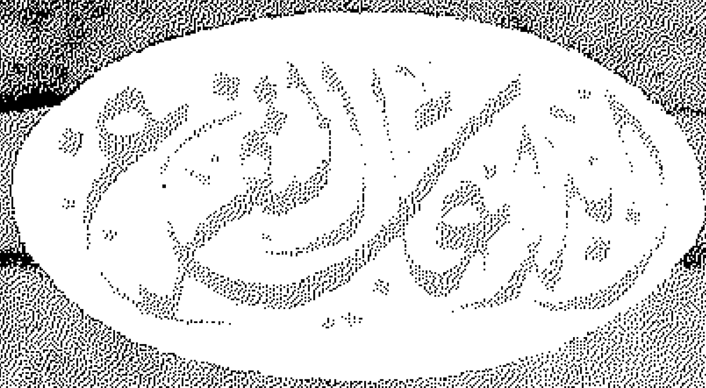


رباعية كفر عسكر

الناس في كفر عسكر

حكاية شوق

الجزء الأول والثاني

أحمد الشيخ



المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

المشرف العام: د. أحمد مجاهد

سكرتير التحرير الفني: مكرم شحاته

رباعية كفر عسكر
الناس في كفر عسكر
حكاية شوق (الجزء الأول والثاني)

أحمد الشيخ
الطبعة الأولى ٢٠٠٢

المجلس الأعلى للثقافة
١ شارع الجبلاية، دار الأوبرا، القاهرة
الرقم البريدي: ١١٢١١
تليفون: ٧٣٥٢٣٩٦
فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
بريد إلكتروني:
egypt council @ yahoo. com

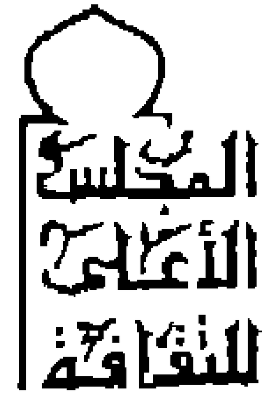
رقم الإيداع: ٢٤٩٢ / ٢٠٠٢

تصميم الغلاف للفنان
عدلى رزق اللـــه

Amiria PRINTING HOUSE

اهداءات ٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة



إبداعات التفرغ

[١٠]

رباعية كفر عسكر

الناس في كفر عسكر حكاية شوق

الجزء الأول والثانى

أحمد الشيخ

إهـــداء

لمصر المستقبل

والناس

ولـــروح أمى الراقدة فى مدفن ضيق وسط مدافـــن قـــرية فى أحضان الدلتا، نمشى له مســـافة فـــى الأرض المزروعة، ونفكر فى المـــوت، نقـــرأ لها الفاتحة ونشكو لروحها همومـــنا والزمـــن الصعب، نرتاح، نتجدد، ويزيد فى قلوبنا الإيمان، نفكر فى المستقبل، ونصـــدق نيتشه وكلامه عن العود الأبدى، ونصـــدق أوراق الـــبردى.. ونصـــوص الأهـــرامات، نـــتأكد أن بلدنا قديمة وخالدة، موجـــودة وحاضـــرة وصـــاحية فى عيون الناس.

«المؤلف»

رباعية كفر عسكر

[١]

الناس فى كفر عسكر

«أولاد عـــــوف»

حســـــن عـــــــوف

١٨٩٨ — ١٩٧١

ركـــب دماغـــه ولم يطاوعـــنى فـــراح
مـــنى وخلـــف لى فـــى القلـــب حســـره

وكان القمر بدرا... لبدنا أنا وعبد الحميد خلف الباب الكبير... كتمنا أنفاسنا ونحـن نتسمع صوته المعهود... كنت خائفا والشومة فى يدى وفى بالى أنه لن يفلت هـذه المـرة... ضغط عبد الحميد على كتفى وكأنه ينبهنى أو يشجعنى... سـمعت خطواته الجسور ترج الأرض فى عنفوان وجلبة وكأنه فحل جاموس... كتمت أنفاسى فلم أعد أسمع غير نحنحاته تشرخ صمت الليل وفراغ الدار... عند الباب الموارب تحسست بالأذنين أنفاسه المطمئنة تعبر العتبة... تلقفه عبد الحميد فى صدره وأحاطه بذراعيه... عبد الحميد كان عفيا... ارتبكت أنفاسه لوهله قبل أن يتساءل مداريا رعبه بشىء من الاستهانة والكبر.

- مين؟

«سوف ترى» قلتها لنفسى وأنا ألمحه رغم العتمة من خلال انعكاس ضوء الشـعاع القمـرى الذى يرسم خطا مائلا عبر عتبة الباب الموارب ويغطى طرف جلـبابه أيضا... لانت الشومة فى يدى وكادت أن تفلت وطرف الجلباب يقاوم... ارتبكـت لحظـة وأنا أواجه ما كنت أتخيله وأتمناه... عتل عبد الحميد تحت ثقل المقاومة فحركت الشومة لأحميه وهويت بها على سلسلة ظهره... صرخ فى ذعر المأخوذ هذه المرة وهو يجاهد أن يبدو صوته مطمئنا واثقا.

- مين؟

«ما أهمية أن تعرف؟» ناولته الأخرى والتى تلتها... لم ينطق بكلمة وكأنه يكـيدنى ويؤكد بالصمت ضعفى... طنت فى أذنى رغم سكونه أصداء كلماته التى يعايـرنى بها ويذلنى «يا أصفر يا أبو عله» طوحت الشومة وأتيت بها من خلف ظهـرى كمـا كـان يفعل ونزلت بها على دماغه، أنّ فى استكانة وسقط الشموخ المقيـت... مرة أخرى طوحت الشومة ونزلت بها على الدماغ ثم الكتف جعر فى خفوت مخز لأنه قالها:

- جاى.

«قلهـــا يـــا رجل.. قلها مرة أخرى» للمرة الأولى أسمعها منه وكأنه موال مقهور بعد ألف غنوة فوز.. فرحت ونزلت الخبطة التالية بعزم أشد.. استغاث هذه المرة وكأن الضربة مزقت عن وجهه برقع الحياء..

- روحولى يا خلق البلد.

«مازلت تغنى يا رجل؟» أيقنت من هزيمته وأحسست بالغيظ لأن صوته ظل واعــيا « ولمـــا سقط شمروخك فوق دماغ الرجل سقط من طوله ولم يقم أبدًا... ففــيم العويل؟ استجمعت قواى ونزلت بضربة مغلولة فصرخ عبد الحميد.. انزاح شــىء بقــوة وارتمى فوق الأرض ودفعتنى يد ناحية الباب... كانت أنفاس عبد الحمــيد تقترب منى... بدأت الرمح... كان عبد الحميد خلفى يرمح أيضا... كنت خفيفا وكان ثقيلا... طالنى عند الكوبرى... توقفت لاهثا من التعب فلطشنى بالكف فوق صدغى فعرفت ما جرى... كان يمسك رأسه بيده الخالية... همس متماسكا:

- بطحتنى يا أعمى يا ابن الكلب.

وسرنا... سألت عبد الحميد عارفا جواب السؤال إن كان الرجل قد مات... مط بوزه ولم يتكلم... تحسس رأسه ودفعنى من ذراعى وسرنا فى اتجاه البندر... الصـمت بينــنا كان معجونا بالرهبة والشعاع القمرى يفضح الخطوات المتسللة «ملعــون أبــوك يا قمر».. أحسست بالتعب والرغبة فى القعود أو حتى الارتماء على الأرض راضيا بما يجرى لى حتى لو جاء الرجل وذبحنى دون أن أراه.. قلت أزحزح الخوف والرهبة:

- أنا تعبت.

شــدنى عبد الحميد من كوعى وظل ساكتا يفكر.. رأيت الدم ينزف فى بطء متلصصـــا تحــت طاقيته ويشق لنفسه طريقا ضيقا متحاشيا بروز أنفه. أخرجت مــنديلى وجففــت خــط الدم وعبد الحميد ساكت.. ربطت رأسه بالمنديل وغطيته بالطاقية.. سألته:

- الخبطة بتوجع يا عبد الحميد؟

لكنه لم يرد

- عمره قالها المفترى؟

لــم يتكلم... كان الدم ينشع من خلال المنديل إلى الجبهة... غسلت منديله فــى بحــر الســاحل ومسحت الدم... لم يكن عندى ما يقال أو كان عندى الكثير فاحــترت عــن أى الأمور أتكلم فكان صمت، إلا وقع خطواتنا على أرض السكة الزراعية.. رحت أسترجع صوت صراخه المستغيث وأحس نوعا من النشوة غير المكتملة.. احترت كيف أجره للكلام.. قلت:

- خلى برهومه ينفعه.

سكت أيضا فأحسست بالخيبة. قلت لنفسى يكتب الأرض لبرهومة ونطلع من المولــد بلا حمص، الخنزير، همس عبد الحميد بحلقه.. حسبته يرغب فى الكلام سألته بسرعة:

- حرام ولا حلال؟

قال وكأنه يسد حلقى بالكلمة:

- اخرس

أنا خايف يرمح ورانا.

قلتها دون وعى... كان مرسوما فى دماغى بعوده المفرود الفحل ونظراته الحــادة المهيــبة وصــوته القاطع الغليظ وشمروخه الذى أخافنى كلما رأيته فى قبضته وكأنه سوف يخبطنى به فوق أم رأسى، ورغم أنه كان ينزل فوق رءوس أخــرى فــى المعركة فيسحقها وأنه قالها لى مرة وهو ينظر إلى بعينين ساكتتين وكأنــه يمنحــنى هديــة العمــر فــى لحظة قيلولة صافية.. «ولما أكون زعلان والشــمروخ فــى إيــدى ياولــه أتاوى من قصادى» لكننى كنت أحس أحيانا أن شــمروخه سقط بالفعل فوق دماغى ربما أكثر من مرة.. سقط فوقى لا أدرى أين ولا متى، لكنه بالقطع طالنى مرة.. لا أشك فى أنه طالنى به مرة.. وكان حتم أن أرتعش لما أراه.. أما كيف ومتى سقط فوق دماغى، لا أعرف بالقطع.

همهم عبد الحميد بكلمة فحسبته يحادثنى بعد طول صمته... قلت مستفسرا فى لهفة غريق لنسمة هواء:

- بتقول إيه؟
- اخرس.

وخرســت... كنــت أخشــاه لما يغضب... أبى نفسه كان يعمل حسابه لما

يغضـب.. خوفى منه كان ممزوجا بالحب والإعزاز... كان شهما وحليما أما أبى فكـان غشـيما وتصـعب معاشرته، لو طالنا لدفننا أحياء وعاد إلى الكفر بعد أن يغسل يديه من دمنا إذا عصيناه ويرجع لمبروكة يفرحها بخبرنا وكأنه فتح عكا... أحسسـت بمغص فى بطنى وأنا أتصوره يرمح فى أثرنا ويطولنا قلت فى محاولة للهرب من الفكرة التى حومت حولى وعششت فى دماغى وكأننى أستجير:

- كان بيستجير زى الحرمة... مش كده؟
- اسكت.

وسـكت مرة أخرى ولم يعد غير صوت خطواتنا يتردد دويا مرتبكا... قلت لنفسـى لأطمئـن: «خـبطة واحدة فتحت دماغ عبد الحميد وجعلته كالدائخ»... «وبـدأت أحصـى الضربات التى أصابته... لا شك أننى أصبحت رجلا مادمت قد جعلـته يستجير» نظرت إلى وجه عبد الحميد... كان خيط الدم قد بان هذه المرة أكثر اتساعا... شطفت المنديل فى المصرف ومسحت الدم وسرنـا... كان وجه عبد الحميد غائبا فى أمور لا أعرفها...

- انت زعلان منى؟

سـألته فكـف عـن المشى ورفع يده وحط راحته على كتفى ونظر إلى... حاولـت أن أفهـم مـا يرغب قوله فلم أفلح... هز دماغه الجريح وزام يأسا من إفهـامى بالـنظرة شـيئا.. كانت بيوت البندر قد بانت من بعيد نقاط ضوء بعيدة شاحبة لكنها توحى بالونس وتبسط على القلب المغلوب بقية الطريق الساكت غير المطـروق... قلـت لنفسى أنه قد هان الأمر وأن الفرار أصبح ميسورا ولو إلى حين، غير أننى كنت أجهل ما سوف تأتى به الأيام.

* * *

لـم يـبق شىء... العود الذى انحنى والوحدة... والنظر الكليل والوحدة... العرى والوحدة... وصمت الأيام المرة والمشوار الممدود بطول العمر... خاليا إلا مـن وهـج وحيد خبا وخلف العتمة... والجرح الغويط وفراغ اليد وبقية اعتزاز يجعلـنى أتـأبى على الطلب «قال عطية: صالح ابنك فخذ منه بالمعروف أو بحكم المحكمـة» قلـت أبدا... صالح وقف أمامى فى المحكمة مرة... ظل يرقبنى كأنه يقيسـنى وقالهـا: انـت فتنى وهربت... والقاضى لما سأله كان يكذب: اشتريت

ودفعــت فضـــحكت فى سرى... كنت عارفا أن العقد باطل والختم مسروق، وسيد راح وخلف فى القلب حسرة... وحتى لو زحفت إلى عتبات الموت بمركبة الجوع لن أفعل... والولد الصغير جاء حاملا وجه سيد فجعلنى أبكى... قلت لـــه يستحيل أرجـــع... وســـيد راح فى شربة ماء... قلت لـــه ألف مرة: كن فى حالك والتفت لمصـــالحك فلـــم يطاوعنى... ركب دماغه وظل يذهب... وفى المرة الأخيرة كان يضحك... ويحدثنى عن صحتى قائلا إنها أحسن. ولما قلت لـــه حسن الختام قال: أبدا... وعاود الضحك قائلا: ستعيش بعدى، وانقبض قلبى ساعتها ولم أضحك... كنت فى كل مرة أعتبرها نكته لكننى هذه المرة لم أستطع وساد وجوم قطعه سيد بابتســـامة قـــائلا: حتى لو مت قبلك خذها ببساطة ولم أشاركه الضحك... جعلت أمـــتص دخـــان الجوزة متفكرا كيف يحلو لـــه ذلك الهذر العجيب... وحدثته عن الأيام التى فاتت.. عن رغبتى فى أن أراه مرتاحا... حدثته عن أملى فى أن يختار لنفسه بنتا ويخلف أولادا ولو عشت أفرح، ولو مت أكون مطمئنا... واستمر أياما ثلاثة قبل أن يحمل حقيبته ويضع كفه فوق كتفى ويسألنى إن كنت محتاجا لشىء فأهز الدماغ نفيا... ويضحك بالعينين والشفتين وكل التقاطيع والأنفاس... يتحول إلـــى ضـــحكة فأعـــرف أنه ينوى على قول شىء يعرف أنه لا يرضينى... قال: مســـافر، ســـألته: مصر؟. قال: الكفر... وكنت غاضبا لكنه نظر إلى فى شبه لوم رقـــيق لأننى مازلت أعترض... وقلت لـــه: مع السلامة... ومشى... كان القلب مهموما ومحزونا وكأنه يفارقنى للمرة الأولى... وفى الليل لم أنم وحاصرنى قلق مبهم وسألت روحى عن السر فلم أعرف ولما نمت قرب الفجر رأيته فـــى المنام. من دمى وكدى علمتك يا سيد وجعلتك محترما عنهم... قلت لك يا سيد كل ما كان وجـــرى... عـــن شوق كنت أحكى لما تسأل... وكانت هى السبب فى الأول وفى الآخـــر... وأنـــا من يومها لم أعرف الراحة ولا أنت عرفتها... ودخت فى البلاد قـــبلك وبعـــدك... سواح فى بلاد الخلق سعيا وراء اللقمة ورغبة الخروج بك من الدنـــيا... وكنـــت أخشى أن تصادف ما صادفته أنا فبعت الدنيا والدين واشتريتك وعلمـــتك... قلـــنا تروح المدارس حتى لو استغنينا عن الرغيف والهدمة... ولما كـــبرت قلـــت لـــروحى هانت ووصلنا بر الأمان... وتروح هكذا فطيسا وتتركنى

لأمـــواج الأيام السود تهد ما تبقى من جهدى... تدوخنى دواماتها قبل أن أخلص من شماته العيون فيك.

وركبـــنا القطـــار أنا وعبد الحميد... كانت السكة طويلة... قال عبد الحميد الـــذى كان دماغه مربوطا بشاش أبيض إنه يعرف عنوان الشيخ سعد عوف فى الغوريـــة... كنت أطل من شباك القطار فرحان وأقول لنفسى إنه هناك خلف هذه الســحابات المــتراكمة مكان نظيف ومشرق اسمه «مصر» وأرغب فى الوصول إلـــيها بســرعة... عــبد الحميد كان مهتما بجرحه يتحسسه من آن لآخر وكأنه يذكرنى بغلطتى... والشوارع كانت نظيفة عن شوارع المركز والناس منهم أفندية يضـــعون الطرابـــيش فـــوق الـــرءوس دون مناديل كما يفعل الخواجة «بولس» الصـــراف لمـــا يـــأتى، ومنهم أولاد يلبسون الجلابيب المقلمة ولها ياقات وشفت الإنجليز لأول مرة بوجوههم الحمراء وبناطيلهم القصيرة والبنادق على أكتافهم أو فـــى أيديهـــم... والبيوت كانت عالية... وفرحت لأننى سأعيش فيها... مصر أم الدنـــيا «قالوهـــا فـــى الكفـــر واشتقت لرؤيتها واكتفيت بسماع ما يقال عنها... مصـــر...» ورأيت الشيخ سعد... وقال لعبد الحميد إننى أصبحت رجلا فضحك... وراح عبد الحميد مع الشيخ سعد وجاور الأزهر بعد أيام، وأنا أخذنى الشيخ سعد إلـــى بيـــت كبير لـــه بوابة حديدية وقالوا لى: اقعد هنا على الدكة واحرس الباب ولما يدخل غريب أسأله عن السبب... وعرفت الست الكبيرة وبنتها نهاد وشافنى الـــرجل الكبـــير وكلهم لهم وجوه حمراء كأنهم إنجليز... وألبسونى قفطانا أبيض وطربوشا وحزمونى بحزام أحمر... وعرفت الأسطى محمد الطباخ بوجهه الشديد الســـمرة وكأنـــه عبد حبشى والدكة كانت توجع مؤخرتى لما يطول القعاد فأقوم وأتمشى عند السور... وأظل أنتظر من يأتى ليدخل لكن الدار كانت لا تهم الناس فلا يرغبون فى الدخول، وقلت إنه لو حدث وتركت الدكة يوما فلن يدخلها نفر... واكتفيت بالنظر للناس وأحيانا تسألنى نهاد إن كان أحدهم سأل عنها فأقول لها:

- أبدا...

وكانـــت بنتا ظريفة وحلوة وجهها كاللبن الحليب وصوتها ناعم... وزهيرة كانـــت تخدمهم وتشترى الأشياء من السوق وتقف تحكى عن البك الكبير والست الكبـــيرة وتقول إنهم «تراكوه» وأسألها كيف فتضحك وتدخل، ولما غابت زهيرة جـــاء عـــم محمد وأخذنى وعرفنى مكان السوق وجعلنى أشترى الطلبات... اللحم

والدجـاج والسـمك والخضـر والفواكه... وقال خذ صينية الأكواب النظيفة ودر بالماء حول السفرة وانتظر من يطلب ففعلت «ملعون أبوك يا أبى... جعلتنى أخدم على آخر الزمان» وعلى رأى المثل... أيام تيجى على ولاد الأصول تتذل... قالها واحـد من أهل الكفر لا أذكره لو كنت يا ولد ظللت حافظا للقرآن مثل عبد الحميد لجاورت الأزهر مثله ووضعت على رأسك بدل الطربوش عمامة وهان الأمر...

وجاء الشيخ سعد مرة ووجدته أمامى ونادانى وكلمنى عن وصول أبى من الكفـر فسقط طبق الصينى من يدى على السجادة فعاصها وصرخت الست الكبيرة وشـتمتنى والشيخ سعد واقف وهو ساكت قالت لى: فلاح خسيس... وأنا احتقن دمى ورميت الطربوش ناحيتها وقلت: أنت الخسيسة وكل صنفك... وراحت تقفز كالملدوغـة وتلعننى بكلام غير مفهوم... وأنا خارج كنت أشتمها بدورى والشيخ سـعد يحاول تهدئتى وأنا أرد على كل كلمة تقولها... وذهبت مع الشيخ سعد إلى عـبد الحمـيد فى الأزهر وقلنا لعبد الحميد فقام وأخذنى معه وجعلنا نمشى حتى وصـل إلـى بيت زميل للشيخ سعد بتنا عنده حتى سافر الرجل وجاء إلينا الشيخ سعد وتركنا الشيخ سعد وخرج.

عـبد الحميد جاور فى الأزهر وأنا ظللت مدة بلا عمل والشيخ سعد اشتكى مما فعلته مع الست التى شتمتنى فى حضوره... وكنت أنتظر عبد الحميد كل يوم حـتى صلاة العشاء لما يأتى... ومرة وأنا أتسكع فى شارع الأزهر طلب منى أحد الأفندية أن أحمل عنه حقيبته الكبيرة لقاء أجرة فترددت أولا ثم طاوعته وحملتها على كتفى حتى بوابة الحديد وأخذت منه ما أعطانى وعدت من نفس السكة ولما قلت لعبد الحميد تنهد فى حسرة وقال لى: إياك تعملها مرة ثانية وأنا قلت لنفسى إنـه يحـرم نفسه من نصف الجراية ويعطينى لآكل ويضعف... وقلت أشتغل أى شغلانة وأكسب قوتى... وعرض على ولد تأجير عربة ومشاركته فى نقل الخشب مـن الشادر حتى دكاكين النجارين والورش وقلت لـه: كيف فعرفنى وشاركته... ولما عرف عبد الحميد بعد أيام قال وكأنه يحادث نفسه: شدة وتزول... وبعد أيام وجـد لـى شـغلانة فـى محل عطارة عند الحسين وكانت مريحة... وجاء إلينا عسكرى وطلبنا فى قسم الدرب الأحمر فذهبنا معه ودخلنا عند الضابط فسألنا عن اسمينا فقلنا له وقال لنا إن أبانا قدم شكوى ضدنا يطلب منا نفقة لأنه معدم فنظر

إلـــى عـــبد الحميد واستغرب وقال للضابط إن هذا الكلام باطل وأنه متيسر الحال وأنـــنا تركناه منذ عام واحد فظل يطاردنا لنعود إلى الكفر وهو يمتلك أرضا، لكنه كتـــبها لأخ لـــنا صغير وأنه طلق أمنا وتزوج امرأة عمى الميت ووضع يده على أرضـــه أيضـــا، وأنا قلت لـــه (كتب كل الأرض لابنها وجعلنا نشقى مثل التملية فهربنا... ونظر إلى الضابط مرتابا وطلب منا العودة بعد يومين ليتحقق بنفسه من صـــحة المســـألة... ولما عدت إليه وحدى قال لى روحوا وشوفوا شغلكم فأبوكم كذاب وربنا يساعدكم وأنا حفظت الشكوى... وخرجت وقلت لعبد الحميد لكنه كان مشـــغولا بشىء لا أعرفه فلم أعاود الحديث فى الأمر أبدا... وسمعت أن الإنجليز حبسوا سعد زغلول فتظاهر الناس... كل يوم أراهم يتظاهرون والبوليس يطاردهم ويفـــرقهم... وفـــات الناس على دكان العطارة يهتفون «يحيا سعد... يحيا سعد» وبعـــد ســـاعة قالوا إن الإنجليز ضربوا المجاورين بالنار عند باب الأزهر فرحت أتفـــرج فوجـــدت الإنجليز يطاردون الناس والميدان خاليًا تقريبا وسرت فى أول شـــارع الأزهر فوجدت عبد الحميد مرميا والدم ينزف من جنبه وأسرعت ناحيته فمـــنعونى لكننى نفذت إليه وأنا أنادى عليه فضربنى أحدهم بمؤخرة البندقية فى رأسى وداس بنعل حذائه فوقى... وكنت فوق صدر عبد الحميد الجريح وهو يتألم ويكتم الدم براحة يده والدم يغطيها واستمر الإنجليزى يضربنى وأتالم ولا أفكر فى تـــرك عبد الحميد ولو مت... وتساند عبد الحميد على كوعه وأمسك بيده الخالية كـــوع الإنجلـــيزى وشده بقوة فوقع على الأرض وجاء آخر وضرب عبد الحميد برصاصـــة فى دماغه فارتمى على الأرض رمية الموت وعيناه تحملقان فى اتجاه الســـماء والـــدم يـــنزف فى سرعة ويغطى الوجه ويتسلل عبر العنق إلى الأرض ويصـــل إلـــى الصدر والناس تجرى من حولنا وأنا أصرخ وأصرخ وعبد الحميد ساكت سكتة العجز... والإنجليزى الأول قام ونفض قميصه وظل يضربنى بمؤخرة البندقـــية فوق ظهرى ورقبتى ورأسى وأنا مستميت فوق صدر عبد الحميد لا أود أن أصدق وأتمنى لو كان ما أراه مجرد كابوس طويل ينتهى بطلوع النهار. وكنت أتوجـــع مـــن الألم وأحتضن أخى الذى كف عن التنفس وسكن تماما وكان الناس يهتفون فى الشارع ولكن فى خفوت وكنت أسمع أصواتهم المطرودة تصرخ «يحيا سعد عاشت مصر» ولم أستطع النطق.. لو كنت نطقت لقلت شيئا..

وبعـــد مدة تركوا الميدان وجاء بعض المجاورين وحملوه مع آخر ودخلوا

الجامع وهم يهتفون أيضا.. وخرجوا بعد الصلاة بعبد الحميد وزميله وكان الشيخ سـعد ممسـكا بى من ذراعى وهو يهذى بكلام كثير (ربنا على الظالم.. العدل يا عـادل.. يا منتقم يا قوى يا الله) وساروا بعبد الحميد محمولا بدمه لم يجف وأنا خلفهـم وهم يكبرون ويقرأون الفاتحة بصوت كدوى النحل.. وهم يجهزونه للدفن أبعدونى عنه.. ودموع الناس فى عيونهم كانت تجعلهم أشباحًا بلا تقاطيع مميزة.. وثوبـى الغـارق فى الدم يجف ولم أكن أعرف دمى من دم عبد الحميد. كان الدم مزيجا مخلوطا.. ودفنوا عبد الحميد فى الدراسة وبت ليلتها وحيدا فى حالى والغم راكز على قلبى.

وخبرك يا سيد نزل على هم موت لا يحتمل بعد أن نفذ السهم..وكان صعبا علـى أن أصـدق، صالح بعث الخبر. «احضر لوفاة سيد»... ولا أدرى متى ولا كـيف وصلت الكفر... أخذونى من يدى وسندونى وقالوا كلاما كثيرا لم أسمعه... كنـت أسأل عنك وكأنك فى دار أيهم تطلبنى وكأننى واثق أنك سوف ترد على ما أسـألك عنه... وقالوا دفناه العصر وأنا لم أصدق قلت لهم هاتوه لكنهم مصمصوا الشـفاه حسرة أو سخرية أو شماتة... قلت لهم هاتوه فسكتوا ورحت أسعى بكل طاقـتى ناحـية المدافن... مدافن جماعة عوف حيث يرقد جدى الكبير وجد جدى وأبى وبرهومة وأعمامى... وقلت للرماد الذى حطوك فوقه أن يكون رفيقا بك... أن يحنو عليك... أن يكون لك الأب والأم والإخوة والأخوات والصحاب... أن ينير مـا حولك بحق جدنا الحسين... والبعض وقف جوارى مهونا على أمرا لا يهون «البقـية فـى حياتك» حياتى أنا التى لها بقية؟ «شد حيلك» انهد الحيل وانقضى الأمر... «ربنا يعوض عليك» بماذا؟ بمن؟ «حسك فى الدنيا» خافت وهزيل وغير مسـموع. «فـيك الـبركة» الخراب والوحدة وبركة اليأس والضياع والحسرة... وصـالح كـان واقفا قصادى... يبكى؟ «هل هزك الخبر يا صالح أم أنها الأصول تؤديها أمام الناس حتى ينفض السامر... والتقاطيع المهمومة بفعل ماذا يا صالح؟ هل تعاركت مع أحد وجئت تشيع سيد بهذا الوجه الغاضب... «والدمعة الغريبة فى عينـيه تذكرنى بدمعة أبى يوم راح عبد الحميد... «لم أفهم جماعة الحاج عوف أبـدا... الـرجال الفحـول القساة الملامح يبكون أحيانا» قلت لصالح الذى اقترب منى: سيد مات فاستدار وابتعد «ابتعدت ضيقا منى أم لتخفى انهزامك عنى...؟»

ومجموعة الصبية الصغار يلتفون حولى ويقولون كل بدوره فى حماس حزين كلنا

أولادك يــاعم حســن... سيد كان أخانا الكبير «وكان حبيبى وأخى وأبى ودنياى وولدى... وحده يا أولادى كان يساوى الدنيا فلما راح لم تعد هناك دنيا»...

«قلت لى يا سيد فى الليلة الأخيرة إنك تبحث فى الكفر عن شىء تحبه وأنا لــم أفهــم ولن أفهم سوى أنك ضعت من يدى ولن يعود صوتك المطمئن النبرات الواثق... ولن أرى وجهك الباسم حتى فى لحظات الضيق... بسمة الاطمئنان إلى شــىء كبــير فوق طاقة التصور... شىء غير مفهوم يجعلك مرتاحًا إليه فيرتاح الوجــه والتقاطــيع رغــم غــلاف الهم... شىء تحت الجلد يتوهج مهما غطته الأحــزان، لــيس هــو الأمــل فى الدنيا وحده ولا الحلم والتمنى ولا حتى انتظار الفرج... أبدا لم تكلمنى عما يجعلك هكذا... ترى كنت تعشق؟... وكيف فاتنى أن أســألك عــنها... «قــال صــالح: نرتاح في الدار»... «راحتى فى الموت» قلت: أســافر... ســكت وهمس: أوصلك... قلت: وحدى... سرت وحدى... خرجت من الكفــر بلــيل... لم أركب للبندر... سرت فى نفس الطريق القديم الذى عبرناه أنا وعبد الحميد فى بدايات العمر الشاب.. وأنت كنت كائنا لم يتخلق بعد.. كنت يومها أقول لنفسى لن أعود إلى الكفر أبدا.. اليوم أقول لنفسى حتما سأعود.. من أجلك يــا ســيد وليس من أجل صالح. أنت فعلتها يا سيد بالموت لما عجزت عن فعلها بالحياة.. حققت مرامك ونفذت رأيك.. سوف أداوم على المجىء إلى الكفر لترانى ولا أراك.. من أجل ما كنت تأتى من أجله سوف آتى، لو عرفت لماذا أو لمن على وجه التحديد كانت تتحرك نواياك وتأتى.. لصالح؟ صالح يا سيد؟ أهو صالح؟ ربما كانــت شوق؟ هل هى شوق تلك التى جعلتك تعارضنى بهذه الحدة.. وتصر على المجىء بعلمى وغير علمى.. هل هم مجموعة التلاميذ الصغار المتحمسين والذين ترتســم علــى وجوههــم أحزان الرجال الكبار» ولم يكن هناك بدر.. كانت عتمة وســكوت مقــبض.. «نارك يا سيد لا تبرد.. لو مت تبرد.. ربما فى عتمة القبر ورطوبة أرضه تنطفئ النار أو تبرد.. لو امتزج بدنى بتراب بدنك يهدأ.. نارك لن تبرد.. نار عبد الحميد بردت.. ما عشت لأسمع أنك انتهيت.. نار عبد الحميد ظلت فــى نفسى قطعة تتوهج من آن لآخر.. ولما عشت معى بردت من حرارة الصهد القديــم وقلت لنفسى هو أخوك وعوضك عن عبد الحميد.. لكن أن تضيع.. تضيع حقا.. كابوس ثقيل يكتم الأنفاس ويدوخ الدماغ أم هى حقيقة؟.

هكــذا يــا سيد ظللت تذهب إلى الكفر لتداوى جرحا قديما حتى تحولت أنت

نفسك إلى جرح فسيح يصعب لملمته.. جرح بطولك وعرضك يتمدد فى قبر معتم ويلـتف فى رأسى ويصرخ فى كفنه الأخضر.. يظل ينبح ما عشت من أيام.. «يا رب.. هـل تـأتى بـه وتصـوره على ما كانه.. إشراقة العينين وصدق اللسان وتسكته» ولكل أجل كتاب.. وكتابك يا سيد جاء أجله.. لماذا يا رب بعثته لتكوينى بـناره؟. لم أطلبه منك لتمنحه ثم تحجبه..؟ كان لا يرضينى لو تحكم الشيطان فى سـيد.. كنـت ألومـه.. ألعـنه، وأنا أعرف مدى ضلاله وقسوته كنت ألعنه ولا أخشـاه.. أما أنت يا رب، أنا ذاهب إلى نار جهنم راضيا ما دمت لا أرضى.. هل هـو الكفـر والضلال ألا نستسلم لموت من نحب؟ أنا لن أرضى أو أسامح.. هل تسمعينى يا عتمة الأيام السود.. لن أسامح.. وأنا حر فلن أسامح.. النار المحمية أهون من نار القلب المجروح بنار الابن.

* * *

وانشـقت عـنه الأرض فانتصب قبالتى كأنه زرع شيطانى جاء بعد فوات الأوان.. شـمروخه منصـوب بجانـبه بنفس طوله وغضب الوجه القادر لحظة الظفـر.. كـان الشـيخ سعد فى الجامع وكنت وحدى.. حاولت الفرار لكنه ركن الشـمروخ إلـى الجدار وظل واقفا عند الباب يسده.. كان وجهه الغاضب ينضح غـلا.. «عـبد الحميد راح فى لمح البصر يا رجل فماذا تريد منى؟» أيقنت أننى انتهيت وخطواته تزحف نحوى وتنقله فأراه يتضخم «ما زلت عاجزا عن فهمك يا رجل.. وهذا الذى يلمع فى عينيك؟ هل عرفت ما جرى أم جئت تقتل؟» تأكدت من أن مـا أراه فـى عينيه قطرات دمع غريب على التقاطيع الصارمة التى لم تهتز مـرة.. نسيت خوفى وهو يضع راحته فوق كتفى أولا قبل أن يأخذنى فى صدره «هـى المرة الأولى يا رجل.. كنت تنتظر موت عبد الحميد ليحن على قلبك؟» قال بصوت متوتر غير متآلف النبرات:

– عبد الحميد راح فين يا حسن؟

بكيت.. كان صوته مشروخا ومهموما، لم يكن يسأل.. كان ينعى.. كنت فى صـدره وأحسـه.. يجـاهد أن يصلب طوله.. دفنت وجهى فى صدره فكان يتنهد حسرة ويضغط رأسى نحوه وكأنه يربطنى إليه بعنف الخائف.. كنت مغموما وكأن عبد الحميد يموت فى هذه اللحظة.. رأيته يجفف الدمع براحته خلسة ولكنه يفشل

فى التخفى.. قال بصوت ممزق جاهد كثيرا فى لملمته:

- بطل عياط يا حسن.. هى الرجالة بتعيط؟

قالهـا ونهـنه كبنـت بكر مضروبة.. «ليلة سوداء.. فات شهر وأنا كدت أنسـى، الليلة ندفن عبد الحميد سويا مرة أخرى فتمالك نفسك «سألنى عما حدث فاحـترق قلبى، ربما عبد الحميد وربما جرح رأسى ربما دموعه وانهزام قلبه.. كان الجرح فى الرأس ينبح والرجل يخبو وعبد الحميد يذوى وأنا أستذكر ما جرى وكأنـه يجـرى.. قعدنا نتباكى.. نستعيد عبد الحميد وكأنه غاب وسوف يأتى فى الصبح يحكى.. «الآن عرفت أنه كان زينة الشباب بعد أن داس الغرباء فوق دمه بالـنعال النجسـة؟. وأنت هناك تنصب طفل مبروكة هيكلا معبودا تمنحه الحنان والرعاية وتكتب لـه الأرض ولا تؤخر لـه طلبا؟ وكان شهما؟.. أعرف.. وأنت كنـت تعـرف لكنك بعته معى واشتريت مبروكة وجئت اليوم تندب؟» سألنى عن أحوالى فلم أنطق.. سكت أيضا.. جاء الشيخ سعد فسلم وجلس وراح يحكى بدوره عـن الإنجلـيز والمظاهـرات وحماس عبد الحميد وأبى ساكت.. «راحت نخوتك وجـبروتك يا سيد الرجال؟ ما عدت تجسر على السؤال عن قاتل ابنك؟ وأنا الذى حسـبتك مسـتعدًا لمعاركـة ذباب وجهك وتقتل من يحك لك على منخارك؟ جئتنا تعزى بالدموع كالحرمة؟» قال أبى وهو يلتفت ناحيتى:

- الفجر شقشق.. قوم نروح.

وقام.. أمسك شمروخه.. حيرنى اليقين فى كلماته.. «واثق أنت من نفسك معى كأننى بين يديك لعبة؟» كان وجه الإنجليزى الذى قتل عبد الحميد حاضرا فى دمـاغى وأبى يقول ما يقول وكأنه أمر لا يرد.. «دعنى أحاول على الأقل ما دمت تعجز» فكرت فى الفرار من الرجل قلت لـه إننى لا أريد السفر بسبب أمر يهمنى فعلـه فلـم يهـتم.. سأل الشيخ سعد عن أشيائى ولمها بنفسه وحطها فى سبت وأخذنـى من يدى كما كان يفعل منذ سنوات.. ولما حاولت الإفلات أسكتنى بنظرة حازمة فحملت السبت عنه وخرجت من الحجرة.. ودعت الشيخ سعد قائلا لـه - ارجـع، حاسـبا أنـه فى الإمكان أن أرجع.. سرت صامتا بجواره.. ركبنا قطارا مزدحما.. نظرت من النافذة وفكرت فى القفز منها فأغلقها أبى.. ولما سار القطار فـتحها وسـهم لحظة يفكر.. فكرت فى أن أرمى روحى وأخلص.. نظر إلى وقام

يقفـل الــنافذة وقــال فى مرارة.. مرارة فى الحلق تحملها النبرات وترشها على سمعى:

- مــا عادلــيش غــيرك يا حسن.. كفاية اللى كان.. برهومة لسه عيل ماوقفش على حيله يا بنى.. اللى انكسر يتصلح.

نظــرت إلــى خطوط الهم المحفورة فى تقاطيع الرجل فهالنى أنها غاصت وغاصـت فى اللحم ونفذت إلى داخل التقاطيع.. «غريبة عليك الهموم.. غريبة» أحببته أو صعب على حاله.. وددت لو أننى ارتميت فى حضنه أواسيه وأبكى من أجله تماسكت وسرعان ما عدت أكرهه بنفس الحدة القديمة ولا أعرف لذلك سببا.

* * *

وســيد لمــا قلت لــه عما جرى لعبد الحميد ظل يسألنى عن كل التفاصيل فــأحكى.. قال كلاما لم أسمعه أبدا «فى الكفر قالوا: ربنا اختاره.. قسمته.. ولكل أجل كتاب. وأشياء أخرى تجعل اللهيب يخبو.. أما أنت يا سيد فقد جعلته يتأجج» قال سيد: ضحى من أجل بلده.. أحسست الزهو والرغبة فى الفخر بما كان.. قال ســيد: أخــذت بثأره.. «أبدا يا سيد.. ما قال لى أحدهم هذا.. أخفيت الأمر وكأنه عــورة.. لــم أفتح قلبى فى هذا الموضوع لغيرك بعد إسماعيل.. يا حسرتى على الأيام التى عشتها مرعوبا وخائفا أتخفى.. لو كنت أعرف ما عرفته اليوم ما كنت كففت عن الفعل والحركة» ولأول مرة أحس معنى البلد والدفاع والحماس بعد أن شــاب العمــر والقلب أيضا.. «أنت جئت يا سيد تعرفنى بما كنت أجهله.. صحيح كنــت أعــرف أنهــم جــاءوا من بلادهم وعاشوا هنا يأكلون خبزنا.. لكننى كنت أحســبهم كجماعــة شلبى.. ما كنت أعرف كل ما تقوله يا سيد. أن قتلهم رجولة وأن دم عــبد الحميد لم يضيع أبدا.. لو عاد الزمن.. هل يعود؟.. لو عاد وجعلنى أرى قــاتلك.. مــن قتلك؟ عبد الحميد قتله عسكرى إنجليزى عند الأزهر.. وأنت قتلوك فى سكة كفر عسكر.. لو كان الإنجليز هنا لقلت إنهم فعلوها لكنهم خرجوا وأنــت كنت تمشى وحيدا فى ليل أسود لا تهتف لأحد وربما لا ترى على الإطلاق وجــه قاتلك.. ربما رأيته وتعرفه ولكنك لم تبح باسمه.. أنا لا أعرفه يا سيد ولا أحــد قــال إنه يعرفه.. عزيزة عليك كانت بلدنا.. عزيزة عليك كانت.. من يحبها مــثلك.. غضبتى الوحيدة عليك غفرتها.. ولما جاء صالح يطلب منى العودة إلى الكفر لم أوافق.. راح يكلمنى ويضاحكنى بينما أمتص دخان الجوزة وأهز الرأس

متفكرا وعلامة يفهم منها عدم الموافقة.. قلبى كان معك.. لكنك جئت معه فى الشهر التالى وقلت لى ارجع، وأنا شتمتك.. خرجت غاضبا منى مع صالح.. وحتى لما عدت كنت غاضبا عليك.

وأنت تقولها: صالح مظلوم كنت أمسك نفسى عن لعنك مرة أخرى.. وأعجب حاسبا أن صالح ضحك عليك.. «لا يعرف عن صالح إلا طوله وعرضه وابتسامته الساهية، وصالح قالها لى فى مرة تالية وكأنه يعايرنى مقدما:

- سيد قاللى آخدك عندى.

واشتعل فى الرأس دبور مسعور.. ظل يطن ويطن «وهل يحملنى على دماغه؟ أهى القلوس التى يدفعها كل شهر تجعله يصر على عودتى للكفر خلاصا منى؟ أهذه آخرة تربيتى فيه وتعبى.. كل مرة كان يقول ما عنده لكن فى هذا الموضوع يكذب.. الكفر أحسن لى.. تعرف أنت الأحسن لى على آخر الزمان..؟ هل أنسى ما كان من صالح لما خرجت من الكفر بليل وهو جالس مكانه لا يتحرك.. جربت هذه اللعبة يا سيد ولما جئتنى وحاولت أن تجعلنى أنسى وأضحك مرة أخرى لم أهتز.. لم أضحك من قلبى.. كانت هناك نقطة سوداء لم تستطع تبديد السواد عنها.. الهم كان فى ركن القلب راسخا تصعب زحزحته بألف نكتة.. اليوم زالت الجفوة.. سامحتك.. ربما كنت بدأت أسامحك قبلا لكننى كلما تذكرت ما حصل أعود ويتعكر دمى وأوشك أن أكرهك؟.. وجاء صالح مرة.. طويلا وعريضا وشاربه يغطى وجهه ويداه خاليتان.. ابنه الصغير كان معه.. قال للولد سلم على سيدك والولد سلم وباس يدى.. والجيران سألونى عنه وصهينت.. سألنى عن سيد وإن كان جاء هذا الشهر فقلت: لا.. جلسنا فى صمت.. لم يكن بيننا ما نتكلم عنه.. كلمت الولد وسألته إن كان فى المدرسة من باب الكلام فى أى موضوع.. قام وقعد ومد يده ناحيتى بجنيه.. «تحسبنى أستجدى يا بن صالحة؟ وفره على روحك يا غشيم». قلت له إن معى فلوسا كثيرة وإن سيد يبعث إلى بالبوستة وإننى مبسوط.. لم يكن معى ما يكفى «هل كنت أنتظر جنيهك؟ يا فرحتى بمنظرك وأنت تهز طولك وعرضك وتدفع الجنيه.. أين كنت أيام المرض والجوع.. اليوم تدفع تحسبيها.. هناك من يستطيع رد الجميل «حاول إضحاكى بموضوع قديم مداريا خجله من نفسه.. نظرت إلى وجهه وجعلته يخجل أكثر.. كان ثقيلا على

القلب كصخرة.. بات الليلة وعملت الواجب.. تصرفت.. «الجنيه الذى جئت تدفعه لا يشترى فرخة يا تيس» وفى الصباح جاء سيد.. كأنه على موعد معه.. أخذنى علـــى جانب يسألنى عن الأحوال المالية ويعطينى.. أحسست بالفارق.. القلوس لا تهـــم. ما كانت تهمنى يوما ولا قيمة لها.. سيد كان يحسنى ويفهم.. رغم وجود صالح كانت الليلة حلوة.. كنت أنظر إليه بينما يتفرج على قماش الجلباب الصوف الـــذى أتـــى به سيد من أجلى.. أقرأ فى عينيه حسرة وغلا.. ربما محاولة النظر باســـتهانة.. «أنت لم تعرف صالح أبدا يا سيد.. نفخة كذابة وحس ميت ودم ثقيل لكنك تحتمله».

قال صالح وهو يخرج ساحبا ابنه معه:

- مش عايز حاجه من الكفر يا با؟

قلـــت لنفســـى «يـــا دمك؟ عزومة مراكيبة.. كلام فض مجالس؟ الخسيس خسيس.. تربية الحريم لم تفلح أبدا.. الرجل ابن الرجل يفهم ويحس والنطع يعمل فيها أعمى وأطرش وأخرس». قلت له: تشكر..

وراح سيد يوصله.. وكنت أسترجع مع كلامه وجه أمه الأزرق.

* * *

ورجعـــت الكفر مغصوبا ومغلوبا على أمرى.. وكل ما يقابلنى أحد يسألنى عمـــا حدث لعبد الحميد فأحس وخزة فى جنبى وأجاهد ألا أحكى.. وأمى لما رحت لها سألتنى فأمسكت لسانى حتى لا يحترق قلبها أكثر.. كانت تلبس السواد وتبكى وتلعـــن أبى لأنه شتتنا فى البلاد البعيدة ليرضى مبروكة.. قالت لى: لا تخرج من الكفر يا حسن. «الغربة تتوه الأصول يا بنى» ولو احتجت شيئا اطلبه منها.. وأنا قلت لروحى نار الكفر ولا جنة مصر.. «والأرض فرت من أيدينا وكما قالوا: موت وخراب ديار.. ومهما كانت الأرض مكتوبة لبرهومة فأنا أشتغل فى أرضنا والشغل فيها لا يعد معيرة وقلة قيمة فى نظر لناس مثل الشغل عند الأغراب.. وما أدرانى ببرهومة لما يكبر يتحكم فى الغيط والدار أو يجعلنى شريكه؟ يخلق من ظهر العالم فاســـد ومن ظهر الفاسد عالم.. «قالت أمى: لا تحمل للدنيا هما.. ما كنت أحتاجه كانـــت تدبـــره.. اللقمة الحلوة تحضرها وتبعث لى أتعشى عندها.. وأبى عاملنى

بشكل آخر، بالحسنى، فكدت أنسى بمرور الأيام ما فعله «يا قلبى الذى يصدق ويحن فى كل مرة ولا يحمل الأسية» «إن كبر ابنك خاويه» قالها أبى مرة فقلت رجع لعقله.. وكلما تذكرت عبد الحميد أزداد كراهية لمصر وأود لو رجعت مرة واحدة وصادفت الإنجليزى وقتلته.. كلما أحسست الدم يجرى فى عروقى وعزمى يشتد أرغب فى قتله وأعود بعدها فليس لى هناك عيش. مصر للأفندية وأصحاب الدكاكين والأكابر.. هناك جربت الجوع والحاجة والتسكع بحثا عن شغلانة.. وبرهومة بدأ يكبر ويتعلق بى فأحبه.. ومبروكة نفسها بدأت تتحاشى العراك معى كما كانت تفعل فى الماضى وكأنها أحست برجولتى.. والقلب ينسى.

وطلبونى الجهادية.. راح أبى ودفع البدل وجاء مبسوطا.. أعطانى مقطع قماش كشمير وقال: فصله وخلى لى وش صديرى.. فرحت به.. قال نكمل الفرحة وننسى الحزن.. سكت.. تتزوج، قالها أبى فارتعش قلبى بالفرحة قلت: رأيك.. قال: خذ صالحة.. سكت.. كانت صالحة فى القاعة.. «صالحة يا رجل لا أقبل ريحتها. لا أريدها.. أكبر منى.. أنت رجعتنى ومبروكة تحايلنى من أجلها إذن؟.. ترقبيننى بعينيك السوداوين الضيقتين وأنت تصبين الشاى وماذا يحدث لو رفضت أن آخذ بنتك يا مبروكة.. تبدئين الحرب كما كان يجرى؟ قلت: ربنا يسهل.. قال: تأخذها.. بنت عمك ولحمك تلمه.. وأنا لم أتكلم.. قال: الصبيان فى سنك خلفوا.. زيتنا فى دقيقنا.. نكتب ونجهز لما نبيع القطن «صالحة يا رجل؟.. لحمى» لحمى العجوز؟ طمعان أنت فى الأرض التى وضعت عليها يدك «قالت مبروكة: نكتب لك فدانين وصالحة لها فدانين.. تعمروا الدار.. سكت.. شدنى أبى وخرج من القاعة قال: كفانا مناكفة.. تأخذها يعنى تأخذها ليس فيها عيب.. قلت: كبيرة عنى.. قال: بنت عمك ونظر إلى فى تحفز الراغب فى الضرب لو نطقت.. نفس النظرة القديمة التى كانت تخوفنى منه.. يقولون كل شىء فى الدنيا بالخناق إلا الزواج بالاتفاق.. أين الاتفاق يا رجل.. لا أريد.. تذلنى باللقمة أنت ومبروكة؟ قال: هيه؟ قلت: طيب.. أمرك.. وسكتنا.

ولما باع القطن راح طنطا واشترى النحاس والكسوة والخبر شاع فى الكفر «مبروك عليك» يقولونها فأحس السخرية فى النبرات والتقاطيع وأسكت.. كانت زفة كبيرة ومندرة الحاج عوف الكبيرة مرصوصة برجال الكفر.. كنت أرتدى

جلــبابى الجديــد.. مر تختروان ونقرزان يطبل ولفوا بأكواب الشراب.. وسمعت الــزغاريد.. وكانوا يحطبون فى الشارع ويرقصون عند باب المندرة وأراهم من الشــباك المفتوح.. أبى فوق حصانه يلعب البرجاس.. شمروخه الطويل يحذرنى بحــركاته «ارقــص واهتز يا شورة النسوان.. ارقص فالكل يضحك على خيبتك الثقيلة..» وجاء المأذون فنزل أبى ودخل المندرة وكأنه يكتم بطوله وعرضه على أنفاســى.. وجلسنا بعد أن قمنا لهم حتى جلسوا.. وضعت يدى فى يد أبى بعد أن أخــذ الوكالــة مــن صالحة.. غطى المأذون يدينا بمنديل أبيض جديد أخرجه أبى وســط التهليل والهياص «هللوا فاللعبة جديدة ومسلية.. والذبيحة فى يد الجزار» كــان عبد الحميد فى دماغى» كنت تكرهها يا عبد الحميد وتقول إنها بومة.. قال أبــى زوجتك موكلتى البكر الرشيدة صالحة على عوف.. أمرنى المأذون أن أقبل: وقبلت وفرقعت زغرودة ودخلت الغازية وسط التهليل والهرج وراحت تتلوى وفى بطنها ثعبان مرعوش ناعم.. قال أبى: اطلع واحملها للمندرة القبلية.. أنزلتها من التخــتروان المحطــوط عــند بــاب الــدار.. حملتها وسط الزحام ومشيت ناحية المندرة.. كانوا يهللون حولى.. دخلت أم مشحوت «الماشطة» وكانت تتثنى وتتكلم بالعين والحاجب.. أمرتنى بعمل شىء مخجل.. نظرت إليها وإلى وجه صالحة فلم أجرؤ «وكنت يا صالحة أكره سخفك حتى قبل أن تدخلوا دارنا وتخرج أمى». لفت أم مشــحوت رباطــا فوق أصبعها وفعلت بينما تضحك، ورأيت الدم يتدفق «وكان دمــك يا عبد الحميد يتدفق بغزارة من الرأس نظيفا وصافيا غير هذا الدم الأزرق تحــتها» وصرخت صالحة فانطلقت الزغاريد وكأنها تعايرنى بسقطتى معها، ودق الكفــوف علــى بــاب المــندرة المسكوك بعد خروج أم مشحوت بقطعة القماش الملطخة بالدم والبنات تغنى: (قالوا لأبوها إن كان جعان يتعشى.. وإن كان شبعان يحطــوا..) ويا عروستنا يا لوز مقشر تعالى.. وكلام كثير تاه منى قالوه.. كانت صــالحة تجلس على طرف السرير الحديد وكأنها عفريت مصور. خلعت المداس وطلعــت وتمــددت جوار الحائط وهزتنى تطلب منى أن أقوم لأتعشى فقلت: لا.. لكــنها شــالت صــينية العشاء الكبيرة وحطتها فوق الطبلية ورصت عليها الأكل واستمرت تلح على بأن أقوم حتى قمت غضبا.. كنت جائعا ونفسى مصدودة عن زاد الدنــيا.. أزاحت أمامى ذكر البط المحمر والحمام المحشى وقالت: كل.. كانت

تضحك وكنت أحسبها سوف تخجل من نفسها بعد ما عملته فيها أم مشحوت لكنها مـــن يومها كانت مفتوحة العينين ولا تعرف الكسوف أبدا..» كنت تكرهها يا عبد الحمـــيد وتقـــول إنها تشبه البومة» واستمرت تتكلم وتتمايل فى جلستها وكأنها غازيـــة.. وكـــبس علـــى النوم فقمت أنام وأنا أحس عدم رضاها عن ذلك.. وفى الفجر وجدتها مرمية بثقلها فوق صدرى فأزحتها عنى.. قالت وعيناها القارحتان تلمعان فى نهم ولد مفجوع:

- اصحى.

وقمـــت أغســـل وجهى من ماء الإبريق النحاس الذى أمسكته وصبته على يدى.. وخبطت أمها مبروكة وفتحت لها صالحة وقالت مبروكة بفرح:

- صباحية مباركة يا صالحة.. عقبال البكارى.

وأنــــا ظللت ساكتا ولما دخل أبى قمت واقفا له فقال: اقعد يا عريس.. وقعد هـــو أولا.. وتوافد الناس ودفعوا لصالحة «الصباحية» وناولت هى البنات مناديل رأس ملونة والرجال طواقى ومناديل يد.. واحتفظت هى بالفلوس.. ودارت الأيام كساقية تئن. ولم يكتبوا لى أرضا كما قالوا فقلت لأبى مرة وأجابنى أنه ينوى لما أخلف له ولدا يفرح به. وقالت مبروكة فى نفس الليلة:

- شد حيلك وهات لنا خلفة.

وقلـــت لنفســـى لاشـــك أنه قال لها.. وقالت صالحة بعد أن تربست الباب بالـــترباس «اقلع الغيار أغسله لك» فطاوعتها.. كل ليلة لما أعود من الغيط تسك المـــندرة بالـــترباس وتأتى ناحيتى ونطلع السرير وتقترب منى فأشم رائحة فمها النتـــنة.. دائمـــا رائحتها نتنة كالقبر.. الأيام رغم شقاء النهار أحلى من الليالى.. وهـــى لمـــا تـــنام تخلع سروالها مدعية أنه يضايقها.. وتظل تعابثنى ونتضاحك وأحيانا تطلب بلا لف ولا دوران.. وكلما حاولت الرضى عنها أعجز.. كلما رتبت فـــى دمـــاغى كلامـــا عن رائحة فمها أنساه وهى أبدا لا تحس.. ولما أغلب منها أعرف ما تريده وأعطيه لها لتهمد.. وأنام.

وجاء أبى مرة وخبط ظهرى بكفه الغليظة قائلا:

- ما تجمد يا سبع الليل.

وقالت مبروكة لأبى وهى تناوله خنصر الشاى:

- اللى يختشى من بنت عمه يبقى ايه يا خويا؟

أحسسـت أنها تقصدنى فاغتظت من صالحة.. كل ليلة أخاف من عدم تلبية رغبتها لأنها تقول لأمها وأمها تكلم أبى وأبى ربما يضربنى بشمروخه فى لحظة غيظ فأطاوع.

وفـى الكفر كان الرجال والصبيان يقولون لى: صحتك يوم فى النازل ويوم فـى الطـالع ثم يتغامزون.. «أعرف أنكم تتحدثون عن الفرع الخائب من جماعة الحـاج مصطفى.. عبد الحميد قال لى مرة إن أبى جعلنا لبانة فى أفواه الناس». «وحـتى جـدى مصطفى ظل فى أذهانهم كريما وأصيلا، محبوبا على خلاف أبى الـذى يخافونـه أكـثر مما يحترمونه» كان عبد الحميد يفهمنى ما يعنيه الناس بالكلمات لكننى كنت أصغر من أن أفهم أيامها.

قالوا فى الكفر إن مولد السيد عمران.. قلت لأبى آخذ برهومة وافرجه على المولـد وكانـت مـبروكة تجلـس فأومـأت بالموافقة «فى كل شىء تنظر إليها تسـتجديها الرأى؟»أعطانى أبى ريالا.. واتفقت مع جماعة من ناس الكفر وأولاد العـم وركبـنا ورحنا إلى طنطا نتفرج على الناس والذكر والزفة.. وأخذونى عند السارى وظللنا نتجول.. هناك نصبوا سامرا وكانوا يحطبون.. كانت معى عصا.. أولاد الكفـر قـالوا العب يا حسن.. نزلت ولاعبت شابا لا أعرفه فبان لهم فنى.. هللـوا لـى لما لاعبت الآخر.. وخرجت أتفرج على الرجال الكبار.. وشدنى رجل وقـال: لاعبـنى.. خفـت مـن منظره لكنهم شجعونى وفى نبراتهم نغمة الوعيد بالسـخرية منى.. يشبه أبى فقلت لا ألعب فقال لى: أنا ملك السامر وإذا كسبتنى تكـون ملكـا.. وأغـرانى أن أكون ملكا.. نزلت إليه ولاعبته وعجزت عن لمسه وعجـز هـو أيضا.. كان مبسوطا منى وكأنه أب يرى ابنه عفيا.. ومرة وجدت ظهره خاليا فلمسته وهو يضحك.. هاص الناس وهاص هو معهم ووجدت الرأس خالـيا فلمسته أيضا وتحمس الرجل بعد أن كان مستهينا بلمساتى لكنه ارتبك لما عجـز عـن لمسى.. وبدأت أتسلى عليه وسط التهليل والهرج ولقب الملك الذى أحـرزته.. ووقف الرجل فوقفت.. وجاء وسلم على وسألنى عن بلدى فقلت لـه: كفـر عسـكر.. وقـال مبسوطا أنا من كفر الشرفا يا ملك.. كنت فرحان بنفسى ورجال الكفر قالوا: فكرتنا بعبد الحميد لما كان يلاعب فى السامر ويكسب الملك..

وكلمونـــى عــن عرق الصبا الذى يلبد فى داخلى ويمتد إلى ذراعى فيجعله قادرا وســريعا كســبع.. وسرنا وسط البلد نتفرج على ناس طنطا.. ورسمت على يدى ســبعا يحمل سيفا بالوشم الأخضر. كانت الإبر تكوى والدم الأزرق يتكون خطوطا نحــيلة ويتســلل فى بطء على ظهر اليد كحبات عرق تنبت فوق الجبهة فى عز بؤونــة.. كنت ابتسم فرحان لصبيان البلد وبرهومة فرحان بى هو أيضا يتكلم مع الأولاد بجســارة كأنـــه يستمد قوته منى «وكنت أنا يا برهومة فى مثل سنك لما أجــىء مــع عبد الحميد وأراه يكسب وهو يلاعب ملوك الزمن الفائت أفرح كما تفرح.. لكنه لم يكن هناك ما يعكر الصفو فلا دار بيننا ولا غيط» وسرنا فى سكة الكفر والشبان يهللون حولى وكأننى توجت بالفعل ملكا.. وعند بوابة الحاج عوف فاتــنى الأغراب واستمر أولاد العم وبرهومة فى يدى يتراقص بخطواته الصبية.. وعــبرت الــدرب ودخلــت الدار وحدى وبرهومة فى يدى فرأيت صالحة تجلس مــتكورة بجوار أمها ولما شافتنى قامت وتبعتنى واتجه برهومة إلى أمه.. وكان المصــباح فــى المــندرة يرسل ضوءا شاحبا فعالجته ليزداد الضوء.. وسألتنى صــالحة بعــد أن سكت الباب لماذا تأخرت هذا الوقت كله وجعلتهم يقلقون على بــرهومة فلــم أجاوب.. سألتنى عن بقية الفلوس فقلت لأتخلص منها: صرفتها: صرخت فى وجهى وكأنها ندابة: يا خرابى.. اقتربت منى تتدلل فقلت وأنا أزيحها بيدى: ابعدى عنى.. لكنها اغتاظت منى وشدتنى من طوق جلبابى فغاصت أظافرها فى لحم رقبتى فالتفت إليها وناولتها بظهر يدى المرسوم عليها سبع فوق بوزها.. ســال خــيط دم وراحت تصرخ فلم أهتم وجلست فوق الحصير.. ودخلت مبروكة وســألتها عما جرى فرمحت ناحيتها وقالت إننى كسرت أسنانها.. قالت مبروكة: تنكســر رقبتك على صدرك يا عرة.. شتمتها.. قالت هى لمبروكة دون حياء إنها عيشــة مهبــبة ولا تساوى وأضافت لتدلل بأننى أغيب عنها مهما أغيب وأدخل بــوزى شــبرين ولما أنام أعطيها ظهرى طوال الليل وكأننى عبيط ونضح العرق علــى جبينى.. أحسست برودته لما مرت عليه نسمة هواء.. خجلت أن أدافع عن نفســى فــى هــذا الموضــوع.. ودخل المندرة ناس ووقف فى الشارع ناس من الأهالى.. وجاء أبى فشق لنفسه طريقا بينهم وساد صمت تقطعه دمدمات التوقع.. وأنا نظرت إلى يده فلم أجد شمروخه فظللت واقفا فى مكانى.. ولما أصبح قبالتى تماما قالت مبروكة متظاهرة بأنها تكلم صالحة:

- لا ضرب ولا خبط.. نفوت له الدار ونطلع.

وسأل أبى عن الحكاية فلم يسمع جوابا.. وكأنما حسب حساب الأرض التى يضع عليها يده.. ولا أدرى من أين طلع شمروخه وانتصب فى يده كمارد أسود.. مـن جنـب الجـدار أم أنه كان يحمله فى يده الأخرى ويداريه خلفه.. المهم أن الشـمروخ بـان وسـاد صـمت ثقيل وكأنه عمر بطوله.. وتحركت يده ناحيتى بالضـربة. ورغم سرعتى فى تحاشى الضربة طالنى طرفه.. طال ذراعى فلم أعد أحسـه.. وكاد أن يخبطنى مرة أخرى فظهر عمى إبراهيم خلفه وأمسك الشمروخ ومنعه من الحركة واحتمل ما قاله أبى.. وسقط ذراعى بجانبى وعلى ظهر راحته سبع له شوارب طويلة وسيف لونه أخضر.. كان الدم ينزف.. لم يكن حتى ينزف، كـان يـتقافز فى خط صاعد ويميل ناحية الجدار فيعوصه.. ولما أزاح أحدهم كم الجلـباب ليرى الجرح تطايرت نقاط الدم وكادت أن تصل إلى السقف ونزلت على الأرض رذاذ مطـر خفـيف دافئ.. «ضربت عرق الصبا يا رجل فقطعته دون أن تعـرف حتى لأى الأسباب تضرب؟ قالوا لـه: قتلته يا عم عبد القادر «قتلتنى يا شورة النسوان من أجل صالحة؟»».

ولـولا أنـنى كنت واقفا لصدقتهم.. كتموا الدم بحفان بن مصحون وربطوا ذراعـى بقمـاش أسـود.. وأنا ساكت.. وجاءت أمى لا أدرى من أين.. سمعت صـوتها يجلجـل فـى الشارع.. يقترب ويدخل الدار.. وكانت تشتم أبى بجسارة وحماس جاءها لا أدرى من أين.. قالت: عملتها يا خنزير.. موت عبد الحميد فى الغـربة وحسـن أيضـا..؟ وأنا أحسست بنفسى غير قادر حتى على سماع رده علـيها.. لم أستطع حتى الاستمرار فى الوقوف مكانى.. وقعت على الأرض ولم أعـد أحـس بروحى أبدا.. كل ما جرى أننى كنت أسمع دويا متداخلا لأصوات لا أسـتطيع تمييزها أو معرفة أصحابها.. وكنت فى رقدتى أرى عبد الحميد وأتشكى وأجعله يبكى.

* * *

والحكومـة لـم تعـرف شيئا عن القاتل.. «قال الضابط: قيدنا الحادث ضد مجهـول وحفظـنا القضـية» وأنا كنت أحسب أن الحكومة لا تخفى عليها خافية

وبعثوا لى نقودا فى شيك فقلت يدفعون ثمنا لدمك يا سيد؟.. قلت للموظف وأنا أعيد إليه الشيك أننى لا أطلب إلا معرفة القاتل ولا أبيع دم ابنى.. ابتسم فى اشفاق واقل مهدئا:

- مش اختصاصنا يا حاج.. دى مكافأة ابنك عن خدمته.. وأنت حر فيها.. إنما يستحيل ترجع الخزينة.

وأنا قلت لنفسى «لو كانت الوزارة لا تعرف من قتل ابنى فمن يعرف ومن المسئول لأسأله؟» والليل يومها كان ثقيلا.. كنت مطحونا تحت قادوس الكلمات التى تنعى.. وكلما صادفت زميلا لك ولو قديمًا يسألنى عنك فأحس الناس ما نسيتك أبدا.. ربما أنسك.. أبدا.. حتى لو نسيك الناس ما نسيتك أبدا.. ما تبقى من العمر قليل.. فلأحتمل.. ولو طال العمر حتى سأظل أذكر.. «كان سلومة وصالح وسعيد وشعبان حولى فى الجبانة، وجعلت أدق بالكفين المجنونين جدران المدفن وكأننى أوقظك من نوم ثقيل ولا أسمع غير صدى خبطاتى ولا ترد.. والأصوات كانت تهمهم وتحاول إعادتى إلى الوعى فلا أعى، كان يحيرنى أن تروح هكذا على غير توقع وبلا مقدمات.. الإنجليز قتلوا عبد الحميد قبالتى وعرفت على الأقل وجه قاتله أما أنت فقاتلك مجهول الهوية وقضيتك محفوظة لعدم توافر الأدلة.. «إيه يا سيد.. العمر عدى والقبر فى الكفر ينتظر لكن الموت يتلكأ.. ومن يومها تبدل الحال يا سيد - السمع طاش، والنظر طاش، والعقل طاش..

يوم الأربعين رحت وحدى إلى المدفن.. والبنت التى شفتها تلبس السواد لم أعرفها.. سألت نفسى إن كانت من ناس الكفر أم إنها غريبة.. أنا الغريب هنا ما عدت أعرف ناس الكفر حتى.. «ترى جئت من أجل سيد أو من أجل غيره؟» وقالت لى: البقية فى حياتك يا عم حسن «تعرفيننى وأنا لا أعرفك يا شابة؟» ولم أعرف كيف أسألها عن اسمها لأتأكد أنها من جماعتنا أو من الأهالى.. لم أسألها رغم أنها عزتنى فيك يا سيد.. نبراتها كانت صادقة وحزينة.. وأنا كنت أبكى. قالت شد حيلك.. بوفاء قالت.. وكلما أوشك على سؤالها عن اسمها أتوقف «يمكن حورية من الجنة جاءت تونسك فى وحدتك وتسليك وأنت فى العتمة.. ما دام المدفن لا يزار.. عائلة الحاج عوف جاءت ونسيت الأصول وعائلة شلبى كبرت

على زيارة القبور مهما كانت قيمة الأموات..».

فـــى السكة لم تخرج البنت من دماغي.. ظللت أعصره وأقول لنفسى إننى عرفـــتها ربمـــا قبل أن يكون العمر نفسه.. وفى لحظة ومض شعاع وعى خاطف فاســـتعدت التقاطيع وعرفت أنها بنت شوق.. نفس الملامح وحتى النبرات «جئت إذن مـــن أجله يا سعاد؟.. عرفت الآن اسمك.. الموت جمعنا لما عجزت عن ذلك الحياة».

* * *

وقـــال لـــى واحـــد من «التملية» إنه طهق من ناس الكفر وانه ذاهب إلى البرارى فى ضم الأرز.. قلت له لما يأتى المقاول يطلب أنفارا قل لى وسألنى لماذا فصهينت. وجاء المقاول قبل أن يطيب الجرح لكننى كلمته وخرجت مع الأنفار من الكفـــر خلســـة.. فـــت لهم الجمل بما حمل ورحت البرارى.. كانت العيشة مرار والأجـــرة قرشان.. نظل منذ الفجر نحش بالمناجل أعواد الأرز وكأننا نحش معها أعمارنـا.. الناموس يمتص الدم ويسمن ويتكاثر.. وننام فى قاعة معتمة ومشحونة كأنهـــا زريبة مواشى.. ومرة رآنى الخولى أريح ذراعى فضربنى كفا وشتمنى.. قال له أحد أنفار الكفر عن أصلى فقال الرجل باستهانة: أصلك فعلك يا روح أمك.. «أيـــام بنشـــرب عســـل وأيام بنشرب خل وأيام نبات على السرير وأيام نبات فى الطـــل.. صـــدقت يا عم إبراهيم لكن هل شربت الخل أو نمت فى الطل حقا» كنت أسمعها للمرة الأولى: أصلك فعلك.. وقال النفر ليبعد عن نفسه شبهة الدفاع عنى: معلـــوم.. مـــن يومها لم أعول على الأصل أو أحطه فى حسابى. وقلتها لكل من يجهلهـــا: أصلك فعلك.. «راحت أيام اللمة فى مندرة الحاج عوف الكبيرة.. وجدى مصـــطفى يجلس فى صدرها بطلعته المهيبة وأبى وأعمامى يتكورون على الدكك وكـــأنهم تماثيل مطوية أخذ منها الجد كل الشموخ والمهابة وتركها منكمشة على روحهـــا.. ونحن صغار وكثار نجلس على الأرض بين أقدام آبائنا نسمعه يحكى.. عـــن أصلنا الممتد حتى سيدنا الحسين.. وتنتفخ صدورنا الصغيرة ونكبر ونوشك أن نطـــول ركـــب آبائنا الجالسين على الدكك.. ولما نمشى فى الكفر ندب الأرض غـــير هيابيـــن ولا الشياطين الرزق مثلما يفعل أعمامنا فى غيبة الجد مصطفى، نتســـابق فـــى قطع فروع التوت والسنط والليمون نعملها عصيا رفيعة هى طول قاماتـــنا ونمشـــى فى دروب الكفر نفرقع ونضرب أولاد شلبى بدون أسباب سوى

رغبتنا فى الضرب.. ومادمت أشتغل مع الأنفار فأنا نفر.. وسيدنا الحسين النائم فى قبره فى مصر قريبا من المكان الذى قتلوا فيه عبد الحميد نفض يده من أمر نسله الذى لا يحصى له عددا.

«ويحكى جدى مصطفى عن جماعة شلبى بسخرياته المعهودة.. كيف جاءوا إلى الكفر وتسللوا بمسكنة نفرا نفرا دون أن تعرف عن أصلهم أصلا.. يتاجرون فى الملح والدخان والتمر وأحيانا القماش.. وأشياء أخرى كثيرة يحملها الواحد منهم فى خرجه الذى على ظهره كالحمار.. ويحكى كيف أن جدهم لما اشترى حمارا وحط عليه خرجه راحت جماعتنا تتندر عليه شهرا وتسخر.. ويتفرجون عليه ويقولون له: ربنا فرجها عليك.. ولما تزايدوا فتح الرجل دكانا جعله مخزنا لكل الأصناف التى نشتريها من البندر.. بعدها اشتروا أول فدان من ناس الكفر غير جماعتنا.. وعملوا جنينة ويظل يحكى حتى يصل بنا إلى ختام حكاياته عنهم فيسأله عمى إبراهيم وهو أكبرهم سنا كيف أنه باع لهم أرضا من حوضنا فيطرق متفكرا أو آسفا ثم يقولها.. الكريم لا يضام ثم: الحريم.. أس البلاوى.. الحريم يا بنى.. لو تل مال ينتهى.. لو قوة ثور تهد.. لو عقل واعى يخف وكله من الحريم.. ويجلس عمى إبراهيم وكأنه تلميذ شاطر فى الكتاب.. ونحاول أن نعرف المزيد عن الحريم وكيف إنهم أس البلاوى، ما دام يعرف ذلك فكيف رضى لنفسه بمعاشرة الأربعة فى آن أحد.. ويتابع هو دون أن يسأله أحد هذه المرة بينما الضحكة تملأ شدقيه وكأنه سليمان الحكيم فى المصحف الشريف.. يا ريت سيدنا النبى خلاهم تسعة أو حتى عشرة.. الحريم يا أولاد دنيا بحالها لا لها أول آخر.. اللهم صلى على سيدنا النبى.. علقهم فى رقبته كمسبحته وقال: اعدلوا بينهم.. النبى عليه السلام تزوج إحدى عشر والمسبحة المباركة ثلاث وثلاثين حبة.. ويا بخت من عنده من العيال سبعة كما سيدنا النبى.. ونحصى عدد من خلفهم جدنا فنجدهم عشرة فنعجب لأنه زاد على سيدنا النبى.. ولما نخرج من المندرة نلعب نقول لبعضنا أننا لما نكبر نتزوج أربعة مثل جدنا ونبيع الأرض وندخل الدنيا الكبيرة التى يكلممنا جدنا عنها.. عبد الحميد وحده كان يعارض ويقول فى جرأة رجل عاقل ومتزن:

- يا ولاد دا راجل عجوز وبيخرف.. دى الأرض طالعه من حبابى عنيه.

ونعارض عبد الحميد رغم أنه أكبرنا وحافظا للمصحف. فيقول مرة أخرى:

– والمصحف الشريف الراجل بيدارى حسرته وخيبته وبيضحك عليكم.

والفـرع مـال يا حاج مصطفى يا عوف والبخت أيضا.. حفيدك يضم الأرز عـند الأغـراب بالأجـرة وسط التملية، وكانوا فى غيطك ودوارك مثل المواشى نركبهم لو طلبنا.. والخولى قالها وصدقته: أصلك فعلك.. حتى أبى لما جاء مصر لـم يسـألنى عن قاتل عبد الحميد.. أخذنى ورجع كالأرنب.. وكنت أحسبه سوف يـأتى بشـمروخه ليضـرب القاتل ولكنه أتى يخوفنى ويرجعنى لصالحة.. وقلت لـروحى يومها، راحت هيبتنا وقوتنا وأصبحنا كالحريم نبكى على الأموات ونندب واغتظـت منه لأنه سمع الحكاية ولم ينتفض ممسكا بشمروخه ويرمح مطالبا بدم ابـنه، وفـى الكفر عاش ناعما مدة من خزيه، لكنه استعاد حماسه معى واندفع يضـربنى بغـل فكسـر دراعـى وقطع عرق الصبا.. «كأنك كلب يا أبى لا تبين شـطارتك إلا فـى كفرك».. والجرح كان يعل على ويوجعنى بينما اشتغل فى عز الحر فالعنه.. أقول لنفسى لما أحس التعب يتسلل إلى أطرافى.. مصر أرحم.

* * *

الآن أهبط.. أهبط فى جوف الذكريات على مهل.. أستعيد سيد.. أهرب من موته المكذوب المقدمات.. أراه حيا قبالتى.. الغذاء الأخير بيننا. حلاوة اللقمة بعد غيبته عنى شهرا.. قال سيد:

– نفسى أدوق البامية بالفراخ.

ذبحـت ديكـا ونظفـته.. جـاء من السوق حاملا بطيخة وخضارا.. قال: أسـاعدك؟ قلت لـه: ارتاح أنت.. قال: أساعدك.. عصر الطماطم وخرط البصل.. وضع لنفسه فى الحلة بصلة مقشرة.. خرج مدة وعاد وكشف الغطاء.. سألنى إن كانت البصلة قد استوت «يا ناصح.. تعملها حجة من أجل الحوائج مثل كل مرة» كنت أعرف نواياه وقلت وأنا أضحك محاولا أن أبدو حازما وجادا: غطى الحلة يا حرامى الفراخ. قال: أشوف البصلة، أخرجها مع الحوائج ورأس الديك وهو ينظر إلـى متصـنعا الخوف. «لو كنت أعرف أنك ترضى لأخرجته لك كله تأكله وأراك فأشـبع» قال: خذ قطعة كبد.. قلت: كلها.. أخذ الطبق فى يده وراح يدندن بأغنية مرحة.. «تحب الكبدة وتكتفى بجزء منها وتصر فى كل مرة على وضع الباقى فى فمـى خلسـة «سـألنى. حلوة؟ قلت وأنا أمضغ ما وضعه بيده فى فمى.. الأكل

استوى.. قال: رائع، وراح يغرف، قعدنا نأكل.. كان اللحم حلوا.. دائما لما آكل مع هذا الولد أحس طعما حلوا للأكل وقدرة على ابتلاعه.. من غيره لا تنزل اللقمة من الحلق براحتها.. أكلنا وانبسطنا راح يحكى بينما يجفف يده المغسولة.. قال. هات السكين.. بدأ يقطع البطيخة ببطء من عند القمة.. يسألنى: تراهن.. راهنته.. قال: أعرف أنها حلوة.. كانت حمراء وحلوة.. أكلنا ونحن نحكى.. قال: ندخل السينما؟.. أضاف: فيلم فرنسى جديد وعليه زحام فى مصر.. قلت: ندخل.. قال فى الطريق: أقرأ لك الترجمة حتى لا تتضايق.. ذهبنا.. كان الفيلم عجيبا وسيد يفسر لى بصوت خافت كل المواقف الصعبة.. لما خرجنا كان يكلمنى عن الفارق بين السينما المصرية والسينما الإفرنجى. قلت: كانت الأفلام العربى فى أول الأمر أحسن منها الآن.. قال فعلا.. سألته عن السر فقال لى: الدجل واللصوصية.. سألنى أن كنت مبسوطا فقلت: جدا.. سلم على جماعة من أصحابه فى سكة البيت.. لم أفكر فى النوم ليلتها.. كنت مرتاحا معه.. كل ما يقوله يشرح الصدر.. كان يدخن أحيانا وكل مرة يقدم إلى سيجارة فأقول له إننى أفضل تدخين المعسل.. وأحط الفحمة على النار ولما تستوى أرص الحجر وأدخن.

- ما تشوفلك عروسة بنت حلال يا سيد يا بنى.

قال وهو يتعجب:

- ولزومه إيه؟.. الجواز فى الزمانده وربطة.

قلت وأنا أدارى عجبى:

- يا بنى دانا راجل كبير ولولا الملامة أعملها. قال ضاحكا بسخرية العارف مغزى ما يقال:
- اعملها ولا يهمك. «اعملها يا سيد؟ مرة أخرى؟ غايتى أفرح بك أنت..»

كان يبدو صافى الذهن مطمئنا.. كنت أحس قلقا.. لا أعرف كم عمره بالضبط.. فات الثلاثين منذ مدة.. ربما خمس سنوات فاتت.. لكنه بدأ يكبر وشعره يشيب.. «ربما يذهب إلى الكفر باحثا عن واحدة من هناك. وبنات مصر هناك بنات، لكنه لدغ من جحرهن مرة.. كيف يصبر؟ فى أيامى كنت قد خلفت وأنا فى سنه صالح وسيد وتزوجت بعد أمه..» قلت متشككا فى صدق ظنونى:

- إوعى تكون ماشى فى الخسارة.

قال ضاحكا مستهينا بأفكارى:

- أبدا..

أضاف وكأنه يبرر نفسه:

- تعرف ماهيتى كام؟ والمهر كام والشقة بكام؟ الزمان ده له طعم تانى.

«لو سمعت كلامى من أول شهر ووفرت مبلغا كما قلت لك ما قلت هذا الكلام.. ولو كان عندى شىء يباع لبعته وزوجتك.. لكن ما باليد حيلة. أحسست الهم فوق صدرى ثقيلا بالعجز عن مساعدته.. تخفف عنى الهموم بسمته المطمئنة.. قلت له:

- مش عايز منك حاجة يا سيد.. بس دبر أمورك أنت.

قال متأففا:

- سيبك من الموضوع ده.. بعدين نتكلم فيه.

وسكتنا مدة.. بدأنا نثرثر.. أحيانا أحس أن الموضوعات التى يكلمنى عنها لم نعد تهمه.. أسعار الخشب، أنواع المسامير، نقص الخامات، ما له بهذه الأشياء؟.. أنه يفتعل الحديث معى.. كنت أحس هذه المسألة ببطء.. الآن حدث أن أصبح كل منا فى واد.. ضاعت مواضيعنا المشتركة.. مع من يتكلم بحريته هذا الولد؟» قلت دون أن أدرى:

- واسمها إيه دى.. اللى.. اللى كنت بتحكى لى عنها.. زمان.. كنت بتحكى عنها زمان؟..

كنت أعرف حكايته مع البنت التى كف عن الحديث عنها رغم حماسه القديم لها «ربما ضحكت عليه.. كم سنة فاتت وهو ساكت لا يحكى؟».

قال وهو يخرج علبة السجائر ويتناول واحدة.. يشعلها مجاهدا نفسه لرسم ضحكة على شفتيه تشى بأنه لا يرضى:

- كل سنة وأنت طيب.

- يا بنى عرفنى.

قال ممعنا فى رغبة الفرار من الاستمرار فى الكلام:

- تعرف الأمريكان؟.. نزلوا القمر وحطوا علمهم فوقه.

- عرفت أنه يهرب... تركته يهرب

«وأنــا لو سعدنى زمانى لاسكنك يا مصر.. وابنى جنينه ومن جوه الجنينة قصر».. قالها عمى إبراهيم فى لحظة تجل وكان يتمدد تحت الجميزة العجوزة فى طــراوة العصــر.. فى لحظة تجل راح فيها يسب الكفر وناسه «وأنا رجعت لك يا مصــر.. لا أطمع فى بناء القصر ولا حتى السكن.. غريب جاء يزور قبر أخ لــه دفــنوه يومــا فى جبل الدراسة.. فافتحى للغريب صدرك» قابلت الشيخ سعد فى الجــامع وقلت لــه أخبارى وأخبار الكفر.. سألته عن أخباره وأخبار مصر فقال ملخصــا مَــا يراه: «سعد زغلول طلعوه الإنجليز ومسك الحكومة.. والمظاهرات خفت والأحوال هدأت لا عراك ولا مشاكل.. «قلت لــه يبحث لى عن عمل فسكت. كنــت أدور طوال اليوم وأرى فى العيون سكونا وصمتا.. منهزما أى منتصرا لا أعــرف.. سكون ما بعد المعركة التى يدخلها الإنسان لما ينهج ويتوقف مستعيدا أنفاسه.. ربما ساعتها لا يقيس الواحد ان كان قد فاز أو انهزم.. المهم أنه واقف يستعد مرة أخرى أو يقول لنفسه كفى.. «وأنا كنت أحسب أن المظاهرات مازالت والناس تتعارك مع الإنجليز.. إنهم يتمشون اليوم فى الشوارع باطمئنان مستتب. ويتكلمون مع أولاد العرب وكأنهم أولاد عم.. أتفحص وجوههم بينما أصادفهم فى مشــاوير البحث عن عمل.. وكأننى سوف ألتقى فى لحظة بوجه قاتل عبد الحميد وأتعرف عليه.. «ولو رأيته يا ولد.. تعملها وتتعارك معه وربما يتعارك الناس من أجلــك. أم تتفرج عليه وكأنه لم يقتل؟؟ أبدا.. تتعارك وما يجرى بعد ذلك يكون» كــانوا يتشــابهون فعجــزت عن فرزهم والتعرف على نفر منهم.. نفس العيون الملونة والوجوه الحمراء.. والرطانة غير المفهومة.

وجــدت مظاهرة صغيرة يهتف على رأسها ولد أسمر نحيل لكنه متحمس.. الشــيخ سعد شغلنى فى مخبز قريبا من مسكنه.. وبعد أيام رأيت الولد الأسمر.. هــذه المــرة كنــت ممسوكا بلا سبب. كنت أحمل قفص العيش الفارغ.. وجدت البوليس المصرى يرمح فى أثر الناس.. قالوا مظاهرة يفرقوها.. كنت أرى رجال البولــيس يضــربون مــن يصــادفونه.. اغتظــت لأن مصر كانت تضرب مصر والإنجلــيزى يأمــر.. ظللــت واقفــا مكانى تحت البواكى. جاء عسكرى مصرى وضــربنى بالشــومة وشدنى.. لما حاولت المقاومة قائلا أننى لم أعمل شيئا جاء آخــر وآخر وانهالوا على ضربا.. أخذونى فى البوكس مع الجرحى والممسوكين أمثالى.. راحوا بنا للمحافظة.. حطونا فى الحجز..

دخلت فجلست.. لما حاولت أن أقول لناس التخشيبة أننى لم أشترك فى المظاهرة ضحكوا أولا.. لما أكدت كاد أحدهم يضربنى.. قال «دسيسة» كدت أتعارك معه.. شفت الولد الأسمر يشق لنفسه مكانا ويقف.. نظر إلى.. سألنى بسرعة:

- أنت من الغورية؟
- قلت له: نعم..
- قال: شفتك..

كنت قد نسيته.. تذكرته بعد مدة.. قال:

- هى المظاهرات عيب؟
- قلت: لا.

فى الحجز جعنا.. جاءنى إسماعيل.. قال بثقة غريبة:

- هات كل اللى معاك.

كان معى ريال حوشته وقرش.. مددت إليه يدى بكل ما معى.. قال:

- لما تخرج تأخذ الفلوس دى..

نادى العسكرى، أعطاه فلوسا أخرى وطلب منه أن يشترى أكلا وسجائر. أكلنا جميعا فى الحجز.. أصبحت أحب هذا الولد إسماعيل.. فتحت له قلبى.. قلت له حكاية عبد الحميد.. قال: خذ حقك.. سكت.. كان يبدو رئيسا فى الحجز.. ضربونا نفرا نفرا فى صالة المحافظة.. كلما يتناول إسماعيل شومة يشتم أكثر.. البوليس المصرى والإنجليزى والوزارة.. لما ضربونى ظللت ساكتا رغم قسوة الضربات.. قال إسماعيل بعد أن ضربونا ورجعونا..:

- كلها ساعتين ونخرج..

سألته لماذا كان يشتم.. قال:

- بدل ما أقول آه ألعن سنسفيل جدودهم وأهو كله صوت طالع من الحلق.

عرفنى إسماعيل مكان شغله.. كنت فرحان بمعرفته.. لما رحت للشيخ سعد وعرف الحكاية غضب منى قال لى: لا تحشر روحك فى المظاهرات مرة أخرى.. حاولت إفهامه فلم يفهم.. أضاف: مرة أخرى ليس لى بك شأن.. عجبت.. قال محاولا أن يغير الموضوع: زواجك من صالحة كان غلطة لا يساويها إلا هربك من

الكفر بعد أن خلفت ولدا.. قلت هو لا يريد معيشتى معه.. لو كنت أستطيع تأجير سكن لأجرته.. أريحه منى وأرتاح من تكرار وعظه وتخويفى من أبى.. كأنه يعيشني على حسابه..

لما قابلت إسماعيل فى القهوة التى يشتغل بها رحب بى وطلب لى شايا.. قلت له: شف لى سكنا.. سألنى عن السبب.. قلت له كل شىء.. عن الشيخ سعد وأبى وصالحة وشغلانة الفرن.. قال: مادمت غير مرتاح معه فت له السكن، تعال اسكن معى.. قال لى: ما دمت تركت البلد طلق البنت تشوف حولها.. قلت له: معقول، أطلقها وعلى رأى المثل «إيش ياخد الريح من البلاط؟».

كان سكنه فى بيت قديم قريبا من القلعة ناحية الجبل..آجرة ضيقة ليس بها غير حصير قديم وبطانية وبعض الأوانى غير النظيفة.. قال:

- هى الحتة لو أمان كنا نشترى سرير شركة.. بس مليانة حرامية..

خفت.. قال مهونا الأمر.

- ولا يهمك.. اشترى لك مطوة زى دى.. لو حد اتعرض لك طلعها.

أفهمنى أنه من الممكن أن أشتغل معه فى القهوة وأترك المخبز حتى لا يعرف الشيخ سعد عنوانى.. قلت كل شىء معقول إلا حكاية السكة.. قلت له وأنا أستعيدها:

- دى السكة مقطوعة فعلا.

قال مهونا علىّ الأمر:

- من بعد القسم وشارع الترماى بس.. خليك جدع أمال.

كنت مترددا لكن معاملة الشيخ سعد كانت تتميز بالفتور.. قال مرة «بعثت للجماعة والأولاد» فهمت منه أنه ينوى أخذ امرأته فى مصر بعد أن تركها لسنوات طويلة واكتفى بالسفر كل مدة.. ربما ضاق بمعاشرتى وخجل منى لأنه يضطر أن يعرفنى بأصحابه على أنى قريبه متحاملا على نفسه من سوء حالى.. قلت لنفسى أسكن هنا وأفوت للشيخ سعد سكنه.. ونقلت سبت الملابس إلى حجرة إسماعيل وكانت السكة ساكتة والظلام يخيف.. اشتريت مطوة كما قال إسماعيل وشلتها فى جيبى من باب الاحتياط، وكان إسماعيل يشتغل وردية الصبح وأنا أسهر أحيانا حتى منتصف الليل ولما أرجع أجد إسماعيل جالسا على الحصيرة

يدخـن الحشيش وكل مرة يقدم إلى الجوزة فأدخن ولما أتوه يضحك على ويقول «فـلاح».. ولم يكن يضايقنى شىء أكثر من مشوار العودة فى السكة المقطوعة وكلما أقول لإسماعيل نسكن فى مكان آخر يقول إنه مناسب ولا يرضى..

كنـت راجعا من الشغل وأمشى فى شارع شيخون فى اتجاه القلعة.. وجدت نفـرا يـتطوح سـكران عند السبيل فأبطأت خطوتى ولما حصلنى وجدته يكلمنى بكلمـات غير مفهومة ويشتمنى بعربى مكسر.. «إنجليزى وسكران وترمى بلاك علـى خلق الله؟» لم أرد.. مشيت فى حالى.. عاد يتطوح فى خطواته ويبتعد عنى ثم يقترب.. سبقنى بخطوتين. لو كانت لى سكة غيرها لمشيت منها.. توقفت مدة «ابعـد عن الشر وغنى لـه كما يقول المعلم».. كان واقفا فى مكان معتم وكأنه يقطـع سكتى.. سألنى عن سر تأخيرى حتى هذه الساعة، فهمت كلامه بصعوبة قلت له:

– أشتغل فى قهوة في المغربلين تشطب في منتصف الليل،

شتمنى واتضح أنه لا يفهم ما أقوله.. وعاد يمشى فى اتجاه القلعة.. سبقنى بمسـافة وأنـا بـدأت أتسكع حتى لا يرانى ويضايقنى.. تذكرت المطوة.. اطمأن قلبى.. قلت لنفسى: لو كنت تذكرتها لما كلمنى وشتمنى ما خفت منه.. كنت أمشى بجـوار الجامع فى العتمة.. انتصب عبد الحميد قبالتى بوجهه الذى ينضح الدم.. كانـت التقاطيع واضحة رغم غطاء الدم الذى ينزف من الجبهة.. ارتعبت.. طنت فـى أذنـى كلماتـه: اقتله يا حسن وريحنى فى قبرى.. «راح بعيدا.. لو حصلته وحاولت ربما يقتلنى لأنه مسلح وسكران.. تخوفنى يا عبد الحميد وأنا جئت مصر أزور قبرك؟.. أخاف أعملها.. أبوك لم يعملها.. إسماعيل قال لى المطوة تحميك.. مـن اللصوص، لكنه لم يذكر الإنجليز السكارى.. عاود عبد الحميد كلامه بصخب أشد.. اقتله وفك قيدى، المطوة.. المطوة «أخرجتها من جيب الصديرى وفتحتها.. عند منحنى ضيق ومعتم تماما كنت أتحسس أنفاسى بأذنى.. كان يدندن بلغة غير مفهومـة.. ربمـا هـو قاتلك يا عبد الحميد.. لا يهم.. حتى لو كان غيره، أولاد كـلاب. إسماعيل يكرههم.. حاذيت الرجل تماما.. تأخرت خطوة واحدة فأصبحت خلفـه.. بـرق شعاع خاطف.. لم أعرف من أين أتى لكنه أضاء حولى فرأيته.. أشـاح بيده وكأنه أفاق لنفسه وأمرنى بالابتعاد عنه لكنه كان ساكنا.. «ابتعد عنه

يـا ولـد أحسـن لك.. إسماعيل بات فى التشخيبة من يومين لأنه تحرش بواحد إنجليزى مثله.. سأقتلك وليس لك دية، ركبنى شيطان مخطط بألف لون ولون.. «السكة مقطوعة والمطوة فى يدك وهو سكران ولا يدرى.. لو قاوم اجرحه واهرب.. لو كنت أقوى منه خلص عليه ولا من شاف ولا من درى.. من الخلف.. امسكه من الخلف.. اخنقه واضرب.. «كتمت أنفاسى.. لم أعد أسمع غير صوته وحده يدندن مبسوطا، لم يراع ما يدور خلفه.. «ليلتك سودة».. بسرعة أمسكته من رقبته.. جعلتها محبوسة بين الذراع والزند.. مت عليها.. أخرج صوتا خافتا لكنه ذاب فى الفراغ المعتم.. غرزت المطوة فى جنبه.. غاص طرفها فى لحمه.. نزعتها وعاودت غرزها.. ونزعتها وغرزتها.. بسرعة، بسرعة وهو يخور كعجل جاموس «جرب يا حلوف طعم الموت.. الموت» فشلت محاولاته فى حماية نفسه.. بدأت تقل وتنعدم.. كف عن الحركة.. أحسسته ثقيلا فى ذراعى.. كان صامتا تماما.. أنفاسه كفت عن الهمس أو الأنين.. تركته يتهاوى على الأرض نزعت المطوة من جنبه ومشيت.. وجدت زقاقا جانبيا فانحرفت ناحيته.. كانت المطوة فى يدى غارقة فى لزوجة الدم حتى مقبضها وراحتى تستشعر اللزوجة والدفء.. نسمة الهواء تجعل الدم يبرد ويبرد.. لم أعد أطيقه «دمه زفر.. ونجس».. فركت راحتى بالرماد وفركت المطوة أيضا ووضعتها فى جيب الصديرى.. سرت متلصصا.. همس عبد الحميد فى أذنى هذه المرة مرتاحا.. قال: جدع.. ريحتنى.. لم أكن أعرف من أين أصل إلى البيت لكنى وصلت.. شىء ما كان يشدنى ويحركنى فى اتجاهه.. وجدت إسماعيل جالسا على طرف الحصيرة يدخن الحشيش.. لم يلاحظ بقع الدم التى لاحظتها أنا فى الضوء الخافت.. خلعت الجلباب وتاويته فى السبت.. جلست أدخن.. «لو جاءوا ليأخذونى الآن أقتل نفرا غيره وأكون أخذت حقى وحق عبد الحميد أيضا ويادار ما دخلك شر..».

صحانى إسماعيل فى الصباح لأفطر.. قال: اشتريت الفول والعيش فقم، قال وهو ينظر إلى بت عريان فى البرد.. سكت.. سألنى عن سر الدم فوق جلبابى قلت محاولا خداعه:

– حرامى طلع لى.

غمز بعينه وكأنه رآنى أعملها.

- تقصد إنجليزى؟ وفيها إيه؟ دا مات.. ولا يهمك كلب وراح.. فتشته؟

قلت لإسماعيل أستفسر: يمسكونى؟

قال بهدوء:

- ركز.. ماحدش عارفك هنا.. إن كنت خايف زوغ يومين.

سألته:

- أروح فين؟ أصلى غريب.

قال بضيق:

- غريب إيه وبتاع إيه يا جدع أنت؟؟ كلها بلاد مسلمين.. دا اليهود عايشين فيها.

سكت.. قال بحماس:

- ما تبقاش كمشان كده وخايب.. واتلحلح.. اسمع.. روح إسكندرية، لما تكون بطال اسأل على أكل عيشك هناك.. صاحبى يمكن يلاقى لك شغل.. بس ارجع تانى.. اوعى تقول غريب.. دى مصر واسعة ومساعية كل ملة.. مد يده بجنيه قال:

- خذه وسافر..

قلت:

- لا..

قال:

- خذه.. وأضاف:

- إنما شاطر والله العظيم.. أغطس يومين ولما ترجع آخذ منك الجنيه.

كنت مبسوطا من كلام إسماعيل وأحس لأول مرة بأننى فى بلدى بحق.. «مصر واسعة». وفى الطريق إلى باب الحديد كنت ماشيا بجلباب إسماعيل المخطط وكلما رأيت نفرا منهم أبتعد عنه وأمشى من الناحية الأخرى.. ركبت القطار بلا تذكرة ودفعت الغرامة.. وكلما ابتعد عن مصر أرتاح وأهدأ.. ونزلت إسكندرية وكان معى عنوان صاحبه.

* * *

قال لى ولد فلاح لا أعرفه:

- ازيك يا عم حسن

قلت له: أهلا وسهلا، سألته عن أحوال أبيه.. قال بحماس وفرح:

- بيسلم عليك، سيد كان حدانا من يومين.

«تذهب إلى الكفر دون علمى يا سيد.. يا نخلتى التى زرعتها وسقيتها ولما كبرت مالت وظللت على غيرى».. سلمت على الولد وسرت وحدى «قلت له لا تذهب إليهم.. لكنه عاندنى.. فى الشهر الفائت قال لى: لا أذهب.. يضحك على بكلمتين ناعمتين وينفذ رأيه.. أعرف أخباره من الناس صدفه. كلامى ما عاد يعجبه أو يرضيه.. كلما تكلمنا فى هذا الموضوع يسكت.. فى دماغه كلام يحرص على إخفائه.. ينظر إلى ولا يتكلم.. يضحك على بكلمتين فارغتين ويمشى قائلا إنه مسافر مصر.. ويسافر الكفر.. هو حر.. أنا نبهته.. دماغه طاقق.. أبدا.. عقله فى رأسه يعرف خلاصه.. هو حر مالى وماله.. يظل شهورا يتشكى من قلة الفلوس فأمتنع عن أخذها منه.. يحسبنى أستجدى.. فى المرة التالية لن آخذ منه شيئا.. لو أعطانى أرفض.. تغور فلوسه.. مازلت بصحتى وأستطيع أن أعيش معتمدا على نفسى. العوض على الله فى شقائى وتعبى.. يذهب إلى شوق.. مرة جاءنى مع ولد منفوخ.. قال يعرفنى به:

- شاكر.. أخى..

قلت لنفسى:

- ابن شوق.. لكنه ثقيل الدم.. قلت لسيد أسأله:

- طالع فيها قوى على إيه؟

قال ضاحكا:

- غلبان

«كلهم عندك غلابه.. صالح غلبان.. شاكر غلبان.. لاتعرف عدوك من حبيبك كبرت وعقلك مازال صغيرا.. قلت له: خللى نفسك عزيزة عليك.. ضحك من كلامى. لو قلت نكته ما ضحك بهذه الصورة.. دائما.. تضحك.. يحسب نفسه متعلما ويفهم. ماذا علموه فى الجامعة.. الهبل وعدم الدراية أو الإدراك.. ومن لا يطاوعنى لا يكون ابنى من صلبى.. ربما ابن حرام.. ابن حرام جاء وضحك على وجعلنى أربيه وأعلمه وآخرتها لا يسمع الكلام.. هو حر.. مالى به.. أولاد حرام

هــو وصــالح.. يأتى ليطمئن على أحوالى فى الشهر يوما ثم يمشى.. لما طردته جاء بعد شهرين.. ليته ما جاء.. كنت ارتحت منه.. قلبى حن عليه لكنه لم يفهم.. لــو جــاء أطرده وأضربه أيضا.. ليس كبيرا على شىء.. أنا كبرته وعملت لــه قــيمة.. مــن غــيرى كان يضيع فى الشوارع.. صالح يأتى ويبوس يدى فى كل مرة.. لم أعمل لصالح شيئا.. ربته أمه وجده.. أنا ربيت سيد وحرقت دمى لأجله لكــنه ينســى.. ابن شوق ليس من جماعتنا.. من جماعة شلبى هو.. صالح من صــلب جماعتــنا.. لو كان يروح لصالح لهان الأمر.. أخوه.. أما شاكر هذا.. لو يحــن قلــبى علــى صــالح يوما.. اسأل نفسى لماذا أرتاح لهذا الولد ولا أطمئن لصــالح.. عوضــى على الله.. لو أنسى ما فات.. لو أنسى.. هو حر.. يذهب إلى الكفر ولا يعرفنى.. يكذب على لما أسأله.. يعرف كيف يضحك على عقلى بكلامه.. مــرة أخــرى لــن أصــدقه مهما قال.. يكون على حق أحيانا.. مسألة صالح.. صحيح.. لابد أن أنسى.. قال سيد مرة: حاول أن تنسى ما جرى.. افتح قلبك له.. لكــن كــيف يفتح الواحد منا قلبه المسكوك؟ بالكلام؟ لما يأتى أسأله.. كيف افتح قلــبى المســكوك لصالح.. أحيانا أحن عليه.. أود لو أزيح جدارا بيننا أراه لكنه يحجبنا.. لما يأتى سيد أسأله.

* * *

ولما نزلت إسكندرية وجدتها غريبة.. إسكندرية أخرى غير التى جئتها مع عــبد الحمــيد.. ربما أنا الذى كبرت لأننى أطل إليها بجسارة غير هياب كما كنت أنظــر إليها أول مرة.. خوافا ضربه ولد أسمر خاف حتى عن رد إهانته بالضرب واكــتفى بالشتيمه.. اليوم أراها بشكل آخر.. ربما كلام إسماعيل.. لست غريبا.. ســألت عــن عــنوان الرجل حتى وجدته.. كان يلبس معطفا صوفيا فوق جلباب بلدى.. له وجه ضاحك.. قال أهلا وأى خدمة.. أعطيته جواب إسماعيل فرحب بى بحمــاس وقال وعلى وجهه بسمة ندية كنسمة فجر تشرح الصدر.. أحيانا يرتاح الواحــد منا للناس هكذا ولا يعرف لذلك سببا. هذا الرجل له شكل مريح وابتسامة تجعــل الواحد مطمئنا إليه.. قال: أهلا بك.. نورت إسكندرية.. جلس يحدثنى بود وكأنه يعرفنى هو أيضا منذ سنوات طويلة.. سألنى عن أحوالى.. عن بلدى.. عن أهلى.. ذكرت له كل شىء، قلت له وأنا أستحضر ما قاله إسماعيل لى عن الشغل:

- ماتشوفلى شغلانه كده آكل منها عيش..

نظر إلى وسهم وقال بيسمته العريضة:

- أنت ضيفنا.. ترتاح يومين وبعدين تشتغل.

أحسست أن فى الجو شيئا غريبا.. كانت الفلوس معى لا تكفى أن أرتاح يوما.. أخذنى إلى حجرة بها سرير وقال: ارتاح من السفر.. مر يوم.. قلت له أشتغل.. قال ارتاح يومين قلت لنفسى: بنى آدم ثقيل.. خرجت أبحث عن الشغل.. لما رجعت إليه سألنى أين كنت.. قلت له: لم أجد شغلا.. أسافر مصر.. قال:

- يومين كمان لحد المسألة ماتتوه.

«أنت تعرف إذن حكايتى يا رجل.. تفتح لى بيتك.. غيرك يبلغ البوليس. لكن كيف عرفت الحكاية.. الجواب.. ربما جواب إسماعيل..»

فى صباح اليوم التالى عرض على فلوسا.. قال:

- من جنيه لعشرة..

قلت:

- معى أجرة السفر..

قال:

- أرنى..

لم يكن معى غير قروش قليلة.. قال:

- خذ ولا تعمل فارقا.. كلنا فى الهواء سواء.. بلدنا والكلاب نجسوها.. وأنت تستحق المساعدة،..

أخذت منه.. «يتكلم عن بلدنا.. فى البدء كنت أحسب أن بلدنا هى الكفر.. خارج الكفر لم يكن يخصنا فى شىء.. فرحت لما ضربنا رجال العزبة.. فرحت واعتبرت أن بلدنا كسبت العركة.. بلدنا.. أحسست أنها كبيرة كما قال إسماعيل.. كبيرة وفسيحة وممطوطة ولى فيها أصحاب.. إسماعيل فى مصر وعبد الكريم فى إسكندرية..

قال عبد الكريم:

- يكون أحسن لو اشتغلت فى مصنع القزاز شهر أو شرين.. بعدها ارجع مصر واشتغل مع إسماعيل.

غمـز بعينـه وهـو يذكر كلمة الشغل فعرفت ما يعنيه «شغل مع الإنجليز يريحهم من هموم الدنيا»..

أخذنى عبد الكريم لواحد أفندى.. عينونى فى مصنع الزجاج.. ولم يرض لى بالسكن بعيد عنه.. وكل مدة لما أقبض أحاول أن أعطيه أجرة السكن فيرفض وفى عينيه لوم يقولها: أنت ضيف والناس لبعضها.. قال مرة ونحن نتعشى.. إسماعيل بعث يطلبك ويطمئنك على الموضوع.. المسألة نامت، لكن من رأيى تنتظر شهرا آخر.. وجاء جواب من إسماعيل قال فيه إنهم رفعوا قضية نفقة وبعثوا الإعلان على القهوة فلم يستلمه أحد.. قلت لو رجعت مصر يكون الإعلان فى انتظارى.. الشغل هنا أريح.. عبد الكريم كان لطيفا ومحببا.. كلمنى كثيرا عن الإنجليز.. عن سر وجودهم هنا.. عن ضرورة خروجهم، وحدثنى بصراحة أنه هناك عملية مقاومة لهم تتم سرا وأن إسماعيل يشارك فيها..

قال إن الحكومة تطاردهم وكان من الواجب أن تساعدهم.. غضبت من الحكومة والملك قلت له عن عبد الحميد فقال: لكنك أخذت بثأره.. باق ثأر كثير.. ثأر البلد. قلت له: أنا معكم.. قال أنت معنا من زمن.

كنت طالعا على السلم فوجدت عبد الكريم وسط البوليس.. خفت.. رفع حاجبه وكأنه يأمرنى بمتابعة الصعود دون أن أبين أننى أعرفه.. ظللت أطلع وعبد الكريم يهبط السلم مع العساكر.. «مسكوه.. ربما قتل أحد الإنجليز فجاءوا إليه ومسكوه. ربما يجيئون ويأخذوننى أيضا.. خفت.. فاتت أيام قبل أن يأتى إلى العسكرى فى المصنع.. سألنى إن كنت أنا حسن عوف فقلت أبدا، أنا حسن عرفه.. قال: دوخنا الملعون.. من مصر لإسكندرية.. ناولته سيجارة وهدأت خاطره.. قلت:

- عمل إيه؟

قال: مطلوب منه نفقه.. الإعلان داب.

قلت: منه لله.. «من عرفهم عنوانى.. الشيخ سعد؟ ربما هو لأنه حنبلى ويعملها..» لعب فى عبى فأر منجوس.. قلت للعسكرى انتظر لما أنادى زميلى حسن عوف.. جلس العسكرى فى الاستراحة.. هربت من الباب الخلفى من المصنع.. تركت العسكرى ينتظر.. أخذت ملابسى من الشقة «جاءك الموت يا

تارك الصلاة.. الحكومة تريدك» اهرب، غلطت لما بعثت لك يا سعد عن أحوالى.. ما كنت أحسبك تعملها..

ونزلت مصر هذه المرة مغتاظا من الشيخ سعد.. قلت لا أعرفه مكانى أبدا.. رحت اسأل عن إسماعيل فقال صاحب المقهى: بطل من هنا من مدة.. رحت إليه فـــى سكنه فلم أجده.. قالوا شال عزاله ومشى.. رجعت لصاحب المقهى وقلت له أشتغل قال: يفرجها ربنا بعد أسبوعين، ولما فت عليه مرة ثانية قال: تفوت علينا بعــد أسبوع.. نزلت من الحجرة التى دفعت إيجارها أبحث عن الشغل لأن النقود خفــت وأول الشـــهر قـــرب.. عرفت الجوع والخوف لما يتسللان إلى الواحد منا فينكدان عليه عيشته.. قرصنى الجوع وطالبتنى صاحبة السكن بالأجرة فقلت أطلع أبحــث عن أى شغل.. انهد حيلى من البحث.. قلت أذهب إلى المحطة وأبحث عن شــيلة أشــيلها.. صادفنى أفندى فحل وأشار إلى قفه كبيرة على الأرض.. شلتها وســرت خطوتيـــن.. بعدهـــا ســقطت.. لفت سيقانى على بعضها وسقطت على الأرض.. وقعــت القفــه فوقى وتدحرجت.. راح الأفندى يضربنى وأنا عاجز عن القيام أو حتى الصراخ.. والناس لما التفوا حولنا يمنعونه قال لهم إننى تسببت فى كســر قدرة سمن بلدى.. وحلف لا يتركنى أبدا إلا لما أدفع له ثمنها، وجاء رجل طيب وعجوز.. أمسك ذقنه وقال له: من أجل شيبتى سامحه.. خجل الأفندى وفك طــوق جلــبابى الـــذى كان يمسكه.. سألنى الرجل العجوز لماذا شلت القفة وهى ثقيلة؟ قلت له وأنا لا أعى كيف قلتها:

- جعان.

والتفت الأفندى ناحيتى وقال لى فى إشفاق:

- بتقول إيه؟

لــم أستطع قولها مرة أخرى.. ذابت فى حلقى.. فى كل حياتى لم أقلها مرة أخــرى، أبـــدا أبدا لم أقلها.. طعمها فى الحلق مر كالحنظل.. فيها مذله وانكسار وتســليم.. طعمها مر وغير مبلوع أبدا.. لم أقلها.. قالها الرجل الطيب للأفندى.. قال الأفندى الفحل وفى عينيه شىء كالدمعة يحاول أن يداريها:

- حقك على.. ما كنتش أعرف حكايتك..

مد يده ناحيتى يعطينى نقودا.. لم أرض أبدا.. ناولها للرجل العجوز، وكأنه

يهـرب مـن غلطة وقع فيها ويصعب عليه إصلاحها.. قال وهو يحمل القفة على كتفه فوق القميص الأبيض دون أن يهتم:

- خليك معاه ياعم.

والـرجل راح واشترى لى أكلا وقال: كل.. وأنا لولا الجوع ما أكلت أبدا.. «لـو كـان الإنسـان بلا معدة.. لو كنا بلا معدة يارب، ماحسسنا بكل هذا القهر والمذلة.. لماذا كانت البطون؟ مادامت نقمة ولعنة وسببا فى الهوان يارب؟» كنت آكـل فى نهم.. الرجل العجوز يجالسنى على الرصيف رغم جلبابه النظيف ويربت علـى كـتفى فى إشفاق وحنو.. بعدما شبعت وهو يتظاهر بأنه يأكل معى، أخذنى وقال: نشرب شايا.. جلسنا فى ركن مقهى.. قال:

- باين عليك ابن ناس.
- «كلنا يا عم أولاد ناس..»

قال:

- الدنيا حجر طاحون.. يوم فى العالى ويوم فى الواطى..

قلت:

- الجوع كافر..

قال:

- الأصل فى عينيك..

قلت:

- أصلك فعلك..

سألنى عن بلدى فقلت له.. سألنى عن أهلى فقلت له.. قال

- إنه يعرف جماعتنا، يعرف جدى مصطفى بالذات.. وأنه تاجر على باب الله يبيع القماش ويلف بلاد المسلمين.. يعرف ناسها.. وراح يحكى عن نفسه كثيرا ليؤكد أنه يعرف جدى..

قال:

- تشتغل معايا ورزقى ورزقك على الله.

قلت لنفسى أجرب.. وسافرنا سويا.. حملت على كتفى أثواب القماش ودرنا فـى الـبلاد والكفـور التى يعرفها.. يعرف ناسها.. ولما فات أسبوعان رجعنا،

والرجل أعطانى حسابى وقال: الشغلانة تعب عليك وصحتك ضعيفة.. قلت له فعلا، أسافر إسكندرية وأشتغل فى المصنع مرة ثانية.. قال أحسن لك لأنك تخجل من الناس ولا تنفع فى التجارة أبدا.. وودعته وذهبت وجمعت ملابسى وعدت إلى باب الحديد ناويا على السفر إلى الإسكندرية.

عند باب الحديد لمحته.. خبطت بيدى على كتفه فى ود.. التفت ناحيتى لما رآنى أخذنى فى أحضانه.. لم يصدق عينيه.. تعانقنا.. وضعت السبت على الأرض ونسيته.. كأنه أخى ولدته أمى وغاب عنى عمرا قال بحماس:

- دوختنى عليك.. رحت لك إسكندرية

قلت له إننى سألت عنه فى السكن والمقهى فضحك.. قال مداعبا..:

- شكلك تغير أصبحت ابن بلد بحق.. بص إلى السبت

وقال:

- إلى أين؟

قلت:

- إسكندرية، المصنع، كنت أنوى الرجوع لما عجزت عن مقابلتك..

قال كثيرا عن أحواله.. سألنى عن عبد الكريم فقلت له.. قال إنهم مسكوا نفرا آخرا.. جلسنا فى مقهى قريب وذكرت له ما جرى لى..

قال:

- حظى كان أحسن.. أضاف متباهيا وكأنه لا يصدق نفسه.. فتحت محل حلوانى وبقى لى مركز.. عملت عملة وطلعت منها بقرشين تمام.. همس: ضابط إنجليزى وقع فى سكتى إياها ولما فتشته وجدت جيبه عمران، وقعت على كنز، وبعثت أطلبك لأن موضوعك نام بعد أن عمل زوبعة كبيرة..

قلت له:

- فرجه قريب..

سألنى عن وجهتى فذكرته برغبتى فى العودة إلى الإسكندرية لأرجع المصنع، قال والضحكة الساخرة تملأ عينيه فتدمعان من كثرة الضحك:

- يـا ناصـح، زمـانهم رفـدوك يا حلو، مافيش غير الدكان، والمكسب بالنص.. حتنبسط.. قلت إيه؟

قلـت فـي عقلى إنه يضحك على ويجاملنى لكنه قطع تفكيرى وأخذنى إلى مـيدان العتبة وأرانى الدكان.. عجبت لأحوال الدنيا.. قال تكتب عقد شركة؟ قلت: هـو مجـنون ليجعل لنفسه شريكا فى الملك.. قلت: أنا مطمئن وجلسنا فى ركن الدكـان وأخـذ يحدثـنى عن نشاطه خلال فترة غيابى.. قال إنه طلبنى لأنه رتب عملـية فـى كامـب إنجليزى قريب من القلعة، وإنه يحتاجنى معه لأن زميله فى المـنطقة ممسوك مثل عبد الكريم.. لما قلت له: يمسكونا قال باستهانة إن هذا لا يهم فى شىء وحتى لو وقعنا فى أيديهم نكون أخذنا حقنا ونفذنا العملية.. أفهمنى أنه رتب كل شىء وحسب حسابه.. ولما أخذنى ليكتب عقدا لشركة الدكان قلت له أنه لازوم لذلك لأننا أخوان ولو طلب رقبتى أسلمها له.. ورحنا الشقة وقال: حط السـبت وخـذ راحـتك.. وعشنا أياما وكنا نكسب كثيرا ويعطينى كل ليلة نصف المكسب بعد محاسبة العاملين.. شاركنى فى الحلوة والمرة وكان يعرف الكثير مما أجهله، حتى اللغة الإنجليزية كان يتكلمها وحاول أن يعلمنى.. وكان يحكى لى عن أنـواع الأسلحة وأسماء الباشوات وأصحاب الأملاك والباشوات، ويعرفهم بالواحد ويتعامل مع الدنيا بجرأة ولا يهتز أبدا مهما حصل لـه.. حتى لما كنت أحكى لـه عن عبد الكريم لما مسكوه لا يهتز أبدا.. وكلما قلت لـه عن العملية يقول اصبر وما صبرك إلا بالله..

- قال مرة: عندى شغلانة صغيرة أعملها وأرجع لك بعد يومين..

قلت لـه:

- أشاركك؟

فأفهمنى أنها عملية بسيطة تحتاج لنفر واحد.. وذكرنى بضرورة بقائى فى الدكان وساب المحل أمانة وغاب أياما.. كنت أحتفظ لـه كل يوم بنصف المكسب كمـا علمنى وأحس أنه سوف يأتى ويفلت منهم، والغائب حجته معه.. وفعلا جاء فى ليلة ودخل الدكان فلم ألاحظه.. ولما طلب طلبا عرفته من صوته وهللنا سويا وراح يحكى عما حصل ففرحت به وأعطيته الفلوس

فقال:

- خليها معك واستعد للعملية الكبيرة بعد يوم أو يومين
وقلت لــه:
- اتفقنا وكنت مشتاقا بكل حماستى للعمل معه فى هذه العملية..

وســألنى إن كنــت أستطيع ضرب النار فقلت أتعلم: وعلمنى كيف أستعمل الطبـنجة.. ولــيلة العملية أعطانى طبنجة واحتفظ لنفسه بواحدة وقال حطها فى جيـب البالطو - وانتظرنا حتى منتصف الليل.. كان الطريق مظلما وساكنا ولكنه كــان يعرف السكة كأنه مشى فيها عشرات المرات.. تسللنا من ناحية الجبل وكنا نرى الكامب مضيئا من بعيد.. قال إسماعيل: لو أمسكونى اهرب، المهم أن تهرب لأنك لن تستطيع أن تعمل لى شيئا، قال إنه عملها مع زميله الممسوك وأنه هرب فــى عملية مشابهة.. وعرفت أنه سوف يحرق الكامب ويحاول الهرب.. وعرفنى بمكــان فى الجبل أتوارى فيه حتى الصباح.. كل التفاصيل قالها وقال إنه على أن أطمئــن عليه فعمر الشقى طويل.. كنا نضحك.. ومن مكان معتم قال ارفع السلك فرفعته وتسلل فرفعته وتسلل هو.. كان على لو شفت عسكرى الخدمة الإنجليزى أن أشغله أو أقتله بحيث لا يصل إلى إسماعيل.. وحتى عسكرى الخدمة لم يظهر أبــدا.. واخـتفى إسماعيل فى الظلام فمسكت قلبى بيدى وخفت ثم سمعت صوت طلقــة وانفجــارات متوالية وتحركت أنوار كشافة فى كل اتجاه وكأنها تبحث عن إســماعيل.. وكانــت الأنــوار تلمع وتلف فتذكرت ما قاله إسماعيل عن ضرورة الهرب..

كـــان الجـــبل فسيحا فاتجهت ناحيته وظللت أجرى.. وفى مكان ما وجدتنى أرتمــى دون أن أفهم إن كان هذا المكان مأمونا.. أمسكت الطبنجة وانتظرت فلم يأت أحد.. وعند الفجر قلت لنفسى لو صادفنى واحد منهم أقتله وأهرب.. وكانت الســيارات تعــبر الطــريق الجبلى ولا يلتفت إلى أحد.. ووصلت الدكان وانتظرت إسماعيل دون أن يأتى حتى يئست من عودته يوما..

* * *

كرهــت أن أقول للناس إننى خلفت.. ولدين فاسدين.. أولهما يظهر الخوف فى عينيه ممزوجا بالجسارة، الإحساس بقوته الغشيمة والرعب فى حدقتى العينين ولا أعــرف كــيف.. والثانى قلت إنه عاش عمره معى فلابد أن أفهم كل حركاته

وســـكناته، لكننى عجزت عن فهمه.. يقولون إنه فسد هناك فى مصر وفاتنى هنا وغــاب.. فى كل شهر يبعث خطابا فى البوستة به حوالة «هل خلفتك يا بن الكلب مــن أجــل حوالات تبعثها فى كل شهر.. أنا خلفتك لتكون ذراعى ونور عينى لما يعجــز الــذراع والبصــر..» يغيــب عــنى شهورا ولا يأتى.. صالح صار يأتى «يحسببوننى طفلا يضحكون على ذقنه.. لعبة هى يلعبانها معا..» لما قلت له:

- أنا بدأت أحب صالح وأكرهك،

بــان فـــى عينية شىء كأنه الانتصار ففهمت.. يحسبنى لا أفهم.. أنا ربيته وعلمـــته.. لعبة مكشوفة.. يغيب هو ويظهر صالح «حتى صالح تحركه يا سيد.. ولد خبيث.. لعبتك مكشوفة يا سيد أفندى» ينسى أن الحب شىء لا يملك الإنسان صـــنعه أو منعه.. صحيح أشفق على صالح وأضيق بما يعمله سيد.. يقولون إنه دار علـــى حل شعره فى مصر.. إنه يلعب على هواه.. هو نفسه قال لى عن بنت يعرفها نسيت اسمها الآن.. لابد أنه يصرف عليها مكاسية..» كان جدى مصطفى علـــيه الرحمة يقولها لنا: الحريم.. آه يا فرعنا الخائب لماذا تمتد أطرافك المائلة ناحـــية ســـيد؟» كـــان يحكى عنها كثيرا لكنه كف.. ربما تزوجها دون علمى. لو صدق هذا الظن أذهب إليه وأكسر رقبته كسرا.. وهل أنا منعته من الزواج ليخفى عـــنى أخـــباره؟.. شتمته فعلا لكننى طوال عمرى أشتمه وأضربه أيضا ولا يفتح عينـــيه فى وجهى.. هذه المرة عمل غضبان وغاب عنى.. الآن عمل كبيرا على ولم يحتملنى.. أنا عجوز وما لم يحتملنى هو فمن يحتملنى؟ قالوا لى ارفع عليهما قضـــية فأنـــت كبير.. لكن هل من الممكن أن أعملها أنا؟.. أشتكى أولادى؟ مهما حصـــل مـــنهما لا يصح أن أشتكيهما.. من أجل النفقة أقف أمامهما فى المحكمة علـــى آخـــرة الزمـــن؟ ما تبقى لى من العمر لا يستحق الشكاية.. لو مت بعدها يلعنونى كل يوم.. ليست النفقة هى غايتى أبدا.. أريدهما معا.. أراهما وأحادثهما معا.. لا يكفى أن يأتى الواحد منهم ويختفى الآخر.. حتى سيد لما كان يأتى وحده كنـــت أفرح صحيح، إنما لا تكتمل الفرحة أبدا.. صالح أيضا له فى قلبى مكان لم يفـــتحه أحـــد.. ولما يأتى صالح ويغيب سيد أحس بأن هناك شيئًا غير مكتمل ولا مريحًا فى قلبى.. كلاهما ابن حرام.. ولدان فاسدان، كله من هذا الولد سيد.. هو الـــذى أتـــى بصـــالح فحرك المشاعر النائمة والمدفونة منذ سنوات.. صحاها من

نومها الطويل.. صالح أيضا لـــه حق عليك «قالها سيد مرة فأحسست بوخزة فى ركن قلبى.. رغم معارضتى أحسست أن فى كلامه شيئًا من الحق.. لو أننى أخذته معـــى.. لو أخذته كما أخذت سيد وربيته ربما كان يرتاح، لما جاء منذ أسبوعين كـــان يكلمنى محاولا أن يبدو رجلا لكننى كنت أراه طفلا.. أصغر من سيد نفسه.. طفـــل ضخم لـــه شوارب كبيرة يتخللها شعر أبيض.. الطفل الكبير كلمنى محاولا أن يـــبدو رجلا.. أسائل نفسى إن كنت سعيدا أو تعيسا فأعجز عن الجواب.. بعد يومين أذهب إلى الولد سيد فى مصر أشوف أحواله وبعدها أرجع.

* * *

وكأنمـــا كـــان الدكـــان الـــذى فاته إسماعيل أمانة فى رقبتى وغاب سببا.. «سبحانك يا مسبب الأسباب» الشيخ سعد كان يأتى بجبته الكشمير وعمامته التى بدأ يهتم بحسن لفها ويعوجها على جنب.. يجلس متمتما – كما يفعل الفقهاء فى البلد – بالدعاء إلى ربنا يزيدك من نعيمه.. يكفيك شر أولاد الحرام.. «ولما أقول لـــه إن الدكان ليس لى ينظر إلى مستنكرا ويقول «ومن شر حاسد إذا حسد» نافيا عـــن نفســـه أنه سوف يحسدنى، وأقول بينما يأكل قطع الكنافة بعد البسبوسة إن الدكان أمانة، فيعمل ما سبق أن عمله مرارا.. يخرج من جيبه شلنا ويحطه على الترابيزة ويقول: خد الحساب، فأعيد إليه الشلن وأقول لـــه ليس من الأصول أن تدفع وإنما أقول لك الحقيقة.. يقول هو إنه لولا اطمئنانه أنه يأكل فى دكان أخيه الصـــغير مـــا أكـــل دون أن يدفع.. وفى كل مرة يأخذ اللفافة التى أحضرها لـــه ويتاويها فى جبته ويخرج.. ما كنت أخشاه أن يدلهم على عنوانى فيصلنى إعلان طلـــب الـــنفقة عليه.. ولما جاءتنى رسالة خفت أستلمها وقلت ربما تكون إعلانا، فـــنظر إلى الرجل مستغربا وقال جواب عادى فأخذتها منه وأعطيتها لأفندى كان يجلـــس فـــى الدكان يأكل وأفهمنى لما قرأها أنها من برهومة يعرفنى أنه سوف يصـــل بعد أسبوع.. كنت أخشى وصول أبى لكن برهومة جاء وحده، ففرحت به ونسيت خوفى منهم لأن عينيه بان فيهما الود.. كان شابا باسما لـــه عود ممدود مستقيم لولا شحوب خفيف.. كان يضحك فيتمنى كل من يراه أن يكون أخاه.. قال إن أبـــى بعثه إلى لأوصله إلى حكيم يعالجه من مرض خفيف يحسه، وراح يحكى عن خناقة بين أبى وصالحه لما طالبته بأرضها:

- أبـوك قـال لها: الأرض لبرهومة واللى يخطى فيها أكسر رقبته بإيدى وأدفنه فيها.

ويشرع فى الضحك ويفهمنى أنه لابد من تقسيم الأرض بيننا مهما حصل.. ولما سألته عن قضية النفقة قال إنها تنازلت تحت ضغط أبى وأنها ربما تتزوج ابن عمها أمين.. وصدقت كل ما قاله برهومة ولما رحنا للحكيم وصف له العلاج ولم أعرف بعدها عن المرض شيئا.. وقال لى: ارجع معى فقلت لـه حكاية الدكان وأنه أمانة، فقال حافظ على الدكان ولما يظهر صاحبك سلمه لـه وارجع الكفر.. وأخذته معى وفرجته على الأماكن التى عرفتها فكان مبسوطا وأصر على عودتى للكفر ولو ليومين وارجع.. وطول مدة إقامته معى لا يجعلنى أدفع مليما فى شىء ويقـول حـافظ علـى فلوس صاحبك يا حسن.. وأنا أقول لنفسى: «عادت المياه لمجاريها يا برهومة لكن الخوف من أمك».

قال برهومة:

- أمـك خطبـت لك ووصتنى بإبلاغك.. وأضاف: تنسى ما جرى وترجع تعـيش فـى أرضك وتربى صالح والدنيا لا تدوم على حال.. وحتى لو عارض الرجل أتنازل لك عن نصيبك ويخبطوا دماغهم فى الحيط لأننى أحس الوحدة.

وكنـت أصدق ما يقوله: قلت: الدكان أمانة.. ومن آمنك لا تخونه.. أول ما يرجع صاحبه أسلمه دكانه وفلوسه وأرجع الكفر.

ولما نزلنا الكفر فتنا على أمى أنا وبرهومة.. ورحبت وقالت لى إنها شافت لى عروسة حلوة وأنها سوف تعجبنى.. سألتها:

- من؟

قالت:

- شوق بنت عبد الستار شلبى..

قالت:

- كانت صغيرة لما خرجت من الكفر وتلعب فى الشارع.

قالت: كبرت وأصبحت عروسة ثم يا واخد الصغير يا حرامى السوق.

ورحـنا لأبى فقابلنا مقابلة حسنة وسألنى عن أحوالى فقلت لـه كل شىء فضحك وقال:

- غلبتنا معاك.. اللى كنت خايف منه راح.. صالحة دار عليها سنين ووافقنا.

قلت:

- طيب على خيرة الله..

قال:

- تغور فى ستين داهية.. ما دام الأرض فى عبنا خلاص..
- ولما قلت له عن حكاية شوق

قال:

- لا مانع خذها.. عبد الستار نزيه وإن كان يبيع أرضه كل يومين فدان.

وأمى راحت هى وخالى محمد وخطبوها وقالت لى إنهم فرحوا وعزمونى أتعشى عندهم.. ولما رحت شفت شوق، كانت حلوة.. وجه مدور كصحن بنور وعود فائر وتقاطيع طفلة وابتسامتها تخطف القلب.. كانت مكسوفة لما دخلت وجلست ساكتة.. لكن أمى أخذتها فى حضنها وراحت تلاعبها والبنت تضحك ربما تقول إننى غريب عن الكفر لأننى تغيرت ولبست طربوشا ومعطفا صوفيا وجلبابا له ياقة خلافا لمن تراهم فى الكفر.. قلت لها بشقاوة ابن بلد وكأننى ألاغى بنتا تشترى من الدكان: دمك خفيف يا شوق.. فاحمرت خدودها بسرعها ورمحت خارج المندرة.. قالت أمها تلومنى بفرحة:

- كسفتها.

وقرأت الفاتحة مع أبيها وشرطنا شرطها وقلت لأمها وأنا أخرج من دارهم والفرحة تزغرد فى قلبى: خدى بالك منها.

دس فى يدى نقودا فنظرت إليه متعجبا.. كنت قد نويت على السفر وأفهمت أبى أننى سوف أرجع قريبا.. قلت له: معى قال: خذ، فلوس صاحبك حافظ عليها وسلمها له وارجع.. أخذت ما أعطاه لى وسار معى يوصلنى ويسألنى عن شوق فقلت له فبان عليه الانبساط بصورة لم أعهدها فيه، وبرهومة يغمز لى والدموع توشك أن تطفر من عينيه فأعرف أنه وراء ما حصل من تغير فى لهجة أبى «قلبك أبيض يا برهومة.. لكن قلب أمك له لون آخر.. أنت قلتها هناك فى مصر: كسروا أنفه بحكايتى وعملوه مضغة فبعثك ليصلح الغلطة «وصالح كان يمشى

معنا فى سكة البندر ويقول لى بحماس وهو يتعلق بطرف البالطو:

- اقعد معانا على طول يابا

وأنا أقول لنفسى إننى سوف أرجع لأجله ولأجل برهومة.. «وقال أبى سامحنى فعجبت لطلبه.. ولما قلت له سامحتك زفر فى ارتياح وكأننى أزحت بالسماح صخرة محطوطة على صدره.. وحكى لى عن كابوس طارده.. ثعبان كبير التف حوله وغرس أسنانه فى لحم صدره.. وكان يصرخ ويسمع الصوت يدوى: فوق لروحك يا عبد القادر وراضى ابنك الغريب. وكان يناديني بعزم صوته ويسمعنى بعيدا بعيدا، كأنما يأتى الصوت من تحت الأرض، والثعبان يضغط ويضغط وأنفاسه تضيق.. وجاء برهومة معى فخف الضغط عن صدره وانزاح الثعبان وأحس بالراحة».. وقال أيضا: إن الخير الذى أصابنى كان من أثر دعواته التى طلبها لى فى صلاة الفجر.. هو إذن أصبح يصلى؟ وكنت أضحك فى سرى من كلامه.. وسايرته.. «طول عمرك يا رجل لا تركعها، لا ترى حالى أبدا أو تسمع صوتى ولما يزورك ثعبان فى المنام تخاف؟.. تخاف وأنت مثل فحل الجاموس.. رب سلط عليه فى كل ليلة ثعبانا يقلق نومه ويخوفه مادام لا يعرف الخوف دونه.. ثعبان شراقى يلهفه فى المنام ويصبح الصبح فيحسن معاملتنا لما أرجع».

* * *

ولما قامت الحرب خفت على سيد.. قلت: مصر خطر.. لو يأتى أطمئن عليه.. بعد أيام جاء.. صوته مبحوح وعلى وجهه أمارات هم لم أرها أبدا على تقاطيعه.. حكى لى عن النكسة بمرارة.. وعن اليهود والأمريكان.. فسر لى أسبابا سبقت الحرب لم تخطر ببالى «ما لنا بالحرب يا سيد؟؟ لا نحتمل الحرب يا سيد.. هم أقوى من الإنجليز والإنجليز قتلوا عبد الحميد فى عز الظهر.. كنت تهتف ضد من ومع من؟ لو شافك الأمريكان يقتلونك.. لو عرفوك ما فاتوك.. كن فى حالك.. ترتاح وتريحنى» قال: انهزمنا فعلا لأننا استهترنا بهم ولم نعمل حسابا سليما لشىء.. تواكلنا واندفعنا بحماس نتباهى فانكسرنا.. قلت له: ربك يحلها.. قال: لو أمكن للناس أن يذهبوا اذهب معهم وندافع.. سكت.. لو عارضته ما أفادت المعارضة.. فى حرب بور سعيد أخذ البندقية وسافر ولا أدرى كيف سافر أو كيف

عاد ومن أين جاء بالسلاح.. هو أدرى بمصلحته» كان يحكي بحماس الواثق من صدق ما يقوله.. كنت أصدقه. للحظة أحسست بالرغبة فى مشاركته الحماس.. الذهاب معه حيث يتمنى الذهاب.. الموت فى رأيه لا يساوى الخوف منه.. الموت الذى يصفه موت آخر.. موت محبب «حتى الموت لما تحكى عند يا سيد يكون حيا» من أجل البلد.. لم أحك لك كل شىء.. ما كنا نعمله على أيامنا من أجل البلد.. كنا نواجه الموت مع الأفندية وأولاد مصر.. نهتف ونحمل الذين يتساقطون بيننا.. نحملهم ونظل نهتف.. وعبد الحميد لما سقط حملوه وظلوا يهتفون من قيعان الحناجر وكنت مازلت صبيا خوافا. حماسك أكبر منك يا سيد.. أيامنا كنا نعمل ما نعمله ولا نبوح.. أحيانا أقول لنفسى إنكم تتكلمون كثيرا.. ترى هل تقول للناس مثلما تقوله الآن؟.. أحسب أن لا شىء يعجبك أحيانا.. ربما تخاف.. أنا جربت الخوف.. لكنه لم يستمر معى.. اسكت يا سيد.. ربما تسكت أنت أيضا لما تخرج من هنا وتواجه الدنيا.. أستطيع أن أحارب لكن القدرة هزيلة.. لا يهم الموت.. الكلام الذى أسمعه منك يجعل الدم يفور ويغلى أنت تجعل من الموت قيمة ومن الحروب ضرورة من غيرها تفقد الحياة معناها.

ولما سافر سيد لم أكن خائفا عليه.. حتى لو حارب.. لو قالوا إنه مات ما أحسست بالحزن المر.. ربما أحزن لكنه يكون حزنا خفيفا على القلب يجعلنى أتباهى به.. وأنا الذى حسبته عربيدا ويتسلى ويلعب ويشرب ويحب ويتمتع كل يوم أكثر من اليوم الفائت.. حسبته ولدا تائها بلا هدف.. قلت له فى سرى: ربنا يحميك ويهديك يا سيد ونمت.. أسترجع أيام القدرة والحماس وإسماعيل.

* * *

وعرفت طعم الفرح ليلة شوق.. أبى بجلالة قدرة كان مبهورا يزغدنى والضحكة تملأ وجهه المبسوط الذى سرح فى عوالم بعيدة.. يقولها:

– والله صبرت ونلت يا وله.. دى تسحر العابد.

وعمى إبراهيم يبربش بعينيه متصنعا، كأنه يواجه الشمس ويطل إليها فأضحك مع الناس.. يقول لأبى بصوت عال:

– وشرف المصطفى يا عبد القادر يا خويا اللى حدانا ما هم حريم، دول جريد نخل منصوب هياكل.

ويسهم أبى ويقول وهو يلتفت لبرهومة فى حنو:

- عقبالك يا وله.. دى ليلتك حتبقى ليلة.

ويضحك برهومة وكأنه لا يهتم بما يقوله أبى ويكتفى بفرحة الليلة.. ويتابع أبى ما كان يقوله:

تبارك الخلاق تقولش لهطة قشطة عقبالك يا برهومة وتكمل الفرحة ياولاد.

ويمسك عصاه القصيرة ويبدأ الرقص «هكذا أنت دائما رغم كل عنفوانك وقسوتك تبدو طفلا يتراقص فى الأفراح كانما يبحث عن الفرحة بأى شكل» والضجيج يرتفع.. أرقب شوق بطرف عينى فى ثوبها الأبيض.. يكشفنى برهومة ويقول بضحكة: اصبر.. وأنا لم أكن مصدقا لكل ما يدور حولى. كأننى أحلم.. رجالنا ورجال شلبى يتسابقون فى إظهار الفرحة.. كأنما الكفر كله يغنى من أجلى أو من أجل شوق أو من أجلنا سويا.. مشوار الزفة كان طويلا من دارهم إلى دارنا.. حبات الملح تتساقط فوقنا والزغاريد والغناء.. وحبات الملبس أيضا تتساقط فيتخاطفها الأطفال.. وأصوات البنات البكر تلعلع بدلال:

كتبوا كتبك يا نقاوة عينى.. والطشت فضة والمعالق صينى..

ولما وصلنا المندرة جاء عمى إبراهيم وشد امرأته فاستجابت لدعوته وهو يدفعها ويقول:

- هزى طولك يا وليه خلينا نفرح.. دانت ندراها لحسن.

وأبى يدخل الحلقة الضيقة ويتلاعب مع عمى إبراهيم بالعصى فى ود، ولما يخرج أبى يبدأ عمى إبراهيم محتارا قبل أن يكتشف امرأته التى يبدأ فى ملاعبتها وكأنه قرداتى يلاعب قردا وسط الضحكات والتهليل وزوجته لا تدرى سبب الضجيج ولما تكتشفه تكف عن الرقص فيزداد الضحك.. وشوق تضحك كأنها طفلة تلعب فى مولد أو تتفرج على أراجوز مضحك. وتنظر إلى خلسة.. هذا هو الفرح بحق.. الفرح لما يعيش فى القلب فيجعله خفيفا يوشك أن يطير.. الفرح لما يشمل كل الناس من حول النفر فلا يحس بوجود شىء ينغص عليه اللحظة، وتسللوا من المندرة وفاتونا معا.. الوجه بدر والقوام ملفوف والبسمة حيية مرتاحة على الملامح ومتوجسة فى سكون.. وبريق العينين ينصب على وحدى

ويحكى فرحة القلب الصغير.. والصوت نغم هادئ خجول خال من الجسارة.. «لهم حق فى صب نظرات الغيرة منك يا شوق..» وأنا آخذها بجوارى لم يكن فى الدماغ شىء غير الارتياح.. ارتياح لم أجربه أبدا.. والصباحية لها لون جديد.. لون حلو.. وأنا آخذها معى فى العربة المخصوص إلى مصر وكأننى أؤكد لنفسى أنها صارت لى وحدى.. والحجرة كم كانت فسيحة فى نظرى.. كأنما انتقلت الجدران وأصبحت هى العالم كله.. الدنيا كلها ملكى وطوع يدى قال جدى مصطفى: «الحريم دنيا لا لها أول ولا آخر» صحيح.. كان يقصد شوق.. وأنا أهمس لها: نورت مصر.. وهى تطرف برموش عينيها فتغطيهما خجلا، وأنتظر حتى تفتحهما لأطل إليهما، «لن أجعلها تخرج أبدا من البيت.. حتى لو رجعت الكفر فسوف أحجبها عن العيون ولا أدعها تخرج ليراها غيرى» والأيام الحلوة.. أبدا.. حتى الساعات كانت تفوت علينا وأنا تائه.. وساعة الجيب التى اشتريتها كانت تكذبنى كلما سألتها عن الوقت الذى فات منا.. وطعم ما كانت تصنعه وتقدمه إلى مازال على طرف اللسان.. أستعيد حلاوته كلما أردت.. حلاوة مخزونة لا تنفد أبدا.. وأنا أحاول تخويفها لما شفتها تنظر من النافذة فتنكمش مدركة أننى لن أضربها مهما حصل لكنها تتصنع الخوف باطمئنان.. تقول:

– كنت أنتظرك..

والدكان نسيته.. حتى إسماعيل نسيته.. لا شىء إلا رغبتى فى البقاء معها.. أضاحكها وأسليها.. ألاعبها كما كانت تلاعبها أمى.. وفى الدماغ فكرة وحيدة ورغبة وحيدة.. شوق.. حتى لما تنام قبلى أظل سهران ساعة أنظر إليها وأتسمع أنفاسها الخافتة وأقول لنفسى إننى دخلت الجنة.. وأسأل نفسى إن كان من الممكن أن أخرج منها يوما «وحتى لو جاء إسماعيل وأخذ الدكان فسوف أرجع إلى الكفر وأعيش سلطان زمانى فى أرضنا مع شوق ففيم الخوف» وكلما أتوانى عن فتح الدكان فى الصباح الباكر تصحينى وتدفعنى فى رقة وتقول: اذهب.. ولما أتكاسل متدللا وكأننى طفل تقول لى: إن الرزق يفوت على الدكاكين فى الصباح الباكر ويغضب من الأبواب المسكوكة.. أسألها من علمك هذا؟ تقول أبى.. وأقول لها: طيب أنزل بشرط أن يكون الغداء حلوا فتسألنى إن كانت تعمل شيئا لا يرضينى فأنفى، وأخرج.. ولما أخرج من الشقة أكون فرحان غير عامل حسابا للشغل أو شقا اليوم.. كل الأشياء أيامها كانت تتم وأنا مرتاح.. ولما يجىء

الظهــر أرجــع وأخطف لقمة معها وطعم الأيام على طرف اللسان.. وصوتها فى طبلتى الأذنين مازال.. وكأنه صوت لا يعرف الموت أو الغياب.. ومازالت أطراف أصــابعى تستعيد نعومتها وطرواتها.. وكل شىء مازال فى الدماغ صاحيا.. حتى الدمــوع التى كانت تنسال على خديها دلالا أو لوما أو شكاية.. كل شىء مازال.. أستطيع استعادته متى أشاء..

ومــرة رجعــت البيت ملهوفا فوجدتها تنتظر.. قلت إنها كل مرة تنام ولما أرجــع أصــحيها لتحط العشاء وتتعشى.. قامت وغرفت الأكل وحطته ولم تجلس معى لتأكل.. نظرت إليها وقلت لها: كلى معى يا شوق.. قالت: لا.. عجبت وقمت إليها اسألها عن السبب فقالت وشىء كأنه الخجل يرف على وجهها:

– ما ليش نفس للطبيخ

وعجبت.. قلت لها:

– كلى حلاوة جبتها معى

فقالت:

– لا..

سألتها عن السبب قالت:

– عايزة فسيخ.

قالتها بسرعة والدم يوشك أن يتضح فوق الجلد الأبيض الصافى.. أخرجت الســاعة ونظــرت إليها فوجدتها تقترب من منتصف الليل.. «نصف الليل وتطلب للعشــاء فســيخا.. ربما مجنونة، ربما عقلها خف.. أو.. أو بطنها ثقلت.. تمام.. بطنها ثقلت» نظرت إليها مدققا أستفسر منها عما دار فى رأسى فأطرقت.. رفعت ذقــتها ونظــرت إلــى الوجه فغطت برموشها عينيها.. همست لها بود: صحيح؟ أجابــت: أكــثر من شهرين.. أخذتها فى حضنى وأنا فرحان بها إلى حد الهوس «تتوحمين ياشوق.. أنت تتوحمين؟ آه لو كانت المدينة صاحية مثلنا لدرت أشترى لــك طلبك وأقول لكل الناس «شوق حملت» قلت لها: الصباح رباح يا شوق، من عيــنى.. وبــأن عليها الفرح.. وزغردت فى القلب فرحة.. ورقصت على الشفاه أغنــيات رحــت أغنيها بصوت خافت جنب شوق.. وهى تضحك منى فرحانة هى الأخــرى فــى محاولة أن تخلص من كسوفها.. ذلك الكسوف الذى غطى الملامح ولــبد على الوجه وتركز فى أغوار العينين وامتد لكل البدن.. كانت ليلة.. ودرت

فـــى الصبح أبحث عن طلباتها وأشترى بكثرة وأتمنى أن تمضى الأيام بسرعة.. بسرعة لأراه أو أراها تلك التى تحركت فى بطن شوق..

قلت للشيخ سعد لما جاء:

- ابعت أم على لشوق

وسألنى عن السبب فقلت لـــه وأنا فرحان فانبسط وقال أول ما أوصل البيت أبعـــثها وأضـــاف: تعـــرفهم بجواب.. قلت اكتب لهم الجواب وأسجله لهم اليوم.. وكتب الجواب وسجلته ورحت أشترى خزينا للبيت وأزود..

دخلت الشقة فوجدت أبى وبرهومة وأمها وأبيها.. سلمت عليهم وباركوا لى ودعوا لشوق:

- ربنا يجبرها وينتعها بالسلامة.

وكأننا نصبنا الفرح من جديد.. أبوها قال لها مرة:

- ما تجيبى يا بت صيغتك دى أبيعها واشترى لك بها عجول أسمنهم لجل العيل اللى فى بطنك ما يبقاله رسمال ينفعه.

نظـــر أبى إلىَّ وعيناه تقولان: لا وأنا لم أرتح للفكرة.. الخير كثير ولا لزوم لبـــيع الذهـــب.. شـــوق حلوة وربما أشترى لها أكثر.. وهى سألتنى بنظرة وفى عينيها رغبة لتنفيذ كلام أبيها

قلت لها:

- لا

قالت:

- لأ ليه.. دى على ما تدور السنة يبقى لنا مراح.

فتحـــت الدولاب وأخرجت الفلوس التى كنت أحتفظ بها لإسماعيل ووضعتها أمامهم فبرقت عينا عبد الستار.. قال:

- حـــاطط الفلوس فى الدولاب؟ دا القرش صياد.. الفلوس تجيب فلوس.. هاتهم يا جدع هاتهم.

قال برهومة:

- لم فلوسك يا حسن ورجعها مكانها.

والتفت إلى عبد الستار وقال:

- لما يرجعوا يبقوا يشتروا اللى هما عايزينه يابا عبد الستار.

وسكتنا لحظة.. لكن شوق قطعت الصمت وخلعت الذهب كله وقدمته لابيها وكأنها تصفعنى.. أخذه الرجل وقالت هى:

- أنت حر فى فلوسك وأنا حرة فى صيغتى.

قلت لها البسى ذهبك فلم تطاوع.. لوت بوزها.. وأنا أحسست بخبطة تقع على دماغى.. وزن دماغى كأنما سكنته خلية نحل.. «قلت لها خذى الذهب فلم تطاوع.. أبى قال إن عبد الستار يبيع أرضه كل يومين فدان.. ربما يلعب بنا وتكون مشاكل.. مالنا بالمشاكل..؟ واجب تسمع الكلام».

قال أبى وكأنه ضاق بمعارضتها:

- ما لكيش حق يا شوق.

لكنها تحمست لفكرة أبيها وردت على أبى بطريقة ساخرة.. كأنها تقول له: كن فى حالك ودعنا فى حالنا.. وسكت أبى.. للمرة الأولى أراه منكسر الخاطر ولم أملك إلا الخروج من الحجرة، فتبعنى برهومة وأبى وخرجنا وقعدنا فى القهوة القريبة ورحت أدخن الجوزة وأبى يتأفف وإن حاول تهوين الأمر علىَّ.. قلت لنفسى «كسرت كلامى وكلام أبى فلا أمان لها» قال برهومة وكأنه يشير إلى أمر خفى علينا:

- عبد الستار دكانه فضى وعايز يملاه.

تحمس أبى:

- رزق الهبل ع المجانين.

كانت اللحظة ثقيلة وغبية.. وثرثرنا حول عبد الستار شلبى الذى باع أرضا ورهن أرضا ويطمع فى خلق الله.. ولما رجعنا كانت شوق غاضبة من خروجنا دون أبيها قالت لى:

- بقى تفوتوه وتطلعوا؟ مش مالى عينكم يعنى؟

وفضلت السكوت.. وقبل أن يمشى عبد الستار زن على دماغ البنت وأخذ

الفلــوس أيضا ولما قلت لـه يتركهم، عملها نكتة وظل يلاوعنى ويقول إننى خائف على الفلوس منه وأننى أخونه وبعدها حط الفلوس أمامى وقال إنه كان يمتحننى وكــان يحسب أننا أصبحنا واحدًا لا فرق بيننا أبدا لكنه لم يخرج الذهب ويرجعه لشوق.. وسافروا وكانت شوق غضبانة بصورة غير مفهومه وحاولت أفهمها أن على الواحدة أن تطاوع رجلها ولا تهتم بأبيها فلم تفهم وراحت تبكى كلما كلمتها وأحيانا تصرخ ووجهها الغاضب يتهمنى.. قلت لها إننى رجل ولست شرابة خرج فخاصـــمتنى.. كان خصامنا طويلا وقاسيا ومرا.. قلت لها إن كان بسبب الفلوس أبعــثها الكفـــر.. قالت إن حالة أبيها متعسرة ويحتاج لمساعدة، وأننى أحتفظ بما أحتفظ به بينما لا أرغب فى مساعدته، فقلت أبعث له ما يطلبه.. وبعثت نفرا من الكفـــر بمبلغ كبير لعبد الستار من أجل إرضاء شوق وأفهمته لا يعرف أبى أبدا، فسافر بالمبلغ وحسبت أن شوق سوف ترضى وتنسى الخصام.

قـــال عسكرى مصرى جاءنى الدكان: صاحبك إسماعيل محبوس فى القلعة وكلفــنى أعرفك لتزوره قلت لـــه: طيب وجلست أفكر.. «ما عدت أساوى شيئا يا إسماعيل.. أنت سلمتنى الأمانة فخنتها.. صرفت المكاسب ووزعت الباقى.. كل ما قلــته لـــك عن الأصل كذبة.. كيف أزورك والجيب خال من نصف حقك؟» وقلت لشوق أسافر يوم وأرجع.. ولما قابلت عبد الستار قال: فلوسك فى السوق وانتظر لمـــا أجمعها بعد أسبوع وأبعثها لك.. ورجعت أنتظر.. لكن الأسبوع فات وأسبوع آخـــر فات دون أن يصلنى شىء فجعلت ألوم نفسى لأننى طاوعت شوق وأعطيته فلـــوس الخلـــق يـــتحكم فيها لما أحتاجها.. بعد الأمان جاء الخوف، والخوف من المستقبل.. من مواجهة إسماعيل.. من عبد الستار.. من شوق نفسها، من نظرة اللـــوم فـــى عيون إسماعيل.. أنا رجعت مصر لأسلم له الدكان والإيراد وأرجع.. أصبحت لا أساوى مليمًا فى نظره.. أسود وشى فى عينيه لأنى لا أقوى حتى على زيارته فى الحبس» قلت لها:

- كنت زعلانة لأجل أبوكى.. آهو ضحك علينا وسود وشى.

ولكنها سكتت أولا قبل أن تدافع عن أبيها:

- بكره يرجعهم لك.. هو خطاف ولا نصاب؟

قلـــت لها لو كنت حافظت على الذهب كنا بعناه وتصرفنا، فقالت إننى أبحث

عن غلطة أمسكها عليها وأننى أكرهها «أكره أن أسلمك رقبتى فتسليمها لأهلك.. أن أكـون شرابة خرج فى يديك.. أن يعرف أبى تفاصيل الحكاية فيركبه عفريت» قلت:

- أراهن أنه ضيع الفلوس.. بقاله شهرين أهه ولا إحم ولا دستور.

وضـاقت هى بكلامى قال: إن العيشة معى لا تحتمل وأننى أضايقها كل يوم بهذه الحكاية.. ومرة رجعت فوجدتها تلم أشياءها فلم أمانع.ز قلت تغضب وربما يحس عبد الستار بالخطر فيتصرف فى الفلوس وأزور إسماعيل.

وأخذتها الكفر.. أوصلتها لدارهم وما حسبته لقيته.. أبوها لم يكن بالكفر.. أبى قال إنه طفش فلم أصدقه.. قلت له أنا رجعت شوق لتلد فى الكفر.. قال باقى لهـا شـهرين أو أكـثر يا حسن.. قلت نرتاح يومين هنا عند أمها.. وسافرت.. وأخـذت فى الانتظار لأخبار عبد الستار والفلوس دون أن يصلنى شىء.. ونسيت كـل شـىء إلا إسماعيل.. ومرة جاءنى جواب من أمى تقول لى إن شوق خلفت ولـدا ففرحت فى قلبى لكننى أحمل هم إسماعيل.. ولما جاء عسكرى آخر قلت له خذنـى لصـاحبى.. ودخت السبع دوخات حتى وصلت لإسماعيل، قال إنه يحتاج فلـوس وأنه بعث إلى أكثر من مرسال ولا أسأل فلم أعرف كيف أرد عليه.. كان ممقوتا ومغموما رغم محاولاته أن يكون مرحا.. كدت أبكى من أجله لولا الحياء.. قـال: ولا يهمك شوف العسكرى وراضيه، فأعطيت العسكرى نصيبه وأخرجت كل مـا كـان معـى سـاعتها وأعطيته لإسماعيل فبان على وجهه شىء كالشك أو العجب.. قلت لـه:

- لم أعمل حسابى هذه المرة وبعد يومين أحضر لك..

قال:

- أجـر لـى محـامى يـا حسن، وأضاف: حبسونى لمجرد الشبهه.. لم يلاحظـنى أحـد.. مجرد شكوك لوجودى فى المنطقة.. أمسكوا خمسة آخريـن وأنا لم أعترف.. كلها شهرين وأخرج من هنا.. إنما أكلت كذا علقة ولم أعترف أبدا..

همس محاولا السخرية لكن ملامحه فضحت ما كان يحسه من مرارة:

- هـدوا عافيـتى أولاد الأبالسة.. مازلت أذكر الذعر فى أغوار العينين..

محاولة السخرية تتحول إلى نبرات مريرة ومطحونة وهشه «أنت رغم السجن تتكلم برجولة.. أنا عيل.. أحس بالعفونه فى داخلى ولا أستطيع الهـــرب.. أحـــس بالنذالة والخسة» وخرجت من القلعة وقطرات العرق تبللنى وتجعلنى أحس برعشة لم أحس مثلها أبدا.

رحت لأمى وقلت لها كل حكايتى مع عبد الستار وشوق.. قالت:

- أصـــبر علـــى البنت يا حسن لأنها صغيرة ولا تدرك.. لا تكن مثل أبيك غشيما..

قلت لها:

- والعمل؟..

قالت:

- رح لها..

قلت لها:

- روحى أنت لأنها كانت غضبانة وجسى نبضهم وعرفينى..

ولمـــا راحـــت رجعت وتقاطيعها هادئة.. دائما لما يحصل شىء لا يرضيها ترســـم الهدوء على تقاطيعها وكأنها لا تهتم أو تقول لمن يراها: شفت كثيرا فلن تهزنى الأشياء البسيطة.. سألتها قالت:

- منعوها عنى وقالوا: من جابها لنا يأتى ويأخذها..

واغتظت منهم ولكن أمى هدأت خاطرى وقالت:

- حتى لو ضايقوك.. البنت خلفت ولدا فلا تخرب بيتك بنفسك وصالحها

ولم يعجبنى كلام أمى.. رحت لأبى.. قال والغل ينضح على رموش عينيه:

- ناوييـــن علـــى الشر.. لو كانوا يرغبون فى الصلح لرجعوها مع أمك.. قلت إن كلام أبى معقول.. كنت أرغب فى رؤية الولد.. وأسأل نفسى إن كان حلوا مثل شوق.

قال أبى:

- بدأوا بالشر ويرغبون فى إذلالنا على آخر الزمان.. نجوم السماء أقرب لهم.

وراح يتـــندر على جماعة شلبى كلها وعلى أبيها الذى لازمه الفقر فطفش من الكفر، وكلاما كثيرا عن الأصيل والخسيس وأنا أفكر فى الولد.. أكتفى بالنظر

إلـــى وجه أبى وأرى فى عينى برهومة عجزا عن المشاركة فى الموضوع يجعله ساكتا وغير قادر على الكلام.. قال أبى:

- نبعث لهم لأن كرامتك من كرامتى.. لن أطيق عليك كلمة تجرحك..

أرســلنا النفر فعاد وقال شتمونى وقالوا ابعث حسن.. قال أبى وهو يضغط علـــى طرف العصا.. لو رحت لهم طلقها أو لا تكون ولدى طول العمر.. أضاف: زودوا العــيار وخلوها خل.. عيونـهم قارحة ولا يستحون وكأنهم ورثوا الكفر عن جدودهم.. وحلف أن يربيهم ويكسر أنوفهم التى بدأت تشمخ، كنت ألمح فى عينى أبـــى شيئا كأنه التهور المحبوس.. نوعا من الذعر والتوجس الغريب.. كان يشع مـــن عينيه شعاع بريق صاخب لا يتهيب لكنه لما يتكلم عنهم ينزاح ويحل مكانه شـــىء كالـــتوجس.. شىء جعلنى أتيقن أن جماعة شلبى أصبحت شيئا آخر غير زمـــان.. أنهـــم ربما وقفوا على حيلهم، إن جماعتنا أصبحت أقل قوة، ربما بدأت تـــتهالك وتتهاوى.. لم يعد لنا إذن مركز الصدارة؟.. خفت أن أجر أبى إلى العراك معهم فأخذت برهومة معى وقلت له: نذهب وأمرنا لله بدل المشاكل.. وسرنا دون أن يعــرف أبـــى وجهتنا الحقيقة.. قالت أمها أننى كسرت خاطر البنت قلت لها: أشـــوف الولـــد.. بـــدأت المـــندرة تزدحم بالرجال.. كأنما انتظروا دخولنا وبدأوا يتســـللون إلى المندرة.. برهومة راح ينظر إليهم باستهانة وهم يتزايدون ويمسك بالعصـــا باســـتهانة فكرتـــنى بـــنظرات عبد الحميد.. قال عمها: دخلنا بالمعروف ونخرج بالمعروف.. سكت.. قال: فلوسك بدل العفش والمؤخر.. قلت: هاتوا بنتكم أســـألها.. قالوا: عملنا حسابها.. «لو جاءت ربما تقول أرجع من أجل الولد.. لو قالـــتها أضـــعها فى نن العين ولا أفوتها ولو كانوا ألف رجل.. جاءت تحمل سيد علـــى يديهـــا، سألتها وفى نفسى يقين بأن غضبتها راحت: رأيك يا شوق؟ قالت: أخلـــص، ســـمعتها غريبة.. زام الرجال استحسانا، قلت أحمى نفسى من نظرات الشـــماتة: أنا مستعد إنما بشرط، آخذ الولد معى.. قالوا: موافقين.. اقتربت شوق مـــنى بـــالولد، نفس الخطوات العفية الجسورة والتقاطيع الحلوة يغطيها غضب لا أعرف من أين كان ينبع.. غضب وتحد غريب على التقاطيع، كأنهم رسموه على وجههـــا فـــى شـــهور الغـــياب.. اقتربت منى أكثر ومدت يديها بالولد.. أخذته.. «تطلبين الخلاص باللسان والفعل أيضا يا شوق؟ هانت عليك العشرة حقا؟.. حتى

الولــد ترميــنه وكأنـــه لعبة؟.. الكلبة فى دارنا كانت تنهش لحمنا لو اقتربنا من خلفتها.. طيب يا شوق..»

قـــال عمها متسائلا: خلاص؟ رميت عليها اليمين.. خرجت وقلت لامها عند بـــاب المندرة: ورقتها تصل بالبوسته.. كان سيد فى يدى.. قطعة لحم طرية لكنها دائمة الصخب والحركة.. كأنه أحس بما جرى فاحتج عليه.. برهومة جنبى ينظر إلى الكل فى تحفز وكأنه ينوى العراك أو ربما يقوم بدور الحماية لى.. احترت فلم أعرف إلى أين أتجه.. أخذته إلى أمى فتناولته منى وهى تبسمل.. عرفت الحكاية فقالـــت: حـــرام علـــيك.. حاولت إفهامها أننى لم أملك إلا تخليصها فقالت: مصير المـــياه تـــرجع لمجاريهـــا.. لـــم أصـــدق أن المياه سوف ترجع.. كنت مغموما ومقهورا.. حتى خطواتى فى دروب الكفر ناحية دارنا كانت مهمومة.. أكره حتى نظـــرات الخلـــق وأقول إنهم يعرفون ما حصل ويشمتون «عملتها يا عبد الستار؟ لكـــن شوق ترمى الولد وكأنه غريب عنها.. ربما ليس ابنها؟ ابن من أذن؟ ابنها، ابـــنى كنـــت أحسبه قادرا على صلحها.. حسبتها تندب وتلطم ولا تفوته.. تتمرغ علــى التراب لو انتزعوه منها.. قدمته إلى بنفسها، ربما أهلها فرضوا عليها أن تعملهـــا.. لكـــن أى أم هذه؟ مهما كانت صغيرة.» هل من الممكن أن يعيش هذا الولد ابن الشهور الثلاثة؟ قالت أمى: لا تشغل بالك وكن فى حالك.. شف مصالحك وأنا أدير أموره.. يحلها الحلال.. لو عادت المياه إلى مجاريها حقا.. لو عادت من اجـــل الولد.. وشوق.. شوق أيضا.. أيام الفرح قليلة وأنا حسبت أن الدنيا راقت لى.. الدنيا لا تطاوع.. من يحسب أنها طاوعته مغفل».

* * *

هـــذا الولد مجنون.. يحكى لى عن البنات فى الجامعة وكأنه أهبل، يحب.. مـــالى أنا؟.. أيامنا لم أقدر حتى على ذكر كلمة الحب لأبى.. بنت اسمها «سالى» اسمها عجيب.. زمن عجيب.. أقول لـــه: التفت لدروسك فيسألنى سؤاله المعتاد: هـــل خيبـــت أملك مرة واحدة؟.. أقول: لا.. «آخر سنة يا سيد فلا تجعل الأعادى يشمتون فينا.. خذ بالك من روحك يا ولد.. يضاحكنى وكأن لا يقول شيئا غريبا.. دائمـــا لما يعرف بنتا يأتى ويحكى.. رحت معها السينما؟.. طيب.. مسكت يدها؟.. هـــائل.. تحـــبك؟.. طيـــب.. أنـــت مجنون.. تحسبنى صاحبك؟.. ربما أنا بالفعل

صــاحبك.. لســت أعاملك كأنما أنت ابنى.. الابن يخشى أباه.. لماذا تجروء على قــول كــل شــىء، أنــا تركت لك الحبل على الغارب.. أحسن.. أيامنا كنا نخشى الظهــور أمام أعمامنا، مجرد الظهور.. نشتغل ونتعب ولا نرفع العيون بالمطالب الهــزيلة.. كنا نكرههم فعلا.. أنت لا تكرهنى مادمت تحكى كل شىء فلا يمكن أن تكرهــنى.. زمــانكم تغير عن زماننا كما تقول.. فى عرفنا كانوا يقولون عن هذا الكلام: قلة أدب وعدم رباية.. أيامكم تسمونها صراحة.. من يوم أن كبرت عاملتك كــأنك أخى.. أدعك تتصرف كما تريد.. أكتفى بالتحذير وأنا أحسدك على الجسارة فــى القول.. حتى عن لياليك العجيبة مع أصحابك تحكى.. كنا على خطأ لأننا كنا نخشــى الكــلام مــع من هم أكبر منا كأننا سنقع فى بئر غويط.. كنت رجلا ولى ولــدان وأخاف نظرة من أبى.. حتى بعد أن مات ظل خوفى منه فى داخلى.. حتى الــيوم لما أذكره أخاف.. أتوهم أنه سوف يخرج من القبر ويأتى ماسكا شمورخه ولا يعجــبه حــالى فيضــربنى أو حــتى يلومنى.. علموك فى الجامعة أم علمتك السماحة أن تكون جريئا معى؟ أنت حر.. قلتها لك ألف مرة.. مادمت تنجح فأنت حــر.. أنا لن أتمكن من مراقبتك مهما حاولت.. مادمت لم تخيب أملى فأنت حر.. كل مرة أيام الامتحانات أشترى زجاجات الشراب والسكر وأنتظر وصولك.. مجرد وصــولك أيام النتائج لأوزعه.. أحيانا لا أسألك، أكتفى ببل السكر ووضع الشراب وتوزيعه وأنا أقرأ فى عينيك فرحة النجاح، أبدا لا أخاف عليك.. شىء ما يجعلنى أنــتظر نجــاحك وكأنه شىء لابد أن يحصل، لم أتصور مرة أنك سوف تفشل فى الدراســة، كــل النصائح أداء واجب تفهمه أنت دون قول أحيانا.. قلت إنـها تحبك وتحبها.. طيب.. الامتحان على الأبواب.. كأنك تذهب إلى فسحة وتعود، لما تنجح تزوج هذه البنت.. لكن عرفنى.. على الأقل عرفنى.. لما تشتغل تتزوجها.. أحضر أنا مصر وأخطبها لك.. تحبك حقا؟.. شوق أحبتنى أيضا.. حبنا كان له طعم آخر.. حــبكم غريــب.. مفضــوح ومكشوف ولا يدعو إلى الخجل مثل حبنا أيام زمان.. «قلت له: قم ونام، وأعطيته المصاريف فى الصبح وسافر.. بعد شهر سوف تأتى إذن.. مع السلامة يا سيد».

* * *

ولمــا نزلت الكفر شفت الولد معلولا ونحيلا كأنه عود حطب أصفر. غطيته

وتركته عند أمى.. رحت لأبى.. حاولت إفهامه حكايتى مع إسماعيل. لم يفهم، قال ارجــع يــا حسن.. قلت له يعطينى مبلغا أخرج به من الورطة قبل العودة.. قال: اســكت يا حسن ولا تقلب المواجع.. قلت أنا فى عرضك، فبان عليه عدم الارتياح لكلامـــى.. قـــال وكأنه يهرب من الموضوع: الدار داركم وأنا أحافظ عليها لكم، لا عرضـــى ولا طولى .. أخوك برهومة، اسأله.. اطلب منه.. «أطلب من برهومة.. أنـــا الكبـــير وأصـــغر؟.. تصغرنى إذن؟.. مادامت دارنا وغيطنا وأنت حى فماله برهومة؟» قلت: الدار مستورة وثمن بهيمة يخلصنى.. قال يداعبنى:

- يا بت يا مبروكة.. هى المواشى باسم مين؟

قالت ببراعة امرأة أب مقتدرة:

- النبى حارسة برهومة.

قلـــت لما يرجع برهومة.. لكنه لما رجع جلس ساكتا.. نظرات أبيه أسكتته بعد أن ظللت أشكى.. مبروكة ظلت «تتنقور» على وتتسلى وتلعب بأعصابى، قلت لها اسكتى فلم تسكت.. شتمتها بعد أن فاض بى الكيل.. اقل أبى:

- اتشطر على جماعة شلبى اللى..

قـــال عـــبارات قبيحة فجعل الدم ينتفض فى عروقى والهم يثقل على قلبى، تكلمت مبروكة.. قلت له: سكتها فضحك.. قلت دون أن أدرى:

- سايبها تتنقور على وقاعد مدلدل ودانك؟.. لها حق تركب وتهز رجليها. ما تسكتها يابا.

نظـــر إلـــى بغل ورمانى بقلة كانت بجواره.. لم يعجبه كلامى، خابت القلة فانكسرت فى الجدار وطالتنى حصوة أو حصوتين.. وامتدت يده ناحية الشمروخ.. من جنبه أفلت قبل أن يمسكه.. خرجت من باب المندرة ودخلت القاعة.. سنكرت بابهـــا من الداخل وضربات الشمروخ المجنونة تجعلنى أسرع وأضع الدكة خلفه والـــباب يهـــتز بفعـــل الضربات.. والكلام الذى خرج من فمه كان لمجنون جريح يرغـــب فى تحطيم شىء يحول دونه باب لا تكسره الضربات رغم قوتها.. والدار ازدحمت بالناس.. قال أبى بصوته المهدود من كثرة الضرب..

- هـــاتى الفاس يا بت.. النبى لاحش رقبتك.. بقى حسنة وأنا سيدك ياللى

خيبتك ما حصلتش حد.. ما تشوف جماعة شلبى عملوا فيك إيه ياعرة.

استمر يلعن ويخبط.. يسب ويخبط وأنا أرتجف.. حتى سمعت صوته يبتعد.. كأنمــا أزاحــته قوة جبارة خفية وأبعدته عن الباب.. قال عمى إبراهيم من وراء الــباب: أفــتح يا حسن.. خفت.. قال بود: افتح يا ولد - أبوك خرج من الدار.. فتحت بحذر.. قال متكدرا:

- ولما بتخاف بتطول لسانك ليه؟.. أنت انهبلت يا وله؟ أخذنى من يدى.. مشى بى خارجا إلى داره.. قال هامسا:

دا راجــل دماغه ناشف يا حسن.. مبروكة لحساه فى نافوخه بالكتابة.. كل يومين تكتبله عمل..

ظللــت ســاكتا.. ولما وصلنا البوابة كان أبى جالسا مع بعض الرجال على المسطبة.. لما شافنى قام فحاولوا إجلاسه فلم يجلس. ظل منصوبا والشمروخ فى يده والدم ينضح فى عينيه.. قال:

- ماشــوفش وشــك هــنا يــا صايع يا بن الكلب.. أنى برىء منك ليوم القــيامة.. ولا حــتى تمشى فى مشهدى.. فاهم؟.. ولا حتى تمشى فى مشهدى.

وتواريت خلف عمى إبراهيم وهو يشدنى من يدى لأبعد عنه.. قال عمى:

- عوضــك علــى الله.. ماعــادش شــايف غير مبروكة ولا سامع غير مــبروكة.. وأنــت غلطان.. حكاية عبد الستار عملتها من دماغك وهو زعل..

أفهمنى أن أبى عمل شيئا غريبا بعدها.. راح عند جماعة شلبى بالشمروخ يطالــبهم بــالفلوس الــتى أخذها عبد الستار.. قالوا: اقصر الشر فاستمر يلعنهم ويــتهمهم بالســرقة والخسة.. ولما غلبوا منه التفوا حوله بعصيهم وشماريخهم وانــتظروا أن يضرب.. ولكنه لم يضرب، اكتفى بالسب واللعن لأنه كان وحيدا.. خاف أن يضرب.. وبعدها فتح لنفسه طريقا وسطهم وقال لهم: حدودنا البوابة لا تخطوها ولا تعدوا من دربنا أبدا.. ومن يومها وهو مهموم من جماعة شلبى.. لم أهتم بالحكاية.. خاف يضربهم؟ إذن فقد أصبح يخاف من جماعة شلبى؟ قال:

- اللى تعوزه خده منى.

كنت خجلان من نفسى.. حزينا من أجله أيضا.. كأننى مسلم وقع فى حارة يهود.. كأننى لص ممسوك فى مولد.. كل النظرات التى شيعتنى أقرأ فيها حروف الاتهـــام: خائب ولا يساوى شيئا، جاب العار لأهله، قطعوه من أهله، مقطوع من ناسه، خائب، ضحكوا عليه جماعة شلبى.. خرجت من الكفر ورجعت مصر.. كلما أفكر فى إسماعيل يزيد الهم.. وسيد وشوق وأبى.. ظللت أحتفظ بالفلوس من أجل إسماعيل حتى جاءت الحكومة وأخرجتنى من الدكان وشمعته بالشمع الأحمر، وأنا لم أفهم أبدا لماذا.. أسألهم فيقولون فى نفس واحد:

- أمر النيابة العامة..

فـــى الشـــارع من جديد.. لا أرض ولا دكان ولا زوجة ولا ولد.. قال ربيع الذى كان يشتغل معى فى الدكان وكأن الأمر لا يعنيه:

- اللى بنا مصر كان فى الأصل حلوانى.

قلـــت لـــــه أنت تتسلى والهم حولنا قال أبد.. قلت: الدكان ضاع.. قال ولا يهمك.. صينية كنافة أو بسبوسة نسرح بها وتبات مستورة.. ربك يقطع من هنا ويوصل من هنا..

مـــثل ربيع عملت صينية كنافة ودرت بها محمولة على كتفى.. حلوانى بلا دكـــان، ومـــن بنى مصر كان مثلى حلوانى.. ربما كان حافيا ومازال لدى حذاء، عاريا ولدى ثياب نظيفة أكويها وأغسلها.. أكل العيش لا يحتاج الكسوف كما قال إسماعيل مرة.. ما أكسبه يروح يوما بيوم.

قابلـــنى ربيع فى العتبة قال: مسافر المحلة.. تعال معى، فى الشركة طلبوا عمالا، أحسن من اللف والدوخة. وقلت أسافر معك سافرنا. مصر أو المحلة كلها بلدنـــا، يحـــتاجون المئات فكنا بينهم.. عمال نسيج أو غزل لا يهم.. نتعلم.. نقف على الدولاب أو ندور المكن.. نشم الهواء المشبع بذرات القطن المتطايرة.. تدخل أنوفـــنا وحلاقيمـــنا فتسـدها ونبصق فى البداية لكننا نعتاد، نعتاد اللون الأبيض المشـــحون بـــذرات القطـــن فى الوردية الليلية أو الصباحية فلا يهم.. آخر المدة نقـــبض وأبعث مبلغا لأمى من أجل مصاريف سيد.. أحيانا أشترى لــــه قماشا من

الشـــركة.. وربيع يعيش معى ويبعث إلى أولاده فى مصر أيضا.. يقول أنقلهم بعد شـــهر أو شـــهرين لمـــا تتعدل الأحوال.. أقول أجعل أمى تأتى هى الأخرى بسيد ونســكن وحدنا.. مكتوب علينا الشقاء من أجل اللقمة.. نظل نكدح هكذا لا نعرف رأســنا من أرجلنا.. كأننا جزء من ماكينة النسيج الكبيرة.. لكننا نتنفس نحلج أو نغزل، يخصموا لنا أياما لما نتكاسل، لا يهم، حتى لما أخذونى إلى ورشة النجارة وافقت.. قلت أشتغل.. أتعلم وأشتغل.. واشتغلت.. تعلمت.. صنعة نظر كما يقولون فـــى الورشـــة، مـــا عاد هناك شىء اسمه العيب فى شغل البنادر.. قطعونى فى الكفر.. ما لنا حيلة غير أن نعرق ونأكل.. وجاءت أمى بالولد وعاشت معى.. من أجل الولد.. هو دائما مرضان.. أمى ترعاه لكنه لما يرانى يشب ناحيتى.. يحبو.. يمشـــى يـــنطق الكلمات الأولى.. يزيح الهم الثقيل لم أرجع.. يداوى الجروح التى تـــتخلف عـــن شغل الورشة.. أفرح به لما ينطق الكلمات.. كلماته مكسورة لكنها حلوة.. يطلب المطالب الصغيرة.. حلوى، قرش، صندل، لعبة، قطة، أهتم بالولد.. «أمــك تزوجت يا سيد.. لو تعرف.. لم تصبر على روحها.. وفت العدة وتزوجت بســرعة..» لـــو تنصـــلح صحته ترتاح أمى.. أمى فاتت بيتها ومعاشها وجاءت لتعـــيش معـــى فـــى حجـــرة من أجل الولد.. لولاها لمات.. غدًا يكبر وأعلمه فى المدارس.. لابد أعلمه فى المدارس حتى لا يدوخ مثلى..

* * *

يمـــوت المـــوت أحيانا ويحيا.. مات موت عبد الحميد وبرهومة وأبى أيضا وكـــل أعمامى.. موت سيد لا يهدأ.. كلما دفنته رجع يطل من ركنه.. ينفض عن نفســـه ســـتائر النسيان الرقيق.. يأتى فى الدماغ.. أحيانا أراه يحبى.. أحيانا أراه يضـــحك.. أحـــيانا أراه يبكى.. ويتكلم بحماس جديد.. يفكر أحيانا فى أمور أعجز عـــن فهمها.. لكنه يأتى.. يقلب الجرح والمواجع المدفونة تحت تراب هش يعجز عن أحكام تغطيته..

«فـــى الدماغ.. مثل عبد الحميد.. ضربوه فى الدماغ.. عبد الحميد راح قبل أن تـــأتى يـــا سيد.. كان مثلك حليما وطيبا ويصعب تغيير رأيه فى الأشياء وراح أيضـــا قلـــت لك ابتعد عن الكفر لكنك كنت تكسر كلامى وتأتى.. رحت فى شربة مـــاء.. أسأل نفسى لماذا تخيروا الدماغ؟» محاولات النسيان تعجز.. حتى الذاكرة

الضـعيفة تعـى ما جرى لسيد.. صادوه فى الدماغ.. فى الدماغ كانت الضربة.. الدمـاغ حيث العقل الصاحى والعينان البراقتان والبسمة على الشفاه تسخف بكل شىء حوله.. حتى مرارة الأيام وقسوتها.. كيف صادوه؟.. ولماذا.. قال صالح إنه سمع الطلقة فقام مفزوعا من نومه.. سمع الناس فى الكفر يقولون إن نفرا مات، بعدهـا راح يجرى حتى وصل إليه قبل عسكر البندر.. قال إن الدم كان ينزف من مقـدم الدمـاغ ويغطى البشرة.. العينان ظلتا مفتوحتين، والشفتان منفرجتان عن بسـمة تـرف مستهينة «وعبد الحميد أيضا ظلت عيناه مفتوحتين وعلى تقاطيعه شـىء مـرتاح كأنه البسمة.. حقيقة كنت تبتسم يا سيد فى تلك الليلة الساكنة؟.. عـلام كانت الابتسامة يا سيد..؟ من أجل اللقاء الذى كنت تسعى إليه أم أن فكرة خطرت فى خيالك؟ ربما استهانة بالفاعل أو بالموت.. أفلحت الضربة فلم تملك أن تعـبس التقاطيع المبتسمة.. أسكتتك الضربة يا سيد؟، ما عاد يقولها: ذاهب إلى الكفر الليلة لأراهم.. ما عاد يأتى فى بدايات كل شهر يتحسس بنظراته الأشياء.. كأنه يقيسها ويقول: يظهر أحوالك المالية مثل أحوالى.. يمد يده ناحيتى قائلا: خذ مـا تحـتاجه.. ما كان لى حاجة لغيره.. كان يكفى أن أراه يأتى.. أسمع صوته.. أحـادث الـناس عنه.. من بعده لم يعد للكلام طعم.. عمن أتكلم..؟ كان هو الدنيا والكلام والفرح وحتى غم اللحظة الذى يذوب كأنه سحابة صيف كاذبة.. تطوحها النسـمة وتتـبدد بفعل الضحكة.. بعده لم أعد قادرا على الكلام أو النظر أو حتى التفكير فى شىء.. فى الدماغ.. مقدم الدماغ.. هل هى صدفة؟ هل رجع الإنجليز؟ جـاءوا يأخذون منى ثأرا قديما لم ينسوه أبدا؟ ماذا؟ هل جننت؟ من عملها؟.. لو عرفته ما استطعت أن أفعل له شيئا.. فقط أود لو عرفته.. أنظر إليه بالنظر الكليل مرة.. وأظل أكرهه بكل ما فى القلب من قدرة على الكراهية تتولد عن الحسرة ما تـبقى لـى من أيام، عملها جبان مقتدر، يخشى أن يواجه نظرة من عجوز مثلى نظـرة كلـيلة مـن نظر كليل لاتم.. يا هذا الذى عملتها مهما كنت قلها واجعلنى أغرس فى لحم وجهك نظرتى وأموت بعدها... ربما لو طال العمر أبصـق فـوق الملامح فاحتمل لأنها بصقه مرة.. مرة مرارة العلقم.. أمر من العلقم.. واسمع إن حدث لعنة.. من صوتى الخافت المهزوم تنصب عليك لعنة بلا رنين ولا أمل.. كم حـيرنى التفكير.. لطالما أسرح فى عوالم بعيدة راغبا فى معرفة الفاعل.. مجرد

معــرفة.. لــو كــان لصا لسرقه.. لا لم يكن لصا.. «ماذا قالت شوق؟.. يقولون حزنــت.. وأى حزن يا شوق؟.. صالح أرى فى عينيه حزنه.. حسبته لن يهتم.. لكنه اهتز هو أيضا.. وأنت يا شوق ماذا كان طعم الحزن فى حلقك؟.. عندك غيره يــا شوق.. ترى كان لسيد سعر عندك يا شوق؟ كان عندى يساوى الدنيا كلها.. من لى غيره؟»

كـــم هـــو مر طعم الموت عندما يبتلعه الأحياء بلا رغبة.. كم هو مر طعم القــتل لما يجهل الواحد منا وجه القاتل.. مجرد تقاطيعه وشكله، وحتى الحياة لما تــتزايد قسوتها بجهل الواحد منا لماذا تكون القسوة أصلا.. من يطيق؟ من يطيق موته؟

«ارقصـــى يا خطواتى برعشة العجز والحيرة.. ارتعشى يا عصاى القديمة فأنا أرمى عليك حملى.. ارقصى على سكة الكفر فأنا ذاهب إليه فى قبره منهزما.. معترفا بالهزيمة.. مستسلما لـــه.. بهزيمة القلب الأخيرة التى لا تعادلها هزيمة.. بعده لا يهم حتى نصر أو هزيمة.. حتى لو انطبقت السماء على الأرض لن تكون هــزيمة أمـــر أو أقســـى.. ارقصى يا خطواتى فى دروب الكفر فسوف نصل إلى المدفن ونقعد.. ويا عيون الناس كفى عن النظر والمتابعة فقد كرهت دنيا الأحياء ورحت بمحض اختيارى لأتنفس مع الأموات حتى يجىء الموت نفسه».

* * *

جـــاءنى صالح فى المحلة.. شابا فتيا فى جلبابه الأزرق ومشروع شارب.. فرحـــت به.. قلت له: ابق معى ماداموا غلبوك وأتعبوك.. قلت أشغله فى الشركة ويـــبقى، وملعونة أرضهم التى كسروا نفسنا من أجلها.. وعاش الولد وسيد يلعب معه فيضحك.. وفاتت أيام وصالح يحكى لى عن الكفر.. عن جماعة شلبى التى لا يهمها فى الكفر رجل.. عن أبى الذى يحتد مع برهومة.. وعن برهومة الذى راح للحكـــيم مـــرات ولا يعرف لماذا.. وقال إنهم سخروه فى الأرض وحده يشتغل فى الأرض وحـــده وبـــرهومة يتدلل وأبى يأمر وينهى ويكتفى بأن يشق على الأرض ويعمل عليه مهندسا.. وكيف أنه قال لهم: أنا كبرت فاكتبوا لى أرض أمى ولا يهم نصـــيب أبى فصهينوا عنه وأنه لما قال لهم: آخذ بنت عمى سخروا منه وقالوا: أنت عيل، فطهق منهم وقال أنا مثل التملى أشتغل بلقمتى ولن أغلب بنفسى وسأل

عنى ودلوه عن العنوان فجاء.. قلت: ترتاح هنا يا صالح مادمنا طلعنا من مولدهم بــلا حمص.. عمك ورث الأرض وكتبوها لـــه وسيدك حى.. وهو رجل غشيم.. يضربك ضربة تروح فيها.. قال إنه لما شم نفسه جاء..

بعد أيام جاء أبى وبرهومة.. قال أبى للولد: طفشان يا ابن الكلب؟ وضربه كفــا فوق صدغه فسكت الولد.. كأنه ضربنى أنا.. قلت له غاضبا ابعد يدك الثقيلة عــن الولد فهو ليس حملك.. قال: أنا ربيته وأنا حر فيه.. قلت هو ابنى على كل حــال فشتمنى وسكت.. أسرعت وجمعت جماعة من الرجال يسكنون معنا وعملنا مجلسا.. قالوا: نسأل الولد.. قال أنا حر ولا أحد يتدخل.. قال أحدهم: البندر ليس فوضـــى.. هنا حرية وهو يختار.. وسألوا الولد فقال أبقى.. ولما خرجوا بقى أبى وبرهومة وصالح.. قال أبى:

- كتبــنا لـــك الفدانين بتوع أمك يا صالح وتقول أستنى هنا.. تأكل طوب وتـــدوخ فـــى البنادر؟.. دى آخرة تربيتى فيك؟ لمعت عينا الولد وبان فـــيهما عدم التصديق فمد أبى إليه يده بروقة مطوية.. نظر فيها ونظر إلى.. «فى عينيك شىء جديد يا صالح فما هو؟» قال الولد: أسافر معكم مادمت أخذت أرض أمى.. قال برهومة:
- كلمنا أبوك محمد عن زكية ووافق كمان.

وبان فى عينيه فرح.. أخذته على جنب لأحذره منهم لكنه قال إنهم كتبوا له أرض أمه ولو بقى تروح منه.. قلت له: والعمل؟ قال أسافر..

كنـــت محسورا لأن الأرض أخذته منى.. خجلت أن أنظر إلى وجه أبى الذى بان عليه أنه انتصر وأخذ الولد منى رغما عنى..

قـــال برهومة وأنا أوصلهم: قلبى تعبان وأريد أن أكشف عند الحكيم هنا.. أبى سمعه والتفت إليه وشده قائلا:

- خطى قدامى وبلاش تماحيك.. أبقى أكشف فى طنطا..

كان وجه برهومة مجهدا ومريضا بالفعل.. حاولت أن أجعله يبقى ليكشف، لكـــن أبـــى أصر على أخذه فى تلك الساعة والسفر به وبصالح.. وسافروا.. كنت أعجـــب لإصرار أبى على أخذه.. ربما كان فرحان لأنه أخذ صالح.. ربما يشك أن بـــرهومة يبـــتغى الفسحة فى المحلة معى.. حملت صالح سبت الفواكه وأعطيت

برهومة التذاكر التى قطعتها لهم.. قلت لصالح على جنب:

- لو ضايفوك ارجع.. أديك عرفت السكة.

وقال الولد:

- آجى وآخذك يوم الكتاب بس أوعى ماترضاش.

وانشغلت فى تقديم أوراق سيد للمدرسة.. واشتريت المريلة ودفعت المصاريف وجاء صالح.. لما شفته من بعيد فرحت.. قلت جاء يأخذنى أحضر الفرح.. كلما اقتربت منه أحس بالفرحة تموت فى قلبى، لما سلمت عليه قال:

- أبويا برهومة متأخر وطالبك.

اهتز قلبى.. «رقد برهومه؟ وقد تأخر وطلبنى.. كل هذا بسببك يا رجل.. تقتل أولادك ولا تهتز أبدا؟» أسرعت مع صالح وأنا أقول لروحى ربنا يستر.. أخذنا عربة مخصوص من المحلة حتى الكفر.. دخلت عليه المندرة.. أصفر ومعلول وعاجز عن الحركة.. كأنه عجوز.. صوته عاجز وعيناه زائغتان فى دنيا غير الدنيا.. لما شافنى حاول أن يعتدل فلم يفلح قلت له:: ارتاح.. وقعدت جانبه على طرف السرير.. قال: الحمد لله، كنت أريد أن أراك قبلما أودع.. وأبى كان مطرقا برأسه وواقفا لم يهتم حتى ومع وصولى.. مد برهومة يده إلى يد أبى وأخذها وقربها ناحيتى وقال لأبى: سلم على حسن.. خلص أبى يده برفق وقال لى: برهومة طلبك يا حسن.. نظرت إلى برهومة.. ساعتها نسيت كل شىء حتى قسوة أبى.. نسيت إلا رغبتى فى أن أراه يقف كما كنت أراه قبلا.. قال بصوت جاهد أن يكون مسموعا لكنه كان متقطعا وعاجزا عن الإسماع:

- لو مت يابا الأرض لحسن.. ولو عشت نقطع الورق اللى انكتب ظلم، يأخذ حقه وهو حر فيه.. الدنيا منفاته يابا.

قلت أريحه من الكلام: كن فى حالك.. شد حيلك واجمد.. أسكتنى بإشارة من يده وتابع كلامه:

- كوم الطماع ناقص.. أمى طمعت، يمكن ذنب اخواتى وربنا بيخلصه منى.

تقطع قلبى ولم أعد أحتمل المزيد.. حاولت أن أدارى دموعى لكنها كانت

تسـيل، وكلمـا نظرت إليه والى أبى المهموم فى صمت أزداد حزنا عليه.. وبدأ الصرت يخفت أكثر.. والعينان تغيبان.. وكل مدة لما يفيق من غفوته يمسكنى من يدى ويضغط عليها ثم يغيب من جديد.. كأنه يتمسك بشىء فى يدى ويقول كلاما بلا رابط لما يفيق.. كأنه يخرف.. خلصت يدى منه وخرجت، قلت: ننادى الحكيم.. ورمحت خارجا من الدار.. قال صوت كأنه صوت برهومة.. أو صوت أبى جريحا وواهيا بينما أخرج من باب الدار:

- ما فيش فايده..

وقبل أن أصل إلى البوابة سمعت صوتا نسائيا يشق الصمت وينفذ ليس إلى آذانـى وإنمـا إلـى صميم قلبى.. رجعت أرمح ودخلت فنظرت إلى الشفتين فى حركـتهما الأخـيرة والروح تجاهد أن تخرج من خلالهما.. والفم يحاول إبقاءها لحظـات لكـنها تفـتحه بعزم أشد وتخرج.. تنفذ الروح فيهمد البدن.. يكف عن التـنفس أو الأنين أو الحركة.. دموع أبى تنسال على وجهه دون أن يتحرك من وقفـته، مطـرقا كمـا تركته كأنه صخرة جامدة تبكى، «تعرف البكاء لما تشوف المـوت، لكـنك لا تعرفه مع الأحياء أبدا» وحتى لما رفع عينيه لحظة كنت أقرأ فـيهما شيئا كأنه الخجل.. الخجل من الموت.. «أنت خجل من الموت إذن؟ اليوم تـبكى وتخجل من الموت أو من دموعك وكنت سببا فى خرابنا وضياعنا.. ظلت تـزن علـيك وتزن حتى خربت الدار.. وأنت تطاوع.. دائما تطاوع.. تحسب أن الدنيا كانت ملك يديك تعطى لمن تشاء وتمنع عمن تشاء.. وأنت يا برهومة؟ هل انتهيت فعلا.. يا حسرتى على شبابك الذى ضاع منا قبل الأوان». من الموت كان يخجـل الـرجل.. فى المندرة وأنا جالس أسمع كلام الناس.. يتهامسون بأصوات قادرة على النفاذ إلى ريما بالشماتة، أو محاولة لإظهار الود أو العطف على «ربنا خلاف الظنون، مبروكة طردت الأولاد وقعدت على الكل، زرعت الشر وحصدته.. ذنـب أخويـه خلص.. وأنا جالس آخذ العزاء وأنظر ولا أستطيع الكلام «اتركونا لهمنا يا ناس.. ابعدوا عنا فالأعمار بيد الله..».

ولمـا دخلت الدار فى الليل كانت مبروكة تجلس وسط الحريم وعلى رأسها طيـن جـف وتيبس، وعلى وجهها صبغة لونها أزرق.. كانت تندب فلما شافتنى كفـت، قامـت ناحيتى وكأنها كلبة مسعورة.. أمسكت طوقى وكأننى بعثت الموت

لأخـــى يأخذه، كانت تصرخ فى جنون حقيقى، عيناها تنضحان هما وغما وحشيا يصـــعب علـــى الكافـــر يخيف.. يرعب.. كانت تهزنى ورذاذ من فمها يتناثر على جانبية ويصل إلى وجهى لما تتكلم:

- جـــاى ليه يا حسن..؟ جاى ليه يا حسن.. برهومة مات.. برهومة ما.. ت بـــرهومة.. مـــا.. ت جاى تورث فيه.. عايز تورث فيه؟.. الصغير مات.. الحلو مات.. الغالى مات..

كنـــت مـــرعوبا.. مرعوبا أرتعش من الهلع والشفقة «حتى أنت يا مبروكة تثيريـــن فـــى النفس شفقة؟» خلصونى منها بعد جهود شاقة وأصابعها مغروزة ومســـتميتة فـــى طوقى.. خلفت فى العنق جروحا وفاتت على طوق الجلباب طينا وصبغة..

قال أبى وهو ينظر إلى فى حيرة:

- خليك ويانا بقى.. نشوف أحوالنا.

قلت لـــه.. مبروكة لن تطيق وأنت شفت بنفسك، فسكت.. قال بعدها وكأنه يفهمـــنى شـــيئا فاتنى: حرقة الموت «وأنا ألم أحترق عليه ربما بنفس القدر وإن كنت لا أندب أو أمسكك أنت من خناقك لأنك كنت بلا شك سببا من الأسباب؟ قلت لك اتركه يكشف عند الحكيم فلم ترض أبدا..» قال بحسرة: عوضنا على الله..

ودخلـــت مبروكة هذه المرة وعاودت ما سبق أن عملته فى المرة الأولى.. وقام أبى يخلصنى منها بعافيته التى عجزت إلا بعد أن خربشتنى فى وجهى.. قلت والغيظ يملؤنى ويجعلنى أخرج عن طورى: الدار لا تسعنى أنا ومبروكة قال: قلبك أسود.. قلت له هذه المرة دون أن أهتم بما يعمله: أنت رجل خنزير.. وهى تلعب بـــك طـــوال عمـــرك، من يوم أن دخلت الدار تلعب بك.. ولم يبد عليه أنه سوف يـــتحرك ليضرب.. الموت هده.. أفهمته أننى لن أرجع إلى الدار ما دامت مبروكة فيها تجلس وتنعب مثل البومة..

هذه المرة لم أكن أخافه، ربما كانت هذه المرة الوحيدة التى لم أخَفْه فيها.. ربما لأن الموت أراح الخوف منى وسلب منه الجسارة والقسوة.. ربما لأنه أحس بأنـــه أخطـــأ فى كل عمره، أحيانا يحس الواحد أن عمره كان غلطة، كان هذا هو المرسوم على وجهه فى ذلك المساء البليد البارد.. كأنه عجز عن الرد «وأنت يا

مـبروكة.. الغـل فى قلبك.. حتى فى الموت تكرهين.. حتى لما مات برهومة لا يأخذك الحزن من حضن الكراهية فتحزنين دون أن تكرهى ولو مرة؟».

* * *

علـى سـلم الموت أرقص رقصتى الأخيرة.. فى كفر عسكر حيث المدافن أزور الموتى كلما ساعدت القدرة.. عدت إلى الأرض بعدما انهدت القوى.. وسيد يـرقد حيث رقد أبى وبرهومة وأعمامى.. «لو كنت يا عبد الحميد معهم لغنيتهم غـنوة النهاية» أسمع أحيانا فى مدافن الحاج عوف صوت الماضى تردده أشجار النـبق العتـيقة همسا مرتعشا شاكيا.. ألمح الأطياف تتسلل إلى أفرع الصفصاف المحنـية.. أجلس ساعة القيلولة حتى يأتى صالح أو أحد أولاده يأخذنى إلى الدار أتعشـى بعد صلاة المغرب.. كلما قال لى وكأنه يوصينى: لا تذهب إلى المدافن.. أخالفـه وأذهب.. اليوم أعرف سر عودتى الملهوفة.. نداء الرماد ينفذ فى صلب الواحد منا فيعجز عن المقاومة أو التأجيل، يأتى ويجلس.. وحتى لما أتمثل صوت أبـى أو ألمح طيفه لا أخاف.. الموت يجرده من جبروته ورعونته.. يجعله ودودا وحـنونا، وبـرهومة بـنظرته الأخيرة وصفاء قلبه ينير وجهه، قلبه الذى مات معلـولا، وسـيد.. «يا شجرتى التى زرعتها وحسبتها مالت لتظلل على غريمى.. الآن أعـرف، مـال الفرع ليرجع إلى الأرض فلكل أجل كتاب.. ما عاد فى خيالى وجه لغريم واحد.. كأنه لما غبت عنى غابت العداوة واختفى الغريم القديم.. أيامها كنت أحسبك نسيت ما جاهدت عمرى من أجله.. شقاء الأيام ودوختى عليك.. قلت أيامهـا وأنـا أجهـل الحقـيقة: انجرف فى تيارهم ونسى، وقلت إن الكفر عتمة وغـيطانه تغطـيها الـروبة.. سككه معفرة وبيوته كالحة.. ولك شىء فيه كئيب ومعـتم، حتى وجوه الخلق كئيبة ومهمومة وساكتة.. كأنها مراح غنم يمرح فى الفجـر ويعـود قـبل المغرب دون أن يتبدل فيه شىء إلا الزيادة أو النقصان فى العدد، إنما القطيع هو القطيع.. قلت هذا لنفسى ناسيا نداء الموتى.. نداء أمواتنا الذيـن سـبقونا ورقـدوا واستراحوا، اكتفوا بالإطلال علينا من مراقدهم ومتابعة خطونـا المنتشى كل فجر.. فى انتظارنا بيقين فى عودتنا.. «أينما تكونوا يدرككم المـوت ولـو كنـتم فـى بروج مشيدة» أسمعها فاهتز.. وأنت لم يكن لك بروج لتتوارى من وجه الموت ساعة.. والموت أراه فى الأحياء فأعجب من أمر الدنيا..

وكل ما يدور حولنا، الغيطان والمصارف وناموس البرك والسكة الملوية، والبيوت العفشة المسقوفة بكتل الخشب التى اسودت مع حزم البوص المحترق، وكل شىء للموت يمضى.. جئت للموت إذن، وأنت يا سيد كنت تأتى للموت هنا.. أيامها كنت أسـائل نفسى عن سر مجيئك المتكرر كل يومين.. أتخيلك تمشى فى دروب الكفر بينما جماعات من نسوة الكفر يجلسن على الأبواب ينظرن إليك وأنت تمر عليهن، ثـم يشرعن فى الحديث عنك.. ابن من؟.. لماذا يأتى؟ لمن يأتى؟ وماذا يعمل؟.. وينصـبوا على سيرتك قعدتهم، أبدا لم يكن هذا يهمك.. كنت تأتى لأن الموت هنا كـان ينـاديك ولـيس رجـال الكفـر المناظر ذوى الشوارب المبرومة والأعواد الفارعـة.. وحماسهم فى دعوتك لشرب خناصر الشاى الأسود.. كأنهم يتسابقون لنيل شرف دخولك دورهم.. كرمهم المعجون بالرغبة فى التفاخر وكأنهم فى سباق مـع أنفسـهم أولا.. لا شىء من هذا كان يشدك.. الموت هو الذى أخذك.. شدك مـنى.. وأحسبك يا سيد كنت تلاحظ أن الأمر كان يتحول من احتفاء متحمس فى الـبداية.. خطـوات التـباهى بابن الجماعة الذى عاد ليمشى فى دروب الكفر مع الـرجال المـناظر.. وتكرار الواجب بكثرة تتحول إلى عبء ثقيل ثقل المسئولية المرمية فوق الأكتاف.. وجماعة الحاج عوف التى هزمها العناد وصلابة الدماغ.. أصـبحت أعجـز من الاستمرار فى دور الكرام.. وحتى لو كنت أنت وراء تربية أولاد الـبعض مـنهم فى المدارس وأنك كنت فخرهم فى مواجهة الآخرين يوما.. كـل هـذا لا يهـم.. لـيس الأهل والأولاد وإنما الموت شدك.. وأنا بدورى جئت أنتظر.. أحلم بالموت يأتينى وأنا فى المدافن..»

الشيخ شعبان يقرأ ما تيسر.. على روح الرجال يقرأ.. هسيس أشجار النبق العتـيقة يتردد شيئا كالهمس البشرى.. نبرات أصواتهم تتجاوب مع صوت الشيخ شعبان.. قال سيد: أنت قطعت نفسك من شجرة الحاج عوف الكبير التى ما عادت تطـرح الرجال القادرين، واكتفت بالهياكل معدومة الحيلة والغارقة فى كذبة الاسم القديـم.. وسـواد القلـب من سواد الحال.. وأنت ترانى يا سيد كل يوم.. أنتظر وأرضى بكل رغبتى أن أبقى هنا رغم ما كان فى الزمن الفائت.. والحسرة تذوب مـع اليقين الذى يتسلل إلى الرأس بأن الحزن فوق طاقة الاحتمال.. وأنه عندما يكتشـف الواحد منا أن العمر كله كان كذبة وأنه خسره.. وأن ما كان يتمسك به

كــان غلطة كبيرة لا يحلها إلا الموت نفسه.. ساعتها يذوب الشعور بالحسرة فى لحظــة الكشــف.. أجــيء إلــيك لأ تمــثلك مرة كما أتمثل أبى وبرهومة وجدى والآخريــن.. وتعز صورتك أحيانا.. ولما أتسمع دبيب خطو صالح أفقد الأمل فى رؤيــتك وأعــود معــه إلى الدار.. والحجر الدائر ولطشة الجدار.. جدار الموت لطشــك.. هاهو صالح يأتى.. الخطو الثقيل.. والتقاطيع الجادة.. وبقية اعتزاز بلا معــنى.. رجــلا فى قلبه جرح قديم لا يداويه القول أو العزاء.. يداويه الموت يا صالح.. حتى لو تظاهرت بالقوة والعنفوان والقسوة، فأنت لها مثل سيد.. للتربة.. للتربة.

* * *

ولمــا جــاءنى الجــواب سافرت.. «هدك الموت إذن يا أبى فعرف المرض طــريقك أنت أيضاً..؟ آت إليك أنا والقلب لا يحمل إلا الحنو والنسيان» لما دخلت الــدار وجدتــه جالسا فى صحنها على دكة النورج.. قلت وأنا أتجه ناحيته: بعد الشــر عــنك، ظل ثابتا فى قعدته وعلى تقاطيعه خطوط هم غويطة.. قلت لنفسى «مــازال مهمومــا وحزينا على موت برهومة..» مددت إليه يدى فظل جامدا فى قعدته دون أن ينظر ناحيتى أو يمد يده.. جلست جواره.. جاء صالح وسلم وجلس علــى الأرض عــند قدمى الرجل، وبعده بانت مبروكة فى السواد.. قالت: شفت؟ نظــرت إلــيها بغــل.. «فصل سخيف وشربته.. تبعثون جوابا تدعون فيه مرض الــرجل بيــنما يجلس قصادى يطل ولا ينطق كأنما قطعتم لسانه أيضا؟ «لم أتكلم وسكت.. قال أبى يقطع الصمت الذى حام حول الدماغ كدبور فقد قدرته على الزن واكتفى بالدوران حول الرأى ليجعلها تتابعه وتدور هى الأخرى.. هيه؟ وبعدها بدأ يحــرك عصــاه فــى صــعود وهبوط متتابع فتدق الأرض بطرفها وكأنه يأمرنا بالإنصات بينما نحن صامتون؟

- انت شايف إيه يا حسن؟

كان فى صوته شرخ لا يود أن يبين.. يجاهد أن يخفيه.. قلت متوجعا من نبرته:

- شايفك حلو يابا.. البركة فيك.

قــال بصــوت متهدج، مهزوم ومستسلم أيضا وهو يهز دماغه وكأنه ينكر قولى:

- لكين أنا بقى مانيش شايفك..

وللحظـــة أدركت كل شيء.. استعدت الموقف من أوله وأنا أطل إلى عينيه العســليتين الصــافيتين واللامعتين كعينى قط برى أو ربما ذئب.. عجبت لأننى لم ألاحــظ شــيئا.. ارتعبت وأنا أدقق النظر فى الملامح المتهدلة المتراخية كأنها لا تخصـــه.. كأنما العينان كانتا تحرسان الملامح وتشدانها وتبعثان فيها الحياة، فلما غابــتا أصــبحت التقاطــيع بلا حارس فتراخت وتهدلت.. أصبحت مجرد كتل لحم عجــوز محطوطـــة بلا معنى.. إلى هذا الحد رأيت الملامح ميته فانتفى وجودها كلـــه.. حتى خطوط الزمن تكذب.. تجاهد التقاطيع أن تقول شيئا فتعجز.. لا شىء غــير اللـــوم أو الاســتكانة يطلان علىَّ من خلال البريق الأعمى الضرير الذى لا يميز.

«ميزت فى ماضيك كثيرا حتى أتعبك التمييز.. نظرت بالعينين فخوفت الكل حتى نفذ من العينين الشعاع.. والآن تجلس.. لا تملك حتى أن تدخل بيت «الأدب» بـــلا مساعدة.. والذى انقضى راح وولى.. الموت فى الملامح.. ربما الحزن على بـــرهومة وعـــبد الحمـــيد والأخوة.. ترى هل كانت حياتك بأسرها غلطة متتابعة الحلقـــات كأنهـــا قيد شدك كلما حاولت الخروج لتعود وتسقط فى دوامة التعسف الغشيم والتجبر.. ومعاركك التى حصلت بفعلها على الاسم والتى مازالوا يتحدثون عـــنها وكأنها حواديت ما حصلت ولا كانت.. وماذا يقولون اليوم فى كفر عسكر؟ ربمـــا فرحوا بالبلوى التى حطت.. ربما تحسروا وأنت تتهاوى قبالتهم من مكانك القديم ومكانتك وتقعد على دكة النورج فى صحن الدار كالحريم لا ترى عدوا من حبيب»

لم يكن هناك ما أستطيع قوله أو أجسر على البوح به.. كأنما قطعت قعدته الساكنة لسانى.. خيم السكوت والعجز عن فتح أى موضوع.. قال وهو يهتز أماما وخلفا وكأنه مقرئ الرواتب الكفيف الذى يتلو آياته بلا حماس ولا انفعال، بصوت كأنه صوت العجز البائس:

- العمر عدى وفات.. ماعادش غيرك.. برهومة راح.. عبد الحميد راح.. وحـــتى الـــنظر راح.. ويامـــا ســـمعت معيرة بسببك أنت وعبد الحميد وقاوحـــت لمـــا كان العزم شديد.. لو ترجع يا حسن يا بنى يرجع العزم ويشتد الحيل المهدود.. أشوف بعنيك أنت وصالح.

للمـــرة الأولـــى أحـــس أنـــه أبى.. فى كل عمره أحسسته خصما يستحق

الكراهية.. مرة حاولت قتله.. حتى وهو يقول لى ارجع الكفر لم أكن أهتم بالرجوع.. كنت أفكر فيه.. أشفق عليه.. كأنما قرأ هو ما يدور فى دماغى.. برقت عيناه فى لحظة فحسبته يدخله.. يتسلل إليه ويقرأ ما يدور فيه.. كأنه هزم العمى والعجز وبدأ يرانى.. من داخل الداخل يرانى.. ساعتها ارتعبت رغم الإشفاق عليه من نظرة اللوم المطلة من العينين وكل التقاطيع.. التقاطيع التى عادت تحيا بعد الموات.. هذه المرة أحسست أننى بجوار أبى.. كأنما ولد إحساسى به فى تلك اللحظة بعينها.. لم أعد أحتمل.. جعلت أنهنه.. من أجله كنت أبكى.. أسكتنى.. قال: الظفر لا يطلع من اللحم.. الدم لا يبقى ماء وسكت مدة، ثم ابتسم، كأنما استعاد نفسه..كأنما لما اطمأن أننى ابنه وأنه استعادنى عاد يحيا.. تحيا التقاطيع وتنتعش وتفيق.. تنفض عن نفسها البلادة وتحس وتقول.. والنبرات تقاوم الارتعاشات، وراح يحكى، منبسط الملامح والنبرات.. من حيرتى كنت أقول لنفسى: ليس أعمى، فها هما العينان تبرقان ببريق الوعى والإحساس والحياة.. وكلما قال شيئا يزداد فى قلبى الصخب.. أود لو أحتويه كله.. أجعله يرانى.. وأتوارى بدمعة مجاهدا ألا يحسها هو.. يقول: مازلت تبكى فأنفى بالدموع.. يقول: أخذنا أيامنا فلن نأخذ زمان غيرنا.

كان صالح ينكت الأرض بعود حطب جاف ولا يواجهنى لما يلمح فى عينى الدموع، كأنه تعلم أن من الرجولة ألا يرى دموع الرجال.. قلت لأبى: كنت زينة الرجال.. قال بأسى: راحت أيامنا «ومرة تعاركنا مع أولاد العزبة وأخذنا فى ضربها بالطوب والطين اليابس.. وطاروا هربا وجاء الرجال وعبروا الترعة وضربونا وكنا نصرخ.. ولما شافنا عبد الحميد أسرع وحده يتعارك مع كل الرجال فضربوه أيضا.. وقلنا لما شفناه يسقط وسطهم: مات.. ولا ندرى كيف تسلل عبد الغفار من وسطنا وناداك.. وأنت ضربت بشمروخك أكبرهم سنا.. رأيتك تهوى على دماغه بالشمروخ وأنا خلف النخلة أرقب وأنتظر.. كان الرجل فحلا بشوارب مرفوعة فسقط ولم يقم أبدا.. وأسرع الآخرون يفرون من حسم ضرباتك التى جرحت من طالته فعجزته.. يخوضون فى الترعة التى كانت غويطة، لكنهم كانوا يخوضون فى الماء البنى وأنت تتابعهم بالشمروخ فيجرون.. من يومها أصبحت الترعة لنا نلعب على كلا الشاطئين ولا يظهر من العزبة ولد.. والذى

مـــات يـــا رجـــل راح دمه ولا أدرى كيف.. وكنت دائما تجرؤ على فعل ما يعجز الرجال عن فعله.. عركتك مع برابرة السلطة.. لما جاءوا يطلبون أنفارا من الكفر وأخـــذوا واحدا من جماعتنا وقلت لهم هاتوه.. والكرابيج التى انهالت عليك كانت أعجـــز من الشمروخ.. هرب الرجال السود على الجمال وفاتوا الكفر وما شفتهم أبدا.. وحتى لما كانوا يعودون لا يهربون ناحية البوابة ويكتفون بأخذ الأنفار من الأهالى فى صمت وبلا ضجيج.. ودخولك على جماعة شلبى بعد حكاية شوق دون علـــم جماعتـــنا.. وتاريخك معنا مزحوم بالضربات، وفى أطراف الواحد منا آثار الضربات والعاهات المستديمة.. واليوم تقعد؟».

كـــان يحكـــى عن أيام العزوة القديمة، ولمة الرجال حول جدى مصطفى.. يحكى عن الماضى فيبعثه من جديد ويحياه، وناسيا لحظته بكل ما فيها من أمارات العجـــز.. كنـــت أسمع وفى يدى خنصر الشاى الذى قدمته زكية.. قال أبى.. متى ترجع؟.. قلت متوددا إليه:

- كـــام شـــهر كده يابا.. ع السنة ما تخلص وأحول أوراق الولد لمدرسة البندر.. بدل السنة ما تروح عليه.

وســـكت مدة.. ساد صمت طويل.. قال بعده بحماس وعروق رقبته تنتفض وتزداد احتقانا وغلظة:

- «علمـــه.. علمه.. حتى لو بعت كل الأرض علمه.. أولاد شلبى كسرونا لمـــا علمـــوا عيالهم.. طلعه حكيم أو محامى المهم علمه.. إياك تنسى مهما حصل.

وعـــاد الصمت وصدى كلماته يترجرج فى طبلتى الأذنين ويرف فى الدماغ وكأنه يتجسد حماما أبيض يستدعى الرعاية والحنو.

* * *

وجـــاء سيد من الكفر.. قلت لـــه: أنت معوج فاعتدل.. قال: لست معوجا، راح يجادلنى لأول مرة فى حياته بحدة وحماس.. كأنه اكتشف شيئا جديدا.. دائما لما يرجع من الكفر يهوى النقاش والمعاندة.. سألنى إن كانت أمه قد أتت به إلى طفلا فى مصر. قلت له: جاءت.. حصل بالفعل أن جاءت تحملك.. أخذتك من أمى وجـــاءت تحملـــك إلى فى الدكان.. قالت أرجع لأربى سيد.. «فتأتين بعد ما كتبوا

كـتابك علـى ابن عمك؟ تدعين أن سيد يحتاجك؟ اليوم يحتاجك وبالأمس لم يكن يحـتاجك؟ انتظرتم اكتمال العدة وكتبتم فقطعتم على خط الرجعة» قلت لها: عودى يا شوق.. ارجعى الكفر وكفانا ما جرى.. ولما بكت لم أصدق دموعها «تذهب إذن إلـيها وتسـألها وتصدق كلماتها؟.. تدعى أننى رفضت إعادتها رغم أنها جاءت بنفسـها مـن أجلك؟ طيب.. سوف أعرفك» قلت لروحى ساعتها: لكم هى جريئة لـتأتى إلـى وهى على ذمة رجل آخر.. لم أصدق ما كانت تدعيه من رغبتها فى العيش معى.. قلت لها: روحى لرجلك يا شوق وكفانى ما حصل منكم، وأنا خلصت من ذنبك، أبوك ضحك علينا ولما قلت لك لم أخلص منك.. لم تسمعى الكلام وامتد بـوزك شـبرا.. وأمـك طولـت لسانها على فى مندرتكم.. وأهلك جاءوا وكأنهم يرغبون فى العراك.. وأنا لم أنطق إلا بعد أن طلبت أنت الخلاص.. والولد قدمتيه إلى أمامهم، وأبى عملتوه لبانة على آخر الزمان.. قالت: لا أرغب فى العودة إليك مـن أجلك أنت وإنما من أجل الولد.. أحسست بالعار.. ها هى تكيدنى بك.. كأنما أحسسـت بالغيرة منك يومها.. لأننى لم أكن أساويك عندها.. تعود من أجل طفل فى لفته قدمته إلى بنفسها وتخلصت منه.. تعود بعد أن انكشف ذيلها لرجل آخر.. ورغـم كل المساعى التى عملناها قبل أن أصل إلى الكفر وبعد أن خلصت، قطعوا علينا خط الرجعة وكتبوا كتابها على ابن عمها المحترم كأنما حسبوا الأيام لتوفى العدة بينما كنت أنتظر».

قلت لها ارجعى يا شوق فما فكرت فى استعادة بصقة لفظتها حتى لو كانت فـيها حياتى.. قالت وكأنها قطة شرسة مسعورة: وأنا رميتك وبصقت عليك ألف مـرة ولـولا سـيد مـا رجعت لخسيس مثلك «أنا الخسيس يا سليلة تجار الملح ورسمال الحمام والثمر المعفن؟» غلى الدم فى عروقى.. كدت أضربها فى الشارع ولكنها كانت تحملك.. تحتمى بك منى «قالت: خذ ابنك وحطتك فوق الدكة.. نفس المشـهد القديـم.. فى المرة الأولى قلت: أهلها.. هذه المرة كان أهلها لا يعرفون حـتى أين راحت.. ما كان بيننا غيرك.. أنا ما كنت لأدعك تتربى على حساب ابن عمهـا يـا سيد.. وما كنت قلت لأمى أن توافق على أن تأخذك منها لترميك من جديد.. تسألنى أن كانت جاءت.. حسنا.. رح واسألها متى جاءت.. اجعلها تحكى بصـدق متى جاءت واحكم أنت بنفسك.. تلومنى لأننى لم أقبلها من أجلك.. وهل

قبلـت أنـت البنت التى عرفتها وفاتتك وصاحبت قريبها لتكيدك؟. هل قبلتها لما رجعـت تقول لك إنها تحبك أنت وتريدك؟.. أنت تحاسبنى وتنسى نفسك يا سيد.. كنت أرضى بها لو لم يكن ذيلها انكشف لرجل غيرى.. وحتى لو رضيت يومها.. هـل كنت أضمن أنها سوف تخلص من ابن عمها هل كنت أصدق أنها باعته من أجلك فعلا؟.. ولماذا باعتك منذ البداية؟ اسكت يا سيد.. اسكت.. أنت لا تعرف ما جـرى مـنها.. أبدا لا تعرف ما جرى منها.. أنت ترى دموعها تنسال فتصدق.. ودمـوع الواحدة منهن قريبة.. أقرب من الهم على القلب.. كان انكسر شىء ما بيننا فى قاعتهم.. انشرخ جدار كان يسترها فبانت على حقيقتها.. كان من الصعب علـى أن أصـدق أن الأمـر سوف يعود كما كان.. ما جرى كان شائها ومشينا ويصعب احتماله.. اسكت يا جدع ولا تقلب علينا المواجع القديمة.. اسكت.. ارقد أحسن..».

* * *

سـقط الرجل وهو يعافر فوق السطح دون أن يطلب منهم مساعدة.. سقط فـوق حجر الطاحونة القديمة فانخلعت مفاصلة ورقد عاجزا عن الحركة.. جاءنى الخـبر وآنا مشغول فى تحويل أوراق سيد لمدرسة البندر.. فرمحت وسافرت إلى الكفر بليل.. وجدته راقدا وعلى وجهه غطاء.. رفعته من لهفتى ورحت أناديه ولا يـرد.. أخـذوا سيد بعيدا ثم شدونى وأنا ذاهل حتى عن كلماتهم.. «السر الإلـهى طلع.. طلبك ولما غبت قال اطلبوا منه السماح.. البقية فى حياتك» كنت أطل إليهم ولا أمـيز الوجوه.. لا أعرف إلا أنها مجموعة من الأفواه والعيون المطلة.. ولما طلـع الـنهار وبانت الشمس كنت قاعدا وحدى فى ركن الدار.. ولا أعرف كيف سرت معهم فى الجنازة.. حملت الخشبة فأزاحونى وسندونى وساروا بى فى اتجاه المدافن.. كانت مقابلتنا الأخيرة ماثلة فى خاطرى.. كنت قد أحببته، بعد أن أحببته جـاء الموت وخطفه.. كأننى كنت مشتاقا إلى الأب فلما وجدته أعطيته كل الحب الـذى حجبته عواصف الأيام السود.. ليتنى كنت أكرهه.. جلست فى المندرة آخذ العـزاء من الناس.. طلعنا عليه الخميس الصغير.. انتبهت لنفسى وأنا ألمح سيد يلعـب مع أولاد الدار.. تذكرت الإجازة والمدرسة التى حولت إليها أوراقه أخذته معـى للمدرسـة وسألت عن الأوراق فقالوا وصلت.. تركته وأوصيت زميله أن يعـرفه سـكة الكفر.. سألنى صالح عن سيد قلت راح المدرسة.. بان عليه شىء

كأنــه الاســتياء.. سألته: مالك؟ قال: أبدا.. فى الليل بدأت أرقب الوجوه، صالح بجانــب زكــية التى خلف منها ولدا يرضع.. ومبروكة التى تقعد متكدرة فى ركن القاعة لا يبين منها غير عينين ضيقتين تلمعان.. وسيد الجالس ينظر إلى الكل فى توجس، يلاعب بنت برهومة أحيانا ويكف وكأنه يخشى الاستمرار فى اللعب.. قال صالح:

- لزومها إيه المدارس يابا؟ دى الأرض عايزة رجالة.

سكت وكأننى لم أسمع ما قاله.. تحمست مبروكة وقالت وكأنها تداعبنى أو تضاحكنى بينما يتوارى فى نيراتها معنى يمكن اكتشافه:

- طــب أنت نسيت الفلاحة يا حسن.. هيه.. عمر طويل بقى.. يكون فى عونه صالح.

قلت:

- والعمل؟

قالت:

- بقول سيد يقعد فى الدار مع أخوه يساعده.. يشيل على الحمار.. وأهو الخير كتير..

سكت.. قال صالح بحماس من وجد من يسنده هذه المرة:

- قلنا كده قالوا اطلعوا من البلد.

قلت لصالح محاولا إنهاء المسألة كلها:

- لا تطلع ولا تنزل.. أنا وياك دراعى بدراعك لحد ما يكمل تعليمه.. أبويا قال كده..

قالت مبروكة:

- يبقى زى الشحط وياكل من كدكم؟
«ليلتك مهببة يا بوز القرد»

قلت لها:

- أهم ولادى والاتنين اخوات..

قال صالح وكأنه تعلم شيئا أو سمع شيئا:

- يعنى هو يروح المدرسة ويبقى أفندى وأنا أتزرع فى الطين؟

قالت زكية وكأنها تلطف الجو ولكن لغير صالحى:

- يعنى اللى راحوا المدارس عملوا إيه يابا حسن..؟

قالت مبروكة والغيظ يلمع فى عينيها الضيقتين:

- إحنا كمان مش حمل مصاريف مدارس..

قلت:

- تتدبر.

قالت مبروكة:

- هـى شـوق ولا صالحة اللى بنت أصول يا حسن يا بنى..؟ ابن شوق يبقى أفندى وابن صالحة يطفح الكوتة فى الغيط؟

قلت لنفسى: «شوق أحسن من صالحة ألف مرة.. أحسن منها يا كركوبة» وساد صمت.. واستمر لحظات.. فى اليوم التالى جاءنى سيد فى الغيط خلف نقلة السـباخ.. كانـت فى عينيه دموع وعلى خده آثار كف.. سألته فقال إنه صالح.. «ضربتنى أنا يا صالح».

سألت صالح عن سبب ضربه للولد فعرض صدغه ناحيتى وقال بغطرسة:

- وإيه لما أضربه يعنى؟ يا ما الواحد شاف وانضرب.. حاكم أنت كنت فى مصر ويا شوق يابا.. دانت بتخاف عليه قوى.

قلت له:

- دى العيشة كده ما تنفعش أبدا.. طب ضربته ليه؟.. اتكلم.. ولم يتكلم.. ظل معرضا صدغه ناحيتى وكأنه يدفعنى لضربه.. تماسكت، قال صالح:

- اللى تشوفه مشيه.. إنما حكاية المدارس دى ما منهاش فايدة..

فى العشاء قالت مبروكة وكأنها بكل شيء عليم:

- صالح إيده طويلة يا حسن.. لو كنت خايف على ابنك وديه لامه تربيه.

وتكلم صالح كلاما عجيبا.. قال إنهم يعايرونه فى الكفر ويقولون لـه: أبوك جاء يأخذ الأرض.. ويقولون لـه: طلع لك أب على آخر الزمان من تحت الأرض بعد ما كنت بلا أب..

قالت مبروكة:

- قصـر الكـلام كده.. لو فضل ابنك فى المدارس وابن بنتى يجرى عليه

أطلع من الدار وأفوتها لكم..

قلت لها:

- فى ستين كسحة.. والمركب اللى تودى..

قالت:

- حيلك حيلك.. لهو انت فاهم إن الدار بقت دارك؟ يا كيدى؟

قلت لنفسى إن مبروكة مازالت فى الدار تأمر وتنهى كما كانت فى الماضى.. حتى صالح علمته أن يكون باردا ونطعا.. علمته وسيرته على هواها.. لو عاركت صالح يلومنى الناس.. مصير الحق يصل أصحابه.. تذكرت ما قاله جدى عن الحريم. قلت أحسم المسألة كلها:

- دارى أو دار صالح ما يهمش.. أنا راجع المحلة.

ولم يمانع أحد ولو بكلمة.. كأنما كانوا ينتظرون منى أن أقولها بنفسى.. طرد لكنه مختلف.. طرد بالمعاملة.. وخرجت بليل.. أخذت أمى وسيد وركبنا.. كنت أتحاشى مقابلة الناس وأتخفى وكأننى سرقت شيئا.. ولم يطلع صالح ليوصلنى بل ظل جالسا مكانه يشفط الشاى بصوت وكأنه يعاندنى هو الآخر.. ركبنا ووصلنا البندر.. وطول السكة أقول لنفسى «الدار دار أبونا والأغراب يطردونا» وأمى كانت تعجب وتضرب كفا بكف وتقول عن مبروكة إنها قارحة ولا تخجل أبدا..

* * *

فى الشركة قالوا: وفرناك.. قلت: كملت.. «صنعة فى اليد أمان من الفقر».. رجعت إلى مدرسة سيد القديمة وتحايلت على الناظر وسقت عليه الناس ليقبل عودة الولد والرجل راكب دماغه.. والكبار يحتاجون كلمة من الكبار فيهون كل أمر كبير ويصبح سهلا ويسير التحقيق.. قلت أبحث عن رجل كبير ووجدته.. أعطيته مبلغا وقال ابعث ابنك مدرستة فى صباح الغد. والولد دخل المدرسة والناظر قابلنى ببشاشة وكأننى صاحبه.. قلت: إنه على كل شىء قدير، القرش عمال عمايل.

كنت أشتغل فى ورشة النجارة والحالة أفضل من أيام الشركة.. قالت أمى

مـــرة: خذ روحية بنت عمك رجب.. من دمك وتصون عرضك وتكون حنونة على الولد.. قلت آخذها.. سافرت الكفر.. لم أر صالح.. أخذتها بعد ليلة ساكنة بلا فرح ولا زفــة.. رجعـــت المحلة بها.. قالت أمى بعد أيام أسافر البلد.. قلت: لا.. كان الولـــد يـــتعلق بهـــا.. رغم محاولات روحية أن تبدو حنونة على الولد كان ينفر منها.. تعللت أمى بضيق المكان لكننى لم أوافق..

قالت أمى: روحية ضربت سيد على دماغه.. أخذت روحية فى ركن وسألتها عـــن الســـبب.. قالت: كسر القلة.. ضربتها وقلت لها: لو كسر أغلى شىء هنا لا أســمح أنك تضربيه.. قالت والدموع ترحمها من يدى: حرمت ولن أعملها أبدا.. «حتى أنت يا روحية تضربين؟.. ظللت تتمسكنين حتى حسبت أنك تمكنت.. نسيت أنـــك فى القدم مداس أخلعه لو ضايقنى وأشترى غيره؟» بعد أيام قال سيد نفسه: شتمتنى بكلام قبيح عن أمى.. ضربتها مرة أخرى.. قلت لها: كله إلا الكلام القبيح وقلة الأدب.

وقالت أمى: لا تضربها كثيرا.. خوفها فقط فربما تسم الولد وأنت لا تعرف «بـــدع» الحـــريم يا حسن.. الولد يروح فى لعبة.. وخفت على الولد من روحية وأخذت فى تحذيره منها فيقول لى إن أمى أفهمته نفس ما أحاول أن أفهمه.

وجـــاءنى إعلام الوراثة على البيت.. سافرت وذهبت إلى المحكمة فى اليوم المحدد.. وجدت صالح يقف بعيدا ويرقبنى دون أن يتقدم ناحيتى خطوة.. القاضى لمـــا سأله قال إنه أشترى ودفع الثمن.. «أنت تدعى أنك اشتريت الأرض ودفعت ثمـــنها.. مـــن أين جئت بالثمن يا ضلالى؟» عرفت أنه يكذب.. وأن الأوراق التى قدمهـــا مـــزورة.. سألنى القاضى إن كنت مستعدا للطعن فى أقوال صالح؟.. قلت لنفســـى أنـــه يمكـــن أن أكسب قضية الأرض وأخسر الولد.. ربما يقع فى قضية تزويـــر ويـــروح فيها ويقولون فى الكفر أننى كنت سببا، إذا كسب يقولون أننى حاولـــت الإيقاع به عند الحكومة ولم أفلح.. وفى كلا الحالين أكون معيرة الناس ولبانة يتشدقون بها.. ظللت ساكتا.. قال القاضى: أجر لك محامى ما دمت عاجزا عن الكلام ولا تعرف شيئا.. وأجل القضية شهرين.

قالـــت أمـــى: ســـفرنى الكفر أموت هناك بدل الموت فى الغربة.. وأخذتها

وأوصيت عليها الأهالي وعدت إلى المحلة.. كنت مهدود القوى وخائفا على الولد من روحية.. كانت أمي تراعيه وتحرسه واليوم تنفرد به البنت وربما تتعبه كنت ألاحظ اتساخ ملابس الولد وصفرته.. كأنه معلول.. أصبح كأولاد الشوارع.. قالت الساكنة إن روحية تجوع الولد وأنت في الورشة.. قلت لروحية: فوقي لنفسك وكفي عن مضايقة الولد، صلحي أفعالك أحسن لك.. وكل ليلة أرجع من الشغل فأسأل الولد إن كان أكل فترد روحية بسرعة وتقول إنه تعشى.. ولما يسكت سيد ويمد يده للأكل ويأكل أعرف أنه كان جائعا.. ولما أسهر في القهوة مع أصحابي أصحيه وأكتشف أنه بات بلا عشاء.. كنت أخاف أن تعمل شيئا للولد ما دامت أمي في الكفر والولد طول النهار معها.

ولما نجح في الابتدائية كثر زنها على دماغي تطلب أن أشغله في الشركة وقلت: تعلم وأصبح يحمل شهادة على كل حال وأنا خلصت من ذنبه.. دفعت لواحد من الأفندية رشوة فأخذها ووعدني بتعيين الولد.. لكنه أخذ الأوراق ولم يعينه والمدارس كانت بدأت الدراسة وأوراق الولد مازالت عند الأفندي.. وصاع الولد في الشارع، وكل يوم أذهب للرجل الذي أخذ الفلوس فلا أجده وإذا وجدته يتهرب مني ويعد وعودا تجعلني أتشكك في أنه نصاب.. واشتكت روحية من شقاوة الولد وقالت شغله في صنعة بدل الرمح في الشارع.

ولما صهينت عنها أخذته هي بنفسها وراحت به ورشة حدادة واشترت له ملابس قديمة للورشة.. واستقام الولد أياما ثم بدأ يهرب.. يقول إنهم ضربوه، وأخذته بنفسي لورشة ميكانيكي سيارات لكنه كان دائبا على الهرب منها كلما وجد الفرصة.. قلت لنفسي: الولد أخلاقه فسدت، بدأت أسمع كلام روحية وأضربه لأربيه وأعلمه.. قال زميلي محمود: ابنك صحته تعبت.. قلت له كلنا تعبانين في عيشتنا وهو ليس صغيرا ليهرب من الورشة.. قال لي: أنت التفت لابن روحية ونسيت سيد.. قلت لنفسي إن محمود يدس أنفه في أمورنا ولا يعرف ما يجري من الولد لو بقي في الشارع يتعارك مع الأولاد ويسبب المشاكل ولو راح الورشة يهرب ولا يستقيم، والأفندي أخذ الرشوة ليعينه وضحك علينا.. وروحية خلفت والدا صغيرا وليس هذا شيئا غريبا لو اهتممت به هو أيضا.. كنت فرحان بالولد الصغير أكثر من فرحتي بسيد يوم مولده لأنه جاء في أيام أحلى وظروف أحلى.

* * *

قال المحامى الذى وكلته بعد أن أخذ مقدم الأتعاب والرسوم: الولد ابنك لعب فى الأوراق واستعمل ختم جده وزور عقد بيع وأنا اطلعت على الملف بنفسى فى المحكمة وشفت التزوير.. سألته: والعمل؟ قال: وإذا كنت تريده يروح اللومان يروح، وإذا كنت تخاف عليه اتركنى أتصرف فى الموضوع.. تتنازل عن القضية.. وتسكت بعد ما نهدده ونأخذ منه قرشين ينفعوك، واتفق معى على نسبة ما يأخذه مما يدفعه صالح.

بعد مدة ذهبت للمحامى أسأله فتغيرت لهجته وقال إن الأوراق سليمة فلعب فى عبى فأر الشك وبدأت أتوجس شرا، «ربما يكون المحامى اتفق مع صالح على إفساد القضية وأخذ شيئا.. كلهم مثل المناشير طالعين نازلين حش فى تعب الخلق» قال: ما يعرضه عليك ابنك خذه ولا تعارض فما تحصل عليه يكون من حنك سبع، الأرض تحولت لصالح بموجب عقد بيع رسمى غير مشكوك فى صحته.. ويوم القضية كان المحامى الذى وكلته مع صالح فى انتظارى، قال لما شافنى موجها كلامه لصالح: أبوك مستعد للتنازل عن القضية لكن تشوف خاطره.. وسكت صالح مدة ثم قال: كتر خيرك.. كنت أراهما يتكلمان بالعيون وأحس اتفقا على أنا.. «أستمر فى القضية لآخر الشوط ولا أتحول إلى مسخة يضحكون عليها؟. «قطع على تفكيرى صالح بأن شدنى من كوعى ومشى بى إلى ركن وقال وكأنه يخلص نفسه من ورطة وقع فيها: بدل المصاريف والفضائح خذ ما تريده من دون علم المحامى لأنه أخذ منى ثمن الصلح.. «تساومنى بعد أن زورت العقد؟ وتتفق مع المحامى أيضا وتأتى لتعرض على الصلح؟ أأجر محامى آخر أم أصالحك يا صالح؟ «قال: لن أهون عليك مهما كان الحال فأنا ابنك» وهنت أنا عليك لما خرجت بليل من الكفر وكأننى عملت عملة؟ «جاء المحامى: قال فى حماس من يريد أن يخلص نفسه ويأخذ: نتفق قبل الجلسة.. تتنازل ونخلص.. قلت لصالح: طيب يا صالح.. أخرج من حافظته نقودا ومدها ناحيتى وهو يقول: ثمن المواشى، بعتها كلها وجبت ثمنها من أجلك.. صعب على حاله.. قلت له وأنا أنظر إلى المحامى وكأننى أطرده: ربنا يغنيها بالحلال يا صالح.. حط فلوسك معك واشترى مواشى فأنا مسامح ولا أريد شيئا.. «وجه المحامى كان ملهوفا وأنا أفسد عليه رغبته فى الأخذ منى» قال المحامى مستفسرًا كان بقية الأتعاب؟ قلت له: بعد التنازل.. ودخلنا عند الموظف وكتبنا التنازل ومشى المحامى ينتظر

فقلت له: ربنا يسهل لك من غيرنا يا عم» كفاك ما أخذته وعملته.. وجذبت صالح وخرجنا من المحكمة وكأنما اكتفى المحامى بما أخذه أو خاف من الفضيحة فتأخر عـنا ونحن نمشى خارجين من المحكمة: قلت لصالح: أنا لا أطمع فى شىء أكثر مـن أن يتصل حبل الوداد الذى انقطع.. قال: عرفت أنك سوف تتنازل.. وعرفت منه أنه كان يرغب فى التسجيل فأوقفوه وأرسلوا إلى إعلام الوراثة، لكنى لم أهتم بمـا حصـل.. وتركـت صالح وسافرت رافضا أن آخذ منه مليما واحدا قائلا إن الأحوال رضا..

قلت لروحية عما جرى فقالت وكأنها هى التى خسرت الأرض والقضية:

- يـا دى الخـراب.. اتنازلـت دا آيـه؟.. دانـت كنت تأخد منه حبابى عنيه..لجل عيالك يا راجل.

قلت لها اخرسى فلوت بوزها.. قلت إنها لا تهتم إلا بابنها هى ولا تعرف أن صـالح ابـنى أيضا ولا يهون على.. وسيد.. سألتها عن سر غياب سيد فقالت لا أعـرف عنه شيئا منذ الصباح.. سألتها: جاء يتغدى؟ فنفت أنه جاء.. ولما رحت الورشة أسأل عنه وجدتها مسكوكة.. قلت: ربما الولد حصل لـه شىء أو طفش من البلد.. وقلبى بدأ يدق والخوف عليه يسيطر أكثر وأكثر..

فـى منتصـف اللـيل سـمعت أصوات خطوات على السلم.. فتحت عيناى وانـتظرت، كـان خـبط على الباب وهمس.. لما فتحت وجدت سيد محمولا على أكتاف ولدين من أولاد الورشة.. قال أكبرهم سنا: داست على رجله عجلة فلوتها وأخذنـاه للمجـبراتى.. ونـزل الولدان وفاتوا سيد جالسا على الكنبة يتألم، فلما أغلقـت الـباب واقتربت منه بدا خائفا يتزحزح ناسيا ألمه.. كان يحسبنى سوف أضـربه لإهماله فى نفسه.. كلما أبتعد عنه وأنظر إليه خلسة أراه يتحسس قدمه المـربوطة ويتألم.. أحيانا يئن فى خفوت مذعور.. لما أقترب منه يكش فى نفسه ويـنظر إلـى نظرة مذعورة متوجسة.. قلت أبتعد عنه وأجعله يرقد.. نظرت إلى روحية فوجدتها صماء وكأن الأمر لا يعنيها.. تلاعب الولد ابن الأسبوعين وتنظر إلـى وكـأن سيد لا يهم فى شىء.. تذكرت خوفى من أبى.. قلت لنفسى: دماغك دارت مع روحية يا ولد.. الولد يخافك مثلما كنت تخاف أباك.. تمام.. أصبحت أنت عـبد القـادر، وسيد حسن، وروحية مبروكة.. نفس الحكاية القديمة تتكرر وأنت غـارق حـتى أذنيك فى حواديت روحية.. ليلتها لم أنم.. روحية نامت وحتى لما

كانت تقوم من أجل الولد لا تهتم بحالتى ولم تسأل حتى عن سيد..

كل يوم يأتى المجبراتى يدلك رجله المكسورة الملوية.. والولد لا يتحسن حاله أبدا.. كل يوم تزداد الرجل ورما وزرقة.. شافة زميلى محمود قبص إلى بصة لوم وقال خذه للمستشفى.. أخذته إلى المستشفى الأميرى.. قال الدكتور حالته سيئة جدا.. لو تأخرت يومين آخرين كنا قطعناها له غصبا.. بدأت أحس بالخطر حولى.. تخيلته برجل واحدة فأمسكت يد الدكتور الشاب وحاولت أن أقبلها راجيا إياه ألا يقطعها أبدا.. قال: لا تخف فسوف نحاول، وشد يده منى..سألنى عما أصابه، وسر الإهمال فى علاجه، وكيف رضيت أمه بمثل هذه البلادة؟ رحت أقول لذلك الشاب الغريب عنى كل ما حصل لى.. حكاية سيد من أولها.. كل ما أحضر لزيارة سيد يعرف عنه الدكتور مزيدا من التفاصيل.. وكل مرة ينظر إلى مستنكرا وكأنه يلومنى ويضيق بى.. لوما لا أستطيع دفعه.. نظرته يمتزج فيها الاشمئزاز والضيق والكراهية وربما الاحتقار أو الإشفاق.. لكنه كلما ينظر إلى هذه النظرة لا أكف أبدا عن السرد وكأنى لا أهتم بغير كشف كل الحقيقة.. وهو فى كل مرة ينظر إلىَّ تلك النظرة وكأنه يرى شيئا غريبا وليس إنسانا..

قدمت أوراق الولد إلى المدرسة كما أوصانى الدكتور.. لما خرج من المستشفى كان يمشى على ساقيه ويتوكأ على عصا أحضرتها له.. لكنه دخل المدرسة من جديد.. وارتاحت تقاطيعه نوعا.. واستقام فى المدرسة.. كل يوم يزداد تحسنا لأننى أراعيه فى كل شىء وأكف عن تخويفه أو ضربه.. والولد الصغير لما جاءته الحصبة حاولت علاجه، فى ليلة ازدادت حرارته وقلت إنها الحمى.. ولما مات حزنت عليه أياما.. لكن سيد أنسانى موت الولد الصغير.. الذى حيرنى أن روحية بعد أن كانت تتخفى فى مضايقة سيد بدأت تضايقه حتى وأنا موجود وكأنها لا تهتم حتى بى.. ولولا حزنها على الولد لضربتها مثل أيام زمان، لكنها كلما أسكت لها تزيد فى أفعالها ضد سيد.. قلت لها مرة تعرفين أننى تربية امرأة أب يا روحية، وأفهم شغل الحريم.. غضبت منى.. ليلة امتحان سيد كانت تبعثه يشترى لها جاز وسكر وكبريت وملح وسبرتو وعيش.. كل شىء مشوار كأنها تعطله عن عمد.. لما قال لها أنا تعبت ضربته فى وسط الشارع بالمداس فوق رأسه.. قالوا إنها دست بوزه فى فم الولد وحاشوها عنه وهو يبكى.. لما رجعت قالت لى واحدة من الشارع عما جرى فرمحت.. قالت الساكنة نفس

الشيء.. كان سيد نائما فلم أشأ أن أصحيه..

من سكات أخذت روحية إلى الكفر.. جمعت ملابسها وحملتها لها وأوصلتها إلـــى دار أهلها.. عملوا لى مجلسا فقلت للرجال: عيشها انقطع.. قال عمى فهمنا ما جرى.. قلت: ضربت سيد.. قالوا نضربها أو تضربها أنت بنفسك.. قلت: غلبت معهــا.. كــل واحد يأخذ نصيبه.. كانوا يريدون صلحا لكننى ركبت دماغى وقلت أبــدا.. قــالوا ادفــع مؤخرها قلت أدفعه.. قال أبوها: الآن وأنت جالس بيننا ولا تــتحرك مــن مكــانك.. «عملت حسابى وأكملته وأحضرته لأقطع كل الألسنة لما تطــول».. قلت طيب.. قال عمى إبراهيم وكأنه يعجزنى بنكتة: خمس ورقات فى عشــرة.. لا نقــبل جنــيها مفكوكا.. قلت: موافق.. أخرجت لهم مؤخرها وجاء المأذون وخلصتها وتركت المجلس ورجعت للولد.

بعد يومين جاءوا إلينا فى السكن وشالوا العفش كله.. المكتوب فى القائمة وغير المكتوب.. وكلما أعترض على أخذ شيء يقولون رجعها ولا تركب دماغك فى الشر مثل أبيك فأقول: أبدا.. وتركوا لنا السكن على البلاط وفرشنا قش الأرز علــى الأرض وبتــنا وكــان الجو صيفا فحمدت الله.. قلت تتدبر الأمور بإذن الله وأسدد ديونى وأشترى فرشا جديدا ويكفينى أن يستريح سيد.

كنــت أخاف عليه من عيون الناس.. لسانه طويل ودائب على الثرثرة.. لا يكــف عــن الكلام أبدا.. بعضهم ينظر إليه بحسد والبعض الآخر يضيق به.. من يومه لسانه طويل.. يحكى كل ما يسمعه أو يدور فى دماغه لأى الناس.. لما كان ولــدا صــغيرا يــتعلم كيف ينطق الكلام راح الكفر وجاء يقلد كل من رآه هناك.. أضــحكنى علــى عــبد الستار شلبى.. راح يمشى مثل أبى فمت على روحى من الضحك.. كل ما كان يسمعه يدور حوله يتذكره.. أفرح به وأخاف عليه من عيون الــناس.. الناس لا تترك الناس فى أحوالها.. «الكعكة فى يد اليتيم عجبه».. من صــغره يــثرثر، هــذه الأيام تتزايد ثرثرته.. يعجب الناس فى الورشة لأنه أخذ الابتدائــية.. ينظرون عليه كأنه فتح عكا.. يقول لهم دون حياء: وركنت سنة فى ورشــة الاســطى كمال وعلى سرير المستشفى.. أغتاظ منه.. يجعلهم يعرفون أحوالــنا.. ابــن صاحب الورشة أكبر منه، سيد فى الثانوية وهو فى الابتدائى.. يجالســه الحاج ويتكلم معه.. ألمح فى عينيه حسدا للولد.. أبص للولد لأمنعه من

الاسترسال في الحكي والثرثرة فلا يكف.. أحسه يكيدني ويحكي مع صاحب الورشة.. كلما كبر يزيد كلامه.. أكره طولة اللسان.. أكره أن يتباهى النفر بروحه وبما يعرفه.. أريده ناصحا لروحه لا يأمن لأحد..

لما كنت أشترى له ملابس جديدة ويلبسها يكون شكله مثل أولاد الملوك.. من يومه تليق عليه الملابس وأفرح به وإن كنت أخاف عليه.. خفت عليه من نزول الكفر.. عيونهم هناك لا ترحم.. قالها واحد: العين كسرت الحجر نصفين.. أخاف عليه أن تكسره العين.

* * *

بت مقهورا لما جاءني الخبر.. إحساسي باليتم يكتمل.. لم أهدأ ليلتها في انتظار الصبح.. في الصبح لم أتمكن من الحركة المعتادة.. قلت أرتاح ساعة أو ساعتين وأسافر وألحق الدفنة.. طالت راحتي كل اليوم.. كل ما أحاول المشي أتعب بعد خطوتين فأقعد.. ازداد الهم فوق صدري.. كلما أجدني عاجزا عن المشي والسفر لحضور الميتم يزداد الهم والأسى «هكذا تموتين بينما أنا عاجز حتى عن الحركة لحضور دفنتك.. وحتى المشي في جنازتك وأنت كل ما تبقى لي يا أمي؟

دخل المرض قاسيا ورهيبا.. أشد من كل المرات السابقة.. قلت إنه الروماتيزم يعود فيعض المفاصل ويدغدغها دغدغة.. وطال رقادي فقلت إنه شيء أخطر من الروماتيزم.. وصاحب الورشة زارني مرة وانقطع «بحث لنفسه عن عامل غيري فما يهمه غير مصلحته ولولا أنني كنت أفيده ما شغلني عنده، طالت الأيام فلن يكلف نفسه زيارة أخرى..» انقطع الرزق وغاب الأمل زاد الضغط على القلب والخوف حاصرني.. سيد في التوجيهي.. والهم يتسرب إلى نفسه هو أيضا.. يبدو مهموما وإن كست ملامحه محاولات للظهور بمظهره المعتاد.. أعطيته كل ما كان معي.. راح يتصرف وحده في كل شيء.. كنت أحس أن سيقاني أكياس رمل ثقيلة يصعب على جرها على الأرض.. أتلوى من الألم وأكتم الآهات حتى لا أسبب لسيد مزيدا من الأسى والحسرة وأجعله يلتفت لي ولا يهتم بامتحانه.. كلما أراد أن يسهر معي أجعله يتركني لكنه يعود ليرى طلباتي ويجهد نفسه معي ويذهب إلى الامتحان كل صباح. ولما يأتي يفوتني أن أسأله عن الامتحان.. ولما انتهى أخذني وركبنا حنطور وذهبنا إلى دكتور قريب فكشف على

وأخذ سيد على جنب وقال له كلاما بصوت خافت فاحتقن وجه الولد واحتبس الدم فيه.. لما خرجنا سألته فلم يفصح أبدا.. قلت له: يظهر أننى أودع.. فرت من عينيه دمعة وقال: اصبر واحتمل.. كان يلازمنى ويداوم على تقديم العلاج الذى اشتراه.. لكن العلاج لم يثمر.. قلت له: ضاقت أحوالنا فابعث لصالح خبرا ربما يأتى وينفعنا.. قال أسافر إليه.. «صالح نسينا يا سيد ولو كان يهتم بنا لجاء مرة بعد حكاية القضية» وسافر سيد.. ولما عاد عرفت من نظرته أن أمله خاب فى صالح فلم أشأ أن أسأله.. قال سيد: قابلت عمك إبراهيم وطلب العنوان وقال إنه سوف يأتى.

فى مساء اليوم التالى جاء عمى إبراهيم.. عجوزا يحمل فى يمينه سبتا صغيرا وخلفه رجل يحمل قفة كبيرة.. حطها عنه وناوله الأجرة وأشرق وجهه بضحكة.. تاهت التجاعيد وهو يقول لى:

- فز قوم يا بن الكلب.. راقد كده ليه؟

قلت وأنا أتماسك إننى عجزت عن القيام والحركة.. ارتسم على وجهه غم كثير.. جلس على طرف السرير وراح يربت على كتفى مهونا «شدة وتزول.. يومين وتقوم مثل الحصان..» بان فى كلامه أنه يدارى أمرا.. قال: صالح غرقان فى دودة القطن.. «دودة القطن.. وأنت جئت وفاتتك دودة القطن» قال: وحدانى.. يكون فى عونه.. «وأنت تعرف أن المرض يبين العدو من الحبيب..» تفكر عمى لحظة قبل أن يقول: صالح سوف يأتى.. يقول إنه ينتظر حتى يستعد، همهم يائسا ثم جرت على خده دمعة.. فى حياتى لم أر غير ابتسامته. لم أر لون دموعه، كنت أحسبه لا يبكى طوال عمره.. يضحك، حتى لما مات ابنه الكبير فى عز صباه قال لامرأته أمام المشهد:

- بطلى ندب يا وليه.. الله جاب.. الله خد.. الله عليه العوض.

قالوا يومها قلبه صخر لا يحس بالهم، وقالوا بحبوح لا يحمل للدنيا هما، ولما بكى قبالتى رأيت فى عينيه إنسانا يبكى دموعه المحبوسة.. كأنه ركزها فى دمعات تنسال خلسة بعد أن ظلت محبوسة عمرها الممدود بطول عمره.. دموع حزن قديم ينفجر فى لحظة كذب لأنه كان يكذب فى كل ما قاله عن صالح.. اضطر تحت وطأة اللحظة أن يكذب.. أحيانا تجرنا الكذبة المقصودة إلى الدمعة..» ربما

هـــى دمعـــة حزنه القديم تنفجر فى لحظة ضعف لم يكن يعمل لها حسابا.. «ترى هزمك الزمن الدوار يا عمى مثلما هزمنى المرض؟»

رفع رأسه وكأنه ينفضه.. نظر إلى سيد وأخرج حافظة نقوده ثم قال:

- خذ يا وله.. اشترى لى ثلث دخان وتعالى..

«مـــا كنت تدخن يا رجل» وعندما خرج سيد رفع الوسادة تحتى وحط شيئا ولما نظرت إليه همهم يسكتنى فلم أتكلم.. استعاد ملامحه القديمة وكأنه بعدما حط مـــا حطـــه تحت الوسادة نفض أحزانه وهمه.. كأنه لم يعمل شيئا يستحق مجرد التعليق.. قال وكأنه يسخر من شىء فات لكنه بقى أثرا:

- تعـــرف يـــا حسن يا بنى أبوك الله يرحمه بقى، كان غشيم زى الزمن، بيقولوا لقوا مطرح دماغه يوم الغسل قالب طوب أحمر.كنت أعرف أنه راغـــب فـــى إضـــحاكى لكننى لم أضحك.. كان قادرا على إضحاكى فى الماضـــى.. قالوا أنه يقدر على إضحاك طوب الأرض.. لو أراد يضحك طـــوب الأرض وأنـــا عجـــزت عـــن الضـــحك.. حتى ولو على سبيل المجاملـــة.. كـــان الهم فوق صدرى وربما صدره أثقل من أن تزحزحه نكتة قديمة عن دماغ أبى.. يقولها بينما قلبه يبكى فى خفوت مع قلبى.. «وأنت السبب فى كل هذا يا صالح.. ترى ماذا قلت لسيد.. وهل عرف عمى ما دار بينكما فجاء ليعوض ما حصل منك؟».

قـــام وبـــدأ يفك تحبيشة السبت ويخرج طعامًا ساخنا.. يرصه بجانبى على السرير.. ولما دخل سيد راح يداعبه ليزيل عن وجهه الكدر والولد حزين.. حلف يمينا ما لم ننس الهم ونكون رجالا لا يبيت عندنا الليلة.. حاولت أن أبتسم وحاول ســـيد.. كأنما المحاولة أثمرت.. اندمجنا فى الضحك.. كأنما نسينا المرض والعوز وموقـــف صـــالح الـــذى هرب منا فى الشدة.. قلت لعمى: نسينا الهم يا عجوز.. ضـــحك وقـــال بطلـــوا هـــبل وكلوا.. كان يطعمنا بيديه.. ولا يأكل ويكتفى بسرد الحكايات عن أبى وأعمامى وجدى.. يتخير ما يثير الضحك.. قلت له وأنا أضحك: طـــول عمـــرك صاحب واجب.. قال: أنتم أولادى.. ليس لى غيركم اليوم فاسكت وبطل كلام فارغ.

قـــام فى الفجر وصلى.. صحانا وعمل شايا بنفسه «شاى البندر خفيف مثل عقــول أهلـــه» قالها فضحكت.. قال: هناك مثل يقول عن الضيف: أول يوم بدر مــنور.. ثانى يوم رغيف مقور ثالث يوم عفريت مصور.. وأضاف: وأنا لا أريد لنفســى أن أكون عفريتا وكفانى أن أكون رغيفا.. عرفت أنه ينوى السفر.. قلت: لا.. قـــال: لابد أسافر اليوم.. سلم علينا.. هم سيد أن يخرج معه فحلف عليه ألا يخرج ادعى أنه ينوى المشى وحده ليتفرج على حريم المدن دون رقابة من سيد أو غيره.. ومشى.. وساد صمت بيننا بعد أن خرج الرجل، أشرت إلى سيد فجاء.. أشرت إلى الوسادة فرفعها سيد من تحت دماغى وأخرج من تحتها حزمة جنيهات كان الواحد منها يساوى ألفا فى تلك الأيام السود.

قال الدكتور:

- سافر مصر.. أدخل القصر العينى.. لن يفيدك علاجى.

ســـافرنا مصر.. أتعبونا كثيرا حتى سمحوا لى بالدخول.. بدأت أشم أنفاسى وارتـــاح.. جـــاء سيد يزورنى بعد أسبوع قال: قدمت أوراقى فى كلية الحقوق.. فرحـــت «ستكون كما كنت أتمنى.. محاميا يختلف عن النصاب الذى أفسد القضية وبلع نصف الأتعاب وضيعنا يا سيد؟».

كـــان نجاح سيد هو الذى جعلنى أمشى وأدب على أرضية المستشفى.. لم يكن العلاج وحده يكفى.. ولا العملية التى أجراها أستاذ كما يقولون.. كان على أن أقــوم مـــادام سيد قد نجح.. ها هو يدخل الجامعة كما كنت أحلم ويحلم.. لابد من الشغل لأوفر لــــه المصاريف.. لابد أخرج من هنا لأواجه الناس وأكلمهم عن سيد ونجاحـــه.. ها هو المشوار يبدأ من جديد.. لكنه يهون كل شىء ما دام سيد يتعلم ويتقدم.. سوف تفوت الأيام السود ويصبح الولد محاميا له اسم كبير.. يومها أنزل معـــه الكفر وأفخر به وأتباهى فى خطواتى.. أجعلهم يقولونها: ابنه أفلح.. أنظر إلـــى وجه صالح وألومه.. أهز الدماغ له.. ولا أتكلم.. أجعله يفهم أنه لا يساوى شيئا.. والجرح يومها ما كان يؤلمنى رغم عمقه وقسوته.. كان فى سلسلة الظهر جـــرح طويـــل مفـــتوح.. بمشرط أستاذ طبيب لكنه ملموم.. كل ساعة أرغب فى هرشـــه وأمـــنع نفسى وأتماسك ليطيب.. لكن الجرح الذى فى القلب كان يجعلنى عاجزا عن التوقف عن الإحساس بالأسى رغم كل شىء.. حتى نجاح سيد ما كان

قـــادرا علـــى جعلى أنسى صالح.. «حتى وأنا مربوط فى سرير مستشفى لا تأتى لـــترانى يا صالح.. كأنك ابن حرام.. كيف يطيب جرح القلب منك وأنت تعرف كل شـــىء ولا تهتم..؟ ما لم تكن أنت مع سيد معى وحولى وفى خيالى فمن غيركما يكون معى..؟» ولما جاء سيد يوم الخروج نسيت نوعا لكننى سألته: كيف يطيب جرح القلب يا سيد وصالح لم يكلف نفسه مشقة المجىء ليرانى؟

ولمـــا رجعت المحلة اشتغلت فى ورشة أخرى.. لكن المكاسب كانت أقل.. قلـــت: مطالـــب الجامعة كثيرة ولا تكفى اليومية.. فى البيت وضعت العدة وكنت أشـــتغل للناس أيضا.. وسيد عمل اشتراكا فى القطار وكان يسافر كل يوم ويعود فـــى المساء.. لكنه كلما أراه أفرح.. أقول يهون الشغل ما دام الولد فى الجامعة.. أنـــتظر نجاحه بفروغ صبر.. أحس أنه لابد أن ينجح.. لو تنقضى الأيام بسرعة.. لو تفوت الأيام وينجح.. ونخلص.. ولما نجح فى المرة الأولى اطمأن قلبى كل ما كنت أخشاه أن أعجز عن الشغل قبل أن يكمل تعليمه ويصبح كما يرجو وأرجو.

* * *

شـــمروخ أبـــى فـــى يدى وأنا استند إليه.. مشوارى إلى المدافن اليوم فى طـــراوة الصـــبح.. مـــربعات الأرض المزروعة بالخضرة.. والنسيم يهف فيفيق الدمـــاغ ويحس.. كلما يموت فى الكفر نفر يأتون ويندبون «فيم الندب والبكاء ما دمتم تعرفون أنه لكل أجل كتاب».

صـــباح العيد.. والأحياء يأتون يطلبون الرحمة للأموات.. أشعر بالونس.. أجلس بعيدا وإن كنت أحس بالونس.. يتسامرون أم يعزون ويطلبون الرحمة؟ فى الصـــبح لطـــم الحريم وندبهن.. وفى الليل الشماتة والسمر.. الأولاد يأتون وفى عـــيونهم أشياء: البنات.. «وكنا مثلكم نأتى إلى المدافن فى صباح العيد ننظر إلى البـــنات ونتمـــنى أن نلعب.. أن نلعب مع البنات لعبة الكبار التى نسمعهم يجىء بهـــا.. ولمـــا يحس الواحد منا بأنه أصبح قادرا وراغبا يأتى مع الأولاد الكبار.. تشـــغل البنات بنا.. نتصنع أننا حفظنا القرآن ونتلوا ما يجىء على الخاطر.. على روح الأمـــوات نقرأ الآيات التى نذكرها.. لما ننسى نكمل من أى جزء آخر.. كله قـــرآن.. تضـــحك البـــنات وكأنهن يعرفن أننا نتلاعب وندعى.. ومن طرف العين

نرقب الوجوه المحجوبة.. نرفض أخذ الرحمة فنحن أولاد ناس جئنا نقرأ من أجل الـــرحمة للأموات وليس بثمن.. طلعة العيد أيامنا كانت تختلف.. البنات.. الوجوه النسائية التى حجبوها عنا.. نسأل من يعرفون عن الأسماء.. نعشق من بعيد.. لا نجســر على القول.. لا شىء غير القرآن لغة.. غاية ما كنا نقدر عليه النظر إلى وجوه وصدور البنات الفائرة.. تأتون أنتم وتتصنعون الحزن على أمواتكم.. أسأل أن كـــانوا يعرفون الحزن كما عرفته؟.. يتسامرون أكثر الوقت.. الرجال والحريم فى أحـــواش المدافن وعلى مداخل الترب.. الأولاد والبنات يبدأون الرمح وأحيانا الضحك بصوت عال مكشوف.. فى الأركان يكون النظر واللمس.. أشياء كثيرة تتم خــلف الحيطان بعيدا عن الأعين.. أعرف.. أعرف ولولا كبر السن لمارست لعبة المدافن الجديدة فى فجر العيد.

كــلما قابــلت ولدا شقيا يبحلق فى ولا يخاف.. صادفت بنتا شفتها وكانت تحسبنى لم أرها تعبث مع الولد.. فى المدفن كان العبث وتابعت هى المسير قائلة فى غير اهتمام:

- ما تروح دراكم يابا حسن..

تتثنى فى مشيتها.. الولد فى أثرها.. «الحريم.. بدع الحريم والولد لما كان يتســـلل خـــلفك ويلـــبد معك خلف تربة على شلبى.. ولا أراه حقا - وإنما أسمع صـــوته مخـــلوطا فى همســـات رفضك الأولى قبل أن تكون الاستجابة.. وبعدها تعودين ولما تسألك أمك تقولين بصوت مطمئن واثق:

- كنت باعمل زى الناس.

أى نـــاس يا فاجرة؟.. أنت حرة.. والولد يلف مثل النحلة.. يحوم حول الكل ولا يسأله أحد.. ومن يسأل الولد..؟»

يقولـــون إنـــنى بكثرة زيارتى للمدافن أدفن نفسى حيا.. أنتم الموتى.. هنا الدنيا كلها.. الرجال الكبار الراقدون فى سكون.. يرقبون كل شىء ولا يتكلمون.. لو كانوا بينكم ما رضى نفر منهم بما يراه ويسكت اليوم.. فيم الغضب والخجل؟.. كانوا يفعلونها ولو بشكل آخر.. والحريم كن يعملنها علنا أو فى الخفاء.. حلالاً أو حـــراما.. ليكـــون أولاد وبنات.. لتكون الدنيا.. رجالاً وحريمًا.. ليظل الكفر يعطى

نسـله المبروك.. هاهو أراه قبالتى من جديد.. بوجهه الأسمر وعوده الممدود.. «طالت غيبتك هذه المرة يا سيد.. عطلك أبى أم برهومة؟» أستعيد نبرات صوته.. فى الجنة أنت يا ولدى.. حولك حور الجنة.. أسمعهن يغنين لك.. يتزاحمن حولك الآن.. أبـى .. بـرهومة.. أعمـامى.. جدى.. أمى.. يتوه صوتك يا سيد.. تتوه ملامحـك أراهـم يزحفون حولك.. الأولاد والبنات والأطفال والرجال يتحركون.. يفسدون علىّ رؤية الموكب الحقيقى.. موكب الرجال الذى أهواه.. لا يتكرر كثيرا يـا أهـل الكفـر فانزحوا لأراهم.. يدبون الأرض فيضيع هسيس الموتى وصوت الأغنيات المألوف.. تتوه الرؤيا..

وأنـا أسعى هذه اللحظة بشمروخ أبى أتوكأ عليه.. أدب الأرض مثله.. من أيـن تأتينى كل هذه القوة على كبر..؟ كأننى أبى.. أناديهم بالاسم ولا أسمع غير صوتى.. يكتفون بالالتفات ناحيتى.. أصابهم صمم.. ربما صوتى محبوس.. لكننى أسمعه.. أصرخ: سيد.. برهومة.. أبى.. لا رد..

يـأتى الأولاد.. أولادنـا الصغار.. يرشون ماء القلة البارد.. افتح العينين وأكتشـف الخدعـة.. كـأنهم تخفـوا فـى وجوه القدامى ولما رشوا الماء بانت الحقيقة.. امشوا يا أولاد الأبالسة.. الأسماء نفس الأسماء.. برهومة.. سيد.. عبد الحمـيد.. سـيد آخـر.. سلومة.. شعبان.. عبد الغفار.. عبد القادر.. إبراهيم.. الأسماء القديمة محطوطة فى أبدان صغيرة.. أسماء الموتى على الأحياء.. دورى يا ساقية الأيام ولا تكفى أبدا عن إعطاء النسل الجديد.. اجعليه يأتى.. اجعلى الكل يـأتى مـن جديـد.. يذوب فى الفراغ لكن الاسم حى فى آخرين.. التراب الناعم تسـفحه الـريح وأنا أتكئ على أكتاف الأولاد الصغار.. أسألهم إن كنت قد نمت؟ يقـول الـبعض إننى كنت نائما والبعض يقول أننى غبت عن نفسى مدة.. التراب الـناعم من أثر خطوات من سبقونا تسفحه الريح.. يدخل المنخار.. أشمه أولا.. أجده يتسلل إلى البلعوم.. أبتلعه.. أذوقه.. تراب مدافن الرجال الناعم فى الحلق.. نبـتلع الـتراب قبل أن يبتلعنا.. غدا يبتلعنا التراب يا أولاد الأبالسة.. تحيطوننى كأنـنى عريس ليلة الزفة.. أضربكم بالشمروخ لو كنتم تعبثون.. يقول الرجال لما يلمحـون خطوى: كأنه عبد القادر يعود من المدافن بعد طول غياب.. عبد القادر يعود يدب بالقدمين ويلوح بشمروخه فى وجه الريح..

«لما أموت يأخذ صالح الشمورخ.. يمشى فى دروب الكفر يخوف الأولاد.. لكنه جيل لا يخاف.. يتجاسر علينا ويطل ويتكلم.. زمان جديد، أنت يا ولد.. أنت يا ولد يا ابن الكلب خذ يدى فالظلام حل وما عدت أميز الطريق إلى الدار».

أدخل الدار.. الليلة أجلس فوق دكة النورج.. اليوم عيد عند الأموات كما هو عيد عند الأحياء.. تأتى البنت بالأكل.. هذا طبيخ ولحم.. «لحمكم وقيع يا بنت الكلب.. كأنه لحم جمل عجوز.. أنتم مساكين.. على أيامنا كنا نشرب السمن شربا ولا نشبع.. أولادك مساكين يا صالح.. البصل ومش الجبن هرى جوفهم.. اللحم فىالمواسم والأعياد.. البيض للبندر.. السمن للبندر.. الطيور للبندر.. ويتبقى الجبن إن تبقى.. أيامكم فقر فى فقر.. يا فرحتى بزيادة العدد.. تأكلون لحم الوقيعة.. تفرحون.. وأنت يا صالح أراك ساكتا.. كأنك انحنيت أنت أيضا.. مصاريف الأولاد فى المدارس.. الجمعية والكسب.. والكيماوى ودودة القطن والرش.. أيامنا لم يكن هناك رش.. نقلة السباخ كانت تكفى.. عبد الوارث أفندى صاحب الجمعية حرامى قارح.. وجماعة شلبى ركبت أنفاسنا بعد أن علمت أولادها فى المدارس والجامعة.. لو ظل سيد.. استمر يا ولد فى تعليم الولدين والبنت.. محمد حكيم.. أحمد محامى.. علمهم يا ولد ولا تتراجع مهما كان الأمر.. لو بعت ما تبقى من الأرض علمهم..

البنت تأتى بخنصر الشاى وتمد إلى الجوزة.. تحط النار جنبى وتغطس فى المندرة.. صالح يأتى ويجلس بجانبى.. أناوله الجوزة.. دخن يا صالح لتنسى المشاكل.. تأتى البنت بخنصر شاى لصالح وخنصر آخر لى.. شاى مر وأسود.. «منذ أيام اختفى الشاى.. داخ صالح.. التموين لا يكفى.. من غير الشاى ترجع اللقمة..» صالح يناولنى ورقة المعسل يقول إنه ذاهب لصلاة العشاء.. تعلمت الصلاة يا صالح؟ يأتى الولد الصغير ويحوم حولى.. آخذه وأقعده على حجرى.. أخرج من جيبى كوز الذرة المشوى.. أناوله للولد.. يفرح به.. يغرس أسنانه فى حبات الذرة.. كأنه لم يشبع.. ومن يشبع هذه الأيام؟ الجوع فى أسنان الولد الصغير.. لسانك أخرس فلا تطلب مزيدا من الأكل أم أنك تفهم الحكاية من أولها لآخرها رغم صغرك؟. كل يا شاطر كل..

* * *

قابلت سعاد فى سكة البندر.. جاءت ناحيتى وسلمت.. مشت تحكى عن

الجامعة (كان سيد مثلك فى الجامعة دعوت لها بالنجاح.. «ها أنت يا شوق تجدين عوضا عن سيد.. وأنا أيضا..» فى عينيها حب وصدق.. كأننى خلفتها.. لماذا لا تكـون هـذه البنت بنتى أيضا. أحس بالحب لها.. أفتح لها قلبى.. أقول لها إننى أذهـب إلـيه كلما ساعد الجهد.. تقول إنها تعرف.. تحبنى.. أحبها.. بنت طيبة.. كأنهـا شـوق أيام أخذتها معى.. يرتاح الواحد لها.. تحكى - المواصلات صعبة قوى هنا.. الواحد يمشى ولا يفضلش ملطوع يستنى.

قالـتها لتفتح موضوعا جديدا، قلت لها إننا كنا نمشى هذه المسافة دون أن نحـس أننا مشينا.. من أيام الكيماوى ما دخل الزراعة قل الخير.. الناس أصبحت أضـعف.. تضـحك تظهر بنايات كفر عسكر الطينية.. نصل إلى الكوبرى.. تقول لى.. تفضل عندنا.. أود لو.. أقولها دون وعى، ليته من الممكن أن أحضر معك.. لكن مستحيل. من جعل المستحيل مستحيلا يا سعاد؟ الناس الناس جعلوا المستحيل مستحيلا.. أشوف شاكر.. لا أرتاح له أبدا.. أرتاح لك.. سيد كان يرتاح لك أكثر.

- شاكر طينة لوحده.

أعـرف أنـه دائـم المشاكسة.. ليس مثلك يا سعاد.. تطول الوقفة أود لو أقولها.. سأقولها:

- أسمعى يا سعاد.. سلمى لى على شوق.

أسير وحدى.. لم يعد هناك خصوم لى.. صالحت الكل.. بعدك يا سيد ما عاد عندى من أخاصمه.. قلتها مرة أخرى:

- صحيح يا سعاد.. سلمى لى على شوق.

* * *

صـــــالح عـــــوف

١٩٧١ - ١٩٢٥

فـى كفـر عسـكر لا يكـون الحـلم سـيد الأخلاق،تنقلـب الآيــة ليصـبح العـنف سـيد الأخلاق،هكذا عرفتهم ربما لأننى كنـت بيـنهم مـثل عيسـى بـن مريم بلا أب يمنحـــــــنى الحمايـــــــة.

وجـاء الزمـن العويـل بأيامه الخسيسة، فانزاحت الأصول القديمة تداوى جراحها التى أسفرت عنها المعارك، تلعن الزمان الغادر وتلعق الجراح، وما تبقى لأولاد الأصـول إلا الفـرار إلـى حضن الأيام الخوالى بنصف الوعى الباقى أثر الامتصـاص الدءوب لدخان الحشيش. حتى الصنف غشوه وأصبحت الغيبوبة فى أغلب الأحيان زائفة، يتطوح الدماغ بفعل الهم الراسخ على الصدور المنهوكة من كـثرة الشـد المسـعور لسـحابات الدخان، تعز لحظة التجلى المأمولة فنرتضى بالـتوهان، نجاهد فى عسر أن نستعيد ما كان، هروبا من خسة الأيام، نحكى عن العـز القديم ونرتعب من لحظة الإفاقة التى تحطنا وجها لوجه مع ما صرنا إليه. عمـدة بلدنـا مـن جماعة شلبى.. وكان الله بالسر عليما..، شيخ غفر بلدنا من جماعة شلبى.. والله على كل شيء قدير..، صراف بلدنا من جماعة شلبى.. وهو الغفور الرحيم..، لنا مشيخة البلد ولهم دوار، والجدار الواطى تخطيه الكلاب.

كنا فى نومة فعبروا فوق أبداننا وداسوا اسمنا لما حطوا النعال على أرضنا المسـلوبة.. الـرجال السمر القدامى راحت أيامهم وما عاد لأى اسم منهم نفس الرنيـن، عبد القادر عوف، الحاج مصطفى عوف، سعد عوف، عبد الحميد عوف وأخـيرا وهـو الأدهى سيد عوف.. كلهم راحوا وخلفوا مساخيط تجعجع من باب التـباهى بمـا تبقى.. يتحايلون على الحياة بما تحت أيديهم من قراريط لا تجود بالخبز إلا بعد الضنى وهد الحيل.. أصوات تتقاطع وتتزاحم فى محاولات صبيانية لتأكـيد وجودها شبه المعدوم.. يحكى مهرجنا العجوز الذى تبقى من جيل الرجال عما كان فنسكر بالحديث يسخر مما فعلوه وما قالوه فيضحكون، أتمثل وجه جدى عـبد القـادر فيستعصى على الدماغ نصف المدرك، أتذكر زنده الملفوف القابض على الشمروخ فأستعيد الملامح، وجهه الصارم الذكر وعوده الممدود وكأنه مارد من عالم بعيد، أحس الحسرة وأقول لنفسى بينما أطالع الوجوه أمامى أنه سيكون عسـيرا بحـق أن تـأتى من ظهور جماعة عوف خلفة قادرة على إعادة الزمن

الأصيل، أقول إن حقل الرجال الشداد أجدب، إن بذورنا خابت لأن من غرسوها - مطمئنين إلى قدرتها على الإثمار - نسوا أن يحسنوا رعايتها، هاهم أولاد جماعة شلبى بوجوههم المخطوفة يسودون ونكتفى بالثرثرة، وهاهم أولادنا ساكتون على كل المهانـــات. راضـــون بكل مـــا يجرى.. يتصارعون فيما بينهم حول القراريط، يــــارعون فى الوشاية.. أولادهم حفاة، لا يخجلون من تأجيرهم للفرقة لقاء نصف الريال اليومى، يرددون فيما بينهم ما سبق أن سمعوه.. جماعة عوف أصل البلد، تشـــرفنا.. جماعة عوف نطفة طاهرة، أهلا وسهلا بنسل الحسين.. جماعة عوف كانوا وكانوا، يا هنانا ويا سعدنا.. يخطفنى اسم جدى عبد القادر على لسان الجد إبراهيم: كان سيد الرجال.. «ينسى أن نعل مداسه كان يساوى عشرات من أعناق الـــرجال الهياكل فى كفر عسكر».. ألف رحمة تنور قبرك يا زين الرجال، يا آخر طـــرح مبروك فى شجرة أولاد عوف الكبار، بعد أن رحلت يا رجل عجزنا عن لم الشـــمل، واجهـــنا ليل الزمان العويل غير الراغب فى الانتهاء. وحتى ما تبقى لم نحســـن حراسته، الأغراب يتسللون إلى دربنا ويسرقون، ونجتمع لنعرف من أخذ مواشى العم مصطفى فيتحول المجلس إلى سهراية لا نفع منها ولا جدوى».

وســـيد عوف قتلوه فى مدخل الكفر وكأنه غريب، والفاعل مجهول.. هكذا بعد الأربعين لا يستحق النفر منكم إلا مصمصة الشفاه وإلقاء العظات: الأعمار بيد الله، كلـــنا أمـــوات، أعطـــنى عمرا وارمينى البحر.. والرجل هناك فى الدار فاقد لنصـــف عقلـــه بعد ما مات سيد، فى الدار وليس فيها، يرانى ولا يفهمنى» جئت تـــنعى ابنك الآخر وترمى على هموما لا تطاق، جئت عاجزا وهزيلا لتؤكد لأولاد الكفر أنك أبى الضائع على مدى السنوات ورفضت أن تبقى لما كان العزم والعقل عـــندك؟ ولا حيلة لى فى إعادتك واعيا بما يدور حولك. قمت من مجلسهم رافضا عروض البقاء.. وحدى أقطع الدروب إلى الدار وتنبح الكلاب.. وحدى أنعى كفرنا الخســـران وتنـــبح الكلاب.. وحدى كما عشت عمرى ونباح الكلاب المسعورة لا يكـــف.. وعتمة الكفر لا تبعث إلا على الخوف مما تأتى به الأيام.. الكلاب الغريبة دائـــبة على النباح كأنها تغيظنى بنباحها المتواصل وتقول إنها جاءت لتحرس من أصبح الكفر كفرهم ونحن لهم تابعون، تحرسهم كلاب ونتكل على من لا يغفل ولا ينام، لكن كيف سرقوا مواشينا ومن سرقها؟ «الفاعل مجهول» جواب مريح على

كل الأسئلة حتى ولو كانت تخص من قتلوه عند مدخل الكفر وكأنه غريب «لماذا جئت يا سيد فى زمن أصبحنا فيه غرباء فى كفرنا الملعون؟ لماذا لم تأت فى زمن القدرة؟ ولماذا كان علىّ أن أعيش لأرى انطفاء شعاعنا القديم، محبوسا فى خدعة اسمها الدار والأولاد؟» فى السوق يسألوننى لما أقول لهم إننى من كفر عسكر الحاج مصطفى شلبى؟ تعرف الدكتور صلاح شلبى؟ ولا المهندس ممدوح شلبى؟ ولما أدعى عدم المعرفة يقولون: أنت تخدعنا.. من فى كفر عسكر لا يعرف جماعة شلبى؟ الناس تنسى، نسوا جماعة عوف، نسوا الحاج بدر عوف والحاج مصطفى عوف والشيخ سليمان عوف وصالح عوف الكبير وعبد القادر عوف، كأنما ورثتنا جماعة شلبى على الحياة، ربما لأنهم يلعبون بالجنيهات ببجاحة، عيونهم مفتوحة وتجارتهم رابحة، يزودون فى ثمن البهيمة بالخمسة جنيهات ويضحكون، والأرض التى أخذوها من نسلنا الطاهر وزرعوها فواكه وحوطوها بالأسوار تئن طلبا لمن يرفع عنها الأقدام ولا من يسمع.. جماعتنا فى توهة، يتكاثرون إنما بلا قيمة، فالقرارايط هى القراريط لكن فى وضع الاستعداد لمعاودة التقسيم ووضع الحدود، قال جدى عبد القادر: علموا الأولاد فى المدارس، قال سيد عوف: عيبكم أنكم تجاهلتم وجود المدارس والجامعة ومراكز التدريب.

- مين هناك؟

وسكت الصوت، ابن بهية يقولها وينام أو يتحسس بالكشاف طريقه ويبربش بعينيه ليتعرف بعسر على العابرين قلت:

- أنا صالح عوف، وأنت مين؟

لم يرد، كان الكشاف عند آخر الشارع يتعثر ويحاول أن يجد لنفسه طريقا مستقيما، قلت لأعرفه مكانى فربما لم يسمع، ربما فقد أذنيه أيضا:

- انطق يالطخ

كان الكشاف يقترب.. ينير الشارع وتتبعه الخطوات.. أصبح الكشاف موجها إلى وجهى.

قلت بضيق:

- ما ترقد يا بن بهية وبلاش زغللة ف وش الرايح والجاى

- والدرك؟
- لأ فالح ياوله، وبهايم أبوك مصطفى لما راحت م الدار كنت فين؟
- ف الدرك
- الله يـــرحم خـــالك، ماتقوللى ياوله، ابن مين اللى سحب جوز البهايم؟ حديك خمسين قرش.
- وأنا إش عرفنى بقى.
- طب روح لأمك تعشيك.

لطشته على كتفه حامل البندقية وأزحته عن طريقى.. زمن أعوج، ابن بهية يحرس الكفر، أعمش ومسلول ويحرس الكفر من لصوص الليل؟ ألم أقل إنه زمن عويل؟ الناس فى توهة والكفر فى نومة.. ما عاد الحلم سيد الأخلاق، قلبوا الآية أولاد الأبالسة، أصبح العنف سيد الأخلاق.. العنف سيد الأخلاق يا كفر عسكر، من سماها كفر عسكر؟ من عيّن ابن بهية لحراسة الكفر؟ من سحب المواشى من دار مصـــطفى عـــوف؟ دارك واطـــية يا عم مصطفى.. قلنا إن الجدار الواطى تخطيه الكلاب، ليل شتاء الكفر طويل والرطوبة تنفذ فى العظم، والسهرة كانت كعدمها.. حتى الصنف غشوه؟

قال سيد عوف قبل مقتله بشهر: بالعقل تنحل المشاكل وليس بالعنف وحده يا صالح.. قلت لنفسى يومها: هو أفندى ناعم تربى مع تلاميذ المدارس وتوظف مـــع أفـــنديه يخاف الواحد منهم أن يتعفر كم قيمصه، هنا دنيا أخرى.. بالعقل لا تـــنحل مشكلة، لو كنا كما كنا هل كان سيد عوف يرتمى رمية الكلاب عند مدخل كفـــر عســـكر، وكـــنا نعجز عن معرفة الفاعل كما حدث، لو كنا أقوياء هل كانوا يســـحبون مواشـــينا من دورنا؟ العمدة قال إنه لا يعرف وأضاف أنه غير مكلف بحراســـة مواشينا، دلدول وناصح مثل بقية أولاد شلبى.. شبعت بطونـهم فتحركت ألســـنتهم إنما لا يفكرون فى أخذ المواشى، فلصوص العالم درجات كما قال سيد، ربمـــا أولاد الزفـــتاوى، لكـــنهم تابوا بعدما مات أحسنهم فى المعتقل، العمارية، السلامية، تيوس جماعة سعد الله، ربما مرزوق ابن سليمان، لا أعرف لماذا يلح علـــى دمـــاغى طوال هذا اليوم، كلما أبعدته يعود، «بالعقل تنحل المشاكل» دارهم قريـــبة من دار العم مصطفى، لهم باب على السكة الزراعية، الولد كان محبوسا

وله فى الكفر سوابق، مرزوق ابن سليمان يعملها، ربما غمز ابن بهية بجنيه أو جنيهين، ابن بهية دلدول، يفرط فى شرف أمه لو شم رائحة الفلوس، يبيع الكفر كلـــه بأنبوبة مرهم بنسلين تبرد التهاب جفونه الدائم، ملعون سنسفيل جدود من كان سببا فى تعيينه.. مرزوق يعملها، كان يحوم فى طرقات الكفر ويتبصص على شئ يلهفه، رمى بلاه على شاكر وأخذ علبة السجائر وطالبه ببقية الجنيه، شاكر حلــف بشــرف أمه أنه لم يأخذ من مرزوق مليما، أبعدته عن البوابة وقلت لـــه كلمتيـــن وزغدتـــه مرتين.. ربما قرأت فى عيون ابن بهية اسم الولد مرزوق لما ســألته عمـــن ســحب البهائم، لكن كيف تعكس عينان دامعتان موجوعتان اسما لشــخص غائب؟ عينا الولد ابن بهية كانتا تزوغان منى، لو كنت عاودت السؤال ربمـــا كـــان قالها: مرزوق، زمن أغبر، القوالب نامت وقامت الأنصاف، أنصاف الـــرجال قـــاموا يعبـــثون، رقد الرجال فاستباح العيال مالهم، استغلبونا على آخر الزمان،استغلبوا جماعة عوف.. كأنهم سرقونى أنا، من يكون مرزوق وسط أولاد اللـــيل الذين قطعنا دابرهم من الكفر؟ ابن ليل جديد يطل علينا ويرعبنا فى الزمن الخســـيس؟ تـــرى هل باعهم فى سوق البندر أم أنه خاف، ربما سربهم فى الليل بمعـــرفة ابـــن بهية، ربما يبيعهم غدا فى سوق الخميس، يسحبهم ويرميهم لأى جزار ويأخذ أى ثمن.

دخلـــت بـــاب الدار المفتوح.. كان الرجل قد نام والأولاد ناموا.. باب الدار مفـــتوح.. لـــو دخل أى نفر وسحب مواشينا ما أحس به أحد، المال السائب يعلم السرقة.. دورنا مفتوحة فى زمن غير الزمن الأول.. الباب المسكوك يمنع القضاء المســـتعجل، لكن من يعودنا قفل الأبواب وقد عودونا أن الدار أمان والدنيا بخير، دعبســـت حـــتى وجدت الحرام، تلفعت به وخرجت ولم يشعر بدخولى أو خروجى أحـــد، ربما انتصف الليل.. عدت متجها إلى دار سليمان، قلت لنفسى أجرب مادام النوم طار من العينين، كان الدرك الذى يحرسه ابن بهية يغط فى نومه بعدما نام حارســـه، حومـــت حـــول الدار وتسمعت الأصوات فكان السكوت جوابها، لو كان عملها لكان هناك على الأقل صوت أو حركة، قلت هى ليلة يعلم بها ربنا، وخبطت على الشباك، لم يرد أحد، بعد معاودة الخبط فتحت أمه الشباك.. سألت بفزع وهى تتبصص على من خبط:

- مين؟ مين اللى بيخبط؟

قلت وأنا أغير صوتى وأتخفى بالحرام:

- واحد زميله
- زميل مين يا خويا؟
- زميل مرزوق.. مش دى برضه دار مرزوق؟
- أيوه.. بس هو نايم.. عاوزه ضرورى؟
- لأ.. أبدا.. ابقى أفوت عليه الليلة الجاية
- طب أنت مين اسم النبى حارسك أقوله

وتركـتها دون أن أرد.. لابد أننى جننت.. ترى أليس فى هذا الكفر لص إلا مرزوق، لو كان سرق المواشى لباعهم ساعتها، ولو كانوا فى داره لخاف.. ولو تجاسر وأبقاهم لطلع بهم الليلة إلى سوق الخميس.. لابد أننى مسطول «ليلة كحل وقطـران» مالى حتى بمواشى العم مصطفى «المال السائب يعلم السرقة» هو حر فى ماله.. أكون فى حالى.. لما تعاركت مع أنفار الوسية كان يرانى ولا يفكر حتى فـى المجىء ليرى ما يجرى فى المعركة.. كل واحد غرقان فى أحواله، من منهم تحمس من أجلى فى شىء؟

ودخلت الدار.. كان الباب الموارب يسمح بخروج خط الضوء الرفيع علامة تمـيزه عـن كـل الدور المغلقة، سمعت الرجل يكلم نفسه فلم أشغل نفسى بالرد علـيه.. التففت فى اللحاف ورقدت.. سمعت صوت الشيخ سليم عوف يجلجل فى وسـط السـكون بأذان الفجر.. وبدأت فى أعقاب كل تكبيرة أصوات الديكة تؤذن والكـلاب تنـبح.. بعدهـا تداخلـت الأصوات ولم أعد بقادر على تمييزها وسط النحنحات المتحركة فى اتجاه الزاوية فى مشوارها المتكرر لأداء الصلاة.

* * *

لمـا كان الأولاد يسألونى عن أبى أقول كما سمعت: مسافر مصر، وأضيف مـن عـندى: وراجـع، فى أول الأمر كنت أحس نوعا من التفوق لكون أبى فى مصـر، إنمـا بعدهـا بدأت ولا أدرى متى أحس بالخيبة كلما سألونى عنه، ربما بسـبب الولد محمد ابن شلبى الذى قال للأولاد مرة إن أبى «طفشان» من الكفر،

وكلمـــا كنــت أواجــه عيون هذا الولد فى «الكتاب» أجد السؤال المطروح وأقرأ الجــواب أيضــا، كنت أنسى ما كنت قد حفظته من آيات، أتلعثم عندما يحل علىَّ الــدور «لأسمع»، وكان الشيخ مرعى يربطنى فى الفلقة ويرفعها ولدان إلى أعلى بالقدميــن ويظــل هو يضرب بالعصا حتى أحس الوجع يسرى من بطن القدمين ليصــل إلى وجهى ورأسى، بعدها يأمرنى بالرمح فى شارع «الكتاب» ويطاردنى بعصــاه وســط شــماتة الأولاد، مرة سألت أمى عن أبى فقالت والغيظ باد على وجههــا.. مات، راح فى نصيبة.. لم أفهم فعاودت السؤال ربما لأننى أنكرت أنه مات فقالت بغل أكثر:

- ما تجبش سيرته.. فاهم، ربنا لا يرجعه.

ســاعة العصر كنت أسحب لجدى الركوبة.. «ويشق» هو على الأرض، لما يــنزل مــن فوق الركوبة آخذها وأربطها فى «الخارجة» ويظل يدب بقدميه فوق الأرض فتهــتز تحــتى وأوشك أن أسير لــه بمخاوفى من أن يخرقها وأسقط فى داخلهــا، يــده الضخمة تهتز عند مستوى رأسى وبريق فص خاتمه الكبير يشد بصرى إليه، كان يشير إلى حدود أرض جماعة عوف:

- ومــن أول الحديدة دى لغاية الزراعية الكبيرة طوالى كان أرض سيدك مصــطفى الله يرحمه، ومن الزراعية لغاية عزبة الكوم كان كله بتاعنا، ولحــد النهاردة وبكره اسمه حوض جماعة عوف، حاكم أسيادك كانوا رجالــه الناحــية كلهــا، وأرض جناين ولاد شلبى دى كلها فى الأصل بتاعتنا، الله يرحمه سيدك مصطفى وسيدك على، رموها بتراب الفلوس، حــاكم الأرض تكره اللى يفرط فيها، تكرهه موت، تفضل تلعنه لحد يوم القيامة، الأرض تحب اللى يصونها، إنما جماعتنا كانوا طيبين وفاتوها زى مــا تقــول زكا عن عيالهم، الغرض.. أهى الأرض دى من أرضنا إحنا فى الأصل.. حاكم زمام البلدين كان بتاعنا».

وكنت أقول لنفسى إننى سوف أكبر وآخذ أرضنا من جماعة شلبى وأجعلها كما كانت ملكا لنا يقول جدى:

- ولــولا أبــوك وعمــك فاتوا البلد كنا بقينا عيلة، ما كناش فتنا الخمس فداديــن اللــى عــند الجمــيزة ولا كــنا فتــنا الفدانين اللى جار أبوك عــبدالغفار.. حاكم الأرض تحب الرجالة، تحب اللى إيده فيها، سيبك م

الأنفـــار، عمر النفر منهم ما يراعيها زى صاحبها، ما هى الأرض زى العيل الصغير، من غير أمه وأبوه يغلب ف الدنيا، أهى الأرض تبور لو ما تلاقيش رجالة قلبهم عليها كده.

وأوشـــك أن أسأل الرجل عن أبى، عن سر غيابه لكننى أتخوف من نظراته الحـــادة ســـاعة أن يذكـــره، أبتلع السؤال وأمضى جواره، ولما أركب فوق حمل البرســـيم فى طريق العودة وأراه ماشيا والأرض تحته تهتز وعيون الخلق ترقبه باحـــترام وخشـــية أحـــس بالزهو وأفرح بوجود الرجل المهاب ذى القدرة، أحس بالاطمئـــنان لأنه جدى، أتصور أبى فى مثل صورته، أتباهى بنفسى وأحلم بعودة أبـــى وأن نجتمع معا، جدى وأبى وخالى برهومة وأنا، أن أصبح رجلا مهابا مثل جـــدى، أن نســـوق أولاد شـــلبى بطول الكفر وعرضه، أن نجعلهم يتركوا أرضنا لنعاود زرعها بأيدينا، لكننى أحس بالخزى كلما اكتشفت أن الأيام تمضى وأبى لا يعـــود أبـــدا، كان الرجل الذى لم أره أبدا هو عارى الدائم وحلم انتصارى أيضا، يطـــاردنى ويطـــردنى، كلما حاولت أن أدفعه عنى أو أن أجذبه نحوى لا يتزحزح وكأنه حجر الطاحونة الكبير المحطوط تحت سلم الدار.

فى «الكتاب» سألنى الولد محمد شلبى عن أبى، لطشته بكل عزم كفى فوق صرصـــور أذنه، صرخ الولد ثم سقط على الأرض جاء «سيدنا» لما سمع الأولاد يقولـــون أنـــه مـــات، رش كوز ماء بارد فوق وجه الولد فأفاق إنما على صدغه علامة الكف ظاهرة، ولما سأل الأولاد أشاروا إلىّ، هز دماغه ومدنى كعادتى، إنما الولـــد محمـــد شـــلبى كف عن معاودة السؤال عن أبى خوفا على صرصور أذنه الأخـــرى.. قلت لنفسى وأنا أقرأ سورة مريم.. ربما ولدت بلا أب مثل عيسى بن مـــريم، كدت أن أقولها للأولاد لكنهم لم يكونوا يسألون، ولما سمعت سورة مريم قـــبل كـــل الأولاد تعجـــب الشيخ مرعى للأمر وضرب كل الأولاد الكبار الذين لم يحفظـــوا وجعلت يومها أقرأ ولا أخطئ والشيخ مرعى مبسوط، وكنت أتمهل عند بعـــض الآيات ولا أدرى لماذا «قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشـــر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة مـــنا وكـــان أمرا مقضيا * فحملته فانتبذت به مكانا قصيا» لم أكن فاهما لمعانى الكلمـــات، إنمـــا كنت أقرأها بحماس لا أعرف مصدره، حماس كأنه يقين فى حق

يكتشفه الإنسان لنفسه وكان غائبا عن ذهنه.

وتعارك جدى مع منصور شلبى وأولاده.. كنت مع جدى وكان منصور يقف فى عرض الطريق مع أولاده، تكلما معا بانفعال لم أعرف أسبابه ثم وجدت النبوت فى يد جدى يتحرك.. تفاداه منصور بالجرى ثم عاد النبوت يطارده فى سرعة غريبة كانت ضرباته وسط العصى الثلاث تفوز.. تخيب كل ضرباتهم وضرباته تصيب.. يده القابضة على النبوت كأنها يد جن مصور تعرف متى وأين تضرب.. بطح منصور وابنه الأكبر.. رمح منصور وترك أولاده.. تركهم جدى أو ربما تركوه، إنما طاله، لم يهدأ إلا عندما طاله عند التوتة، ناوله خبطة فوق وسطه، كنت قريبا منهما وسمعت منصور يعتل وكأنه تحت وطأة حمل ثقيل، كان سالم ابنه قد اقترب من جدى محاولا ضربه من غير أن يراه، صرخت محذرا فالتفت إليه وناوله واحدة جعلته يرتمى على الأرض قريبا من أبيه، ابن منصور الأكبر كان هناك حيث بدأت المشاجرة، جالسا على الأرض، كان منصور يتحدث إلى الناس الملمومين فى عسر شديد من خلال فم يتدفق منه خيط الدم، لم ينطق ابنه سالم.. اكتفى بالنظر المفزوع إلى أبيه، كان الناس يتكاثرون وجدى واقف مكانه ينظر باستهانة إلى وجه منصور ولا يتكلم.. عندما ساعد الناس منصور على ركوب الحمار وسندوه قال جدى موجها حديثه إلى منصور:

- النوبة الجاية بحش أجلك يا ابن المفضوحة.

وقال الرجال من جماعة عوف لجدى:

- عفارم عليك سبع

فى الدار عرفت أنه تعارك بسبب أبى وعمى أو بسبب كلام قاله منصور عنهما، لم أفهم إنما أحسست بنوع من الخوف.

فى الكتاب عرفت من الأولاد أن جماعة شلبى خافت من جدى فلم يفكروا فى معاودة العراك معه، وأن منصور شلبى راقد فى داره، حتى لما مات اكتفوا بأخذ العزاء فى المندرة وأشاعوا أنه كان مريضا بالقلب ونفوا ما كان يتردد من خبطة جدى عبد القادر حشت حزامه وعدمت صحته، وأنه عاش أسبوعا بعد المعركة عاجزا فيه عن الكلام أو الحركة، أما ابنه سالم فكان يمشى فى دروب الكفر معصوب الدماغ أصفر الوجه فاقدا لجسارته القديمة.. كأنه بنت فقدت

شرفها كما كانوا يرددون، من يومها عرفت أن العصا هى الشيء الفعال والحاسم فـــى كفر عسكر، أن كل الأصوات تخفت عندما يلوح الإنسان بالعصا، كنت أتدرب علـــى حمـــل العصــا فـــى دروب الكفر، الصبية الصغار من أولاد العيلة يطلعون الأشـــجار ويقطعـــون فـــروعا يهذبونها ويعملون منها عصيًا صغيرة، وكنا نعمل معارك وهمية قاصر على أن أقوم بدور جدى عبد القادر، ليس فقط لأنه جدى أنا، بل أيضا لأننى أعرف حركاته وأستطيع تقليد صوته ومشيته. عندما كنت أبدأ فى تقليده يهلل الأولاد قائلين:

– اهرب ياوله، أبوك عبد القادر أهه وفى إيده الشمروخ.

ويفرون، أحس وأنا أمسك فرع شجرة التوت أننى هو عبد القادر مصطفى عوف، كبير بحق وحقيق، قادر على إرعاب الكفر كله، لا يعترض طريقى رجل.. ألعـــب مـــع الأولاد لعبة أبيهم عبد القادر مع أنفار السلطة كما سمعتها، ألعب لهم دوره فى عركة المصرف الكبير، ومع منصور شلبى وأولاده، وعركته مع برابرة الهجانـــا كمـــا ســـمعتها.. أدب على الأرض كما يدب، يهللون لى فأحس بالنشوة وبـــالقدرة علـــى الانتصار لكن يوما ما سلط الولد محمد شلبى ولدا من العمارية ليقول وسط تهليل الأولاد:

– لـــو كنـــت شـــاطر بصـــحيح أعملـــنا أبويا عبد القادر مع ولاده حسن وعبدالحميد.

ســـاعتها أحسست بحرج شديد وعجزت عن الاستمرار فى اللعب قلت للولد وأنا أنظر إلى وجه محمد شلبى:

– بكره، أنا عارف اللى مسلطك.

ودخلـــت الـــدار، كان الأمر فوق قدرتى على السكوت، قلت لخالى برهومة أسأله:

– هو سيدى عمل إيه مع ولاده يا خال؟

فنظر إلى مدهوشا من السؤال ثم ضربنى بقبضته فوق صدرى وقال: غور امشى. ولما بكيت وسأله جدى عما جرى هز دماغه ونفى أن هناك شيئا يستحق القول.. كانت الحكاية فى الدار سرا مفضوحا حتى بالكتمان، كنت أعرف أن هناك معـــركة خسرها جدى طوال عمره وأن هذه المعركة كانت مع أبى الغائب وعمى

الــذى مــات فــى مصر، أما التفاصيل فكانت صعبة المنال، وتصديق الأمر كان أصــعب، وكنـــت أكتفى بالتخيل، ربما ضربوه وهو نائم أو وهو غافل، تخيلتهما مــردة مــن الجــن استطاعوا مرة أن يواجها الرجل المهاب فحلت عليهما اللعنة «وبالوالديــن إحســانا» خرجوا عن طوع الأب فلعنهم وغضب عليهم قلبه، تقول جدتى مبروكة إنهم «تاهوا فى الغربة وتشتتوا فى البلاد بسبب دعوات أبيهم عبد القــادر، وأن عمــى عبد الحميد مات بسبب هذه الدعوات وغضبه عليهما» كنت أقــول لنفسى أحيانا إنه من الممكن أن يموت أبى أيضا قبل أن أراه.. ربما يقتله الإنجليز كما قتلوا عمى فى الأزهر كما يقولون، أسألهم عن أبى فيسكتون، كأنهم أخرجوه من حسابهم تماما.. حتى خالى برهومة كان عندما أساله لا يجيب وأمى لما أسألها عنه تطلب من الله إلا يرجعه إلينا أبدا، وكنت أعجب من شدة كراهيتها لــه وأقول لنفسى إنه من الممكن أن يجىء وأراه مرة قبل أن يموت، لكنه أبدا لا يجىء.. لا يفكر فى أن يأتى ليكيد أمى ومبروكة ويصالح جدى عبد القادر ويساعد خــالى بــرهومة وربما يحكى لى عما جرى بينه وبين جدى عبد القادر قبل موت عمــى عــبد الحمــيد.. ظلت الأيام تتوالى واشتياقى إليه يكثر، واللعبة التى كنت أجــيدها ظلــت ناقصـــة وظل وجه الولد محمد شلبى الشامت يسلط الأولاد وكأنه يعايــرنى بأبـــيه ويذكرنى بفقدان أبى الغائب ويشوه سمعة جدى عبد القادر الذى أحبه لدرجة لا تسمح بأى شك فى قدرته على كل الناس.. وكنت كلما ازداد شوقى لرؤية أبى أزداد كراهية له وحقدا عليه.

* * *

يوم الأربعين رحنا المدافن، صحانا الرجل قبل الأذان وظللنا نستف الرحمة فــى الســبتين، شالت البنات رحمة «سيد» وذهب الرجل، قلت ربما يخف الحزن القديــم لكــنه زاد، قرأت الفاتحة على روحه لكن الرجل كان كالغائب عن الدنيا، يســألنى ربمـــا للمـــرة الألف من قتله يا صالح؟ والسؤال ينفذ من طبلتى الاذنين مســمارين محميــين يعرفان الطريق إلى القلب، وعجزى عن الرد يجعلنى أحس بالعار، كل العار، هانت جماعة عوف إلى حد أن قتلوا حفيد عبد القادر عند مدخل الكفــر، هان صالح عوف إلى حد أن قتلوك يا سيد، كأنهم لما قتلوك قتلوا كل ما تبقى من كرامة لنا وقيمة، ذبحوا أصلنا القديم عند مدخل الكفر وسال الدم وغطوه

ببعض الحشيش الجاف، والأيام التى فاتت منذ ذلك المساء اللعين لم تخفف حمية نارك يا سيد فى الصدر، ومهما تحايلت لأظهر قويا أمام أبى فأنا مجروح بجرح لا تداويــه كــل الدموع، شيطان يترصد فرعنا وحده من جماعة عوف، أبى بوجهه الشــاحب يعاود السؤال وكأنه خرج هو الآخر من أحد المدافن هاربا، الموت فى العينين والشفتين وفى النبرات الغريبة على الأذنين:

- بقى ماكانلوش ف الكفر عدوين يا صالح؟

الرجل انهدت قواه، مثلما انهدت قوى جدى عبد القادر منذ سنوات، ها هو يــرتمى علــى الأرض فــى وضع متهالك منهار، يخرف يسأل الجدران الصماء ويتحسس فتحة المدفن وكأنه يربت بكل حنان الأب على رأس طفله، حتى ولا أى أم شــفتها طوال عمرى تتحسس جسد طفل لها مهما كان عزيزا بمثل هذا الحنو، أوشــك أن أكرهك يا سيد رغم موتك لكننى أيضا أحبك، فقط لو كنت ترجع للحظة وتحكــى عمــا جرى، تصف لى وجه من قتلك، ربما لا اكتفى بتقطيعه مهما كان وجعله عبرة وما يكون بعدها لا يهم، لأعود إلى طرقات الكفر مرفوع الرأس، تعز علــى حــتى فــى الأحلام، لو تستجيب المقبرة لكفٍّ الرجل المعروقة المستجدية والمســتجيرة بكــل ذرة فيها وترجع، تطل وتحكى، الرجل يهذى، فقد عقله، عار آخــر.. فى الماضى كان عاره أهون «طفشان» إنما اليوم وهو بيننا وعلى مرأى من كل ناس الكفر مجنون أو حتى نصف مجنون يتحدث إلى أشباح خفية، معيرة كــان أهون منها غيابه الطويل، لو فتناه ينام فى المدافن ويفضحنا، فضحنا فعلا، سيرتنا لبانة فى كل الأفواه. فكف يا رجل عن كل هذا التهالك الذى لا يليق، هاهم يتبصصــون علينا من بعيد، لا يودون حتى أن يقتربوا، كأنهم يعلنون أنهم يرون ويسمعون فقط من بعيد، تماسك يا رجل فى هذه اللحظة حتى يفوت الناس، اصبر، لكــن ما معنى الصبر فى مواجهة الموت، القتل، الليلة نعاود دفن سيد، الأربعين ولــيلة الأربعين، برهومة أيضا لما مات عملنا ليلة الأربعين وبدا لى ساعتها أن أحــزان الــرجل الكبير تضاعفت، سوف تتأجج النار أكثر فى صدر الرجل، ربما يزداد جنونا على جنونه، تزيد النار فيزيد العار، هاهو صالح عوف ينكسر عوده ويقــف عاجزا بعد كل ما كانه حيال أب فاقد لوعيه وأخ قتيل يا كفر عسكر، إنما لكــل عقدة حلال، مهما كانت الجراح غويطة فلابد من دواء.. أولاد عوف عاشوا عمرهم قادرين على رد الصاع صاعين يا كفر عسكر..

البنات يوزعن الرحمة وكل مقرئ يأخذ نصيبه ويتلو ما تيسر، لصوص الجبانات يحوطوننا ويأخذون الرحمة ثمنا لكلام الله، يخطئون فى الآيات ويلغوشون كل منهم على الآخر.. فى الضحى سندت الرجل فقام، لو تركته لظل جالسا هكذا عند مدفنك يا سيد، بعد الخميس الكبير عملها وظل جالسا دون أن نعرف إلى منتصف الليل، لولا الصدفة ما عرفنا طريقه بعد أن دخنا فى كل الدور عليه وسألنا وكأننا نسأل على طفل تاه والخزى يشل اللسان عن تكرار السؤال.

دخلنا الدار، جلس هو على دكة النورج القديم، تماما مثلما كان جدى عبدالقادر يجلس، كأنه هو بعث من جديد إنما العود أكثر نحولا وأقل قدرة، أشرت لزكية أن تولع له نار لزوم الجوزة، أن تعمل له شايا، الشاى اللعين سحبوه من السوق أيضا، لا يوجد فى الكفر شاى، أدوخ فى المركز بحثا عن باكو الشاى فلا أجد.. التموين لا يكفى، شاكر شلبى يغمزنى كل مدة بباكو الشاى وكأنه يعطينى «قرش حشيش» أو حتى أفيون.. ترى هل يستمر الأمر هكذا.. يا أولاد الكلاب، أخذتم مال البلد وستفتم دكاكينكم بكل الأصناف، الممنوعات لها رفوف سحرية والأسعار كما تطلبون، إنما المهم أن يتواجد الصنف، غشوا الشاى مثلما غشوا فى الزمن القديم كيماوى الأرض وخلطوه بالملح، يأخذ ثمن الشاى مضاعفا ولا يستحى وكما يقولون «اللى عاجبه الكحل يتكحل» ولو درت فى كل المركز ما وجدت غير شايك المخلوط يا شاكر، هذا الشاى يشربه الرجل مع الجوزة، هو زاده الوحيد، لولاه لخف البرج الباقى فى عقله، سيد عوف يا شاكر أخوك من الأم فهل نسيت، هل أصدق أنك غيرت سلوكك معى بعد موت سيد بسبب حزنك عليه أم أنها مجرد مظاهر تحرص عليها أمام الناس، وأن كل ما تقوله مجرد غلاف تدارى به فرحتك فيه أو فينا كلنا يا شاكر؟

قال أبى وهو يوسع مكانا على دكة النورج ويربت عليه براحته المفرودة:

- ما تقعد يا صالح يا بنى.
- أيوه يا با أشوف العيال عملوا إيه وأرجع.

دخلت اسأل عما جهزوه فلم أجد غير بقايا الرحمة وطلبت من الولد محمد أن يذهب إلى الشيخ راضى وينبه عليه هو والشيخ سليم بضرورة الحضور الليلة من أجل سهرة ليلة الأربعين فى المندرة.. وكانوا فى الصباح قد كنسوها ورشوها

وفرشوا الحصر على الدكك والمصاطب كما أمرتهم عدت إلى مدخل الدار، قال أبى:

- هى الجميزة الكبيرة خابت ليه؟
- مـــا هـــى عتقت يابا، باقول نقطعها ونستنفع بحق خشبها، بس بيقولوا حرام.
- أيـــوه.. أيوه.. كان على صحوى حدانا مطرح الطمبوشة كرم نخل، جه ســـيدى مصـــطفى قطعه، من يومها قل الخير وقلت البركة، حاكم نخل البلح مبروك، سنة والتانية وسيدى مصطفى مات.
- بيقولوا قطع البلح حرام، أصل البلح ملك، والنبى وصى على التمر.
- وعمك برهومة سنة ما قطع العنبة اللى كانت فى الجنينة ربنا أتولاه.
- ما هو العنب راخر نعمة من ربنا.
- الغـــرض يـــا صالح، قطع النخلة بقطع الأجل، هو الولد محروس راح فين؟
- تلاقيه بيلعب.
- يلعب دا ايه، قصر لـــه شوية خليه يلتفت لدروسه، الله يرحمه سيد خد الابتدائية وهو زيه كده.
- وسى عطية اللى كان حيلة أبوه فدان واحد اتربى وبقى عال العال.
- الله يـــرحمه ســـيد كـــان شاطر أوى، مرة وهو صغير بص فى كراسة الحساب لقيته واخد ستة على عشرة، ضربته، قلت له لازم تاخد عشرة على عشرة، وعنها، فضل شاطر طول عمره.

ها هو يعاود الحديث عن سيد، كلما حاولت أن أجره بعيدا عنه يرجع.. سيد يا حلم الرجل وأمله الضائع متى ينساك؟ سيد يا ماضيه وحاضره ومستقبله رغم موتك متى تنزاح ليعيش ما تبقى لـــه فى سلام؟ ولماذا تلح بكل هذا الإصرار على عقلـــه نصف الواعى رافضا أن تمنحه نعمة السكون فى الأيام الأخيرة؟ ألا تخجل من روحك وأنت تحوم حوله كل ليلة تسلبه لذة الحياة وتحرمه المنام؟»

جـــاءت زكية بخنصرى الشاى، أخذ خنصره بيد مرعوشة وبدأ يشرب «يا خيـــبة وحطت علينا، خنصر شاى، أعرف أنك كييف والشاى ماسخ كما أرى، لو تطول اليد، إنما الشاى ممنوع وأنت كييف، الشاى غشوه، والصنف غشوه، لعبوا فى كل شىء».

- الشاى دا طعمه غلس يا وله.

أخذت منه خنصر الشاى، تذوقته، ماسخ وخفيف مالك أنت بكيفية الحصول علـى بـاكو شـاى من شاكر شلبى، كفاك همك، ناديت زكية وناولتها خنصرى الشـاى، قلـت لهـا: اضبطيه، أخذته ودخلت أعرف أنها سوف تفرغه فى البراد وتغلـيه ثـم تعيد صبه، ربما تضع فيه ملعقة سكر وتعيده، إنما ما حيلتى، أخذت الجوزة وجلست بجواره، ناولتها له وجعل يأخذ أنفاسا متلاحقة ويكح بين النفس والـنفس.. دخنـت أنـا أيضا، لا أحب المعسل بلا حشيش، إنما لابد أرحم صدره المنهوك وأحتمل طعم المعسل لأحميه من الموت بفعل الدخان، عادت زكية بالشاى أخذه منها:

- الله يباركلك يا زكية يا بنتى، معلهش، بنى آدم تقيل، استحملونى يومين لحد الأجل ما ينتهى، أرقد وارتاح جنب الرجالة اللى راحوا، جنب سيد
- ربنا يديك طولة العمر يا سيدى.

قالـتها زكية وهى تدخل. أعرف أنها تضيق بك يا رجل إنما لا تجرؤ على التلميح، قال:

- ولمـا أموت يا صالح تحطنى بايدك جنب سيد، مش عايز حاجة تانية، تحطنى جنبه وبس ويبقى كتر ألف خيرك يا صالح.

كـدت أبكى، تماسكت، قمت من جلستى واتجهت إلى الباب «الوسطانى».. غلبتـنى الدموع عند باب «الزريبة» جعلت أنهنه مجاهدا ألا يحس بى أحد، أنهنه بحرقه، كان الركن خاليا وكنت وحدى جالسا على طرف «الطوالة» أبكى.. سمعت صوته ينادى:

- يا صالح.. يا صالح.. هو راح فين يا ولاد.

قمت مسحت عينىَّ بكمى وأفرغت أنفى قبل أن أرد:

- أيوه.. جاى أهه.. العجل كان حل وبربطه.

سمعته يقول محدثا نفسه:

- ولا حل ولا حاجة.. يا صالح.

ذهبت إليه محاولا ألا يكون قد بدا علىَّ أى تغير سألنى.

- هو أبو الخير لف ع الكفر.
- ايوه، من بدرى.. لف نوبتين.
- مـا تـبقاش تخلـيه يلف لما أموت، سيد كان شباب ويستاهل إنما أنا عضمه كبيرة بقى ولا له لزوم العزا ولا الميتم حتى.

كنت أسمع صوت أبو الخير ينادى منبها الناس إلى ذكرى أربعين سيد، لابد أنه سمعه. فاتت البنت زينب.. فى عيونها حزن.. لولا ما حصل لدخلت فى القطن، مهـرها مدفـوع وجهازها أوشك أن يتم، زواج البنات سترة.. ترى إلى أى أجل سوف تتعطل دخلتها؟ حظها سيئ، قال أبى:

- إلا القطن إزى حاله السنة؟
- اللـى ف السـاقيات على ما هو إنما الشوية اللى تحت الجنينة حلوين شوية، الدودة خربت الدنيا والرش ولا هو نافع.
- علـى أيامـنا ماكـانش رش، عمك عبد الحميد الله يرحمه بعد ما ختم القرآن كان واخد باله م الأرض.
- تعيش أنت، دا لولاش الواحد إيده فى الزرعة كانت الأرض تعدم.
- وفـى شارع الأزهر، ما هو كان مجاور ف الأزهر، ضربوه بالعيار فى راسه طب ساكت زى أخوك.
- الله يرحمه.
- أنا ماكانليش فى الزراعة من يومى، دخت فى الغربة.

ولـولاه عليا كنت مت، حاكم كان شهم، كان شبه سيد الله يرحمه كده بس اندفن فى مصر.. سيدك ما جاش إلا بعد الدفنة..

قلـت لنفسـى الاستمرار مع هذا الرجل سوف يودى بعقلى أنا الآخر.. ما عـادت للحـياة لذة، هذا الرجل قادر على نسج الأحزان فى كل جنبات الدار، عند البوابة وجدت شاكر واقفا قال:

- كنت ناوى أحصلك.. هو عم حسن لسه ف الترب؟
- لأ.. رجع من بدرى.
- حاكم أمى عملت رحمة وناويه توصل لغاية الجبانة.
- طيب. تعيش وترحم.

– ما تآخذنيش يعنى، ما انت عارف.

تركـــته، قلـــت لنفسى إنه سخيف وفاجر، ماذا يريد، الرحمة، ياشوق ما زلت تتمحكيـــن، «كانت خالتى وخالتك وتفرقت الخالات» لا نريده أن يوزع رحمة، يريد أن تـــنفرد أمـــه بالجبانة. تماحيك حريم، وماذا لو ذهبت وكان الرجل هناك؟ بعد كل هذه السنوات ماذا لو شافته أو شافها.. أمور غريبة، ما كان بينهم راح، ومن كان بيـــنهم مـــات، حـــتى وأنت ميت يا سيد تطارد روحك المشاكل؟.. ميت وكل منهما يحاول أن يؤكد امتلاكه لك وحده دون الآخر، تستحق رحمة الطرفين إنما لا تحصل إلا علـــى نصف الرحمة، ماذا أفعل مع الرجل يا شوق؟ أربطه؟ أمنعه لما تفكرى فى تشـــريف الجـــبانة؟ أقول لـــه حضرتها ترغب فى زيارة ابنك وحدها؟ جماعة شلبى توشك أن تحتكر حق زيارة الجبانة. تكاد أن تطلب تحديد حركتنا فى زيارة أمواتنا، فى الخميس الكبير عملوها وبلعناها، أخرنا الرجل حتى بعثوا لنا مرسالا يعرفنا أنها زارتـــه ورجعت، كأننا سوف نظل هكذا رهنًا لإرادتهم، فى العيد طلبوا منا أن نزوره قـــبلهم وأن نـــنهى الزيارة بسرعة، صحا الرجل قبل الفجر، زار ورجع قبل طلوع الشـــمس، أخذناه غصبا قبل أن ينهى الزيارة من أجل شوق.. ترى هل كان يعرف، هـــل طاوعنا لأنه أحس بما كان يدور دون علمه؟ كلاب أنجاس لا يحسون بما نحن فـــيه، اذهب يا شاكر واجعلها تذهب لتوزيع الرحمة على روح قتيلنا الذى توشك أن تأخذ منا ذكراه أيضا بعد ما أخذته منا فى أحلى أيام شبابه.

عدت إلى الدار وأنا أغلى من الغيظ، جاهدت أن أبدو طبيعيا، كان الرجل قد دخـــل المندرة مع محروس وكان صوته يبدو طبيعيا وهو يجادل الولد فى مسألة حســـاب. قلـــت لنفسى: مازال لديه شىء من القدرة على التمييز والأمل رغم كل شىء..

فـــى اللـــيل كان الشيخ راضى ينافس الشيخ سليم فى قراءة ما تيسر وجاء خلق كثيرون للعزاء.. كان أبى يجلس عند طرف الدكة ويتوه أحيانا فلا يرد على مـــن يجيئون لأخذ الخاطر، طلبت من محمد أن يأخذه إلى الدار وبقيت حتى تمت اللـــيلة، وكان شاكر قد أصر على ملازمتى طوال الليلة فى أخذ العزاء كأنه يعلن لكل الكفر أنه شريكى فى سيد.

* * *

وأمـــى أيضا طلعت من الدار، زفوها لأمين شلبى بعد عركة حول الأرض،

ميراثها من أبيها شقيق جدى عبد القادر الذى مات وترك أرضه وابنته وزوجته ليأخذ الكل جدى عبد القادر.. يتزوج جدتى مبروكة ويزوج ابنتها لأبى ولما يتركها تظل فى الدار، ومرت السنوات وهى فى الدار، ولما طلبها أمين شلبى فكرت فى أخذ حقها من الأرض فظل خالى برهومة - وهو عمى أيضا - يغريها حتى وافقت أن تتنازل عن حقها قال جدى:

- بقى عايزة الأرض تديها لابن شلبى، ليه؟ وابنك الغلبان ده يتربى إزاى؟ إياك حسك عينك تفكرى ف قيراط بصابعك.

ارتحت لما عرفت لأول مرة أننى المستحق لميراثها وأننى بذلك أصبح لى من الغيط نصيب، وكنت أستعيد ما كان يقوله جدى عن حوض جماعة عوف الذى باعوا أكثره برخص التراب وغالبا لجماعة شلبى، وهاهم يأخذون أمى أيضا، كرهتها فى ذلك المساء وأنا أراها تتزين من أجل ابن شلبى، تبدو كئيبة الوجه خائنة، فى أحلامى كنت أتوقع عودة أبى إلى الدار ليجدها فى انتظاره، إنما ضيعت أحلامى بقبولها الزواج من آخر، ربما من يومها ازدادت كراهيتى لأولاد شلبى، وكلما تعاركت مع أحدهم ينهرنى جدى ويحاول إفهامى أنهم ناسبونا وأصبحوا منا، وكنت أشعر أنه يخدعنى وأن ما فى قلبه يستحيل أن يخرج إلا بخروج الروح، شىء ما كنت أجهله أجبره على تزويج أمى لأمين شلبى، ولما سمعت أن أبى تكلم عن بنت عبد الستار شلبى ازددت حيرة وكراهية لكل صنف شلبى، لا أدرى لماذا تزايدت كراهيتى لهم، هل بسبب أنهم أخذوا أمى ربما يأخذون أبى أيضا أم بسبب ما كان يقوله جدى منذ سنوات عن الأرض التى سلبوها سلبا من عائلتى، وكلما تعاركت مع صبى فى مثل عمرى من جماعة شلبى يلومنى جدى وأحيانا يحاول ضربى فأهرب، إنما كنت أحيانا أحس رغم كلمات اللوم والزجر الخفيف بأنه سعيد لنفس السبب، قال مرة لخالى برهومة:

- الولد ده من جماعة عوف بحق وحقيق، دماغه ناشفة وعندى.

قال برهومة مرة وهو ينظر إلىّ بنوع من الحب:

- عايز تشوف أبوك يا صالح؟

أجبته بلهفة:

- الله يخليك يا خال، خدنى وياك مصر
- كده مرة واحدة، طب أنا راح اكشف حدا الحكيم وأنت تروح ليه؟

قلت متخابثا:

- مانى عيان برضه وعايز كشف حدا الحكيم.

ضـــحك هو وجدى حتى رأيت عينى جدى تدمعان فعجبت كيف تدفع العينان بينما الوجه يضحك. كان وجه برهومة يزداد شحوبا، وكانت مشاويره إلى الحكيم فى طنطا تتزايد، أحيانا كنت أوصله بالركوبة إلى البندر، إنما هذه المرة عرفت أنه ذاهــب إلى «مصر» وأنه سيرى أبى أيضا، كان برهومة يبدو أكثر ضعفا من أى يــوم آخــر وكانت فى عينيه لمعة قلقة وحيرة خفية المصدر، وكانت سلطاته فى الــدار تتــناقص، ربمــا بسبب المرض أو كثرة خلافاته مع جدى، وسافر خالى برهومة وغاب، قال جدى وهو يلحظنى خفية:

- مســيره خـــالك يـــرجع وتشوف أبوك يا صالح. ما هو اتكلم على بنت عبدالستار.

كنت فى الغيط، بالتحديد فوق شجرة التوت، عندما سمعت الولد جلال ينادى بعلو حسه من عند سكة المصرف القديم:

- يا صالح.. يا صالح.. خالك برهومة جه من مصر.

قفزت فرآنى وظل يرمح ناحيتى وهو يتكلم:

- وأبوك حسن وياه يا وله وعايز يشوفك.

رمحت ناحيته، تقابلنا عند المنحنى، أخذت ذيل جلبابى فى أسنانى مثلما فعل جلال وطرنا فى اتجاه الكفر، قال جلال:

- دا طول سيدك عبد القادر ولابس طربوش زى بتاع الصراف.

ســبقت جـــلال بمســـافة فجـــاهد أن يطولنى.. قال بعسر من خلال أنفاس متلاحقة:

- ومعاه سلال كبير جايبه من مصر.

كنت أسمعه بصعوبة بينما الريح تصفر فى أذنى.

- علـــى مهلـــك يـــا صالح.. ما هو قاعد، فى المندرة الكبيرة.. مع خالك وسيدك. وأبويا وياهم كمان.

كنـت قـد ابتعدت عنه تماما، لم أكن أفكر فى جلال، كنت أفكر فى أبى، أن أراه، أن أسمع صوته، ألومه على كل هذه السنوات التى غابها عنى، أن أحكى له عـن المصحف الذى «ختمته» عن عدم رضاى عن جماعة شلبى وأملى أن أرى جـدى معـه، يتصـالحان، أن أطلب منه البقاء معى فى دارنا.. تعثرت فى حجر، وقعـت علـى الأرض كانت الوقعة شديدة فزحفت مسافة، تسلخت ركبتى وكوعى وراحتى اليمنى، لحقنى جلال، أفقت لنفسى بسرعة وقمت، شدنى جلال لما فكرت فـى معـاودة الـرمح.. طلب منى أن أغسل الدم عن ركبتى فلم أطاوعه كنا عند مدخـل الكفـر، نفض جلال جلبابى وسرت أعرج، سبقنى جلال، وصلت إلى باب المـندرة الكبـيرة، تأملت الوجوه، بحثت عن الطربوش فوق الرءوس فلم أجده، وجـدت جدى وخالى برهومة وعمى عبد الغفار يحوطونه، كان الطربوش بجانبه وكـان يبتسـم فى حيوية كان شبيها بجدى إلى حد كبير، ربما هو أكثر قربا إلى جدى من برهومة بمراحل، كان يرتدى بالطو كشمير فوق جلباب وفى قدميه حذاء أسـود لامـع وجنـبه الطربوش والرأس عار، اقتربت بحذر لأتأمله أكثر، كانوا يتحاورون بحماس شغلهم عنى، ازددت اقترابا، قال جدى وهو يلمحنى قبلهم:

- واد يا صالح.. مالك وشك أصفر كده وبتنهج، أنت جاى رمح م الغيظ؟

التفت هو إلىَّ، تفحصنى مستطلعا، قال برهومة:

- طب قرب كده وسلم على أبوك.

كانـت عيـناى مركزتين عليه وكانت عيناه مربوكتين بينى وبينهم اقتربت أكثر فتح ذراعيه فوجدت صدره مفتوحا لأخذى.. ارتميت فى حضنه وظللت أبكى، أحاطنى بذراعيه وكانت يداه تجوسان عبر الظهر والكتفين وصوته المشروخ يردد اسمى دون أى كلام آخر:

- صالح.. صالح.. صالح.

كنت أبكى بصوت، نسيت كل ما سبق أن علموه لى، السلام باليد وبخشونة تحول إلى ارتماء فى الأحضان فى استسلام ضعيف، لا كلام، ولا كلمة كانت على طـرف اللسان تقدر أن توضح ما كنت أرغب فى قوله.. أحسست بقطرات ساخنة من دموعه تتساقط فوق رأسى وفوق عنقى.

قال جدى:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. حسن..

وظللــت فى أحضانه غير راغب فى الابتعاد ويداه تتشابكان فوق ظهرى.. قال عمى عبد الغفار:

- دا الفراق صعب يا رجالة، ربنا ما يحرم حد من ضناه.. قال جدى:
- أهو بقى راجل أهه ربنا يخلى

قالها عمى عبد الغفار

قال خالى برهومة وهو يربت على كتفى

- دا أبــوك جايــبلك جوز جلاليب جوخ معتبر يا وله، محدش لبسهم ف الكفر لسه.

شــال جــدى الطربوش ووضعه على دماغى، ضحكوا فضحكت، قال جدى وهو ينظر إلى:

- طب على الحرام الخالق الناطق حسن ابنى بس من غير شنب.

وضحكوا.. عملونى فرجتهم وموضوعهم فى ذلك النهار الدافئ، ولأول مرة أفهــم قيمة أن يكون للإنسان أب، رغم كل شىء كنت أشعر أننى أخصه أولا قبل جــدى وخالى برهومة، أجلسنى أبى بجانبه ورحت أتطلع فى وجهه شارب أسود منسق وذقن حليق وسمرة أقل وجبهة أعرض من جبهة جدى، ولولا نحول خالى بــرهومة وشحوب وجهه لكان أكثر منه شبها، كانوا قد شرعوا فى الحديث عن مصــر وناس مصر، عن دكان حلوانى فى مصر وعن شريك لأبى فيه، حدثنا عن الإنجليز بكراهية فكرهتهم أكثر، قال برهومة:

- طب قوم يا صالح اغسل وشك وتعالى.

لما هممت بالوقوف وضع أبى يده فى جيب البالطو وأخرج منه نصف ريال فضة، نظرت إلى جدى محتارا، قال جدى وهو يضحك:

- إيــه، بتــبص لــى لــيه؟ دا أبوك يعنى تأخد منه ولا إحم ولا دستور، ويا داخل بين البصلة وقشرتها.

قال أبى:

- روح اصرفه كله، ما تخليش ولا مليم، ولما يخلص قولى أديك غيره.

أخــذت مــنه نصف الريال بينما يحادثنى وخرجت من باب المندرة، دخلت

الــدار، فكرت أن أدارى نصف الريال فى مكان أمين، احترت، طلعت إلى السطح، دخلت قاعة اللبن، وضعته تحت الصندرة ثم أخذته، وضعته فى الطاقة ثم أخذته، فتحت له بالمنقرة فى الأرضية، لففته فى قطعة قماش قديمة وردمت عليه، نظرت إلى الأرض فوجدت الأثر ظاهرا، داريته بتراب ناعم حتى تأكدت من عدم ظهوره، نزلــت وغســلت وجهى بسرعة ومسحت دم ركبتى براحتى المبلولة، قالت جدتى مبروكة وهى تلحظ لهفتى فى الغسيل:

- علـــى مهلك يا ضنايا، أهو أبوك افتكر وجه بعد ما بقيت راجل، لا ربى ولا شال ولا حط.

نظــرت إلــيها غير عارف بماذا أرد عليها، كان واضحا أنها غير مرتاحة لوجود أبى، فى هذه الساعة كرهتها، تمنيت أن تموت كانت تحادث نفسها بأن أبى لــم يــأت من أجلى وإنما من أجل شوق بنت عبد الستار شلبى، وأنه لم يفكر فى طوال السنوات، قلت لها محاولا تقليد خالى برهومة فى جسارته عندما يحدثها:

- ما بلاش دوشه يا وليه.

ســمعتها وأنا أتجه ناحية الباب الكبير تقول لى «يخيبك» لم أهتم. عند باب المندرة وجدت جلال قلت له بسرعة:

- أبويا ادانى نص ريال.
- آيه، بقى نص ريال بحالة، طب قول قرش.
- والمصحف الشريف نص ريال.
- طب هو فين؟
- شلته
- شلته فين؟
- وانت مالك

تركــت جلال غير المصدق وجلست بجانب أبى، كان جدى مبسوطا من أبى وعلـــى خلاف ما كنت أتصور وأسمع فى الدار، لم يكن هناك عداء ولا حرب ولا كراهــية، وكـــان خالى برهومة منهمكا مع عمى عبد الغفار فى حديث عن الزرع والمحصول.. وأنا سعيد وسط الكل إلى حد لا يطاق.

لما جلسنا معا حول الطبلية وجاء العشاء حرص أبى على إجلاسى بجانبه،

كان أبى يعطينى قطع اللحم بيده، آخذ منه وآكل شاعرا بحلاوتها فى فمى، لم يكن مهـتما بنفسه بل كان يطعمنى بيده، وكأننى كنت آكل من طعام الجنة الذى يصفه الله فى المصحف، قال جدى:

- كل بقى يا حسن، الولد حيهيفك، حياكل منابك

أضاف متضاحكا:

- دا مفجوع وابن كلب

قال أبى:

- دا الخير كتير قوى، خليه ياكل من إيدى يابا.

قال جدى:

- عرفت بقى إن الضنا غالى؟ أهو أنت والمرحوم كنتوا غاليين قوى، بس النصيب غلاب.

قال أبى وهو يحاول إضحاكهم:

- كل يا صالح، تلاقيهم بيجوعوك يا وله.

قلت وأنا أمد إليه يدى بنصيبى:

- طب كل أنت بقى منابى

برفق أعاد نصيبى أمامى وقال لجدى وهو يضحك:

- ماتسبونا ف حالنا بقى، خلينى أشبعه من إيدى يابا.

قال جدى:

- دانـت أهـبل، والنـبى يا حسن يا بنى لو تأكل صالح بايدك على طول تشبع، والخير كثير والحمد لله.
- ربنا يسترها، بس حكاية الدكان، لولاه كنت فضلت، دى دار عبد القادر عوف اللى يدخلها يشبع.
- دارك يا وله، أنا فاضلى مين غيرك أنت وبرهومة؟

فـى اللـيل كانوا يتكلمون عن شوق بنت عبد الستار شلبى، فهمت أن أبى خطـبها، قلـت لنفسـى مـادام ينوى الزواج من الكفر فسوف يعود وأراه، قال لبرهومة:

- ورِيت صالح الهدوم؟

قام خالى برهومة وجاء بقطعتين قماش صوف ثقيل ناولهم لى قائلا:

- حاجة معتبرة يا صالح، تعرف يا حسن إن صالح ختم القرآن وبقى راجل أهه.

كان يضحك وأنا أقلب فى القماش مبسوطا، واحدة لونها أخضر غامق والثانية رمادى فاتح، قال لبرهومة:

- تفصلهم له عند عبد الرحيم ف البندر، اللى يعوزه ياخده، بقطان مجوز، وعايزك تفصل له جزمة كمان وتهيئه أوعى يغشك ف الجلد، أجلسيه وزى ما يقولك أدفع يا برهومة، إنشا الله جنيه.

فرحت، تخيلت نفسى فى الجلباب الرصاصى والحذاء قلت بسرعة:

- بزراير

قال جدى:

- هو إيه اللى بزارير؟

قلت:

- عايزها جزمة برقبة وزراير زى بتاعة عطية ابن أبويا السيد.

نظر أبى إلى برهومة باسما وقال:

- شفت بقى، برقبة وزراير بتبرق وأحسن كمان من بتاعة عطية.

كنت مسنودا إليه، أشعر بأن كل مطالبى يمكن أن تتحقق، شاعرا بأن وجوده يجعلنى أكثر قدرة على المطالبة بما أريد، أن يكون الواحد منا مسنودا إلى أب، شعور جديد كنت أعايشه للمرة الأولى فى كل عمرى، وكان وجهه الباسم المريح يجعلنى أطمئن وأرتاح.

فى السكة يوم كنا نوصله أنا وخالى برهومة قلت له إننى أريده أن يعود ليعيش معنا فى الدار ووافقنى، كنت فرحان والدنيا لا تسعنى، كدت أطير من الفرح، قلت وأنا ابتسم له:

- والنبى ما تتأخر يابا.
- حاضر.

أخــرج من جيب البالطو الداخلى ورقة مطوية ودسها فى يدى، لم أفهم إن كــان يداريهـــا مـــن برهومـة أم أنه أعطاها لى هكذا غمزا ليكون بينى وبينه سر يجهلـــه الكل حتى برهوم، وضعتها فى جيبى كلص يدارى غنيمة وأنا أرقب خالى برهومة بطرف عينى خائفا أن ينكشف السر، نظرت إليه بامتنان وحب ولم أتكلم، جاء القطار وحملنا لــــه الزوادة وضعناها على الرف، قبل أن يصفر القطار أخذنى فـــى أحضـــانه وطبع على خدى قبلة ووصى برهومة على العناية بى وأن يسرع بتفصيل الحذاء والجلبابين، نزلنا بعدما صفر القطار ولوحنا له بأيدينا.. كنت أمرح بينما القطار يتحرك فمنعنى برهومة خوفا على وظللت أنظر إليه حتى غاب القطار نفسه وتاه فى فراغ الأرض المزروعة ناحية شبين.

لما دخلنا الدار أسرعت إلى بيت «الأدب»، كنت متعجلا أن أعرف ما أعطاه لى وأعبث بالورقة طوال السكة، عندما أخرجتها وجدتها نصف جنيه جديد، طلعت بسرعة راغبا فى إعلان الخبر، وجدت جدى فى مواجهتى قلت بفرحة:

- شفت يا سيد أبويا ادانى إيه؟

أخذه وراح يتأمله مبتسما وقال:

- ياه نصف جنيه بحاله، طب خليه معايا وابقى خده ف العيد.

كنـــت لا أهتم ساعتها بالمبلغ، كنت أريد أن آخذه وأفرج عليه جلال وعطية الصـــبيان أمـــثالى فـــى كـــل الكفر، إنما خفت أن أقول لجدى ذلك، كرهت نفسى ســـاعتها، إنما تذكرت نصف الريال فانزاح نصف الغم، وقلت لنفسى إن العيد آت وأن أبـــى ســـوف يعود هو أيضا، وأنه سوف يعطينى ما أريد فسرت غير مهتم حالما بالعيد وبأبى.

كانـــت الأيـــام تتوالى وأسأل عن موعد عودته فيقول برهوم: الغائب حجته معه، وأنه سوف يأتى فى الأيام التالية، إنما الأيام كانت تتوالى بطيئة، والأسابيع تـــتكاثر دون أن يبعـــث حـــتى رسالة ولما جاء ونظرت إليه لائما وجدته لم يفهم نظرتى وظل يحدثنى وهو ذاهل عنى، نسى حتى أن يبارك لى على الجلباب الجديد أو الحـــذاء ذى الرقـــبة الذى حرصت على إبقائه ليوم عودته. حتى لما طلب منه جدى أن ينتظر لتناول الغداء رفض ونظر فى ساعة جيبه وخرج قبل أن نتبادل إلا

حديثا قصيرا، قالت جدتى مبروكة:

- لهو كان جاى لنا ولا إيه؟ دا جاى لجل بنت عبد الستار يا ضنايا.

قال جدى:

- عقبال برهوم، يا وليه اتهدى واسكتى.
- طـب حـتى كان يراضى العيل الصغير، هى حاتطير يا عبد القادر، قال على رأى المثل، من لقى احبابه نسى أصحابه، معلشى يا بن بنتى ربنا يتولاك.

فــى الفــرح كنت تائها، كنت مغلولا من كل الناس، من شوق وأمها وأبى وجدى عبد القادر الذى بدا فرحان أكثر مما كنت أتصور، لم يلتفت هو إلى بل كان ينظر إلى شوق، فى الزفة من دارهم حتى دارنا كنت عاجزا حتى عن رؤيته، وبعد الداخلــة أغلقــوا عليهما باب المندرة ولم أره إلا فى اليوم السادس عندما خرج معها إلى باب العربة المخصوص التى جاءت عند الباب لتوصلهم إلى مصر.

وكانــت شوق حلوة بشكل لا يدعو إلى الاطمئنان إلى فكرة عودته، لو كنت مكانــه لظللت فى مصر دون أن أفكر فى العودة إلى الكفر، ساعتها فقدت ما تبقى لى من أمل فى عودته إلى الدار أو حتى مجرد زيارته لنا أو الاهتمام بأمورى ولا أدرى لماذا خطر فى خيالى أن أفتح المصحف وأقرأ سورة مريم من أولها لآخرها فى ذلك المساء.

* * *

الناس لها الحاضر، ها هم أولاد شلبى يترصصون على المصاطب بجلابيبهم الكشــمير ورءوســهم العاريــة، عمــد وأولاد عمد، أخذوا منا العمودية وخلعوا رءووســهم وداروا فى الكفر على هواهم، وشاكر شلبى عمل مصطبة جنب دكانه ولــم حولــه الشــبان من أهله، ورثوا الجسارة بالقرش ونسوا الأصول، دكانهم مفــتوح فــى وش البوابة وكأنه شوكة مدفوسة فى نن عيون أولاد عوف، نسوا حكايــاتهم القديمــة نسوا جدهم الكبير الذى دخل الكفر حاملا خرجه على ظهره متلمســا فى الكفر من يشترى منه ربع تمر أو بقرش خروب، هاهو شاكر يجلس بجلــبابه المغســول المزهــر والمكــوى ورأسه العارى يلمع بدهان شعر كالبنت

القارحـــة.. يتبصصـــون علينـــا وينهشون بالعيون لحمنا وبالألسن، لو كان حيا لطردهم ولعن سنسفيل جدودهم وسألهم عمن ورثهم الجسارة ليجلسوا عند بوابة جماعة عوف، لو كان الرجال الكبار ظلوا لخرجوا عليهم بالشماريخ وشتتوهم فى دروب الكفـــر كمـــا كانوا يفعلون، إنما من يسندنى لأعملها معهم، والعمدة منهم ولديه فى الدوار طابور خفر تحت الأمر ورهن الإشارة، ولهم حق.. فمن تبقى من جماعـــة عـــوف؟ شـــعبان الذى يشارك الدكتور بطرس ويعيش على الهامش، أم محمـــود الأهـــبل الذى تعلم فى المدارس ووظفوه لكنه أهبل جعله التلاميذ مسخة يضـــحكون عليها كلما مر أمامهم «بالبيجاما» الباهتة، وغانم المرابى الذى تبرأنا مـــنه، والجـــالس علـــى بـــاب داره ينـــتظر من تأتى إليه بحلة نحاس أو بطشت ليساومها على الفائدة، والذى لا يخجل من نفسه ويظل طوال النهار يعير خلق الله بكل معايبهم ويسرد عليهم كل مخازيهم غير شاعر بأن وجوده نفسه عار وخزى لا يدانـــيه عار ولا خزى، ولطفى الأعرج الذى برع فى السمسرة وخراب البيوت، يعـــرف الـــبائع ويعـــرف الراغبين فى الشراء، يخدع الكل ويتوسط مقابل عمولة مـــزدوجة ويزن على دماغ أصحاب الأرض ليبيعوها فى سبيل العمولة، كل هؤلاء ينتمون إلى جماعة عوف، والرجال الذين يعتمد النفر عليهم قلة وسط كثرة تائهة فـــى مشـــكلاتها الخاصـــة، هل هو الزمن الخسيس أم أنه غيم سوف ينزاح كما انزاحت من قبله غيوم.

وعـــندما قـــال سلومة ما قاله لم أسكت، دفست بوزه فى طين المروة، كان يحاول أن يعمل فصيحا بلا لزوم، ساق الهبالة على الشيطنة وعلق جاموسته فى الطمبوشـــة وهو يعرف أننى آت لأسقى، جاء بالولدين يحتمى فيهما حاسبا أننى ســـوف أسكت، قلت لـــه فى البدء: حل الجاموسة يا سلومة فلم يعجبه الكلام قال كلامـــا لم أبلعه قال أننى غشيم وأنه سوف يسقى قبلى، قلت لـــه عيب فلم يعجبه الكلام، قال: كل واحد يشوف روحه، قلت لنفسى أننى لو سكت له فسوف يستمر، ربمـــا يذكرنى بما جرى لسيد وبحالة أبى لإذلالى، هذا الصنف يخاف ولا يستحى، تذكرت ما كان قد قاله عند البوابة عن جدى عبد القادر: كان غشيم، صحيح أننى لما سألته أنكر إنما لم أصدقه، قلت لنفسى أيضا، أنت مجروح الآن يا صالح ولو ســـكت للكفـــر يركبوك ويهزوا سيقانهم، مسكته من خناقه ودفست بوزه فى طين

المـروة، كـان هـزيلا فى يدى وكأنه فرخ «بربر» نظرت إلى الولدين الآخرين فدلدلـوا آذانهمـا ولم يتكلم أحد، تركته يمسح «الروبة» عن وجهه وشخطت فى الولديـن طالـبا مـنهما الابتعاد. استدارا فى صمت الخائف وحياد الجبان، كأنهم كلبيـن أجربيـن غريبيـن، لمـا وجد نفسه وحيدا جلس كحرمة منكسرة، شكله أضحكنى فضحكت، لما شاف ضحكتى ترف على شفتى تجرأ وقال:

- ربنا يهدك يا صالح، أنا كنت بهزر معاك.

قلت وأنا أحل جاموسته وأعلق الثور مكانها:

- الـنوبة الجايـة حـتفطس فى أيدى، وإن كنت جدع أبقى هات رجالة يحموك.
- عيب يا صالح داحنا ولاد عم.
- ما بقيش إلا أنت يا بن المراكيب تتنقور على؟
- داحنا قرايب.
- قرابة مهببة وجيرة زى عدمها. أشوف روحى دا إيه؟
- كنت بضحك وياك.
- تضحك ولا عايز تضحك على ولا شلبى يا نتن؟

تركـته قائلا لنفسى إنه لن يفوتها بسلام، أعرف أنه سوف يدبر أمره، هذا الـنوع يتمسكن عندما يحس بالهزيمة، ربما يفكر فى الاستعانة بأحد ويترصدنى، فكـرت فـى ضـرورة الاحتفاظ بسلاح فى «الخارجة» احتياط وسرت فى اتجاه «الحوال» لأحول مجرى المياه إلى أرضى» العنف سيد الأخلاق فى كفر عسكر، لو أعـرف مـن قـتل سيد لمسحت عاره هذه الساعة ولتقطع كل الألسنة من عند اللغلوغ وليسكت ولد مثل سلومة، ينخرس لسانه ولا يجرؤ أن يقول ما قاله» كل واحـد يشـوف روحـه» آه يا ابن الخنازير، هكذا مرة واحدة: كل واحد يشوف روحه، كأننى أصبحت معيرة ينصبون القعدة على حسى، تعملونى لبانة فى الأفواه التى تساوى والتى لا تساوى، كأنكم ظللتم تبحثون عن جرح تعايرونا به حتى راح سـيد، لم يهمك كم كان الجرح غويطا وقاسيا، كأنما كنتم تنتظرون لحظة الشماتة فيـنا، أصبحنا سيرة فى كفر عسكر، فرعك يا عبد القادر يا عوف لا يواجه الكفر وإنما يواجه أيضا كل فروع جماعة عوف. كانت الطمبوشة تدور وصوتها يزغرد

ويغـيظ سـلومة «العنف سيد الأخلاق يا كفر عسكر، لن يكون هناك حلم بعد ما جرى لنا»، لمحت محمد آتيًا من بعيد، قلت لسلومة:

- فـز طـس وشك بشوية ميه أحسن محمد لو شافك يعرف يا بن تفيده، وابقى لم لسانك اللى عامل زى الفرقلة.

قـام سـلومة وغسل وجهه من التركيب وجلس، كان محمد قد وصل، قال وهو يخلع الجلباب:

- أنا نازل الأرض أسقيها يابا.

قلت:

- متخليك أنت وأنزل أنا.

لكـنه كان قد نزل، تأملته وفرحت بصباه وجرأته، يتنقل فى خفة عصفور ويفتح السدود الصغيرة ليسمح لمياه الرية بالوصول، إلى كل الأرض، قلت لروحى إن هذا الولد من صلبى. شاطر بحق ولا يهاب، من نسلنا بحق، قلت لسلومة:

- وكنت ساحب ولاد عثمان شلبى حماية؟

- بـلا كلام فاضى، يعنى مش لاقى إلا ولاد شلبى أتحامى فيهم، أنت اللى مسـتقل بـى، عاملنى مسخة وناسى القرابة، داحنا ولاد عم يا صالح، كنت أحسبك تبقى معايا مش علي.

- يعنى انت اللى فاكرها، أشوف روحى دا إيه؟ وقصاد ولاد شلبى كمان.

- لك حق يا صالح، أنت الكبير برضة وعيب الواحد يتيم عينه فيك.

- طب يا سلومة، خلاص، صافى يا لبن، قوم بقى ساعد محمد، واللى فات مات.

قـام وقد انزاح عن وجهه الكدر وذعر لحظة العراك وبدأ يتحدث مع محمد فقلـت لنفسى إننى أتسرع أحيانا فى تصرفاتى إنما ربما كان ذلك بسبب ما أعانيه من مشاكل بعد موت سيد لدرجة أننى بدأت أشك فى كل الناس ولا أميز العدو من الحبيـب. ولمـا ركنـت دماغى على فرع التوتة غفلت مدة حتى صحانى صوت سلومة:

- صالح.. أصحى.

وقمـت، كـان يبتسـم كأن شيئا لم يحدث ومحمد جاء يغسل نفسه ويلبس الجلباب، قلت لسلومة:

- بعد ما تسقى ابقى تعالى حدا أبوك إبراهيم، أهو نسهر هناك الليلة.

ابتسم سلومة وقال:

- أى والله من زمان وحشانى حواديته.

تركته وركبت الحمار وسحب محمد الثور والجاموسة والعجلين وعدنا إلى الدار.. بعد العشاء خرج محمد، سحب نفسه كعادته وخرج. فكرت فى أخذ أبى معى إلى دار الجد إبراهيم إنما وجدته تائها فى ملكوت الله، قلت لنفسى أذهب وحدى حتى لا تتحول السهراية إلى مندبة، الجد إبراهيم لا يكف عن الثرثرة فى الأمور الفارغة لكن الليلة تفوت، لو أخذت أبى معى لحول الجلسة إلى كلام مسنون وجارح، خرجت فى اتجاه دار الجد إبراهيم، عند البوابة كان الولد محمد واقفا وسط جماعة من الشبان، عوده الممتلئ عنهم وصته الآمر وسطهم وثبات حركاته ذكرنى ببرهومة أيام صباه، خفت عليه من العيون، قلت له عارفا أنه لن يسمع الكلام وإن كان يهاودنى:

- روح يا وله بدل اللطعة دى.
- طيب.

قالها وهو ينظر إلى غير مرتاح للأمر، يعرف أننى غير جاد فى مثل هذا الطلب وأنه يستجيب، عادة يسهر مع أصحابه إلى ما بعد السهرة بمدة، أحيانا يأتى فى وش الفجر ويخبط على شباك المندرة وكأنه يود أن يجعلنى أراه بنفسى وأفتح له بنفسى، على أيامى كنت أهوى السهر مثله إنما كنت لا أجرؤ على إظهار ذلك، كان خوفى من جدى عبد القادر يجعلنى أتسلل خفية، أطلع إلى «المقعد» وأتظاهر بالنوم ثم أتسلل إلى سطح الحاجة مسعدة ومنه إلى جدارها المهدوم إلى «العليوه» إلى شارع ضيق أنفذ منه إلى البوابة وفى طريق العودة كنت أتخوف أن يرانى أو يسمع صوتى، كنت أتعلق على الكتلة البارزة أو ألف من ناحية «العليوه» إنما لم يخطر ببالى أن أخبط على شباك المندرة مثلما يفعل محمد معى، له حق محمد لأننى مهما فعلت معه فلن أكون قاسيا مثلما كان جدى، على العموم وأنا كنت ابن ابنه الذى لم يرض عليه.

قال الجد إبراهيم وهو يصب شايه الأسود فى الأكواب:

- وكـــان سيدكم الحاج مصطفى عوف عمدة بحق وحقيق، دواره مفتوح للغريـــب قبل القريب، طول شهر رمضان الدبايح تندبح على بابه واحنا نلـــف علـــى الخلق أنا وإخواتى، عبد القادر وعلى ومحمد وعبد القادر الغفـــار نـــدى كـــل حى كوم، كنت لما أطهق م الشيلة أرمى اللحمة ف الترعة أو أحطها عند نفر من الأنفار وأرجع قبل الكل، أقول لروحى إن الرجل ده أهبل لما يدوخ عياله لجل شوية تملية ومقاطيع.

يضـــحكون، يقولـــون إنه لم يغلبه غلاب، قادر على تخليص نفسه من أى إشـــكال أو مســـئولية بنكتة أو بعمل غير محسوب، قال ابنه عبد العزيز مرة إنه طلـــب «عياية» لزوم العيد ولما اعتبروها نكتة ولم يهتموا باعتبار أنه رجل كبير ولا يجـــوز أنـــه يهتم بالعيد، وجدوه يأتى إليهم لابسا العباءة ويدخل الدار مختالا بنفســـه فضحكوا لكنه داوم فى أيام العيد على إحكام عمامته ولبس العباءة وأنهم لمـــا ســـألوه عن مصدرها أفهمهم أنه رهن فدانا فى أرض «المعرج» يقول عبد العزيز عنه: باستسلام سكتنا أنا وأخى والأولاد ثم تجاسرت وسألته:

- إزاى بس يابا تعمل كده؟

وأنه رد بحماس مدافعا عن نفسه:

- مـــا قلـــت لكـــم يا خنازير محدش جاوبنى، كنتوا عايزينى أعيد بهدوم قديمة؟

وأنه من بعد ذلك اليوم داوم عبد العزيز على الاهتمام بمطالب الرجل، يقول تعقيبا على هذه الرواية عندما تثار:

- طـــب وإيـــه يعنى، على النعمة أبويا باع خمس فدادين على راس غيط «المدار» برطل حلاوة طحينية.

نـــتظاهر بعـــدم التصديق فيخرج المصحف الذى يحتفظ به فى جيب صداره ويحلف ثم يضحك منتشيًا بإسكاتنا حتى تدمع عيناه ويعقب:

- أصل زمان الأرض كانت كتير والناس قليلة، كان الكفر زمامه كبير على اللى فيه، كان خير كتير ولا كانش حد يعرف الطمع زى أيامكم الغبره..

أقول لنفسى إن هذا العجوز الذى تعدى سنواته المئة بأكثر من عشرين سنة

أخــرى، عاش فى خير وإلا لما احتفظ بكل هذا النشاط والصحة والوعى وأن أبى الــذى يعتــبر أصــغر من عبد العزيز ابنه فقد قدرته على التمييز، ربما لأن الجد إبراهيم ظل يرتع فى خير الكفر ولم يترك الأرض، ظل سيدا لأرضه وعبدا لها فى آن واحــد، ربمــا لسبب إحساسه بالأمان لم يفقد نشاطه، وأنه بالحتم لابد بسبب وجوده فى الأرض ما زال يعيش، يضحكون على عبارة قالها ثم أجده يحلف مرة أخرى بالمصحف فأفهم أنهم جرجروه للحديث وأنه انفتح وسوف يسترسل، ما دام يحس أنه محط ريبة فيما يقول لا يكف عن سرد الحكايات القديمة محاولا أن يدلل بكل حكاية على صدق ما سبق أن قاله وسوف يستمر هكذا حتى يجد لدى الأولاد والأحفاد همهمات استحسان وتصديق.

- طب على الحرام من دينى، أبويا الله يرحمه قال لى أنه اشترى عشرين فــدان بور من واحد تركى بزعبوط فل وبردعة نص عمر، وبعينى دى اللــى ح ياكلهــا الدود شايفه بيبيع غيط بحاله بشوال تمر، ومرة كنت ويــاه فــى السوق شفته بياخد حق جوز تيران تقولوا كام؟ قمع سكر وشرف البنى.

يشــعر أنهــم مــا زالوا فى مرحلة عدم التصديق، والضحكات على الأفواه مبسوطة لإمكانية استرسال الرجل، يسترسل:

- حا نروح بعيد ليه، أنا واخد المصحف ده من راجل مغربى تقولوا بإيه؟ بزرعة برتقان بلدى، كانت الجنينة تيجى تسع فدادين، وده جه فات على وقــاللى أقــرأ لــك الكــتاب بحجر برتقان، قلت طيب، قعد يقرأ، ببص للمصــحف وعايــز أشوف جواه إيه؟ قفله وبص لى وقاللى: أنت عايز تطفــش العفريــت؟ بــبص علــى العفريــت حاشنى، قاللى إنه مصحف مخصوص للمغاربة اللى بيقروا الكتاب، ولو خدته منه يبقى بتاعى واقدر أقــرأ لأيهــا واحــد، يعنى أقرأ الأول آية الكرسى وافتحه يطلع لى ملاك أبــيض يشــاور ع الكلام المكتوب وأقراه وبس وقاللى أنه تعب م اللف وعايــز يرتاح، الغرض مرضيش يدينى المصحف أبدا إلا لما حمل زرعة الــبرتقان علــى جمال مغربى وحلفنى مافتحش المصحف إلا بعد العشاء عشــان الملاك يصلى المغرب أحسن حرام، وبعد العشا بفتح المصحف لا

لقيــت ملاك ولا جن ولا كلام بيضوى زى الرجل ما قال، أبويا سألنى ع اللـــى حصل وريته المصحف وقلت الحكاية ضحك لما فطس على روحه وقـــاللى دا مـــش بنى آدم، دا يمكن جبريل عليه السلام وجالك ووصانى أحـــافظ علـــى المصحف لأنه جاى من عند ربنا وشويه فيه كنوز الدنيا كلها.

ضـــحكوا علـــيه فاغتاظ أو تظاهر بأنه اغتاظ منهم وأوشك أن يحلف على مصـــحفه لولا أنهم منعوه وسأله عبد العزيز عن سر اهتمام جبريل به دون خلق الله فيقول:

- حـــاكم احـــنا نسل طاهر، فينا شىء لله، قلبنا تلاقيه أبيض زى الحليب وضـــميرنا خالص ونصدق كل حاجة، ما هو أحنا من نسل الحسين بن على عليه السلام.

أنظر إلى عينيه الواعيتين فأحسده وأكره شعرة الهبل فيه، أتذكر جدى عبد القادر الذى كان يحكى عما كان يجرى فى أيامه مؤكدا أن الجد إبراهيم كان عبيطا رغـــم أنـــه كان أكبرهم، ويؤكد أيضا أن الجد مصطفى أبوهم كان مزواجا مطلاقا وأنـــه أنفق نصف أملاكه على الحريم، حتى لما باع أرضه برطل الحلاوة أو قمع الســكر كـــان فى سبيل امرأة نالها ودفع من أرضه الثمن، كان جدى عبد القادر أنصـــحهم وأقواهـــم ولـــو كان أكبرهم ما تبددت أرضنا، كلامه صادق ومضمون كالجنـــيه الذهـــب، أمـــا الجد إبراهيم فهو مهزار وهلاس وله مع الحريم فضائح ونوادر لا تحصى، يحكى وهو يلتفت ناحية سلومة الساكت:

- كنـــت فـــاتح قهوة مطرح الدكان اللى على البوابة وجايب واحد بربابة يقول للخلق سيرة أبو زيد وكان وياه ثلاثة رقاصين من سنباط الواحدة تقول للبدر قوم وأنا أقعد مطرحك.

يقاطعه عبد العزيز متعابثا:

- كانوا بيرقدوا فين يابا.

يرتبك ويزوم ثم يقول محتدا.

- ياك لسه مصدق المرحومة أمك؟ كانوا بيرقدوا فـ القهوة بعد ما أسكها عليهم.

يتجاسر عبد الونيس ويقول وفى صوته نبرات الراغب فى الإغاظة:

- سمعت يابا إبراهيم من كام سنة لكن مش مصدق.

يحس الرجل أنه سيصبح محطا للهجوم فيكشر ويلوى بوزه ويدفع عن نفسه قائلا بثقة الكبار:

- سمعت إيه يا بن المراكيب أنت راخر.
- قال بيقولوا أنهم ظبطوك مع هانم بنت مقلدية فى قاعة التبن من سنتين.

يقول وهو منفعل بحق:

- بقى من سنتين يا بن ستين كلب، دى الحكاية دى من سن عبد العزيز ابنى.

يضحكون فأضحك لأن هانم نفسها فى دور أولاد أولاد عبد العزيز، ربما كانت مقلدية من دور عبد العزيز، هانم مفضوحة وسيرتها فى الكفر معروفة وليس من البعيد أن تكون ضحكت على الرجل من أجل غرض، إنما يقولون أنهم ضبطوها معه فعلا وكانت عارية كما ولدتها أمها، يحس الجالسون أن الجو سوف يتوتر وأن الجد إبراهيم سوف يستاء من مجلسنا فيحاول عبد الونيس إصلاح الحال.

- وهو حد يصدق الكلام ده يابا إبراهيم برضه.
- ربنا ينكد عليك يا عبد الونيس يابن أبو العنين.

يسود الصمت إلا من كركرة الجوزة فى صمت المندرة وتزايد سحب الدخان الأزرق، تعميرة هذا المساء أفضل من سواها، جابها عبد الونيس من درويش الأعور، أشعر أنها أحسن، أجدنى أبدأ فى الضحك، تنزاح كل المتاعب واضحك، يقول سلومة وهو يصفق بيديه فرحا:

- صلوا على حضرة النبى المختار، السهرة احلوت.

ينظر إليه الجد إبراهيم شاعرا أنه لفت الأنظار إليه وترك الرجل الكبير ساكتا، يشرع فى الحديث:

- على صحوى بقى كان سيدى يبنى الدوار اللى ع البوابة، كان واقف

والـــرجالة بتفحـــت الأساس، قام واحد عبد كان اسمه بشير لقى زلعة سليمة، بيقول لسيدى قالـه:

- كســـرها يا ولـه وارميها ماحناش ناقصين زلع، العبد طلعها سليمة وجه يشيلها لقاها ثقيلة، بيفتحها لقى فيها كنز، جنيهات ذهب بندقى من بتاع زمـــان، يمصمصون الشفاه وفى خيال الواحد منهم جنيه بندقى واحد، يقول سلومة:

- يـــا خويـــا هديت وبنيت لا لقيت ذهب ولا فضة، ولا قرش أبيض يوحد الله.

قال الجد إبراهيم:

- هـــو اللى زيك يا ارشل يلاقى حاجة، الكنوز دى لناس ناس، طب أبويا ما ضحك عليه راجل مغربى ست سنين، بيقوله فيه كنز ف دار العيلة، فضـــل يعزم ويقرأ ويكتب ويقول هدوا الجدار ده نهده هدوا الجدار ده نهـــده لما خرب الدنيا والآخر قال إن حارس الكنز زعلان ومش ناوى يفك عنه إلا بعد خمسين سنة، اللى يحسب يلاقيهم فاتوا، يعنى أكيد ف دار العيلة كنز بس ينفتح لواحد وشه سمح مش زيك ياسلومة كده.

نضـــحك على وجه سلومة المستطيل والذى غاصت فيه حفر الزمن الصعب وجعلته يبدو أكبر من عمره، الهم تحت الضحكة العصبية المصنوعة والتى يشدها اغتصـــابا من داخله ويرسمها بينما العينان تقسمان أنه مهموم بعبء أيامه وإن كـــان لا يـــبوح بمـــا عنده عنادا أو ضعفا أو قدرة، لكننا برغم كل شىء نضحك، نغتصـــب الضـــحكات ونفرشها على الوجوه لتحلو السهرة وكأننا نحرص على أن يكون ثمن قطعة الحشيش لم يضع منا فى الهواء بلا مقابل.

يسود الصمت بيننا، يعود كل واحد إلى نفسه، يتفكر أحواله، يمصمص الجد إبراهيم شفتيه ربما سخرية من أحوالنا، يحكى للمرة الألف حكاية العبد المسحور الـــذى اشـــتراه جدنـــا الكبير، يعرف أننا حفظنا الحكاية لكنه لا يود أن يكف عن تكـــرارها، هذا هو طبعه، كل حكاياته محفوظة إنما يشعر الواحد فى كل مرة أنه يســـمع حكايـــة جديدة، يصوغ الحكايات بطرق عديدة، عن العبد المسحور يحوم بالكلمات:

- وكـــان ســوق الــثلاث مشهور بالخيل، أحسنها مهرة بعشرين جنيه، كان ســيدى الله يــنور قــبره غــاوى، ولما شاف الحصان لبد جنبه، تقولش مســمروه، أنــا كنت عيل وفرحان اللى رايح معاه السوق، الغرض، كان حصـــان أبــيض وزى القشــطة، مــا فيهش شعره سوده، تقولش البراق النـــبوى، اشتراه ورجع فرحان زى اللى لاقى لقية، وثانى يوم بعت بشير يســرجه ويســحبه لقـــى مطــرح الحصان عبد أسود غطيس مربوط ف المــربط من رجله وواقف يتلفت حواليه، يومها جه سيدى وبص لـــه لقاه بيرطــن بربــرى، مفهمش حاجة منه، قالنا يا ولاد دا تلاقية عبد مسحور مـــن بلاد بعيدة، فضل ف الدوار يومين ولقيناه بينطق بالعربى، سيدى قال ســيبوه على راحته، سبناه غطس ما بنش، خرج م البلد ولا شفناش وشه بعدها، قالنا سيدى إنه ملك من ملوك الجان، وصلى على النبى.

ونشـــعر بقشعريرة رغم أن الخوف لا يناسب أعمارنا أوشك أن أصدق أنه حـــدث مـــا قالـــه الجد إبراهيم وأن دارنا فيها جن مسحور ما زال يلحظ حركاتنا ويترصـــدنا، يحلـــو للعجوز أن يسترسل فى حكاياته عن الجن والمردة وعروس البحر التى طلعت له وكادت أن تخطفه، عن جمالها الفتان الذى سحره، عن لحظة الاختـــيار الحائـــر التى واجهها بين مملكة البحر كلها وحياة الأرض، أكذبه بينى وبيـــن نفسى إنما لا أفكر فى معارضته راغبا فى أن يكف عن ذكر هذه الحكايات، يسترسل فى حكاياته عن شياطين الليل:

- مـــرة وأنـــا ماشـــى ف الليل قرب الفجر جنب جدار زاوية عوف لقيت أرانـــب صـــغيرة بـــترمح، لونها أبيض على أسود كده، كانوا صغيرين وحلوين والقمرة ضهر، قلت آخذهم وأبقى أديهم لأصحابهم بعد الصلا، خدتهـــم فـــى حجرى ومشيت، وقبل ما احصل باب الزاوية لقيت جحش ماشـــى مـــن غـــير بردعة، عمال يعلى ويوطى، يعلى ويوطى، قلت ده عفريـــت بيستعبط، قلتله: اتشطر ع اللى قتلك بصيت مالقيتوش وعلى بـــاب الـــزاوية لقيت جدع واقف باحقق منه وأنا فرحان وبقوله قال يا خويا الجحش طالع يخوفنى، رد على وقال: جحش ايه يا جحش وفص ملح وداب، من يومها طلعوا على قولة إبراهيم الجحش.

يسأله عبد العزيز وكأنه يساعده فى إكمال الحدوته:

- والأرانب يابا.
- مانـا جـاى لك أهه، أنا ربك والحق خفت، لسه داخل من باب الزاوية وبـبص ف حجـرى لقيـت انصاص قوالب طوب أخضر، قلت يا بركة سـيدنا النـبى ورميت الطوب وسمعت صوت الشيخ سليمان بيقول الله وأكبر.

يكـف عن الحديث، أحس بالضيق من المجلس، أقوم قائلا لنفسى إن النوم أفضل، أبحث عن مداسى التائه وسط زحمة المندرة بينما يضحكون فأشك فى أننى أقـوم بحركات مضحكة فلا أملك إلا أن أنفتح فى الضحك بلا توقف وعندما ينتهى الضحك يمد الجد إبراهيم يده بفردة المداس ويقدم إلىَّ عبد العزيز الفردة الأخرى مؤكدين أننى مسطول.

* * *

قال الولد من جماعة شلبى لما عاركته:

- متفرعن على إيه، دا نت بتشتغل «تمللى» بلقمتك.

عـندما نظرت إلى حالى يومها تأكدت من صدق الولد، عرفت أنهم عملونى عـيرة وأننى لا أختلف عن أى «تمللى» فى الكفر، صحيح أننى أشتغل فى غيطنا كما قلت للولد ابن شلبى، وصحيح أنها أرض جدى وخالى، إنما هل هذا يكفى، أن أصـبح فى الدار آخر من يعملون حسابه، كنت فى البداية صبيا لا أدرك إنما حتى لما أصبحت رجلا فى مثل طول جدى وأعرض من برهومة لم يصبح لى أى رأى فـى أى شىء، برهومة الجالس دائما على مصطبة من مصاطب البوابة، ووجهه الشـاحب يعلـن لكل من يراه ضعفه يأتى إلى الدار، يأمر وينهى فى غيبة جدى، وجـدى كلماتـه أوامر هو الآخر، قلت لروحى: أنت غريب يا ولد ومهما اشتغلت فلـن يلتفتوا إليك لن تلتفت أنظارهم إلى وجودك، فكرت أن أطالبهم بتزويجى من بـاب إشعارهم بأننى موجود لكن الفكرة لم تعجبنى لأننى أصلا لا أفكر بجدية فى الزواج، ممكن طبعا أن يزوجونى ولن يكلفهم الأمر الشىء الكثير، وتبطل حجتى، إنمـا كانـت عينى على الأرض، على الأقل جزء الأرض الذى يخصنى، ما تركته

أمـــى ونصيب أبى فيها، فكرت كثيرا وبحثت عن سبب لعمل معركة أغضب بعدها وأتـــرك لهم الدار فى انتظار حل، كان برهومة فى وسط الدار وأنا راجع بالجمل والحمار، قلت له دون أن أنظر إليه:

- حمل النقلة دى يا خال.

كأنه لم يسمع لأنه لم يرد، كررت طلبى فقال وهو يتفحصنى مليا.

- حملها واتكل على الله بعيد عنى يا وله، أنا فايقلك؟

قلت وأنا أتعمد إثارته أكثر:

- يعـــنى انت على إيدك الحنة، قاعد تبص لى يا خال ولا حتى بتساعد فى الغيط ولا فى الدار؟
- طب على الحرام ما نا عامل حاجة ف نهارى يا صالح، أنت ح تشغلنى يا وله؟
- حرام دا إيه، شاطر بس تحلف لى بالحرام والحلال، طب والمصحف ما أنا سارح بعد النهارده إلا رجلى على رجلك لهى الدار دى دارك لوحدك واحنا مالناش فيها؟

كان برهومة مهدودا بفعل المرض، كان وجهه الأصفر يزداد شحوبا وجسده يزداد نحولا، فى هذه اللحظة نظر إلى وكأنه فوجئ بى هكذا فى مثل طوله وأكثر مـــنه قوة، مده يده وأخذ عصاه المعووجة من جنبه وناولنى فوق كتفى فأمسكته من طوق جلبابه وصوتت النسوة، وجاء رجال ليفصلوا بيننا، كان هو ينهج منفعلا ومحمومـــا بالمفاجأة وكنت أجلس فى مواجهته فى وضع استفزازى جعله لا يكف عن السباب المتلاحق لى ولأمى ولأبى مستكثرا على نفسه أن أمسكه وكأنه صعق بمـــا جـــرى، لما جاء جدى وسأل برهومة عما جرى لم يتكلم، أشار بيده ثم قام تاركـــا الـــدار، قلت إنه سوف يسألنى فأدافع عن نفسى لكنه سأل مبروكة عرفت ســـاعتها أن حـــبها لبرهومة يمكن أن يجعلها تكذب وتكذب وتضيف ما لم يحدث لـــتؤكد لـــه خطئى، لو كنت مكان جدى لصدقت كذبها المحبوك الذى كانت بارعة فـــى اختلاقه وكل لحظة تقرر أننى هجمت عليه وخنقته بيدى وهو يخلص نفسه قائلا: عيب ياصالح روحى طلعت.

- الـواد يا عبد القادر زى الشحط ولا حدش كاسره، دا كان حيصور لنا قتيل النهارده.

والتفـت إلــى الرجل، لم يبد عليه أنه صدق أكاذيب مبروكة، وقف قبالتى ورفـت علــى ثغره نصف ابتسامة لم يسأل ولم يتح لى فرصة للكلام، كانت يداه خاليتيـن ونصـف الابتسـامة تشرع فى أن تكون أكثر اتساعا، لكننى لم أر غير نصـف ابتسـامة لأننى سقطت من طولى، لم أدر ما يدور حولى، دارت الدنيا بى ودارت، حاولت أن أتشبث بالأرض فمادت بى وكأن رأسى يخبطها رغما عنى، لم أكن فى صحوى تماما ولم أكن غائبا عن كل الوعى، كنت بين بين، سمعت أصواتا ولمحـت بـرهومة وعمـى عبد الغفار وآخرين يمنعون جدى من الوصول إلى، جـاءنى جـلال والشيخ عطية وساعدانى على الوقوف، رأيته رغم الحصار يفتح لنفسه طريقا وسط الأجساد المرصوصة بينى وبينه، فى هذه المرة كانت فى يمينه العصا، سمعته يجعر بصوته ويغطى على صوات مبروكة:

- بقى يا خايب يا بن الخايب عايز تخنق خالك، عايز تقتله وأنا لسه على وش الدنيا، طب على الحرام ما أنت بايت ف الدار.

كنـت أود فقط أن أنفذ من الموقف بالخروج حيا، خفت أن يضربنى بعصاه فينـتهى كـل شىء، ساعدنى الشيخ عطية على الانفلات من باب الدار وأخذونى عندهم.

قال الجد إبراهيم:

- يخيبك، بقى عايز تخنق برهومة وياخدوك قصاده؟

قـال الشيخ عطية إنه من الأفضل أن يتركونى وحدى لأهدأ. حامدا الله لأن كف جدى لم يطل أذنى وإلا لقتلنى، بعد ذلك قلت له كل شىء، عن أرض أمى التى كتبوها باسم برهوم، عن أرض جدى التى آلت إلى برهومة حارمين أبى من حقه فيها، عن شغلى فى الدار كواحد من الأنفار وبرهومة مرتاح وجدى يأمر فقط ولا يمد يده فى شىء فسكت الشيخ عطية وسألنى عن مطالبى فقلت بسرعة:

- يكتـبوا لى الفدانين بتوع أمى ويجوزونى وأنا أشيلهم على رأسى من فوق.

وسكت الشيخ عطية لكن الجد إبراهيم قال ساخرا.

- يجوزوك دا إيه؟ برهومة أكبر منك بكام سنة ولسه.

قلت لنفسى إن برهومة معلول وخائب ولا يصح زواجه إلا بعد أن يسترد عافيته، لو كان برهومة فى صحته لضربنى، ولو كنت ضربته ما تحمل الضرب، فى دارنا يكون العنف سيد الأخلاق، بالعنف سيطر جدى على الدار ودرب عوف بأسره، وبالعنف خوف جماعة شلبى، لو ظللت ساكتا على حقوقى لأكلونى لحما ورمونى عظما، برهومة يخافنى الآن، والرجل الكبير سوف يعمل لى حسابا من الآن، أن يكون الواحد منا قويا فى داره بحيث لا يتوه كأى شىء تافه فهذا هو المطلوب، فى اليوم التالى لما دخلت الدار لم أهتم بنظرتهم، واجهتهم بكل ما استطعت من جسارة، دخلت الدار وفى تقديرى أننى إما قاتل أو مقتول، لما لحظ جدى أننى لم أعد مهتما بشىء نظر إلى وضحك قائلا:

- عشنا وشفنا، ابن حسن عايز يجوز هو كمان، جاتك لهو، على أبوك اللى خيبته محصلتش حد.

قلت:

- ما هو اللى يعيش ف الدار دى لازم يخيب.
- امشى انجر وجع ف رقبتك.

مشيت، من يومها بدأت أدس أنفى فى كل أمور الدار، أفتى بما أراه دون أن يسألونى، أحاول إشعار الكل أننى موجود بها، أن لى حقا فى هذه الدار وعليهم أن يسلموا به، فى وجبات العشاء أدعى الغضب رافضا أكل أصناف لا تروق لى تماما، أفضل الجوع على التسليم هكذا لهم بكل شىء، أجعلهم يعملون حسابى، وإذا جاءنى الغداء على غير هواى أعيده كما هو قائلا لجدتى مبروكة إننى أطفح الدم فى الشغل ولا يمكن أن يسعفنى أو يسندنى غداء بسيط.

قال برهومة مرة وكان قد جاء يشق على القطن:

- يا صالح اعقل بقى وسيبك م اللى فى دماغك.
- عايز إيه يعنى، أفضل كده شغال من غير أجرة؟ دا ابن شلبى بيقول على تمللى باشتغل بلقمتى، طب ادونى أجرة زى الغريب.
- يا وله اختشى على دمك، الأرض ما هى قصادك أهه، هو أنا شايلها على دماغى؟

- أيوه صحيح الأرض قصادى، إنما مكتوبة عليك.
- دا نت دماغك ناشفة طب روح حملها وشيلها.

قالهـــا وكح بحيث أصبح عسيرا علىّ أن اتابع الحديث معه، ولما غاب عن نظرى قلت لروحى إنهم لن يحسنوا معاملتى إلا إذا ابتعدت عنهم وأحسوا بالحاجة إلىّ.

قلت لجدى مرة وأنا أضاحكه:

- هو أنا مش بقيت راجل قدامك، مستقل بى ليه؟

نظر إلى باستهانة وقال: هم، تابعت كلامى:

- جلال وسلومة من دورى واتجوزوا، ما تكتبوا لى على زكية بنت الشيخ فضل.

قال وعلى ثغره ابتسامة ساخرة:

- همك ع النسوان من دلوقت زى أبوك؟ طب استنى لما نجوز برهومة.

قلت:

- أنا مالى ببرهومة، هو اللى مش عايز، يعنى لو طلب حتقول لأ؟ الواحد يطفش منكم.

زام الـــرجل مســـتاء من كلامى فابتعدت عنه بخطوات حذرة متوجسة، أن يكون الإنسان فى متناول يد هذا الرجل فهو الموت بعينه، الأولاد فى مثل سنى لا يضـــربهم أحد، كان علىَّ أن أحمى نفسى بالحذر، صارت بينى وبين الرجل عداوة غير معلنة، إنما فى كل مرة كنت أزوغ منه قبل أن يفكر فى ضربى، كنت أقرأ فى عينـــيه وعيدا بأنه لن يترك لى فرصة تتاح له لإذلالى، مرة كنت راجعا من الغيط راكبا الجمل، قابلنى عند المصرف القديم وقال متعجبا وآمرا فى آن واحد:

- صلاة النبى أحسن، راجع بالجمل فاضى؟ مش هاين عليك تحمله؟

لم أرد عليه فتوقف قبالة الجمل وقال متابعا ما قاله:

- طب نخخ الجمل وانزل يا خايب يا بن الخايب.

ظللت فى طريقى إلى الدار متجاهلا ما كان يقوله، عندما عاد كنت قد عملت حســـابى، وقفـــت فـــى صحن الدار أنتظر وصوله، الجمل بارك بحمله وفى يدى

«شـعبة» أتظاهـر بأنـنى أسند بها الغبيط، كان الفأس ناحيتى وفى متناول يدى أيضا، والشيطان يلعب فى دماغى لعبة المخاطرة، قلت لنفسى ساعة أن رأيته: لو بـدأ بمـا يوحى أنه يريد ضربى أخبطه قبل أن يخبطنى، يقولون إن أبى وعمى اشـتركا فى ضربه، هو عظمة عجوزة ولن أخافه، كان يمشى ناحيتى على مهل، نظـر إلى فوجدنى أتحفز، يدى الممسكة بطرف «الشعبة» تسلتها من حلقة الغبيط وطـرف عيـنى يـتأكد من وجود الفأس مكانها ناحيتى، نظر إلى متفحصا وكأنه يقيسنى ويعرف مدى استعدادى للتمادى فى مشوار الشر، ظل منتصبا مكانه دون حـركة، فـى يمينه الشمروخ وفى عينيه مزيج من الرغبة فى الضرب والامتناع عـنه، وشـىء من الحسد أو الكراهية لى يشع ويتوهج فوق الملامح، لوح بيده الخالـية وهز رأسه، كدت أن أنهزم فى مواجهته، لم يكن الخوف وإنما التذكر أن هـذا الـرجل هو بنفسه عبد القادر عوف الذى لم ينهزم من أى رجل من رجال الكفـر، عـبد القـادر عوف الذى أحبه أيضا وأكره أفعاله، تماسكت وظلت عيناه تتفحصـان وتجوسـان بحرية فى كل ما بان منى خلف الجمل البارك بيننا، طالت النظرة المتبادلة بيننا والصمت يمتد لزمن لا أحسبه كان قصيرا، بعدها قال الرجل وهـو يسـند شمورخه إلى جانب من جوانب الدار ويلتفت إلى قائلا باستهانة من يعرض نفسه للمواجهة بلا شىء يحميه، عارفا أنه بوجوده المجرد يقدر أن يدفع عن نفسه أشد الأخطار وأقواها:

- اسـمع يا وله، أنت ما لكش عيش فى الدار دى، شوف لك داهية اتلقح فيها من دلوقت اهه، أنت سامع؟ مش عايز أشوف وشك هنا.

قـال ذلك ثم استدار يعبث ببعض الأشياء وكأنه يتكبر على الدخول معى فى صراع وجها لوجه مستهينا بى إلى حد جعلنى أشعر بالضآلة والصغر، لحظات ثم خـروج مـن الدار دون أن يلتفت إلى أو يعاود الحديث معى، قلت لنفسى أنه من الأجدى أن أخرج قبل عودته، إنه لو عاد ووجدنى ما تركنى لحالى، رجعت أجمع ملابسـى فى سبت دون أن أرد على «مبروكة» التى كانت تسأل عن وجهتى دون أن تظفـر بشـىء، لما حاولت هى منعى دفعتها عنى وخرجت وعندما ما شافنى برهومة وحاول إعادتى خلصت ذراعى من قبضته وسرت وحدى إلى سكة البندر، سألت الغباش عن عنوان أبى مدعيا أننى ذاهب لزيارته فى المحلة الكبيرة، ركبت

القطـــار ووصلت، أوصلني حنطور ولم يكن أبى هناك، كان فى الشركة لكن جدتى لأبـــى عرفتنى ورحبت بى، سألتنى عن الأحوال وعن ظروف الكفر، قلت لها إننى جئـــت لأشـــتغل فـــى المحلـــة لأنهم طردونى، قالت إن مبروكة هى سبب كل هذا الضـــياع، كان على حجرها طفل صغير، أشارت إليه قائلة: سيد ابن شوق، حكت لى عما حدث من انفصال أبى عن شوق، عن حيرته وارتباكه بالولد والذى ترعاه هـــى، عن زواج شوق بعد إتمام العدة من ابن عمها، قالت إن أبى تسرع بطلاقها وأنـــه كان من الواجب أن يصبر من أجل الولد، قالت إنه من العسير أن يظل حيا بســـبب أنـــه لم يرضع لبن أمه بما فيه الكفاية، عن فلوس أبى التى راحت عليه وســـفها عـــبد الستار، كانت حجرة وحيدة فيها سرير وكنبة وعلى أرضها حصير مفروش، عملت لى شايا، قلت لنفسى إن جدتى «مبروكة» حذرتنى منها قائلة أنه مـــن الممكن أن تسمنى لو أخذت منها شيئا يؤكل، كانت هى تنظر إلى وأنا متردد فـــى شرب الشاى، كأنها فهمت، فأخذته وتذوقته أولا ثم أعادت وضعه فى الكوز وصبت كوبين وأخذت واحدا منهما وراحت تشرب قبلى واكتفت بأن وضعت الثانى أمـــامى بان أنها فهمت فأسفت لأننى نسيت أنها جدتى هى الأخرى وربما تحبنى أكثر من مبروكة، قالت إن أعز الولد ولد الولد يا صالح يا بنى.

لمـــا جاء أبى قابلنى بوجه بشوش خلافا لما كنت أتوقع ما كان يشاع عنه فـــى الدار أنه لو رحت لـــه لرمانى فى الشارع خلاصا من مشكلاتى، قلت لنفسى إنهـــم ظلمونـــى طوال هذا العمر وكرهونى فى أبى حتى أظل عبدا لهم، وأنهم لما وجدونـــى واعيا لنفسى طردونى، قلت لأبى كل شىء من بداية الخلاف بينى وبين برهومة حتى لحظة الرغبة فى معاركة الرجل وضربه، قال أبى متخوفا:

- لأ يـــا صالح، سيدك غشيم ويمكن كان خبطك خبطة تروح فيها، دا ربنا ستر، فاكر إنه خاف منك، دا ما يخافش م الجن، دا قاتل يا صالح.

اغتظـــت لأنـــه أنكر على خوف جدى منى، قلت إنه مازال يحسب جدى فى نفـــس قوته الأولى وأن الرجل لم يعد كما كان، قال أبى إنه سوف يسعى لتشغيلى فى الشركة، قال: كتبوا الأرض لبرهومة عندا فى أنا، سكت وأنا أقول لنفسى: لو كنت مكانه ما تركتها أبدا وما هربت. لعن الأرض ومن يبكى عليها، قائلا:

- يا وارث من يورثك، رزق هنا رزق هناك، وأهى لقمة بناكلها.

قال إنـه استغنى عن الأرض ولم يمت، أنـه عاش مستورا وعوض عليه الله، لكنه عندما نظر إلى سيد الراقد على حجر جدته كشر وبدا غير مرتاح ربما بسبب مرضه، قال إنـه لولا عركته مع جدى لجاء إلى الكفر ليرانى ويطمئن على أحوالى، قـــال إنـــه كـــان يرسل إلى برهومة رسائل ويتلقى منه رسائل يطمئن فيها على راحـــتى، وأنه يكره الكفر وناسه ولا ينوى الذهاب إليه أبدا بسبب ما حصل لـــه هناك يوم طرده جدى من داره ولعنه وأوشك أن يضربه.

بعـــد أســـبوعين أو ثلاثـــة جاء أبى ووجهه مخطوف كأنه هارب من عند الأموات قال لجدتى ولى:

- أبويا جه المحلة هو وبرهومة.

قلت وأنا استكثر عليه خوفه الزائد:

- وإيه يعنى، ما ييجوا يعملوا إيه:

قال:

- دا راجل شرس وطبعه غلس يا صالح.

قلت متذكرا وقفتى قبالته غير مهتم به:

- غلس على روحه، يعنى حيقطع الرقابى.

- أنا كلمت نفرين م البلد يحضروا وياه.

كـــان واضحاً أنه خائف بشكل زائد، لم يعجبنى خوفه عرفت أنه عاجز عن حماية نفسه من رجل عجوز وأنه عاجز بالقطع عن حمايتى، إن حياته فى المدن جعلته يعمل حسابا لأى شىء أكثر مما يستحق، إن ناس المدن يخافون من خيالهم ولا يقدرون على مواجهة أحد، إن أبى القديم واجه هذا الرجل وهو فى عز أيامه لكنه اليوم يخشاه وكان من الواجب ألا يعمل له حسابا. قال هو:

- أنا حبقى اسألك قصادهم: عايز تعيش هنا ولا تسافر البلد، لجل يروحوا من غير مشاكل.

قلـــت إنـــه يخـــاف على روحه ويصدرنى أنا لمواجهتهم.. وأننى ما عدت أخشـــاهم حتى لو أخذوا روحى، وعرفت فى هذه الساعة أن جدى رغم كبر سنه أكثر رجولة من أبى وأنه علمنى الجسارة وعدم الخشية بينما يعلمنى أبى الخوف والرعب من أول تجربة، فى أول موقف جاء يرتعد وكأنه داخل على جهنم.

عــندما جــاء جدى وبرهومة والضيفان كان أبى مخطوف الوجه مرعوش الكلمــات، مخـنوقا بحـبل خفى جعله يتهته فى حيرة وينظر إلى الضيفين وكأنه يستمد منهما الحماية، سألنى أحدهما إن كنت أرغب فى السفر إلى الكفر فقلت: لا قام برهومة وضربنى كفا هزيلا على صدغى وأنا ساكت أنظر إلى أبى وأنتظر رده لكنه قال فى حذر:

- مالكش حق يا برهومة، هو عمل إيه بس.

جعجــع جدى كثيرا لكننى لم أهتم به، ظللت ساكتا بلا جواب خرج الضيوف وبقيـنا وحدنا، أنا وأبى وجدى وبرهومة، أخرج برهومة عقد بيع أطيان وناوله لــى، قــرأت فيه أن ميراث أمى أصبح لى بيعًا وشراء قلت لنفسى: فرجت، الآن اعترفتم بوجودى، قال جدى وكأنه يصالحنى بالكلمات الجافة:

- وشرطنا لك يا هبل يا بن الكلب على زكية، وإن مامشيتش أقل من ذلك تقطم رقبتك.

أخذت أبى خارج الحجرة، أفهمته أننى أفضل العودة لأنهم سلموا بما طلبت وانهــم ســوف يغـيرون معاملتهم معى، خاف أبى من أن يكون فى الأمر خدعة فطمأنــته قائلا أننى لو ظللت أشتغل هنا طوال عمرى ما ادخرت ثمن فدان واحد وأن ما أطوله أحسن من حبات عيونهم.

كــان أبى غير راض عن ذلك الرأى، بان فى عينيه شىء من الكراهية لى والذعر منهم، قال لجدى وهو مستسلم تماما:

- مادام يرتاح هو حر.

قلــت لنفسى إنه أسلمنى لهم دون أن يجعلنى عزيزا، وكان من الواجب أن يــتظاهر بأنه سوف يصر على بقائى ليعرفوا أن لى أبا يدافع عنى ويفتح لى بيته فــى أى وقت، صحيح أن عودتى إليه ربما لا تحدث إنما كان الواجب أن يجعلنى عزيزا عليهم قدر الإمكان ولو بالكلام.

لمــا قمــنا للسفر لبس بنطلونه الأصفر وسترته الصفراء فبدا لى كحاجب المحكمة أو فراش المآتم، يحمل سبتا وضع فيه بعض الفواكه وقمع السكر وقطع الصابون ويمشى خلف جدى وكأنه تابع راض عن تبعيته، رفض جدى أخذ السلال منه إنما برهومة أشــار إلى بأخذه ولا أعرف إن كان من باب عدم إحــراج أبى

أو أنه جعلنى آخذه لنستفيد به، وفى القطار قال جدى عنه أنه أهبل وإنهم ضحكوا عليه وأخذوا ماله وصرفوه ثم أخذوا منه شوق أيضا وأنه سيظل طوال عمره سواحا فى بلاد الغربة، وأنه سيظل تائها إلى أن يموت فى الغربة لأنه اختار ذلك ورضى به جاهلا كيف يطالب بحق من حقوقه فى هذه الأيام التى لا يعيش فيها إلا الأقوياء القادرون على أخذ حقوقهم وحمايتها.

وأصبح لى فى الدار حس بعدما كنت موجودا كعدمى، شعرت بأن لى سعرا بعدما كنت بلا سعر، عندما باعوا القطن جهزوا المندرة الصغيرة ودخلت على زكية، عرفت يومها أن جدى أحسن لى من أبى سايرت الرجل الكبير ففتح لى قلبه وعاملنى بالحسنى، لم يعد ينظر إلىَّ تلك النظرة القديمة على أننى مجرد صبى بلا أهمية، صرت فى عينيه رجلا له رأى فى الزرع والحصاد ونظام الدار، بدأت أحتل عنده مكان برهوم، كان برهومة يزداد ضعفا وإصرارا على الفساد، الحشيش والحريم والسهر دون حد معقول، كان الصراع قد بدأ بينه وبين الرجل الكبير بسبب علاقات برهومة المشينة مع مقاطيع الكفر وسهراته غير المناسبة فى دور مشبوهة، كان إسرافه يزداد وتتكاثر حوله الأقاويل وكلما نصحه جدى بالاستقامة هز دماغه وسكت استهانة بالرجل أو أطال لسانه وشتمه والرجل صابر عليه ومتحامل على نفسه مراعيا ضعفه البين، لما كان ينفرد بى كان يبدى غضبه عليه وكثيرا ما كان يطلب من الله أن يكون أجله قصيرا، كان برهومة عندما يحتاج إلى الأموال يبيع ما يطوله، البهائم والمحاصيل ويرهن الأرض، واستمر حالة على هذا النحو حتى جاء اليوم الذى رقد فيه عاجزا عن الحركة متهالكا منهارا على نفسه، ظل قرابة الشهر وجدى رافض حتى أن يوجه إليه أى كلام أو يدخل عليه حيث يرقد بعلته التى حولته إلى عود حطب أصفر وهش إلى حد مؤسف، عندما دخل عليه للمرة الأولى لم يتبادل معه كلمة، نظر إليه مليا وظل مصلوبا فى وقفته ينظر إليه ويتسمع صوت أنفاسه المتلاحقة المنهارة، فى المرة التالية جلس جوار فراشة وزاغت عيناه وهو يهمس فى لوم:

- بقى كده يا برهومة، تعمل ف روحك كده؟

طالت رقدته وفقدنا الأمل فى أن يعود كما كان، كل ما طلبه كنا نجيبه إليه وكان معروفا لكل من بالدار أنه ضيف راحل عنا فى غد قريب وعلينا إكرامه، لما

طلــب أن يرى أبى سافرت إليه المحلة وعرفته بأن خالى صحته متأخرة ويطلبه، قلت لــه إن الحكيم قرر أن أيامه فى الدنيا قليلة، عندما دخل عليه أبى كان وجهه أكــثر احتقانا وزرقة، شاف أبى بالعينين وربما لم يدرك بالعقل أنه أبى، لما أفاق مــد يــده إلى أبى وأمسك يده وكلمه عن الأرض، عن ضرورة عودته إليها مهما كانــت الظروف، قال لجدى إنه لن يرتاح إلا إذا عاش أبى فى داره وأن الدنيا لم تــدم لأحد والأرض خابت لأنهم ظلموه، لعن أمه الواقفة وقال إنها السبب فى كل شــىء بعدهــا لم يتكلم كلاما موزونا، كان يخرف وسطنا وروحه تأبى أن تخرج بهــدوء، ومرت الأيام الثلاثة التى غاب فيها عن وعيه وجاءت اللحظة التى خرج فــيها السر الإلهى، كانت مبروكة تصوت وأبى واقف والدموع تتساقط من عينيه مــتلاحقة وكأنــه «حرمة» عاجزة عن السيطرة على عينيها، وجدى جامد الوجه والبدن كصخرة لا تهزها الأحداث وعيناه لا تطرفان، نظرته ساهمة مفجوعة إنما صــلبة وحــتى عندما انسالت الدموع من عينيه غصبا لم ترف عيناه وكأنه يأبى الاعــتراف بالدموع ويرفضها أما أبى فكان يندب ويهز البدن الراقد ولعابه يسيل علــى شــدقيه كأنه مجنون، قلت لنفسى: أنه من الممكن أن يكون كل هذا مجرد افــتعال مصــنوع أثــر مــا قالــه برهومة عن الأرض وضرورة أن تعود المياه لمجاريهــا، أى أن يعود أبى إلى الدار والأرض التى لعنها، أن يرث الأرض التى تــركها كل هذه السنوات ويشاركنى ابنه من شوق فى الميراث، سألت روحى إن كــان يســتحق وكنت أحسب أنه لا يستحق فى أرضنا شبرا لأنه فاتها وكأنها لا تســتحق اهتمامه واستماتته من أجل شبر منها ربما يبيعها ويصرف ثمنها على الحــريم، «روحية» الثالثة بعد أمى وشوق تبدو حويطة وغويطة، تضيع الأرض لقاء بعض الدموع والكلمات المحبوكة، ووصية رجل فاقد لوعيه وغارق فى حمى المرض حتى شعر رأسه، لما كان فى وعيه لم يفكر إلا فى نفسه.

قالت مبروكة وعلى رأسها طين تيبس وعلى وجهها حسرة:

- شــمتوا الحبايب والعدا فيك يا جدع، مين يسقى غيطك يا جدع، قولوا لابوه مالوش ولد، قولوا ماعادلوش سند، راح الولد، راح السند والدار خراب بعد الولد.

كانــت تــندب وكان أبى مدهوشا من الكلام الذى يعنى بالنسبة لــه الكثير،

إنكـــاره والتشـــكيك فى وجوده، وجدى ساهم وكأن ما يدور حوله لا يخصه، فى الخمـــيس الأول وزعنا الرحمة بكثرة على المقرئين والطالبين حتى فاضت، قالت النســـوة لجدتـــى مـــبروكة الـــتى شالت سبتا فيه بقايا الرحمة فى اتجاه الدار إن دخولهـــا الـــدار ببقايا الرحمة لا يبشر بخير فربما يعنى موت واحد من رجالها، زوجها أو ابن بنتها لكنها بدت كما لو كانت قد تعمدت أن تدخل الدار بشىء منها، عندما فقدت ابنها لم تعد تهتم بشىء، لو مات رجال الكفر ما هزها أو حرك فيها شـــعره، أعطت أبى حفنة تمر من سبت الرحمة، لم يكن قد فكر إنها تمنحها أياه ليأكلها فوضعها جانبا، أمسكته من خناقه وراحت تصرخ:

- خـــايف على عمرك يا حسن، خايف م الموت يا ضنايا، عايز تورث يا خويا ف الغالى، عايز تضيع الأرض على النسوان.

كان أبى محتارا وعاجزا عن الجواب، لم يكن يتوقع منها عراكا فى مثل هذا الـــيوم، فى صباح اليوم التالى سافر أبى بعد أن عارك جدى ومبروكة، خرج من الدار غاضبا، قالت مبروكة إنه كان ينوى بيع الأرض وصرف ثمنها على الحريم، قالـــت إن خـــراب الدار سيحل لو بقى فى الدار وأنه لو ورث زمام الكفر لضيعه، استشهدت بزواجه الثالث من روحية وإمكانية أن يخلف منها هى الأخرى فى أجل قريـــب، أشـــارت على جدى بأن يكتب الأرض باسمى لكنه كان تائها وغارقا فى همومه لدرجة جعلته عاجزا عن الموافقة أو المعارضة.

* * *

آخـــر مرة شفت فيها سيد مصادفة، كان عند الكوبرى مع سعاد بنت شلبى، أخـــته مـــن شوق، قال وهو يدارى خجله إنه فات على الدار ولما لم يجدنى ترك ســـلاما وخـــرج، عرفت أنه ينتظر عربة يركبها فى طريقه إلى مصر، هكذا دائما نراه صدفة أو يأتى ليطل علينا ويسرع بالسفر ولما تكون الإجازة طويلة لا نراه، نسمع أخباره من الناس، أحس بالعار من بقائه عند أمه وعدم التفكير فى المجىء فـــى كل مرة يقول إنه ينوى المجىء إلينا مخصوص، هو حر، وهل مجيئه يفيدنا فى شىء، وهل طالبناه بشىء ليتهرب منا على هذه الصورة، لا يربكنى فى الأمر إلا كـــلام الناس، الناس لا تترك الواحد فى حاله، أن يزور أمه شىء لا عيب فيه، إنما العيب أن يجعل دار جماعة شلبى مرساة فيها يبيت ويبقى وإن زارنا فمن باب المجاملة وأداء الواجب، فى الكفر.

أحـــس بالحرج من كلام الناس، يسألوننى عنه وكأنهم يعايروننى بوضعه، كأنــــنى مسئول عن تصرفاته، هو حر، دارنا مفتوحة إنما لا يمكن أن أجبره على شيء، علموه فى المدارس أن ينسى الأصول، أن ينزل كفر عسكر دون أن يدخل دار جـــده عـــبد القادر إلا من باب أداء الواجب، كأنه من جماعة شلبى، يجهل ما يقـــال عنه، أبى نفسه لا يرتاح لدخوله دارهم، شاكر دائما معه، ما إن ينزل الكفر حـــتى أسمع أخباره مع شاكر، كان مع شاكر فى السوق كان مع شاكر فى الدار، كان مع شاكر فى مندرة شلبى.

أخذنى سيد من يدى وابتعد عن أخت شاكر، همس فى أذنى سائلا:

- شفت أبوك يا صالح؟

قلت وأنا أشعر بحرج لأننى وعدته بزيارته ولم أذهب إليه:

- والله يا سى سيد انشغلت فى الأرض ومملكتش أروح.
- طب يا صالح، بس ابقى روح شوفه، لما أكون غايب تكون أنت مكانى، عايز أعرف أخباره منك.

قلـــت لنفسى إننى أذهب إليه فأجده ملويا بدون أسباب، وأنه يجعلنى أشعر أنه غريب عنى، يقوم بواجبات الضيافة وكأننى غريب عنه، لا أشعر أننى فى دار أبى، أخرج بعارى ولا أجد مبررا لمعاودة زيارته، بعد كل محاولاتى معه أن يأتى ليعيش فى الكفر لم أجد لديه إلا الرفض، الرفض ليس من أجل شيء إلا إشعارى بأنـــه يرفضنى أنا، يرفض الاعتراف بأننى ابنه، كلما حاولت الاقتراب عنه ابتعد وكلما حاولت الابتعاد عن سيد اقترب، قال سيد:

- إيه سرحان ف ايه يا صالح؟
- ولا حاجة، ما أنا كنت مستنى نروحله سوا.

ضـــحك وســـلم ولما طلبت منه أن أوصله شكرنى وقال إنه لا لزوم للتعب وأشـــار إلى البنت، فى الدار وجدت زكية وسط البنات لما شافتنى قامت وتبعتنى إلى المندرة، قالت:

- أخوك سيد كان هنا، بص وهو واقف ومشى مع أخته الصغيرة، بيقول مسافر بيها مصر.

قلت:

- شفته.

قالت:

- هــو عــامل كده ليه، وأنا بقيت ف نص هدومى م الخلق. دا مرضيش حتى يقعد يشرب كباية الشاى.

أضافت:

- الواحد بقى ف نص هدومه من عمايله، دا الغريب يراعى كلام الناس، ومحمد ابنك مسك فيه ما فيش فايدة.

قلت لنفسى إنه عرانا من كل ما سترنا أمام الناس، إنه لو كف عن المجىء إلـــى الكفر يكون أحسن، قلت لنفسى إنه حر وأننى لن أطلبه بلسانى، لن أحاسبه علـــى أفعاله ويكفى أن يحاسب هو نفسه فليس جاهلا، كل مرة يعد فيها ولا ينفذ وعده، ربما لا يجدنى من مقامه، مقامه ابن شلبى الذى خاب من المدارس أما أنا فمهما كنت فى نظره فلاح، مرة قال وهو يضحك:

- والاجازة الجاية أقعد عندكم لحد ما تزهقوا منى.

مـــن علمـــه أن الأخ يـــزهق من أخيه، صحيح لسنا من أم واحدة إنما الأم مـــاعون، المهـــم العصب، سيد قلب الآية، اهتم بإخوته من الأم وأهمل أخيه من العصـــب، ربمـــا كان أبى هو الذى أوصه بذلك، إنما الرجل لا يرتاح لدخوله دار شـــلبى، لو عاش أيام أجازته معنا يقطع ألسنة الناس، هو يدخل الدار كالخيال ثم يخـــرج حتى فى المرات القليلة التى يبقى فيها ليلة أو ليلتين يجعلنا نتعلق به ثم يهرب، كلما حاولت الإمساك به يهرب، كأنه خيال أو وهم أشعر بالراحة لما يأتى، أمشـــى معـــه مـــرتاحا ورافعا رأسى أمام الناس «هاهو سيد حسن عوف يا كفر عســـكر، ابن من تاه فى بلاد الغربة، ابن حسن الذى عايرتونى به طوال عمرى، هـــو أخـــى، أفـــندى مصروف عليه ثقله، دخل المدارس والجامعة وأصبح أستاذا بحـــق، له وزن وهيئة وقيمة ومقام، سيد أخى يا كفر عسكر فهل فيكم من يقدر على إنكار أن جماعة عوف فيها أساتذة يفوقون أولاد شلبى، حتى سيد الذى خرج أبوه من الكفر بلا شىء رباه وعلمه وأصبح كما ترون».

لـــو لم يكن الماضى منصوبا بينى وبين أبى، لو لم يكن الرجل صلب الرأس

عنـــيدا لأصبحنا أحسن دار فى درب الحاج عوف، سنوات ويتم عبد القادر تعليمه ويلحقه محروس، سنوات وتصبح دارنا مزحومة بالأفندية، أحسن من دار العمدة، إنما أبى لا يسمع الكلام، سيد قال لـــه مرة: انسوا الماضى وابدأوا من جديد، كان يرغـــب فـــى تصفية الجو، قلت لنفسى ساعتها اننى مستعد لذلك بل إننى كنت لا أحلـــم بغير ذلك، إنما أبى كان يلوح لى بما جرى، يذكرنى بغلطتى الوحيدة ويلوح لـــى بالأيام التى كنت فيها فى نصف وعيى، وأعود مرة أخرى، راجعا من أمنيات نســـجتها إلـــى حقـــيقة مـــا يدور حولى، هاهو أبى يرفضنى بإصرار، يرفض أن يصـــدقنى، وأخـــى يحـــاول جهـــده أن يردم علىّ الماضى، لو كان أبى وحده لما عاملـــته، فى كل مرة يسترجعنى إلى الأيام القديمة، يجرنى لأتكلم بمنطقها، يفسد كل شىء يفتح جرحنا القديم المشترك، الأرض ميراث كان له وأخذته فماذا يهمه، جـــدى عـــبد القادر أعطاه لى، حتى ولو كنت أخذته بالزور فهل أنا غريب، أرض عبد القادر عوف وأنا ابن ابنه.

لمـــا كنت أحاول توضيح الأمر لسيد يطلب منى السكوت، لم يكن يرغب فى سماع حكاية الأرض، كنت أعرف أنه سمعها منى أكثر من مرة لكننى كنت أشعر بأنه من اللازم أن أؤكد له ما جرى، أن أوضح له أن أبى لم يفهم وأنه يحكى على هـــواه، يدعـــى أنـــنى أخذتها بالزور بوضع اليد، أحيانا كنت أقول لنفسى إنه لا يصـــدقنى، إنه يتظاهر بتصديقى ليرتاح، إنه لو كان يصدقنى لجعلنى سره ولجعل دارى مقـــره، ربما يرتاب فى أمرى، الناس فى كفر عسكر لا يكفون عن الثرثرة، ربما أفهموه أن لـــه فى الأرض نصيبًا، لو كان لـــه حق ما منعته، أى حق وهو الآن موظـــف لـــه مرتب شهرى وهو مازال بطوله، الناس فى الكفر بارعون فى إفســـاد الجـــو، المظهر لا يهم، مظهره لا عيب فيه، إنما هل أعرف ما فى قلبه؟ الأمور الخفية خفية ولا يعلمها إلا الله، كلام الناس عنه كثير، مرة قال لى نفر:

- دا أخوك سيد ده ناب أزرق.

خفـــت ساعتها وسألته عما يقصد لكنه لم يوضح أكثر من هذا، جعلنى أشك فيه، أخاف منه، ربما يأتى ليعرف أسرارى، ربما يدبر لى مكيدة، إنما كيف أصدق كـــلام الخلـــق عنه، لو كان يسر إلى بما يسمع عنى، يوهموه أننى أخذت نصيبه بأخذى الأرض وحدى، وهل كنت أرفض أخذها وهى جزء من حياتى، بها أعيش

وعلــى خيرها أربى الأولاد، بامتلاكها يكون لى فى الكفر سعر، من غيرها أصبح بــلا قيمة، هكذا وجدتنى مقطوعا لها ومربوطا إليها، لملمتها قيراطا على قيراط، فككــت رهونـها وسددت ديونـها التى خلفها برهومة، هى بالنسبة لأمثال سيد تعنى مبالغ قابلة للضياع والصرف، من يعرف إن كان مستقيما فى معيشته فى مصر أم أنـــه فاســد جاء يبحث عن حق قديم أصبح لا يخصه، ماله بى ولماذا أخشاه ولا أرتاح لـــه تمام الارتياح، ربما بسبب الأرض، خوفى على الأرض وعلى مستقبل الأولاد يــزرع الشــك فـــى قلــبى، لما طلبت منه أن يعود أبى إلى الكفر وافقنى بســـرعة، كأنهـــا فكرته ونيته المبيتة، أخذنى إليه بعد أن انقطع حبل الوداد بيننا لســنوات طويلة والرجل لم يوافق، عندما زرته فى المولد قال إن سيد فاسد وأن ســيره لا يعجـــبه، قالت امرأته الجديدة إنه لا يهتم بهم كما كان يفعل، أنه لم يعد يدفع لهم شيئا، ومرة قال فى نفر من الكفر:

- دا ســى سيد أخوك داير على حل شعره ف مصر، ابن خالى راح شقته لقى فيها واحدة ست وحلف إنه شافه سكران، دا كافر.

أمسكته من زنده وقلت ساعتها:

- وراس ســيدى عبد القادر لو كلمة طلعت من حنكك ليكون بحش أجلك، حسك عينك تتكلم عليه قصادى.

يومهـــا كنت أشعر أنه من الواجب على أن أحميه من كلام الناس، لم يكن أول مـــن يكلمـــنى عـــن سيد بمثل هذه الأشياء، يشرب الخمر، يعاشر النسوة، لا يصـــلى، صحيح أننى لا أصلى إلا فى المناسبات وأنا حامل كتاب الله، إنما هو لا يصـــلى حـــتى أيام الجمع رغم أنـه لما ينزل الكفر يكون محطا للأنظار. يحسبون علـــيه خطواتـــه، ربما تؤكد شكوكهم فيه أحاديث الناس عنه، يكونوا فى حالهم، يصـــلى أو لا يصلى فهو أمر لا يخصهم، يحاسبون الناس ولا يحاسبون أنفسهم، يأمـــرون الناس بالمعروف وينسون أنفسهم، كفرنا غارق فى الذنوب، الخير فيه قلـــيل والشر زائد، حريم الكفر يتظاهرن بالعفة وفى الدور تسترهن الجدران وفى الحقـــول تسترهن أعواد الذرة وعتمة الأمسيات، أكثر من دار معروفة يلعب فيها رجـــال الكفـــر القمـــار ويتـــباهون بالسهرات، مقاطيع الكفر يتكاثرون ولصوصه يتزايدون، دار شفيقة ودار زبيدة وعدلات أوكار للفساد، القمار والحشيش وأحيانا راحـــة الـــرجال فى أحضان النسوة، ما لهم بنا، جدى عبد القادر كان يصلى فى

الأعــياد وقلمــا كان يصلى فى أيام الجمع فهل كفر هو الآخر «إنك لن تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء» وكما يقال إن الله أدرى بما تخفى الصدور، وأنا هــل يقـــال عنى بالمثل إننى كفرت، هل يكفر الواحد لو كف عن أداء فرض الله؟ الصـــلاة عمـــاد الديـــن وأنا حامل لكتاب الله ومن نسل الحسين فهل سقطت عنى الصـــلاة؟ أليس الله غنى عنى وعن صلاتى وصيامى، ربما كنت عاصيا وربما كنا نسل شياطين وحكاية نسل الحسين خدعة اخترعها جدنا الكبير ليدارى بها خفاياه، بنى الجامع والزاوية وانشغل فى أمور الدنيا، والحشيش هل هو حرام مثل الخمر، ولـــو كـــان حـــراما فكيف يسمح الشيخ مرعى لنفسه بتدخينه؟ كلها أمور خفية، أعرف أن الله غفور رحيم، كلما فكرت فى هذه الأمور يخف عقلى، أوشك أن أتوه عـــن الدنيا، أن أسترسل فى هذا التفكير حتى أشرف على الضياع التام فى منطقة بيـــن الكفـــر والإيمان فأهرب بنفسى مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم قارئا «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ {١} مَلِكِ النَّاسِ {٢} إِلَهِ النَّاسِ {٣} مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ {٤} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ {٥} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ {٦}».

* * *

بعد موت برهومة زادت هموم الدار، حامت حولها الغربان وعشش الغم فى الجدران، تحولت الدار إلى مندرة نتلقى فيها العزاء طوال النهار وجزء طويل من الليل، داستها نعال الخلق العدو والحبيب انكشف ما كان مستورا، حتى أولاد شلبى جـــاءوا لم يتخلف منهم نفر، توافد الناس على مدار الأيام وانهدت قوانا من تلقى العزاء، أحيانا يسألون عن أبى ويستنكرون غيابه عن الدار فى مثل هذه الظروف وجـــدى ذاهـــل عما يدور حوله، كلما جاءه وافد يعزيه تنحدر من عينيه الدموع، تـــتزايد عندما يذكرونه بأبى، وشاعت فى الكفر حكايتنا «عبد القادر عوف بكى يا رجـــال، راحت الجسارة وخفت الصوت العنيف وحل السكون المهموم على ملامح الرجل الكبير» فى أول الأمر لم يكن من السهل أن أكلمه فى شىء، كنت محطوطا فـــى جـــو الغـــم ومغمومـــا بفعلــــه، تهت فى زحمة الأنفار وذابت كلماتى وسط الهمهمات، ولما لاحظت حمرة العينين فى اليوم العاشر قلت لــــه:

- ارحم نفسك

فنظر إلىّ وبكى بحرقة، قلت:

- الأعمار بيد الله

فانسالت الدموع، لم يكف أبدا، ظل يبكى بلا صوت، أنصاف الكلمات التى تخرج من بين شفتيه جعلته يبدو مختلفا تمام الاختلاف، وكأنما أصبح الرجل فرجة لكل من يراه، قلت لنفسى إن من يأتون لا يأتون من أجل العزاء وإنما لرؤية الرجل فى وضعه الجديد، إن الدموع التى عزت عليه طوال العمر جعلتهم يأتون، خزين عمر الرجل من الدموع ينسال ويزيح عن وجهه كل أمارات القوة والقدرة القديمة، يشيخ هكذا ويبين عليه الكبر الذى دارته القوة أعواما بطولها. لو يكف الرجال والنساء عن المجىء ربما تخف الأحزان، لو كفوا عن ذكر برهومة ربما تروق عينا الرجل وينتبه لنفسه مرة أخرى، لكنهم داوموا على المجىء وشاركوا فى الأحزان بالمظهر بينما يرقبون الرجل بالعينين كل معز بدوره، وعندما تغلبنى الأحزان أتوارى بعيدا عن الخلق حتى لا تتم المهزلة ويلمحوا دموع الحسرة على ما صرنا إليه، جدتى مبروكة تتصدر مجلس الحريم، تنصب المندبة وتسبق الندابة فى النواح والتعديد على برهومة، تلطم الخدين.

قال الجد إبراهيم لأخيه:

- فوق لروحك يا عبد القادر، شوف أحوالك الأربعين فات ولا لزوم للاستمرار فى الأحزان.

كان جدى يتسمع والدموع تتساقط على لحيته التى تركها تطول فبانت الشعور البيضاء أكثر من السوداء مؤكدة أنه شاب، كان صوته المنهوك مصحوبا ببحة غريبة تخرج مع الكلمات المتقطعة فتجعلها غير مفهومة وغريبة على الآذان، وعوده ربما كان هو إنما انحنى واستسلم لانحناءة لم يكن معتادا عليها، وأسأل إن كان قد انحنى بسبب برهومة الذى لم يتوقع موته بمثل هذه السرعة أم أنه انحنى ليزيد فينا شماتة الأحياء.

أصبحت دارنا خرابا وجفت الأشواق، حتى المواشى جفت وما عادت تدر الحليب، وكرم البلح لم يطرح وكأنه عاندنا هو الآخر وكلما نزلت إلى الأرض حسبتها أكثر سوادا وغلظة، كأنها اسودت بالحزن هى الأخرى على ما صار، جفت ليس فقط لانشغالنا عنها بل أيضا لأنها شاركتنا حزن الدار. والطين المتيبس فوق غطاء رأس جدتى المشدود على جبهتها بالطرحة السوداء أصبح علامة لها

تتوج به نفسها وكأنها تقول لكل الناس إن النهاية المحتومة لأمثالها لا يمكن أن تنتهى إلا بتاج الطين، رفضت أن تزيله لما طلبت منها زكية أن تفعل، رفضت أن تستحم، قالت بتصميم لا يقبل النقاش: فى الميعاد. حسمت أمرها على أن يستمر الحزن عاما بطوله.

وكان علينا أن نحتمل، حتى لما ولدت زكية لم نشعر بغير العار فالطفلة التى كانت تجعل للدار حسا أصبحت هى الأخرى غريبة فى مجالس الهم المتكررة، والولد الصغير كان يحس بما يجرى فى الدار فيخرج إلى الغيطان، يسرح بالمواشى أو يلعب بعيدا ونسأل عنه فلا نجده، كانت مبروكة هى صانعة الحزن وهى التى فرضته على الدار فرضا، كأنها باركت حزن جدى ودموعه وجرته جرا لأن يستمر كل هذا الزمن وانقاد الرجل لها وسبقها، والشهور تمر وئيدة متأنية والعام لا يود أن يكتمل لينزاح عن الدار كابوس الهم المعشش، كانت عيناه تزدادان احمرارا رغم أنه أصبح عاجزا حتى عن إفراز الدموع، نضب خزين عمره فى الشهور القليلة وما عاد له إلا الصوت المغموم المقهور علامة تميزه عن كل الأصوات. وكلما ذكروا له اسم برهومة انسالت دمعة أو دمعتان بعسر شديد وتحولت حدقتا العينين إلى جمرتين ملتهمتين.

كان الولد مصطفى يرمح فى صحن الدار وشافه الرجل، قال وهو يمسك عينه اليمنى بيده:

- بعد عنى يا وله: طرفت عينى.

جاءت زكية لإبعاد الولد، قال هو:

- سيبيه يا بت، دا مش هو، دى حاجة كده دخلت عينى وبتلهلب.

نظرت هى إلى عينه وبحثت عن شىء فلم تجد، إنما فى نفس الليلة، بعد آذان المغرب قال:

- ما تولعوا ياولاد.

كانت اللمبة تنير صحن الدار، عيناه تلمعان وتعكسان بريقها وسط الحمرة التى شملت بياض العينين فبانتا عينى ذئب جريح، قلت له إن اللمبة مشتعلة قال جادا.

- وبتكدب على يا بن الكلب؟

قامت جدتي مبروكة من مقعدها واتجهت إليه، نظرت إلى حبات عينيه وخبطت صدرها بيمينها قائلة:

- مالك يا عبد القادر يا خويا؟ أوعى تكون انعميت.

كانت أول مرة أسمع فيها أو أفكر في عماه، لم يخطر ببالى إنما الكلمة رجتني فاهتزت يدى القابضة على كوب الشاى وسقط على الجلباب، اقتربت منه فوجدته يطل إلينا من خلال عينين مفتوحتين عن آخرهما إنما لا تطرفان لم أصدق أنه أصيب بالعمى هكذا مرة واحدة، رفضت ما سمعته قلت وكأننى أدفع عنه العمى بالإنكار:

- يا وليه اخرسى كده بلا تلطيش.

لم يحرك جفنيه، ظلت العينان تلمعان فى ضوء اللمبة ولا تتحركان، ظللت واقفا قبالته حاملا فى يدى اللمبة وفكرت فى شراء مرهم أو قطرة نداويه بها، بعثت إلى صبحى الحلاق فجاء، ترك لنا زجاجة قطرة حمراء فى الصباح كانت العينان كما هما، صوتت مبروكة فى وجهى:

- سيدك انعمى يا صالح، سيدك انعمى.

كان الصوت كئيبا ومخيفا وحاسما فى آن واحد، صوت واثق لا يقبل النقاش، كأنما تراهن على صدق ما تقول على حساب نور عينيه، أبعدتها عنى قائلا:

- انكتمى يا ولية.

لكنها ظلت تؤكد وتؤكد وتسرد الحكايات عمن فقدوا النظر فى ظروف مشابهة أثر ضياع الولد أو الأخ، وحتى لما كان صبحى الحلاق يضع له المرهم كانت تصوت:

- خلاص يا عبد القادر، خلاص يا خويا، انعميت، انعميت وقعدت زى البسيونى وأم إبراهيم؟

وهو جالس فى مقعده لا يتحرك ولا ينطق بحرف، كأنه أسلم نفسه لها أو عاش فى عالم غير عالمنا. بهدوء رهيب وتقاطيع صارمة لا تلقى أدنى اهتمام بما يدور، كأنما اللسان توقف هو الآخر أو تأكد من لا جدوى الكلام، وكأنما الأذنان

كفتا عن السماع، البدن كله قاعد فى اعتدال لا يكتمل بفعل الانحناءة التى أصابته مؤخــرا. فجعلت منظره كله يبعث على الإشفاق، للمرة الأولى منذ فتحت عيونى لأراه أشــعر ناحيته بالإشفاق، طوال عمرى لا أشعر بغير الخوف منه ومن قوته، وحــتى يوم واجهته كنت أتخوف منه وأتوقع حذرا أن ينالنى بأذى، كان الإشفاق أمرا جديدا لم أعمل حسابه، جديدا على الوجه الصارم والبدن الواثق الذى عرفته كل عمرى، ولم أكن راضيا بتصديق شىء، كل ما وصفوه عملناه ولم يثمر، ولما جاء الحكيم من البندر لم يفلح علاجه، قلت نذهب به إلى حكيم مشهور فى مصر. يومها قال لى:

- ابقى مشى جنبى يا صالح ومتخليش حد يلاحظ.

ومشيت جنبه حتى ركبنا وأنا أحس أن كل العيون تنصب علينا مؤكدة أنها تعرف الحكاية، والحكيم فى مصر همس فى أذنى بأن الأمل ضعيف فهززت الرأس وعدت به إلى الكفر وسط عيون مستطلعة عارفة وهمسات شامتة أو مدهوشة أو محــزونة علــى الرجل على عبد القادر عوف سيد رجال كفر عسكر، «لم تنفعك الدمــوع الذى مات ارتاح فى مرقده، وأنت مازلت تدب الأرض بالقدمين العفيتين إنما لا ترى عدوا أو حبيبا، قتلت فيك القدرة أحزان كانت بلا معنى ولم تكن تليق بك يا سيد الرجال، ربما استرسلت فى البكاء حزنا على دموعك فبكيت، استرسلت فــى إفراز الدموع بعدما سقطت غصبا عنك دموع، بكيت انهزامك أمام الموت لما عجــزت معك الحياة، ربما لأنك تذكرت وحدتك فى نهاية الأمر بعد موت برهومة ومــوت عبد الحميد قبله وابتعاد حسن، تذكرت وحدتك وسط أخوة تتزايد خلفتهم وأنت وحدك تتناقص أنفاس الخلفة فى دارك».

فــى التاريخ الذى حدده الحكيم أخذته وذهبنا، بلسانه قال إن الأمل ضعيف ورغــم ذلك دفعنا لــه ما طلبه ثمنا لإجراء العملية على أمل أن يعود إليه البصر الضــائع، ولــم تثمر الأحلام، عاد كما كان كفيف البصر مجروح المشاعر، جلس على دكة النورج وسط الدار، كف عن الكلام إلا الضرورى منه، ولما شكوت لــه الحال وعدم أمانة الأنفار قال بانفعال:

- روح لأبوك يا صالح، هاته يسندك ف الغيط والدار.

قالت مبروكة:

- خلى أبوه فى حاله، هو فاضى إلا للنسوان.

ولأول مـرة يحـتد الرجل بعد عماه، طوح عصاه ناحية الصوت وتعثر فى خطواته ناحيتها، كان يلعنها بتصميم وكراهية:

- اخرسـى يـا بنت المراكيب، يا صنف واطى، حد سألك يا مسحوبة من لسانك.

أجلسـناه غضـبا وحاولـنا تهدئته لكنه لم يهدأ، ظل يرمى عليها مسئولية خراب الدار وتشتيت أولاده وحتى أبى الذى لم يكن راضيا عليه فى أغلب الأحوال بدا راضيا عنه كل الرضى ناسيا أخطاءه وتركه للدار، لائما جدتى مبروكة وجاعلا مـنها السـبب الأوحد متلمسا له أعذارًا جديدة، قلت لنفسى إنه لما فقد برهومة راجـع نفسه فقرر أن يتشبث بوجود أبى ردا على ما كانت تقوله مبروكة من أنه فقد الولد وأصبح بلا سند، قال وهو محتقن الوجه:

- تبعت لأبوك مرسال ييجى وأنا لى كلام معاه، فاهم ياوله؟

كـان مغلـولا بصورة لم أشهدها قبلا، عيناه الكفيفتان تلمعان ببريق عنيد ملىء بالإصرار والحماس.. قلت:

- حاضر، أبعت له.

جدتى مبروكة لم تكن مرتاحة لكننى كنت مجبرا على تنفيذ رغبة الرجل، لما جـاء أبـى واكتشف ما جرى لجدى جعل ينهنه ويبكى، لكن جدى استعاد قدرته الأولى وصلابته وراح يربت كتفه مهونا الأمر قائلا إنه لم يعد له من الدنيا مطالب وأنـه شـبع منها، الأمنية الوحيدة هو أن يراه فى الدار، أن يحس بأنفاسه مرة أخرى، أن ينصلح ما كان فاسدا وتعود المياه لمجاريها كما قال برهومة، أن تظل الدار مفتوحة بحسه.

قال أبى فى يوم سفره:

- يومين بس على ما أحول أوراق الولد لمدرسة البندر.

قلت لنفسى يحول أوراق ابن شوق ويعلمه فى المدارس بينما لم يسأل عنى ولـو برسالة، تركنى لهم أطفح الدم ولما رحت له خاف منهم وسلمنى لهم، يأتى وتعـود المياه لمجاريها، تصبح الأرض له ويورثها لابنه الأفندى تربية المدارس

ولأولاد روحية الذين يخلفهم على مدى السنوات التالية، يصرف على ابن شوق من كدى وعرقى وهو جاهل فى أمور الفلاحة وسوف يجلس فى الدار عمدة مثل برهومة، لم أكن بقادر على قول شيء إنما أبى لاحظ عدم ارتياحى لفكرة جدى فسألنى:

- رأيك إيه يا صالح؟
- وأنا لى رأى فى الكلام ده برضه.

وتركتهم وخرجت. ولما عدت عرفت أنه سافر لتحويل أوراق سيد وشحن الفرش لكنه غاب، وكان الرجل يبدو قلقا ومنطويا على نفسه، خاصمنا ولم يعد يكلمنا لإحساسه بعدم رضانا عن تصرفاته الأخيرة، كان لا يود أن يتبادل معنا أى كلام، ظل ينتظر ولما يقلق يتوكأ على عصاه ويطلع إلى السطح دون أن يفكر فى الاستعانة بأحد منا، لو كان ابنى مصطفى موجودا يطلب منه أن يقوده، لكننى فى صباح يوم من الأيام قمت مفزوعا على صوت هبدة رجت الأرض، تلتها صرخة أو أنة خافتة فتحت عيونى فتسمعت الأنين، بعد لحظات سمعت صوت جدتى مبروكة تنادى:

- يا وله يا صالح.. إلحقنى بكوز ميه.. سيدك وقع ع الحجر وبيلقف.

أسرعت ناحيتها فوجدته مرميا على حجر الطاحونة القديمة والمركون تحت السلم، كان الدم ينزف من كوعه الأيسر وركبته اليمنى وكان يجاهد باستماتة أن يقوم فترتعش أطرافه وتخرج من حنجرته أنصاف آهات متلاحقة مستجيرة، سندته فلم أجد عزمه قادرا على مساعدتى للانتصاب به، كان علينا أن نحمله، وضعناه على مرتبة مفروشة فى أرضية القاعة، بعسر شديد كان يأخذ أنفاسه ويتحسس سلسلة ظهره، كان يئن أنينا موجعا ويتحسس ظهره، اقتربت منه مبروكة وراحت تلطم خديها وتسأل:

- عبد القادر، ايه يا خويا اللى مطلعك فوق الساعادى، دى وقعة موت يانضرى، دى وقعة موت.

لم يكن بقادر على إسكاتها أو أخذ أنفاسه، ولما قربت من فمه كوز الماء أزاحه بيده وألقى برأسه على الوسادة وعلى الوجه آلام مكتومة، ربما كتمها بنفسه وكز على أسنانه فى استماتة وإصرار على عدم الشكاية بالآهة أو بالكلمة.

ولما راح فى إغفاءة تركناه قالت جدتى مبروكة إنه سقط على سلسلة ظهره على سن الحجر وأنها لما شافته وجدته يجاهد أن يستدير وأنها سمعت عظمة الظهر وهى تنتقل من مكانها مؤكدة أنه سوف يموت خلال أيام قصيرة، سمعناه فى الليل ينادى بصوت جريح متقطع ونصف مدرك:

- يا ولاد.. اسقونى يا ولاد.. اسقونى.

ناولته زكية كوز الماء فكان يعب منه عبا بينما ينحدر من كوز الماء خطان نحيلان عبر الأشداق فى اتجاه اللحية التى طالت وازدادت شيبا. عندما ارتوى رفع رأسه عن الكوز وتجشأ ثم جاهد أن يعتدل فى رقدته فعجز، ساعدته ليرتاح فسمعت صوته السائل:

- أبوك ما جاش يا صالح.

قلت:

- لا.

سكت، كأنما أغلقت بنفى مجىء أبى كل الأبواب إليه، مص شفته السفلى ثم أغمض عينيه وكأنه يطردنى ويطلب منى أن أتركه وحيدا، وفى صباح اليوم التالى بدأ يئن فى خفوت منهار كأنه انهزم إلى الحد الذى جعله يرتضى بالأنين، تماما مثلما بكى فى موت برهومة واسترسل فى البكاء بدأ الأنين واسترسل فيه حتى لما زاره الرجال الكبار أمثاله لم يشعر بالعار لأنه يئن ويتوجع على مسمع منهم، كأنه خلع عن نفسه ما تبقى له من برقع الحياء وتوقعت منه لما زاره الجد إبراهيم أن يطلب خروجى ليسر إليه بكلام لكنه لم يفعل، بل إنه لم يسأل عن أبى، حتى لما جاءت سيرته دعى له بحسن التساهيل والستر، ولما خرج زوار الصبح سألنى:

- بقى ما تحصلش أبوك.. كده برضه؟ كان نفسى أسمع صوته قبل ما ودع.

قلت متحمسا دون أسباب:

- أبعت له تلغراف م البندر.

كانت نبرات صوته تجعلنى أحس بالحزن عليه، وكنت أرغب فى تنفيذ مطلبه الوحيد إنما جدتى مبروكة حذرتنى من سرعة إرسال الخبر ومن وصول أبى:

- سيدك ميت ميت، يعنى هو ح يحوش رجل النعش، ندبر أمورنا وبعدين نبعت له.
- إزاى؟
- دلوقــت الجو خليلك، يعنى نقدر نكتب ورقة الأرض بيع وشرا، الراجل لسه صاحى وأنتم ويايا أهه.
- يبقى حرام.
- حرمت عليك عيشتك، عايز تطلع م المولد بلا حمص؟ على كيفك.
- أمال أعمل إيه؟
- يــا ضنايا فوق لروحك، ما هو لو جه أبوك ومراته وابنه ترجع تمللى زى الأول، تشتغل بلقمتك، هو حيفضل من غير خلف؟
- دى حــتى فدانين أمك متسجلين باسم سيدك وأنت لا سجلت ولا لك لو مات قصبه.

أحسســت بــالخوف، بالكراهية لكل من بالدار، لجدتى مبروكة التى فكرت ودبــرت لــيس مــن أجل سواد عيونى وإنما لتمنع أبى من أخذ شىء، ولما كان بــرهومة حيا ظلت كل الأرض باسمه وكرهت أبى الذى استمر فى العمل فى بلاد الغــربة فــى انــتظار لحظة الميراث الجاهز، وكرهت جدى لأنه لم يعمل حسابى واكتفى بطلب عودة أبى ليرث الأرض ويصرف منها على ابن شوق وعلى زوجته الــتى كانت حامل وسوف تلد لــه خلفة يعلم الله عددها، وكرهت نفسى أيضا لأن الشــيطان غلبنى وجعلنى أوافق على رأى مبروكة كحل وحيد يضمن لى حقا فى الــدار الــتى اســتعبدونى فــيها سنوات العمر كله، والأرض التى سقيتها بعرقى وجهدى وعزقت طينها بعزم صباى وحملت إليها السباخ لتسميدها بشقاء طفولتى كــل هذا من أجل برهومة الذى ظل يلهو ويعبث حتى مات من كثرة الفساد، ومن أجــل الــرجل الذى ظل قادرا وقويا حتى بعدما أصابه العمى، وبعدها أعود عبدا مصــبوغا لأبى الذى أعرفه ولأخ منه أو إخوة يعلمهم فى المدارس بينما أشقى، كرهــت الكــل كرهت أمى التى فاتت الدار وتزوجت فى وقت كنت أحتاجها إليه، خلفــت هـــى الأخرى وعاشت، وجدى مارس قدرته وقوته فى ضرب الجميع ولم يتركنى لحالى إلا لما شعر بالحاجة إلىَّ. حسبتها فى دماغى فوجدت كلام مبروكة فى صالحى.

مــن ســكات كتبنا عقد بيع وشراء باسمى وكان الختم مع مبروكة فختمنا العقــد واحتفظت به، مع نصف الريال الفضى القديم الذى ظل، احتفظت بالعقد ثم أرسـلت تلغـرافا للرجل، لم تمض ساعة حتى تزايدت آهات الرجل، كنت أود أن أخلــص ضــميرى وأقول لــه ما جرى، أسرد على مسمع منه دفاعى عن نفسى والسـبب الـذى جعلنى أطاوع مبروكة فى كتابة عقد كاذب مستغلا رقدته، لكننى كنــت أخشـاه، حتى فى هذه اللحظة كنت أخشاه غير مصدق أن الآهات والأنات تحصـــه أو تقلــل مـــن قوته، شهودى على العقد أخذوا نصيبهم وخرجوا، كانت مبروكة قادرة على تدبير كل شىء، دبرت الأمور كلها ولم تترك شيئا للصدفة.

فـــى الليل تزايدت آهات الرجل وجاء الجد إبراهيم بالكفن فى منتصف الليل أسلم الروح لخالقها فارتاح وفى الصباح جاء أبى وبكى، بكى إلى حد جعلنى أفكر فـــى مصارحته بكل ما جرى أحسست بالعار من نفسى إنما مبروكة كانت تلحظنى وتفسد على كل محاولة لإكمال التفكير فى هذا الأمر دون أن تتدخل، تقتحم دماغى وتعشـــش فيه بكلماتها المسنونة الأطراف، ولم أكن إعرف أن كانت هى الشيطان الرجيم أم أنها ملاك بعثه الله لينقذنى من ضياع العمر الآتى..

* * *

ينطفـــئ شعاعنا الأصيل وتزداد من حولنا العتمة، نصبح غير ما كنا، يجئ الزمن الخسيس فينشر على دربنا عباءة الأحزان حتى الفانوس الذى كنا نضئ به مدخــل الــدرب وفرناه وتركنا الدرب بلا علامة تميزه عن كل الدروب المحكومة بالعــتمة، نجــاهد للــنفاذ إلى البراح، للتشعب فى حيز أكثر اتساعا فلا نملك، فى الزمـــن الفائت كان الزمام براحا يرتعون فيه لكنهم لم يورثونا إلا القليل وحتى ما جــاهدت لامــتلاكه أصــبح بلا قيمة، الأرض التى فتحت عيونى وحسبتها قادرة بطــرحها على ستر الدار ناءت بحملها البشرى فى صباى حسبتها تكفى وأنهم لم تفــرض عليهم حدود وإنما اختاروها عند المدى الممكن لنا أن نرعاه، واكتشفت الحماقــة عــندما وجدتهــا أضيق من جهدنا، وأعجز من أن تفى بالمطالب. كبر الأولاد وآن لــنا أن نفكر فى نصيب الولد ونصيب البنت، أن نسأل أنفسنا إن كان يكفــى لفــتح بيت الولد منهم فدان يتيم، مصطفى علمناه صحيح ووظفناه صحيح إنمــا بعشــرة جنــيهات، دبلوم التجارة الذى يحمله آخر ما كنا نتمناه فى مشوار

الصرف عليه ومحمد ظل فى الدار، أصبح فى مثل طولى وأعرض منى وجرو لسانه على المعارضة والعناد، عينه على الأرض وحساباته تدور حولها، ومحروس أصغر الصبيان علمناه أو كدنا أن نعلمه إعدادية عامة ومدارس الجيش كانت ملجأه المختار. أما البنات فما كن يطلبن إلا الستر والجهاز. وهل يجوز أن يرثن فى الأرض ويتركن الإخوة فى عسر وضيق؟

فجأة يفيق الواحد من نومه الطويل رغم أنه كان يحسب روحه صاحيا وواعيا لكل شىء، يفيق لنفسه فيجد روحه محشورا فى زمرة المساكين بحق، يكتشف أن مستقبل الأولاد هزيل، الفدان الوحيد الذى سوف ينوب الواحد منهم ربما يساعد واحدا مثل مصطفى لكنه يعجز بالطبع عن فتح دار لولد مثل محمد، محمد يطلب منا بعناد أن نزوجه تماما مثلما كنت أفعل أيام برهومة وجدى عبد القادر، عينه على الأرض، على أنصبة البنات يقول بثقة إن أرض البنات له بالرضى أو بالعراك، أقول لروحى إن فرعنا خاب وأن دربنا كله لم يفلح فى شىء، وسف تتكرر الحدوتة القديمة، يطمع الولد فى نصيب الولد والولد فى نصيب البنت وكل واحد يجاهد أن يزرع الحد بعيدا عن حده الشرعى ليعيش. ولما يكتشف الواحد منهم ضيق الحيز الموروث يسخط، ربما يجحمنى فى تربتى ولا يطلب أيهم لنا الرحمة.

نحكى عن الستر وعدم الفضيحة، سترنا أكذوبة تكلفنا شراء ثوب الكشمير لزوم حسن الهندام، نتمسح فى سعر المتر وأجرة التفصيل. ليقال عنا لخلق الله أننا مازلنا مستورين، أما الفضائح فهى آخر ما يمكن أن تحلق بنا، على الأقل لن تصل إلى أسماعنا فنحن أولاد الأصول، فمازال لنسل الحسين حق فى حسن السيرة وسلامة الأصل يا كفر عسكر فمن فيكم يا رجال الكفر من نسل الحسين ليدخل معنا مباراة الأصول؟ أصلنا بشهادة الكل ثابت وفرعنا فى السماء، أن يقال عنا ما يقال دون أن يصل إلى آذاننا فهو مباح، أن يقتل على مشارف كفرنا واحد منا بيد مجهول فليس فى الأمر عار أو مهانة، ألم يستشهد جدنا الحسين ويصبح سيد شباب أهل الجنة؟ أن يتوه ثأرنا ويخفى على جهد وكيل نيابة المركز ويفسر إلى بأنه حفظ التحقيق فى مقتل سيد حسن عوف لأن القاتل مجهول شىء بسيط وليس فريدا فى نوعه أن يتعلق أبى حتى هذه الساعة على وهم قدرتى على الثأر له أو حتى معرفة الفاعل وأعجز عن الفعل شىء لا يعيب، المهم أننا مازلنا ندب

علـــى أرض ورثـــناها ولـــم نفـــرط فـــى شبر منها، امتزجنا بها وراعيناها قدر المســـتطاع، عشنا على ثمارها وطرحها المبروك، لم نعرف الغش ولا سرقنا ولا قتلنا الضعفاء ولا حتى دخلنا المركز فى تهمة، ومهما ثرثرتم يا هياكل كفر عسكر حول ما أصابنا به الزمان من بلوى فلن تنالوا منا، مهما تراجعنا أو انزحنا غصبا عن مركز الصدارة فى الكفر فنحن أيضا أولاد عوف.

قال جدع أفندى ممن يتسكعون على البوابة:

- هو ده صالح عوف؟

لما سمعت الاسم وقفت فسكتوا، ظللت واقفا فى انتظار أن ينطق لكنهم ظلوا صـــامتين، كنـــت أنظر إليه متوقعا أن يبدأ بالحديث مرة أخرى، همس أحدهم فى أذنه فضحك وقال:

- واحنا مالنا، اللى على راسه بطح يحسس عليه.

كانت المسافة بينى وبينهم خطوات، وكانت العصا فى يدى عندما لوحت بها رمحـــوا ماعدا هذا الأفندى، قلت لنفسى: أبطحه هو ليتحسس بطح رأسه بدلا من أن يعـــرض بـــنا على البوابة، كان طرف العصا قد فتح جبهته وسال الدم وتجمع الخلق وسألونى عن السبب فلم أرد، سألوه فكان صادقا لما قرر ما قاله بالحرف، قلت له:

- حسس على راسك بقى.

وضـــحك الـــبعض بينما اهتم الآخرون بربط الجرح بشاش من دكان شاكر الـــذى خـــرج وجاء إلى وجاهد أن يفهمنى أن الأفندى لم يخطئ فى حقى وأنه لم يكـــن يعنيـــنى فى شيء وأننى تسرعت وربما كنت أصبته إصابة خطرة وهو ابن عمه ولولا القرابة ما كان يسكت، أشحت له بيدى قائلا:

- خـــير ايه يا شاكر، انتوا حتعلقوا المشانق ع البوابة؟ لامم شوية صياع حواليك وفاضيين للتريقة ع الرايح والجاى.

ابـــتعد شـــاكر، قلت إنه من غير العنف ماعشنا فى كفر عسكر، لولا قدرتنا علـــى الدفاع لداسونا وضحكوا علينا، فى الطريق إلى الدار كنت أسأل نفسى عن الـــبطح الـــذى قال عنه الأفندى، ربما حالة أبى، ربما موت سيد، لكن سيد ليس

غريبا على شاكر، هو أخوه من شوق فكيف يعايرنى به قريبه، أليس له فى العار نصيب إن كان موته يستحق المعايرة؟

أيـــام الصبوة كنا نسوق أولاد شلبى أمامنا، هذه أيام خسيسة يتصدرون لنا فى وسط البوابة، العنف أيامها كان عنوانا للجسارة والقدرة واليوم وسيلة للدفاع وإسكات الألسنة المحطوطة، فليأت أولاد شلبى كلهم، فليأت رجال كفر عسكر بما فيهم أولاد عوف أيضا، فلأكن وحيدا فى مواجهة الكل، الناس لا تتركنا فى حالنا، أما كفاهم ما صرنا إليه أى بطح على رأس لابن الزانية، أى بطح هذا الذى يتكلم عـــنه، صـــالح عـــوف يلعب معهم؟ مالهم بصالح عوف، الزمن دوخ الخلق وهم يتســكعون، زمـــن أغبر حير الناس، والأفندية ذوو الرءوس العارية يتمسخرون علـــى أسياد أسيادهم، يتنطعون متجاهلين عارهم المبين، كل رجال الكفر يعرفون حكايات جماعة شلبى وفضائح نسوان جماعة شلبى، ربما كان لكل رجل من رجال جماعـــة عـــوف فضيحة تخصه، قد يقولون عن غانم المرابى الكثير تماما مثلما نقـــول نحـــن عنه، نحاس دارنا فى حوزته رهن لسلفة، هو أعرف على كل حال بســـقطاتهم، فـــى دماغه سجل كامل عن كل العورات التى انكشفت لحريم جماعة شـــلبى، ربما كانت حميدة من أقاربك يا شاكر، إنما هى من نفس السلالة، اسمها حمـــيدة مصـــطفى شـــلبى، وحكايتى معها معروفة، لولا سيد ما كنت توقفت عن معاشـــرتها، كنـــت أعاشرها عينى عينك وعلى رءوس الأشهاد، فى أرضها كنت أمارس معها اللعبة ولم يجرؤ رجل من أولا عمومتها على فتح فمه بكلمة، عشيقة مجانـــية مـــن نســـلكم يـــا أسياد الكفر ركبها صالح عوف، أى بطح فوق رأسى، سلاحى غير المرخص كان يزغرد فى الأفراح وفى ليالى الرى والحصاد، أسكتكم يا من تحملون البنادق المرخصة ولكنكم فى الداخل من أنفسكم جبناء، تعرفون أن أيـــامكم فـــى الدرب لن تطول، أنه سوف يجىء الزمن الآخر ونستعيد بالغصب ما ضـــاع، ولـــو حتى ظللتم على حالكم فلن يطولنا موكب الأنذال والمتنطعين، ربما أجرتم على سيد من يقتله ربما لم يضع دمه هدرا وتنكشف الأسرار يومها ينسى الواحد كل شىء ويحمل سلاحه فى وضح النهار وينتهى كل شىء.

كنـــت قد أمرتهم بعمل راكية نار وتدثرت باللحاف، وكانت الرطوبة تنفذ فى العظم، غفلت عيناى بعدما أحسست بالدفء يطرد الرطوبة من المندرة، فى النوم

رأيت جدى عبد القادر، كان يعاركنى فى المنام، لكنى حاولت الفرار منه يلاحقنى، يــنظر إلــى بغل ويطاردنى فأرمح، فى يده طفل وليس للطفل ملامح مميزة لكننى كنــت أرغــب فى أخذه وأعجز، كلما أقترب منه استخدمه فى ضربى بدل العصا، يــتحول الطفل فى يده إلى عصا، أسرع الخطو فيلاحقنى بها، أتعثر وأقع وأوشك أن أستسـلم فـأجد الطفل يهوى فوقى وكأنه حجر طاحون كبير فأفز من رقدتى، أهرب، أرغب فى أخذه فأراه معلقا فى الفراغ لا يسقط ولا يختفى، فى متناول اليد وبعـيد عنها، أحس الخوف من احتمال سقوطه وتفتته وكأنه ولد من أبنائى، أجد جـدى يعود، يلتقط الحجر الطفل ويغيب بينما أناديه بعزم صوتى ولا يجيب، يغيب عـن الأبصـار وأناديه وأحس اختناقا فى صدرى وأئن صارخا بلا صوت، أجدنى مقيدا وعاجزا عن الحركة الطليقة، عن إخراج صوتى المحبوس، أجمع كل قواى فــى صـرخة: أوعى، أوعى يقع. وعيتها وسمعتها واضحة، صوتى الخارج من داخلى سمعته ففزعت، كان اللحاف ملفوفا على ساقى اليمنى بحيث يشل حركتها، نظـرت حولى فوجدت الدخان المتجمع فى أركان المندرة جعلها تعوم فى سحاباته المتكاثفة، نظرت فوجدت الراكية مازالت تدخن، قمت وأخرجتها من المندرة لاعنا الأولاد الذيــن سـكتوا ولم أسمع لهم صوتا، تناوموا جميعا بعد أن أوشكوا على خنقى بالدخان، خفت من المنام، قلت اللهم أجعله خيرا، تذكرت كابوسا شبيها ليلة مقــتل سيد، أحلامى تفسرها الأحداث التالية، خفت على مصطفى، واستعذت بالله مــن الشـيطان الرجـيم، لم يكن النوم راغبا فى معاودة المجىء فجلست وحدى، ســمعت صــوت الكلــب يعوى، نفس العواء الجريح ونفس الكلب الغريب، خفت وتجســد فــى دخان المندرة وجه سيد وغصبا عنى بدأت أسترجع ما جرى ليلته وحلم الليلة يشغلنى على مصطفى ابنى.

كــان الكلب يعوى وكلاب الكفر تنبح وتتجاوب النباح والكلب يعوى، ليلتها نظـرت من شباك المندرة فوجدته يقعى تحتها ويرسل عواءه، قلت للكلب: امشى لكــنه ظـل يعوى، كررتها فكرر هو العواء، أخذت العصا وفتحت الباب واتجهت ناحيــته فابتعد خطوتين وراح يزوم ويعوى، اقتربت فابتعد محتفظا بالمسافة بينى وبيــنه بحيــث يصــعب أن تطوله العصا. تكررت خطواتى ناحيته وخطواته بعيدا عــنى، تناولــت حجــرا فابتعد أكثر، كان كلبا أسود الشعر فحلا، تبرق عيناه فى

الظلمـــة وعـــواؤه الجريح المهان يتردد على مسمع منى ولا يود أن يكف، كدت أطـــارده إنما قلت لنفسى: أنت مجنون يا صالح لتطارد كلبا فى منتصف الليل، كل كـــلاب الدنـــيا تنـــبح ويستحيل إسكات الكلاب. سمعت عيارا ناريا ينطلق ورجعت مـــتخوفا أن أصـــاب بـــنزلة برد ظللت أتقلب فى السرير والنوم سلطان عزيز لا يجىء، ليلتها تذكرت سيد، هف على دماغى هكذا بلا مقدمات وجعلنى أفكر فيه.

فى الصباح فات محمد عطا بالمواشى، كان براد الشاى يغلى والفطور على الطبلية، ألقى تحية الصباح وعزمت عليه بالفطور، قال وهو يعبر باب الدار تتبعه المواشى:

- بيقولوا فيه نفر مضروب عند أول البلد.

سألته من باب العلم بالشىء:

- مضروب بأيه؟

قال مكملا ما قاله دون أن يبدو عليه أنه سمع السؤال:

- دا الدنيا مقلوبة هناك والعمدة بلغ المركز.

لـــم أهتم، كفر ملعون، كل يوم عركة ووجع دماغ، بدأت فى الفطور، بينما كنـــت أشـــرب الشاى وجدت الولد محروس يدخل الباب رمحا، وقف مكانه ينهج، كـــان الوجـــه مخطوفا وكأنه هارب من أحد قمت بسرعة أنظر من الباب فلم أجد أحدا، سألته:

- مالك يا وله، حد كان بيرمح وراك؟

سكت الولد فعدت أسأله:

- جرى إيه، كنت بترمح ليه؟
- رحت عند الكوبرى أتفرج، الناس بتقول عمك سيد.. سألته:
- ماله عمك سيد، اتكلم.
- بيقولوا هو اللى مضروب عند الكوبرى..

لـــم أسمع ما تبقى، تناولت العصا ورمحت حافيا فى اتجاه الكوبرى، حسبته يـــتعارك مع أحد ويمكن أجده ما زال يتعارك وربما أصل قبل أن يفلت من عاركه، سمعت النسوة يتهامسن:

- أخوة إيه يا ختى؟ - دا صالح ابن عوف، أخوه.

عندما وصلت لم أر سيد، وجدت العمدة واقفا وجنبه ابن بهية وضابط المركز وبعض الرجال وجمعًا من النسوة فى ركن من أركان الطريق الزراعى.

أحسست أننى جريت مشوارًا بلا فائدة، احترت فلم أعرف كيف، أرجع، شعرت بشىء من الجرح من نفسى، وقفت مكانى فاقترب منى نفر لا أعرفه وهمس:

- دا مضروب ظرف ف قورته من ليلة امبارح.
- ابن مين؟

نظر إلى واستنكر عدم معرفتى قال:

أنكرت أننى أعرف، جاء آخر وآخر قال أحدهم.

- أنت ما تعرفش؟
- دا سيد أفندى.

ذهلت، كان يشير إلى كومة من الحشيش الأخضر، واقتربت ناحيتها لأرى، منعونى لم أمتنع، قال العمدة:

- دا أخوه يا حضرة الضابط.. اللى بعتنا له يتعرف عليه.

خلصت نفسى من قبضة العسكرى وامتدت يدى إلى أعواد الحشيش الأخضر، لما رفعتها ورأيت الحذاء والبنطلون الأسود، أسرعت إلى الناحية الأخرى ورفعت الحشيش وفوجئت بوجه سيد، كان الدم يغطى الوجه ويدارى الملامح وعلى الجبهة وفى الجانب الأيسر ثقب غويط يمتزج فيه الدم بسائل أبيض لعله المخ، العينان مفتوحتان فى ذعر مستسلم والفم ملوى ربما عن آهة أو صرخة أو نداء، تمنيت لو كان ما أراه كابوسا يمكن أن ينزاح لو أفيق وأصحو، إنما كان ما أراه حقيقة، الضابط يجرنى بمساعدة العسكرى والخفراء وكنت أناديه بينما يقوم أحد العساكر بمعاودة تغطيته، كانوا فى انتظار النيابة وعندما جاء وكيل النيابة سألنى وأنا ذاهل إن كنت أعرف له أعداء فلم أعرف بماذا أجيب، لم يكن له فى الكفر أعداء، إن كنت أتهم أحدا بعينه فلم أستطع، قلت لهم لا أعرف، ربما يعرف شاكر لأنه كان أكثر معاشرة له منى إنما لم أقل أى

شــيء، كنــت مذهولا. فى طريق العودة جاءنى أحدهم بالعصا التى نسيتها جنب الجــثة نظــرت إليها ولم أمد إليها يدى، ما قيمة العصا، كنت قد أتيت لأحميه بها لكن الموت غلبنى وأنهى كل شيء.

وجــاء الطبيــب الشرعى وقيدوا الحادث ضد مجهول وقالوا سوف يعرفون الفاعل فالحكومة لا تخفى عليها خافية، ولما صرحوا بالدفن واشترى فتحى كفنه غســلناه وظللنا ننتظر الرجل حتى عصر اليوم التالى فلم يجيء، ولما دفناه جاء، وصل إلينا ونحن فى المدافن، كان باب المقبرة مازال طريا لم يجف طينه، كاد أن يفــتحه ويدخــل لكنهم منعوه، كان يتحسس بأصابعه باب المقبرة ويسألنى عمن قــتله، كنت عاجزا عن الجواب لأن السؤال كان مطروحا فى دماغى ويحتاج إلى جــواب: كنــت أتماســك خوفــا من مشاركته البكاء أمام الخلق فى المدافن، هم علمونى أنه من العيب أن يبكى الرجال، من علمهم أنه على الرجل أن ينضح غلا وقهرا ويمتنع على البكاء، من فرض عليهم التماسك فى لحظات المهانة والتهالك، ولمــاذا انهــار عبد القادر عوف بنفسه وبكى وهو معلمى وكان سيد رجال الكفر كلــه، وهل من الواجب على أن أصمد فى مواجهة الدموع أكثر مما صمد؟ لكننى كنــت أرغــب فى البكاء، فى أن أنفرد بنفسى وأبكى على كل حالنا، وربما كانت دموعــى يومها فى طريق العودة هى البطح فوق رأسى، هى العار الذى أستحق عليه المعايرة، إنما من فى الكفر يحتمل كل هذه الأحزان ولا تدمع عيناه؟

كــأن حــياتى كلها مجرد استرجاع يتلوه استرجاع شبيه لذكريات الموتى، أجــترها وأمتص لحظاتها المرة، كأنما الموت هو لحن عمرى الحزين غطى على كل الأفراح التى صادفتها فى خلال عنف ضرباته الرتيبة الصاخبة والتى لا تكف، مشدود للموت والأموات بحبال قوية تمنعنى من لحظة أعايش فيها الفرح اليسير وأذكــره، الذكــريات الســود انسدلت ستارا إثر ستار يحجب عنى أشواق العمر بأســره، فتحت عيونى فلم أر الشعاع وإنما وجدت العتمة، كأنما الموت هو قدرى وعــالمى. لــربما كان صدفة أننى جئت فى وقت لأشهد سقوط فرعنا من شجرة جماعــة عــوف، شاهد مطعون فى جده وخاله وعمه وأبيه وحتى الأخ الوحيد، وربما تدور العجلة وتطوى فى حياتى واحدا من الأولاد، أشهد الفرق بين أمسيات الزمــن الفائت والتهاوى المهان لكل الرجال، وأبقى وحدى هكذا لأروى على من

يجيــئون مــن خلفــتى سيرة الرجال وربما تنتهى المناحة وتشرق شمس الأيام البــيض، يــنزاح الغم وتولد الأشواق، تأتى خلفة جديدة قادرة على زرع الأحلام وطــرح الأمنــيات، علــى شــد الزمن الأصيل من حيث غاب والاحتماء به من مطاردات الموت أو استرجاع لحظاته.

أيام نعيشها مستورين أو واهمين فى الستر، تجبرنا قلة الخير على السعى بحــثا عــن شــريك يدفع لنا ثمن البهيمة ونسرح بها نمنها ثم يجئ الوقت الذى يفــرض علينا فيه أن نبيع ونقتسم المكسب، بأخذ الثمن المدفوع ويقتسم الفارق مــن أجل مجرد الاستمرار نرضى يا رجال كفر عسكر بكل شىء، نرضى بتسليم خــير الدار لتاجرة البيض والسمن، نرضى بأن يديننا شاكر بثمن السكر والشاى والدخــان، لتظل الدار مفتوحة، ليبقى من رائحة عبد القادر عوف نفس أو أنفاس تتردد تحت سقف داره، ليقال إنه لم يعجز عن مواجهة الأيام العسيرة، ولعل الخير يأتى، لعل ضروع البهائم الجافة تمتلئ بالحليب والدسم، ولعل الأرض تزود غلتها وتمتلــئ الأجــران فــى مواسم الحصاد التالية، لعل الخلفة تفلح وتعوضنا عمن راحــوا، كلمــا رأيــت مصــطفى تذكرت سيد، وكلما برطم محمد تذكرت صبوتى وعــنادى، ولعــل من راحوا خلفوا لنا بركتهم، لعلهم يحومون حولنا يطلبون أن نــبقى، لــنذكرهم بالخير ونترحم عليهم كلما جاءت سيرتهم وإلا فمن لهم فى هذا الكفــر يطلب الرحمة ويعيش حاملا من بعدهم أمانة الاسم الأصيل فى هذا الزمن العويل؟.

رباعية كفر عسكر

[٢]

حكايـة شــــــوق

كأنها صرخات الأطفال الأولى ساعة الميلاد تستعيدني وتشد عزمي بعد هدْأة الرقاد؛ لأقوم وقد تخلصت من كل وجع، تغازلني وأنا مكوية بلسعة الفقد منكمشة علــى نفسى أو منحنية لعاصفة الفراق، فأرانى واقفة أطل فى البعيد قبل أن أدخل فى زحمة الأحياء، أقول لنفسى وأنا راجعة وسطهم إن النار الحارقة تبردها دورة الأيــام، تخــتلط فى قلبى وأنا أسرح بفكرى مشاعر الفرح الشحيح والأحزان فلا أمــيزها، ويتــبدَّى لــى أنه زمان واحد ذلك الذى فات وما هو حاصل وما سوف يجــىء، تتشكل الخيالات شخوصًا أناجيها وتجاوبنى دون صوت مسموع. وحيدة وأنــا راجعة من سكة المدافن وإن كانت محاطة بالأحياء، أحاور الأموات وأسكت نفسى بنفسى، يتبدل ناس الكفر وتتبدل البنايات ولا تكف الشمس على الطلوع فى كل صبح أو الغياب فى كل مغرب، ويموت الأب ويختفى الولد فى اليوم المحسوب، وتــرحل العمــة وقد خلَّفت فى القلب مرارة من نوع جديد، ربما هى خدعة العمر فيمــن وثقــنا بــه وأسلمنا لــه قيادنا باطمئنان لا يجوز، وماذا أخذت منها غير الوعــود ثــم الوعــود وقد فرت الآن منى وما عادت تعود لأعاتبها على فعلتها، وكــيف ألــمُّ حكايــاتى معها فى جعبة وأسك عليها لا أرويها إلا لنفسى، تكوينى وأتوجع وحدى وأتحاشى نظرة الشامتين؟

هــل كــنا فى القاعة بالأمس ليلاً وعلاَّم يخبط كفا بكف منكرًا ومحرضًا لى وأمــى تجلــس مشدودة الرأس بطرحتها ومسنودة به على كفها، غفلانة وعلاَّم يسأل:

- تبقى اتلحست فى نافوخها بصحيح... زعتر المواوى ياحاج؟

والحاج مرسى حائر متردد قبل أن يرد.

- الولــد ده ح يشــفط الحليبة والرايبة، خايف تطلعى من مولد عمتك بلا حمص يا شوق يابنتى.

كــان وجــه عــلام الغاضــب يتابعنى بقلق، وكانت رأس أمى تميل علامة

الاستغراق فى النوم أو التظاهر به، وكنت أحسب أن مفتاح الحل معى، وأننى أقدر علـــى إعادتها ببضع عبارات إلى مركزها فى عقول الناس، ربما أفلح فى إقناعها بالخلاص من زعتر والعصمة فى يدها مثل كل المرّات فلا مستحيل، وضعت على الــرأس غطـــاءه فارتـــاحوا، ربما اطمأنوا بعض الشىء لأننى قررت الذهاب بعد الــرفض مرارا، كنت أرتب الكلام فى عقلى وأنا أتحسس بأطراف أصابع القدمين فتحتىّ المداس المحطوط فى «بحراية» القاعة:

- إلى زى دى يتحجر عليها ياسى الحاج، مش كده؟ دى عدت الثمانين.

ســمعت صوت علام يقولها وأنا أخرج من باب الدار وأتوجه إلى دار العمة لأرى العجب، امرأة سمينة قاعدة طولها أقصر من عرضها وقد غاب عنها عقلها المــوزون الــذى كــان قــادرا على تسيير عائلة بحسب إرادتها رغم الشوارب والشـــهادات والأمـــلاك، دكاكين وجرارات وطواحين وعربات نقل وركوب، وكان زعتر ابن العبد المواوى يجلس إلى جوارها وقد خلع ثياب الأنفار ولبس الكشمير؛ فبدا مثل عود القصب الممصوص، ابن العبد الهارب من خدمة الجيش أيام الحرب الــذى تســتَّرت هى عليه أيامها باعتباره خادمها الذى يقضى لها الحاجات، كانت تـــبربش بعينـــيها لتـــتحقّق منى والولد يضاحكها وتمتد يداه المتشققتان إلى لحم أطرافها دون حياء فى وجودى وكأنه ينكرنى:

- بنت أخوكى وصلت ياست الكل.
- بالسلامة.. بقى ماتحضريش كتب كتابى يا غالية يا بنت الغالى؟

قالـــت هـــى بســـخرية مســـتفزة قبل أن تنطلق بعدها فى ضحكة ممطوطة أخجلتـــنى وجعلتـــنى أندم لأننى جئت بوهم أننى سألتقى بنفس العمة التى عرفتها عمـــرى والـــتى كانت فى كل شىء تختلف عن تلك الكتلة من الشحم واللحم التى تتضـــاحك بشـــكل مـــنفر وكأنهـــا جنية طالعة من تحت سابع أرض لبست ثوبها وجلست مكانها، وللمرة الثانية فى حياتى خفت منها؛ فاستدرت خارجة ولم أجرؤ على الأطلال إليها أكثر أو سماع ما كانت تقوله وهى تشيعّنى بالكلام وتضحك مع الولد زعتر المواوى.

فى الليل فاتحنى علاَّم فى ضرورة الحجْر عليها وكيف أن المحامى أوصاهم بـــأن تكـــون قضية الحجر باسمى، أعاد على مسامعى أن كل ما تملكه العمة من

حقــى، وهو ليس بالقليل لأسكت كل هذا الوقت، وافقته على الذهاب فى الصباح لعمل ما يلزم، وبدا لى أننى لم أنعس كثيرا قبل أن أسمع صوت زاهية يندبها قبل الضحى، وعندما ذهبت إلى دارها أفسحوا لى الطريق لأراها على «درّابة» الغُسل راقــدة، وبدا لى أنها انكمشت كثيرا وتخلصت من كتل الشحم واللحم الزائدة، وأن تجاعــيد وجههــا اختفت وبدت لى كما كانت فى السابق وأحببتها عمرى، كفّنوها ورشــوا على بدنها الساكن زجاجات العطر «وبعبعوا» بكل ما يمكن أن يقال عن زعــتر الــذى كــنس كل ما كانت تملكه وتحوطه وتحميه لصاحب النصيب الذى حرمــنى فــى آخر أيامها من حقى وأنا وريثتها الوحيدة الباقية، وفى عصر نفس الــيوم دفنوها فى قبرها الذى ابتنته لنفسها وأوصت فى حياتها بألا يشاركها فيه قريب أو غريب ولا ينفتح بابه أبدا ليوم الدين.

كانــت ســيرته تنفــتح فى أمسيات المواسم والأعياد فينقلب ميزان الدار، تــتوارى الضحكات وتتخفّى ويعشش الصمت الحزين، كنا نميل لتصديق أنه جاء إلــى الدنــيا قبلنا ورحل عنها دون أن نراه رغم الوساوس التى كان يزرعها فى عقولــنا شــيطان كافر بأنه ما كان ولا صار أبدا، لعلنا كنا نحتاجه مثلهما وأكثر، ننســى شــكوكنا ونــتحدث عــنه للبنات فى مثل أعمارنا وكأنه حقيقة فنتعرض للتكذيــبات والسخريات، كنا نتخيله شابا فى مثل عمر البكرى وإن كان أكثر منه جمــالا وأخــف ظلا، كنا نتحسر معهما على ما كان ونتخوف مما سوف نلقاه فى مستقبل الأيام.

اعتدنا أن يدخل أبى فى تلك الأمسيات متأخرا على غير عادته، وقد تغيّرت ملامحــه، لا ينظر إلى أى واحد منا أو يلاغينا، غاضب على الدار والدكان وناس الكفــر، القريــب منهم قبل الغريب، يجلس فى ركن القاعة ويصب اللعنات، يسود الحذر والقلق وتكتفى هى بالنظر إليه حتى يستغفر ويزفر ثم يتنهد، تدور بنظراتها فــى الأركــان، وتنحط على وجوهنا وكأنها تستشيره فيهز رأسه بالإيجاب، تقوم وتدحرج الطبلية، تحطها فى منتصف القاعة وتسبق البنات إلى صحن الدار، أسمع أصوات الملاعق والأطباق وخبطات المغرفة فى قيعان الحلل، تمتلئ صينية العشاء النحاسية ونلتف حولها، تدعوه للبدء بنظرة وهمسة:

- لأجل خاطر البنات.

يظل رأسه مائلا حتى تلامس حلمة أذنه اليسرى ثوبه من فوق الكتف، يبقى

فـترة علـى تلك الحال، غارقا فى التفكير ودخان العشاء يتصاعد، لا تمتد يد أى واحدة منا ونقاوم الرغبات، ويكرر عبارته التى سمعناها بنفس الإيقاع فى مساء الموسم الفائت:

كان الحزن يشملها والعجز يحوطها وإن جرؤت تقول بحسرة:

- يا كبدى.

تقولهـا وهى تبتعد مسافة عن طبلية العشاء وتقول أن نفسها «مصدودة» عـن زاد الدنـيا، نتـبادل النظرات وتقوم البنات لحمل الأطباق حتى تخلو طبلية العشـاء، تزيحها وترفع قوائمها لتسندها مكانها جنب الجدار، نتكوَّم فى الأركان ونكتم الأنفاس، ربما نسمع عواء كلب غريب ويستعيذ هو بالله من الشيطان، ربما نراها وهى تطرد براحتيها الشر «بعيد عنا.. بعيد» ربما يتباعد صوت العواء بعد مـدة تطول أو تقصر لكنها تخلّف فى نفوسنا رهبة، يخبو ضوء المصباح أو يبدو لى أنه خبا وقد عادت هى من الخارج وجلست على طرف السرير محلولة الشعر ورأسها مسنود على راحتيها المفرودتين المرتكزتين على الركبتين:

- ابن عمى وشمتان فينا يا ام البنات.

يقولها أبى بصوته المنكسر وعيناه سارحتان فى الفراغ البعيد، لا ترفع هى الـرأس أو تحـركها، تثبـت على حالها، ملمومة على نفسها حتى يقوم هو من جلسته ويصعد بثقله مسنودا على قوائم السرير، يئز الحديد بينما يتمدَّد هو بينها وبين الجدار، يحادث نفسه متشكّيا:

- زى ما أكون مش قادر أصلب طولى.

تقـوم هى وتغطيه، ترمى علينا حِرام الصوف مفرودا على اتساعه فيجلب إلينا الهواء الرطب أولا ثم نستشعر الدفء ببطء، يشحب ضوء المصباح تماما أو يسـيطر الظـلام، ورغم صحونا جميعا لا يوجهان إلينا أى حديث، يتبادلان الكلام همسا مسموعا ربما بنفس البدايات والنهايات التى سمعناها قبلا:

- يعنى لو كان عاش كانت الدنيا ح تنهد؟
- نصيب.
- نصيب أغبر.. ما لحقناش نفرح بيه.
- قادر يعوض عليك.

- يا ريت.. لجل خاطر الولايا دول.

كانــت البنــت عطيات تتحرّك تحت انجرام، وأحيانا كانت تحاورنى بصوت خافــت فــلا أســمع المــزيد، يعلو صوتها وكأنها تعلن صحوها فتأمرها نعمات بالسكوت وأن تنام، وإن أطاعت يسود صمت أو نسمع أصوات العابرين فى الدرب أو نقــيق ضفدع فى المصرف القديم، تليد البنت فى حضنى كأنها تهرب من جنّى يطاردهــا، أشعر بيُتمى ويتمها رغم وجود الأب والأم، أسمع صوت نعمات وهى تتــنفس بعمــق، وربما تتحسَّس شعرى المحلول أو أتحسَّس شعرها بينما تغرق جواهر فى نوم حقيقى ويصدر عنها شخير خافت لا يكف، أشعر على نحو غامض أن جرحــنا غويط وربما لا يطيب، وأن النار التى تكويها قد لا تنطفئ أبدا، ويبدو لى أننى أعاود السماع لكلام سمعناه مرارا:

- كان ابن موت، أبص له يضحكلى، فيه فى الدنيا عيّل ابن يومين يعرف أبوه؟
- اللى تحت الأرض خيطوه، كان ياضنايا مطرح الكف فى ضهره بالخمس صوابع معلمين.
- وعنيه مفنجله وصاحيه.
- ربنا ح يعوّض عليك.
- فكرك؟
- شد حيلك ولا تزهقش روحك بس.
- أما نشوف آخرتها.

يقول ويرفز، يستغفر فى حرارة ويغمغم فى قوة، وربما أصحو على صوته يــنهج فــى استسلام وتراخ، ويسألها فى همس إن كانت غطتنا جيدا فتطالبه بألا ينشــغل بأمــرنا، أسمعها تواسيه ويواسيها ويحلمان معاً بولد آخر يجىء، أسمع ضــحكاتها الخافــتة التى تتوارى وتتخفّى ووصاياه لها بالحرص والسكون، ربما أصحو على صوته المسموع:

- العيال رقدت من غير عشا.

فأشعر بها تنزل عن السرير، تتحسس بقدميها أرضية القاعة حتى لا تدوس إحدانــا، تعالج المصباح، فيبعث ضوءه من خلال فتحات الحرام القديم، تخرج هى

ونسمع نحنحاته ونداءاته المتكررة علينا بالاسم، نتناوم إلا عطيات التى تقوم، تصعد إلى السرير فيضاحكها ويأمرها بأن توقظنا:

- دى ليلة مفترجة يا عيال.. قوموا سخّنوا الأكل.

تقوم نعمات، تلملم خصلات شعرها الناعم وتربطه بالمنديل وتزغد جواهر التى تقوم مفزوعة تدعك عينيها وترجوها أن تتركها لتنام، لكنها فى كل الحالات تقوم، تخرج الواحدة فى إثر أختها، وقد تدخل أمى إلى القاعة وقد تلف نفسها بالحِرام طلبا للدفء الذى خلفّناه، وفى صحن الدار كانت البنات يتبادلن الأحاديث حول نفس الموضوع:

- طيب كان اسمه إيه الولد ده؟
- يابت دا مات قبل السبوع بيومين ما كانوش سمُوه.
- طيب اندفن فين؟
- اندفن مطرح ما اندفن.
- اغرفى يا ختى وبطّلى قلة أدب.

تنفلت الضحكات منا غصبًا وقد يسمعان، ربما يستفسر هو أو هى عن الأسباب دون اعتراض وربما يتضاحكان ومن جديد تنحط الطبلية فى وسط القاعة ومن فوقها الأطباق، تعدل له المسند ويجلس وسطنا، يلاعبنا ويسلينا ويحدثنا عن فرحته بخلفتنا، يقّسم علينا لحم الطيور ويناولها نصيبا، تأخذ منه ما يكفيها وتضع الباقى فوق نصيبه فلا يعترض، يأكل بشهية فتنفتح نفوسنا ونأكل وهو يحكى وتسايره:

- المرسى جانى قبل المغرب بساعة، قعد على باب الدكان ما تعرفيش كان طمعان ف ايه؟
- هو الراجل ده ما بيشبعش؟
- ما سألتش فيه. سرح بعيد ورجع، وقف قصادى قال اللى قلت لِكْ عليه.
- ينقطع لسانه.
- كان عامل انه بيضحك وهو قاصد يقهرنى.
- ينقهر على أغلى ما عنده.
- قال مين ح يرضى ياخد واحدة من بناتى قال.. ومين يطول؟ وايه يعنى

مالهمش أخ يترد عليه؟

- حس أبوهم فى الدنيا.
- أنا قلت له أخرس يا خنزير، سمعها وماردش.
- بناتك ألف مين يتمناهم.
- دانى عندى الواحدة منهم بألف راجل.

يقولها ويضحك منتشيا، يتأملنا الواحدة تلو الأخرى بنظرات مباهية وراضية وربما حالمة بخلفة جديدة من الأولاد، ربما ينسى أو يتناسى أشواقه للولد، وربما تتزايد الأشواق، لكن الصحو يزداد فى العيون ويمتد الوقت بنا وتتشعَّب الحكايات بعـيدا عــن تلك البدايات الحزينة، نشعر بالفرح يغزونا فى نعومة، وربما نسمع آذان الفجر من زاوية أولاد عوف، وربما لا نسمع ونفاجأ بشروق النهار.

- ماحدش بيموت ناقص عمر يا سعاد.

قلتها للبنت رغبة فى تخفيف حزنها على سيد فأطلت ناحيتى بغضب، قامت من قعدتها، علّها خافت أن تلومنى على قدرتى على الاحتمال، لو دخلت هى قلبى لعرفــت إلـــى أى حـــد اكتويت بناره، هو قطعة منى، حملته فى بطنى وشفت فيه المَــرار قــبل مولـــده وبعده، عجزت عن إرضاعه أو رعايته، حرمونى منه قبل الأوان بـــألف أوان، ســـلّمت أمرى لله وظلَّ طيفه طوال العمر يشاغلنى من بعيد، كنت أتذكره فى كل وجبة واسأل نفسى إن كان شبعانا أو أنه جائع، كنت أراه فى وجـــوه مـــن رافقوه زمن الميلاد وأكتم لهفتى عليه وأحرم لسانى من مجرد ذكر اســـمه، أقـــول لنفســـى مـــا قيمة الحديث عنه وقد كنت فى كل مرة أرى نظرات الاســـتنكار والملامـــة، فـــى أول الأمر كنت عندما أفكر فيه أو اشتاق إليه أبوح بالوجع فيتحدثون طويلا عن حكايتى مع حسن، أشعر بالغيظ لأنه من الصعب علىّ أن أنســـاه أو أن أصدق ما يقال من أنه لابد سوف يكون مثل أبيه، وبمرور الأيام عودّت نفسى أن أكتم أشواقى لرؤيته، أن أكف عن مجرد السؤال عن أحواله، كان جـــرحى الغويط مدفونا فى أحشائى، أناجى نفسى وأتخيله، أبتسم إن سمعت عنه كلمة ولا أظهر لهفتى عليه أمامهم لكنه كان ولدى، لحمى ودمى وجرح عمرى.

- مش مصدقة نفسى.

قالتها سعاد وهى تقترب، فى عينيها سؤال تخجل أن تواجهنى به، استبعدت

أن تكون عاجزة عن فهم مشاعرى وهى بنت المدارس التى تعلّمت والتى كنت فى الأيام الأخيرة أبثُّها أسرارى وأشركها فى همى، همى القديم الذى تجدد وتجسد فى ميـت أكدوا أنه لا يخصنا فى شىء، حتى أقرب الناس لم يكلفوا خاطرهم لتعزيتى فـيه بأكـثر من الكلام العابر، كان العزاء هناك فى الناحية الأخرى، فى دار عبد القادر القديمة، وكان حسن نفسه يطوف دروب الكفر كما يقولون ذاهلا عن نفسه يتمـتم بحروف اسمه بعلو حسه، يناديه ويجردنى من حقى فى مشاركته الصارخ أو الإعـلان عن فجيعتى فيه، كانت النظرات التى تنصب على وهم يذكرون كيفية فقدانه لعقله بعد موت سيد تميتنى، تكوينى بنار أشد قسوة من مجرد طلقة غادرة أصابت دماغ شاب جاء يزور أمه بعد أن زال همه بعيدًا عنها ومانساها أو نسيته، علـى الوجـه المغدور بسمة، والملامح السمراء حازمة تتطلع بأمل فى مستقبل يطمئن إلى إمكانية تحقيقه، هل كنت قد قرأت فى آخر زيارة له حزنه على شبابه الضـائع قبل الأوان بلا ثمن، وهل حدثتك يا سيد عن خوفى عليك من ناس الكفر مرة؟ وهل ركبنى كابوس رأيتك فيه تسقط بضربة غادرة؟ ليتنى أكون قد بحت لك بهواجـس عذبتنى، وليتنى أستطيع الآن أن أبوح لسعاد بضعفى وعجزى ووجعى الذى يتخفى ويتوارى، يدارينى خلف عبارات عن النصيب والأعمار والمقسوم لنا، مجرد كلام موزون أكذب به عليهم ولا أصدقه وأسمع منهم فى المقابل تلك الصفة الزائفة بمناسبة وبدون مناسبة:

- عاقلة.

ليتنى أملك الحق فى جنون مثل جنونه، فهاهو يأخذه منى ميتا كما أخذه فى السـابق طفلا حيا يتلوى من قسوة الانتزاع، وأنت الآن حر فى أن تعلن للكل أنه ابـنك وحدك. ساكن المدافن الحى باختياره يكسب وأنا أخسر، ولا قيمة إذا أعلنت حزنى أو دخلت معه السباق الخاسر، ومن يصدقنى إن فعلت ووصفت لـه قسوة الـنار التى تسكننى ولا أمل فى انطفائها بآلاف الصرخات، حتى لو تحول ما تبقى مـن العمر إلى زعقة وحيدة محدودة أندب فيها أول خلفتى وأول فرحتى، أول من حملـته فى بطنى وأول من أحيانى بعد مواتٍ لحظة أن سمعت صرخة مولده فى القاعـة، ولمـن أحكـى يا سعاد إن لم تسمعينى وتغفرى لى ذنبى إن كان طول احتمال فراقه ذنبا أستحق عليه الغفران، وإن لم تفهمينى أنت وأنت امتدادى فمن يفهمنى من الغرباء؟

وكـــان جدنا هارون ابن الحاج هارون شلبى يجمع أولاده وأولاد أولاده فى صـــحن داره البراح التى بناها على السكة الزراعية خارج زمام المبانى فى مكان زريبة جعفر البياع تلك التى اشتراها منه مع الفدانين، يجمعهم بليل فى الأمسيات المقمرة الساكتة ويحدثهم عن جدنا الملك الشلبى:

- «كـــان جدكـــم الملـــك الشلبى فارس فرسان قبل زمان دياب وأبو زيد الهلالى سلامة بألفين سنة وأكتر، حكم الدنيا المسكونة فى زمانه ميتين سنه وخمسه، واتجوز حريم كتير وخلف عيال كتير، وخلفته أكترها كان صـــبيان، كانـــت الجاريـــة من عبيده اللى تخلف ولد يعتقها، يديها بلد تحكمها باسم الولد لحين ما يكبر ويصير عليها ملك، واللى كانت تخلف بنـــت تفضل معاه فى الحريم لحد ما يجيلها يوم وتولد ولد، حريم كتير كانـــت علـــى ذمته وماخلفوش صبيان جوزهم للعبيد، عبيده كانت كثير يســـدوا عين شمس، لكن العبيد مالهاش أمان، زيهم زى الجوارى اللى بلا خلفه، ويوم مامات الملك الشلبى هاج العبيد والجوارى حريم العبيد، حـــاربوا الملوك اليتامى والحريم الأرامل، خربوا بلاد عمرانه ونشروا الفســـاد فى الأرض، حكموا بلاد وفاتوا للملوك بلاد، وطلعوا بالكدب ع الملـــك الشـــلبى كلام مالوش أساس وصدقوه الناس، قالوا على سيدهم وولـــى نعمتهم عبد مجلوب زيهم ومالوش وطن ولا أصل، وقالوا عنه راعـــى غنم والزمان عطاه، وقالوا قاطع طريق وحرامى، وقالوا وقالوا وتاهـــت الحكايات وطالت الحرب بين الملوك من سلسال الملك الشلبى والعبيد، كسبت العبيد بلاد وكسبت الملوك بلاد، خطف العبيد مماليك من نسل الملوك وباعوهم فى سوق العبيد، خلق منهم هربت ف بلاد الدنيا الواسعة، لكنهم حافضين حكاية جدنا الملك الشلبى، وفين ما تروح فى بـــلاد الدنيا الواسعة تلاقى فرع باقى من سلسال الملك الشلبى، حتى لو غـــيروا أســـاميهم خـــوف مـــن ظلم العبيد ح تعرفهم، وشوشهم تشبه وشوشنا كده، وعيونهم تشبه عينين فطوم، مكان ما تروح ح تلاقيهم، تعرفهم ويعرفوك. بينك وبينهم شبه وكلام قديم محفوظ ودم يحن»

كـــان يرانى فيقوم من فوق كرسيه المرتفع، يقترب منى ويحملنى بقبضتيه إلـــى صدره، يحضننى بحنو ويربت على ظهرى، يبتسم لى فى ود ومحبة وربما

يجلسنى فوق ركبتيه فأتطلع إلى الخضرة فى عينيه، وقبل أن يعيدنى إلى أبى يدس فى كفى قطعة من قمع سكر أو قالب مستطيل ناعم الملمس، كنت أحتفظ بتلك القوالب أو قطع السكر حتى تنتهى السهرة ويكف هو عن الحكى عما كان، وكان أبى ينتبه لذلك دائما فى مشوار عودتنا فيطلب منى الإسراع بأكل قطعة السكر، كنت أقطع حوافها بأطراف أسنانى قطعة صغيرة فى إثر قطعة، استطعم حلاوتها على مهل دون رغبة فى الخلاص منها على عكس إرادة أبى الذى يكون راغبا فى إنهائها فى أسرع وقت كان يزغدنى برفق ويتعجلنى:

- يابت ابلعيها بقى، السكر ماهو مرمى فى البيت وفى الدكان، وعلى غير إرادة منى كنت استجيب وأطحن قطعة السكر بين أسنانى طحنا هينا، أتسمع برطماته بعد «القرقشة» على عادته فى كل مرة وهو يتهم الجد هارون بالشطارة فى الكلام الفارغ الذى لا ينفع ولا يشفع، كنت لا أرتاح إلى تلك الجسارة فى التطاول على الرجل الطيب ولا أعرف كيف أدافع عنه، وكنت فى كل مرة أرغب فى سؤاله كيف استطاع أن يكره ذلك الوجه الصبوح الباسم ذا العينين الخضراوين بزرقة واللتين تشبهان إلى حد كبير عينى عمتى فطوم.
- اللى زيه ماوراهش حاجة يخاف عليها، إنما أحنا متعلقين من عرقوبنا.

كان يحدثنى عن رأسماله الذى يتوزع فى ذمم خلق الله، وعن ديونه لناس غيرهم وكيف أن التاجر الناصح لا يحق له أن يعادى أحدا، حتى خصومه لا يجوز له أن يعاديهم علنا، يسايرهم ويكسب منهم ويبش فى وجوههم، كنت لا أشغل نفسى كثيرا بكلامه ونحن نقطع الطريق فى ضوء القمر ناحية الدار، وكانت كلمات الجد هارون تطن فى آذانى ويتردد صداها، أستعيدها وأرغب فى ترديدها لنفسى، لكن صوت أبى كان يعلو كلما ابتعدنا عن دار الجد أكثر ليوشك صوته أن يكون صراخا فى فراغ الحقول:

- مش ح يهمد غير لما يشعلل فى الكفر نار.. الخوف يسقط مننا نفر ولا نفرين، دا عايزنا ننطح دماغنا فى الحيط يا شوق.

كان يسرع خطوة المتمهل ويعلو صوته أكثر فأسرع فى أعقابه حتى يبللنى العرق وأستعيد وجه الجد هارون الذى كنت أحبه أكثر من أى واحد من أولاد

شلبى حتى تلك الظهيرة التى جرسوا فيها جعفر البياع ورحت أتفرج وسط الأولاد والبنات.

كـان جعفر يركب الحمار بالمقلوب، وجهه ملطخ بالدقيق «العلامة» وعلى الـرأس قرص من روث البهائم الجاف وقد ربطوه إلى أسفل الذقن بخرقة بالية، كنـت أردد معهم ما كان يحدو به حسنين المدندش والطبلة تحت إبطه تجلجل مع صوته، يحدو ونرد عليه:

جعفـر بـاع غـيطه يـا عيـب الشوم
واتهـدم حـيطـه يـا عيـب الشوم
جعفـر بـاع داره يـا عيـب الشوم
ونقـص مقـداره يـا عيـب الشوم
ولا عـادش يسـاوى يـا عيـب الشوم
ديل جحـش حصاوى يـا عيـب الشوم

وجدتـه واقفا، كأنه جنّى طالع فى عز الظهر، عيناه الخضراوان بزرقة لا تحمـلان ودا والوجـه عابس، ولأول مرة فى حياتى خفت منه، ذابت من ذاكرتى حلاوة كل قطع السكر التى كان يمنحنى إياها، فكرت فى الفرار منه لكنه أمسكنى من معصمى بقسوة وجرجرنى بعيدا عن الأولاد بشدة دون أن ينطق، تباعدت زفة حسنين المدندش وحزنت لحرمانى من الفرجة على جرسة جعفر البياع، جرجرنى بعـنف لم أجربه قبلا ولم أتوقعه منه أبدا حتى وصل بى إلى بنايات «الواطية» ثم دفعـنى دفعـا لأدخـل من باب دارنا الموارب، كنت أبكى بحرقة من أثر مسكته لمعصـمى، وكان أبى يجلس على جذع النخلة المركون فى صحن الدار، كان يطل إليـنا ولا يعترض، بل إن الجد هارون راح يوبخ أبى ويسبه ولا يرد، يطل فقط، ولابـد أنـه كان يسمع أيضا ويوافق على ما كان يقوله الجد بأن تجريس جعفر البياع فضيحة لكل أولاد شلبى فالرجل لم يقتل أو يسرق أو يخرج من دين محمد، ولأن أولاد عـوف يقصـدونه شخصيا بهذه الجرسة فسوف يدعو أولاده وأولاد أولاده لتخلـيص جعفـر من هؤلاء الظلمة من أهل العمدة ومن يتصدرون لحماية العمدة:

- لهم حق يتفرعنوا عليكم. مش لاقيين حد يردهم.

كان أبى على حاله، يسمع ولا يرد على الجد هارون:

- واحـد وبـاع أرضه وداره، لهم فى كده إيه هما عايزين يسيروا الدنيا على هواهم؟

كانـت يـده المرتعشـة قد انفكت عن معصمى فأسرعت أمى لتسحبنى فى المكان وكأنها تهربنى من عقاب لابد يحل بى إذا بقيت فى المكان، غسلت وجهى وجبهتى وأنفى ورطبت أطرافى بماء الزير البارد وأمرتنى بالشرب لترطيب جوفى أيضـا ففعلـت، أخذتنى إلى القاعة وراحت تسرح شعرى، كنت أسمع صوت الجد هارون وهو يحذر أبى من أن أعاود مشاركة الأولاد فى جرسة جعفر البياع:

- أن شـفتها بـترمح ورا حسـنين المدندش يا عبد الستار ح يكون بح أجلها.

قالهـا ولم أسمع عليه رداً، وساد صمت ثم ارتطم باب الدار الكبير لابد بيد الجد هارون وهو خارج منها، كنت أتسمع صوت حسنين المدندش وقد وصل إلى درب المغربى يحدو:

أهـى خيـبة وحطت	يـا عيـب الشوم
نـاس عالية ووطيت	يـا عيـب الشوم
نـاس واطية وعليت	يـا عيب الشوم
نـاس خالـية وملكت	يـا عيـب الشوم
نـاس مالكـة وخليت	يـا عيـب الشوم

وفـى الليل حدثتنى نعمات عن خروج جعفر البياع من الكفر بعد أن ربطه العمـدة فى النخلة أمام دواره وضربه بالكرباج، وأن العمدة طلب عبد القادر فى دواره لتدبـير عراك مع أولاد الجد هارون وأن أبى خائف على تجارته إذا تجدد العـراك وأن البلد مقلوبة وأن الجد هارون كتب فى العمدة بلاغاً، شعرت بالخوف وخفـت غضـبتى من الجد هارون وتمنيت لو كنا أولادا وشاركناهم فى العراك، ضـحكت منى نعمات وأخذتنى فى حضنها ونمنا لنصحو على أصوات الرجال فى المندرة يطالبون أبى بالدفع أكثر مادام لن يشارك فى العراك وأبى يطلب من الجد هارون الرحمة والعدل والبعد عن الشر:

- ولا كـان لـه لـزمه ده كله يابا هارون، هو أنت عامل نفسك مغسل وضامن جنة لجعفر كمان؟

فيرد عليه الجد هارون بصوته الغليظ آمرا بحسم:

- إن ماكانش ح يبقى لنا عزوه فى الكفر ده وهيبه تبقى أنت أول الخسرانين، رسمالك وشرف بناتك، ح تدفع يا عبد الستار ولا مالناش دعوة بيك من بعد النهاردة؟

كان يتحرك فى أركان المندرة مثل فأر دخل مصيدة فلا هو قادر على الخروج منها ولا مطمئن للبقاء فيها، توجه ناحية دولاب الحائط، فتحه وهو محاصر بنظراتهم، أخرج أوراقا حمراء، عد منها لا أدرى كم وناولها للجد هارون، لا أذكر ما قاله وهو خارج ومن خلفه رجال العائلة لكن الذى رأيته هو جلوس أبى على طرف الكنبة مطرقا برأسه حزينا بحق، لم يلتفت إلينا ونحن إلى جواره أنا وعطيات إلا بعد فترة طالت، لحظتها اجتذبنا إليه فى حنو وحدث نفسه:

- لو ماكنتوش بنات.

شعرت على نحو غامض أننا سبب انهزامه وخسارته وأن لولانا ما أطاع أمرًا أو انكسر.

قلت له يا سيد أولاد عوف كانوا زمان، أولاد عوف راحت أيامهم، أنت تنفخ فى قربة مقطوعة، قلت له كن فى حالك يا سيد، مالك أنت بأولاد عوف، بماذا أفادوك لتزرع روحك فيهم وقد عشت وحيدا ومقطوعا وما سعى أحدهم للاقتراب منك لتطئن أن لك فى الدنيا أهل وناس، أعرف ما كان بينه وبينهم، وأنا لا أقلب بكلامى مواجعك القديمة، أنت لا تعرف ما جرى منهم فى الزمن القديم، كل ما تعرفه هو تلك الحكايات التى لابد أنه حكاها لك على امتداد العمر، لكنها ليست كل الحقيقة، بينها وبين الحقيقة مسافات ومسافات بطول المسافة بين الكفر وتلك البلاد التى عاش فيها وبطول السنوات التى غاب فيها عن الكفر وناسه، يعرف حقيقة الكفر من عاش فيه يا سيد، ويعرف أولاد عوف من تعامل معهم أكثر، لقد عاركناهم وصالحناهم، بعنا لهم واشترينا منهم، دخلنا بيوتهم ودخلوا بيوتنا، عرفنا طباعهم وحفظناهم فى عقولنا، وإذا كان هو أول من جرؤ «وناسب» أهلى وفشل، فقد تكرر الأمر من بعده، صاهرناهم، وصاهرونا، وطلع نسل جديد تجرى فى عروقه دماء الشلبى والعوف، وإذا شئت أحكى لك عنهم لتعرفهم أكثر، ولكن الخلاصة هى أن فى البعد عنهم غنيمة، والبعد عن مشاكلهم التى لا تنتهى وإن

تـزايدت، راحـة البـال، دبـر وقتك وعقلك وشوف مصالحك، مالك أنت يا سيد بمـندرتهم الكبيرة التى خربت؟ مالك بدوارهم المهجورة؟ وهل تصدق ما يقال من أن لهـم فى الناحية ميراثاً موقوفاً ينفك بأوراق مزعومة فشلوا فى العثور عليها طـوال تلـك السـنوات، وكأنمـا أخفاها عنهم جن فى سابع أرض؟ وهل تخصك مدافنهم فى شىء يا سيد؟ حتى لو أفلحت فى تجميعهم حولك وقاموا بتجديد الدوار وترمـيم المدافن والمندرة فلن ينتهى المشوار لأنهم لن يستعيدوا ما أخذته منهم الأيام فى غفلة من كبارهم قبل صغارهم، أنت لا تعرف يا سيد أنهم لو لجأوا إليك لـتحل نزاعا بين نفرين منهم فإنك لن تستطيع أن تحل أو تربط ليس لأنك سوف تعجـز وإنما لأنك بالنسبة لهم أفندى غريب برغم الاسم المشترك، وقد تعجب من كلامى لكنك سوف تتأكد، أنت فى نهاية الأمر ابن حسن الذى خرج من الكفر ودار فـى الـبلاد البعيدة، وكم تندروا على غربته فى مجالسهم، قالوا إنه باع الأرض والكفـر والابن فباعته الأرض ولفظته الدار ونساه الابن كذلك أهل الكفر، صدقنى يا سيد أنت محسوب على حسن على عكس صالح، صالح منهم لأنه عاش بينهم، شـافوه طفلا وصبيا ينمو واطمأنوا لـه برغم خلافاته التى لا تنتهى معهم، وفى الكفـر يقولـون «اللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش، يا سيد» وأنا بكلامى لا أمـنعك عنهم فهم أهلك، لا أطلب منك أن تقاطعهم أو أن تبتعد عنهم تماما لأنهم دمـك واسـمك وأصلك، كل ما أوصيك به أن تدخل بينهم ولا تحلم بأن تكون فى مقدمـتهم ولأنـك ابـنى على القرب والبعد أتمنى لك أن تكون فوق الكل، سيدهم وآمرهم الذى يطاع، لكن الناس هنا لا تسلم قيادها لأى وافد حتى وأن بدا لهم أنه أبـرع مـنهم وأكفـأ، وأنت بحساباتهم وافد جديد، يقابلونه بالترحاب والأشواق ويكتمون الحذر والتوجس، والأمر فى أوله يخوف، العين فى الكفر تنحط على من يتصدر، وأنت لا تعرف معنى أن تنحط العين على بنى آدم فى الكفر عسكر، نشف ريقى، وشعرت بمرارة الحلق من كثرة الكلام وهو ساكت يتسمع كأننى كنت أؤذن فى مالطة:

- عارف كل ده.
- وسـايبنى أهـاتى يـا سيد؟ الغرض، مادام عارف يبقى ماتغوطش فى بحورهـم اللى مالهاش قرار، دول ناس لهم عدوين كتار فى الكفر وفى كل الناحية.

- ولا يهمك.

قالها باستهانة فقلت لنفسى إن العرق يمد لسابع جد، وإن دماغه لا يختلف كثيرا عن أدمغتهم رغم المدارس والشهادات التى لم يتعلم منها كيف يكون واعيا لنفسه وعى الفلاح الناصح الذى يحسب لكل خطوة يخطوها ألف حساب، لم يرث عـنهم غير عرق الاستهانة الدساس، ليته كان مثل صالح الذى يحتاط لنفسه أيام المخاطـر وهـو يمشى فى دروب الكفر. أو فى سكة البندر، الخلق فى المدن لهم عقول غير عقول الخلق فى كفرنا، لو عاش هنا لرأى الفئوس وهى تغدر والعصى وهـى تضـرب فـى عز الظهر الأحمر لأتفه الأسباب، لو عاش هنا لعمل حسابا للمتربصـين فـى الـزراعات يطلقون الأعيرة تخويفا وإرهابا وأحيانا فى المليان تصـفية لحسابات قديمة من عمر الأجداد، ماذا أملك إلا أن أوعيه وأحذره؟ أصبر عليه وأفهمه ما لم يفهمه:

- صالح ما قالكش ع اللى طلعوا له متلتمين فى نقحة القيالة؟
- قال.
- ما سمعتش على جدار مصطفى عوف اللى نقبوه وخدوا منه البهايم ولا حدش طالهم؟
- سمعت.
- وابن السعيد عوف اللى انخطف وانقتل واندفن فى أرض السعيد عوف نفسه؟
- وإيه تانى؟
- السـعيد عوف ده ماكانش منهم، كافى خيره شره ولا عليه تار لحد ولا حد معاديه.

هـز رأسه وبدا لى وكأنه لم ينشغل مجرد انشغال فى التفكير فى دلالة تلك الحكايـات، فكرت أننى خلصت من ذنبه لكننى كنت مازلت أخاف عليه من مخاطر الكفر والناس وأولاد عوف، ومن جديد قلت أحاول معه:

- مش عاجبك الكلام يا سيد؟ أنا قلبى عليك.
- يعنى عايزانى أخاف؟ أنا بقى مابخافش.
- المثل بيقول من خاف سلم.

- كلام فارغ.
- كلام فارغ يا سيد، صحيح العرق دساس، دا أنت زيك زيه بقى، غشيم زيه وبتنطح رأسك فى الحيط.

قلتها فبان فى عينيه الشر فجأة، كشر عن وجهه وتغيرت الملامح، من داخلى خفت، نسيت أن الواقف أمامى وقد احتقن وجهه وارتعشت شفتاه هو طفلى القديم الذى حسبت أننى استعدته شابا سمح الملامح، كان يشبه الآخر ساعة الغضب لكننى تماسكت وقلت بغير اهتمام:

- ما تضرب لك قلمين.

هاج أكثر وتحرك فى دائرة ضيقة حول نفسه بلا هدف، شبك أصابع يديه بعنف وفكها بعنف واستدار مبتعدا عنى فى غل مكتوم، تابعت قدميه القلقتين المرتبكتين المترددتين بين الرغبة فى الخروج من باب الدار الموارب والبقاء فيها ليصفى حسابه معى، قلت أغيظه أكثر:

- هربت يا ابن حسن؟

استدار فى عنف وواجهنى، كانت العينان الملتهبتان تلمعان بشراسة وحش من وحش البرارى سقط فى فخ، سألت نفسى إن كان من الممكن أن ينسى، وهو فى لحظة اندفاعه أننى أمه التى حملته فى بطنها فيغلط معى بالقول أو بالفعل، خفت إن هو فعل أن يضحك عليه الخلق فى طول الكفر وعرضه لو سمعوا أنه وهو الأفندى المتعلم لم يراع الأصول ولا شرع الرب فى أمه، ساعتها تكتمل خسارتى له ويخسر نفسه، كان يصب على نظرة الغضب وكان يغيظنى أنها دفاع عن حسن، كأنهما رجلان فى مواجهة امرأة.. لكن التردد غلبه وخفت حدة التحفز، لعله عاد إلى عقله فصعب على حاله، ابتسمت له ثم ضحكت بصوت مسموع فتلفت حول نفسه باحثا عن أسباب ضحكى، وعندما لم يكتشف شيئا غريبا تحول الأمر إلى مجرد دهشة، قلت وكأننى «ادادى» طفلا عنيدا بحنان الأم:

- أقعد يا سيد، واقف كد ليه؟

حيره أن أتحدث إليه بود وتسامح، لعله نسى استفزازى له واستعد للتصافى، فكررت بنفس الصوت:

- واقف لى زى خيال المآته كده ليه؟ هو حصل ايه لده كله؟

تـراجع خطوتين وجلس على الدكة، زفر ثم تنهد، نظر ناحيتى وأوشك أن يسألنى أو يعاتبنى ثم تراجع، شعرت بالفرحة به والانتصار على فقلت بثقة:

- وإفرض لسانى غلط، تعمل رأسك برأسى؟
- لا.. بس أنتى..
- محمـوق عشـان أبـوك؟ وماله، فيك الخير، هو اللى رباك، بس أنت عصبى قوى..

بـدا لـى أنـه حبس فى العينين دمعتين وتساقطت برغم إرادتى من عينى دموع، لعلنى كدت اعتذر لكننى تماسكت، قلت أغير الموضوع وأنا أجفف دموعى براحتى وأحدثه عن ذلك الزمن البعيد ونوادر فبدأ يجارينى ويضحك، لعله أراد أن يثبت لى أنه قادر على السيطرة على نفسه، ولعلنى أردت أن أطمئن نفسى بأننى فهمـته أكثر وتأكدت أنه يستطيع فى كل الحالات وبرغم كل شىء أن يرعى شرع الرب وخلقه فى أمه رغم طول عمر الابتعاد.

طالـت أيام العراك مع أولاد عوف، ولولا البارودة التى جلبها الجد هارون من أرض البرارى ما تمكنا من تخويفهم، كانوا كثارا وشماريخهم لا تميز، تطيش فى كل اتجاه وتدمى، تجمعوا حول «فضالى» وأولاده وما تركوهم إلا بين مكسور ومبطوح، كادوا أن يقتلوا البكرى لولا إنه رمح واختفى منهم فى زراعات الذرة، هـاجموا دار الجـد هارون بالشماريخ والنبابيت وما أخافهم إلا رصاصة انطلقت نحـو صـدر «الحسنين» سقط بفعلها وحملوه، فى صباح اليوم التالى عادوا مرة أخرى فانطلقت رصاصة أخرى وأصابت رأس السعيد بن الحسين، وكان أبى ينقل لـنا الأخبار وهو ساخط على الجد هارون وأفعاله التى أوقفت حال تجارته، وكان ينـبه عليـنا بعدم الخروج من الدار، طمأننا أنه ذهب إلى الكبار من أولاد عوف وأخـذ منهم الأمان لنا، لأنه كما قال ضد العراك وليست لـه فيه مصلحة، نزلت إلـى دروب الكفـر عساكر الهجانة السود راكبين الجمال نصبوا خيمة أمام دوار العمـدة الذى عزلوه وعينوا بدلا منه « صول» من المركز، الوحيد الذى لم يكف عـن تكسـير الأوامر بالرقاد بعد المغرب وعدم الطلوع كان عبد القادر، يقفز من فـوق سـطوح الدور ويصل إلى الدرب، يحرق أو ينزل ويتعارك بمعاونة أولاده

وأولاد أخوته، تربص لــه الصول وعساكر الهجانة وما طالوه، أقسم الصول وهو يفــتل شاربه أن يمسكه ويرميه فى الحبس مع أشقياء الناحية حتى لو نزل سابع أرض، لكنه لم يستطع رغم زيادة القوة وكثرة الوعود، فقدنا رجلين وفقدوا واحدا فى أول يوم، لكن العدد زاد حتى فى وجود الهجانة، وصل العدد عندنا إلى خمسة مقــابل ثلاثة منهم بالإضافة إلى اثنين بين الموت والحياة، تعادلت الكفة أو كادت بحسب ما قاله أبى، ذلك الذى دخل علينا ذات مساء وهو فرحان وراح يحدثنا:

- أنــا عملــت اللـــى أقدر عليه، جريت على أكابر الناحية وطلبت منهم يشوفوا لهم حل، ماخيبوش رجايا وح يعملوا صلح، داخراب بيوت ودم رايــح بــلاش، هارون عاوز يولع فى الكفر نار، الصلح بكره فى دوار الباشا نفسه.

فى الصباح صحا مبكرا ولبس جلبابه الكشمير وتلفح بالعباءة، طلب منا أن ندعــو لــه بالتوفيق ففعلنا، شعرنا بالزهو لأنه برغم كل شىء يستطيع أن يسير الأمــور بحســب إرادته، وفى ظهيرة نفس اليوم عاد متهلل الأسارير ومن خلفه رجــال العائلــة الكبار، مرسى وسالم بك والجد هارون وكان بينهم العم مرزوق وآخــرون، جلســوا فى المندرة وعرفنا أن الصلح تم ورددنا عبارته بأن الصلح خــير، فى عصر نفس اليوم زارنا بعض الغرباء، خرجوا ثم عادوا ومعهم رجال مــن أولاد عوف، وهدأ الحال ورحل عساكر الهجانة والصول الذى لم يستطع أن ينفذ يمينه بأخذ عبد القادر، لكننا كنا فى فرحة، زادت فرحتنا عندما عرفنا أن العم مرزوق سوف يبقى فى الكفر بعد سنوات عاشها فى أرض البرارى مع البك سالم، جاءت العمة فطوم وحدثتنا عن زواج العم مرزوق:

- وخلــى الفــرحة فرحتيــن، إتغــرب كثير ونسى روحه هناك، جوازته الأولانــية ماجابتش عيال.. ح ناخد لــه بنت المرسى، صغيرة وحلوة وبكره تملا داره عيال..

عملــنا لــه فرح بلا طبل ولا زمر وراعينا المجروحين فى أولادهم، ويوم دخولــه رقصنا بدل الغوازى وقلنا إن الفرح فى القلب وفرحة العروسين ببعضهم أهم من كل شىء، ليلتها شفنا عبد القادر فى وسط دار العمة فتذكرنا كلام الصول، لكنه هنأ العم مرزوق وتواعد معه على لقاء وترك المكان، وبعد أسبوع خرج العم

ليقضى حاجة من السوق راكبا حماره، وعندما عاد رأيناه داخلا من ناحية البوابة فى اتجاه الدرب، جرينا نحوه وناديناه، كان يضع سلة كبيرة أمامه على ظهر الحمار، وكان عبد القادر جالسا على المصطبة فرمى عليه السلام لكنه لم يرد:

- أنزل يا مرزوق.

قالها عبد القادر وهو يمسك مقود الحمار فاستجاب مُكْرهًا ونزل عن حماره وأخذنا منه السلة ووقفنا ننتظر، كان عبد القادر عارى الرأس على غير عادته، سأله عن أخبار الزواج فتردد ولم يجاوب، سأله عن حلاوة بنت المرسى فطلب منه أن يحتشم، كان مفلوت اللسان لا يربطه رابط، تحسس كم جلبابه وسأله.

- الجلابية دى حلوه عليك. قماشها منين؟
- م البندر يا عبد القادر، أنت فايق؟
- آه، مين اللى مفصلها لك يا مرزوق؟
- الغباشى.
- وهو كل من لبس جلابيه جديدة يعدى ع البوابة راكب يا مرزوق؟
- مش كنت ترد السلام الأول يا عبد القادر.. والكبار اتصالحوا خلاص..
- وإحنا كما كبرنا ع العركة، والشمروخ هناك أهه، مركون على جدار الحاج مصطفى، وأنا عايز أباركلك ع الجواز والعب وياك لعبة، لعبة مافيهاش ضرب ولا خبط زى زمان.
- ما حدش فاضى يا عبد القادر، خلينى أروح.
- دانت كنت شاطر فى التحطيب زمان.
- زمان بقى..

كنا نراهما وقد أحاط بهما خلق كثار، طالت وقفتهما معا وتضاحكا وأضحكا الناس حتى زال كل القلق من احتمال عراك يقوم بينهما، همس رجل فى دربنا أن عبد القادر فرحان بروحه وأنه يسلى نفسه بالجلوس على مصاطب البوابة، يفرح بنزول الناس من فوق الركائب كلما شافوه وقالت امرأة «إنهم صنف أهبل» ودمهم ثقيل، وجلجلت عند زحمة البوابة ضحكة ممدودة وصفق رجال.

- مرزوق يا رجاله مولود معايا يوم بيوم، الوحيد اللى كنت باعمل له حساب فى لعبة التحطيب، لكن بعد رجوعه من البرارى ما اتقابلناش غير ليلة دخلته، رحت أبارك له.

بذلك كان يتحدث عبد القادر وكأنه «حاوى» يدور حول نفسه وحول العم مرزوق الذى زال خوفه واندمج مشاركا فى السماع والتعليق ثم عقب موافقا لينتهى الأمر:

- ماشى يا عبد القادر، نجرب لعبتك دى..
- أن أتزحزح من مطرحه ما يعديش البوابة راكب أبدا، وأن ثبت مكانه يعدى راكب قصادى اتخن تخين فى الكفر..

هللوا لعبد القادر ووقف العم مرزوق مكانه فى وضع استعداد، رفع عبد القادر كفه اليمنى إلى فوق ليراها كل الناس وقد خلت من أى شىء مجرد أصابع مفردة على استقامتها ومتقاربة دون فراغات بين أصبع وآخر، نزلت أنا إلى أسفل وتمكنت من النفاذ إلى قلب السامر لأعرف تلك اللعبة الجديدة، رأيت عينى العم مرزوق تتابعان حركة الكف المفرود وعلى وجهه ابتسامة صلح لكل الناس، يثبت قدميه فى الأرض واحدة إلى الأمام والأخرى إلى الخلف، وعندما طالت أطراف أصابع عبد القادر فُمّ معدة العم مرزوق لم يهتز مجرد اهتزاز، صفقنا له بحرارة وتلفت عبد القادر حول نفسه وأنزل كفه، انزاح عن طريق العم مرزوق وحياه بحماس.

- عفارم عليك يا مرزوق لأ راجل ياوله، تبقى أنت كده كسبت الرهان، تعدى راكب حمارك فى أى وقت ما تنزلش من عليه، واشهدوا يا أهل الكفر ع الكلام ده.

وضحك الناس ربما حسبوه قد أصيب بطوفة فى عقله مفاجئة وهو يمد يده ليفك حمار مرزوق المربوط فى حديد شباك التهامى ويحمل سَبَتْ مرزوق ويضعه عليه ويضحك هامسا:

- ما تركب.
- مش مستاهله.

رد العم مرزوق وحملت عطيات السَبَتْ وسارت خلفه بينما سحب ولد حبل الحمار، وانفض السامر الذى عمله عبد القادر يتندرون على لعبته الصبيانية ورهانه الخسران لكن عبد القادر كان واقفا مازال يتابع العم مرزوق حتى تعثر لأول مرة فى خطواته فانطلقت ضحكته، أسرع رجال من أولاد شلبى يسندونه

ليصلب طوله بينهم حتى أوصلوه إلى دار العمة قطوم، كنت وسطهم ورأيتها وهى تخبط صدرها بكفها فى فزع، حاول العم مرزوق طمأنتها بعسر:

- ماتخافيش نفسى غامّة علىّ شوية.

أجلسوه وقدموا إليه اللبن الرائب، شرب منه الكثير وطرد ما كان فى جوفه من بقايا مأكولات لم يصرفها، ثم عاود الشرب وأرجع اللبن ممزوجا بحمرة قانية عكـــرت بياضه، شرب وأرجع ثم عاود الشرب وأرجع وهو يتصبب عرقا والعمة تسنده على صدرها وعيناها تلمعان بسؤال غير منطوق:

- باينى كلت حاجة مسمومة فى البندر.

قالها من بين أسنانه بعسر ثم تدحرج على أرضية المكان، أسندوه وأراحوه علـــى كـــيس قطـــن مكـــبوس، طالبنا بأن نغطيه فحطت العمة على جسمه حِرام الصـــوف، كـــان الوقـــت يمضى والعرق يتصبب على وجهه، نقلوه على فراشه وأحـــاطوه والعـــرق يغطـــيه ويتســـاقط علـــى الفراش، وجهه «مزرود» ونفسه «مكـــروش»، ربما غفا فتركناه يرتاح، وفى الفجر سمعنا صوت العمة المستغيث فذهبـــنا، كـــان الجد هارون وكان مرزوق يمسك بيده وكأنه يتعلق بحبل النجاة، همس بعسر وبصوت متقطع:

- لو نفدت بعمرى.. لو نفدت النوبة.. أبقى كسبت الملعون.. زى ما يكون دخل صوابعه فى لحم بطنى، غرزها زى المسلة، لو نفدت، أبقى كسبت، ماتخافيش يافطوم، إن رحت فيها ماتفرطيش فى التار من عبد القادر.. التار..

كانـــت هـــى تتسمع وقد اتسعت حدقتاها أكثر من أى وقت اتسعت فيه تلك الحدقـــتان، وكان الجد هارون يهز رأسه بصلابة رجل مسئول عن عراك حرض علـــيه، كســـب وخسر لكنه لم يعرف اليأس وإن امتلأ قلبه بالمرار، كان يبدو أنه عـــرف الـــنهاية قبلنا جميعا، فجلس يتسمع هلوسات العم مرزوق التى لا يربطها غـــير العجـــز وقسوة الوجع، وفى ساعة الضحى خبا وجه العم مرزوق وانعدمت أنفاسه، انطفأ سراجه وكف عن الأنين والهمس والحركة، وفاتت على الدرب فى ظهيرة ذلك اليوم سحابة معتمة سودت النهار وما أفاد فيه لطم ولا ندب ولا بكاء.

كـــان يحدثهم بحماس عن السد العالى والحديد والصلب وتأميم القناة، عن

إزالـــة آثـــار العـــدوان وضرورة العبور، لا أدرى لماذا تذكرت صوت مذيع نشرة الأخـــبار التى نادرا ما كنا نسمعها أو نهتم بها، كان كل ما بيننا وبين عبد الناصر هـــو تلك الحكاية القديمة عن البك سالم كبير العائلة فى أرض البرارى، ذلك الذى أخـــذوا منه أرضه ووزعوها على الأنفار «وتملية» الغيطان، وكيف أن البك سالم نفســـه مات ناقص العمر بحسرة الأرض التى أصلحها وزرعها وكانت فى السابق مهجـــورة ضمن البرارى المشاع التى لا صاحب لها ولا مالك، حتى ابنه الضابط الكبـــير عجـــز عن حمايتها، نقلوه إلى بلد اسمها السلوم بعيد ثم أحالوه للمعاش وهـــو فـــى سن الشغل، وكان عبد الناصر بعبع علام الذى كان يتوقع تأميم دكانه بيـــن يوم وليلة، اشترى أرضا وعمل فيها منحلا وسور أرضا وحولها إلى جنينة فواكه وتاجر فى السلاح متخفيا بقلق من احتمال استيلاء الحكومة على ماله فلجأ إلى توزيعه، كتب الدكان باسم شاكر والمنحل باسم سعاد، سرحت فى الزمن القديم وأنا أسمع سيد بقلق وأرد عليه.

- إزاى بقى يا سيد. هى صوابعك زى بعضهم؟
- كلنا ولاد تسعه.

رد علـــى بحـــدة كرهتها فيه، كنت أحبه وأكره أفكاره التى تساوى بين كل الناس، الناصح والخائب، المالك والأجير، وكان قد نال إعجاب شاكر فخفت عليه، شاكر قليل الحيلة لا يسنده غير القرش وما يملكه يمينه أما هو فله مرتب معلوم ومضـــمون الصـــرف فـــى أول كل شهر، حسن ظل طوال عمره لا يحسب للزمن حســـابا، ضيع ميراثه بالكسل وتاه فى البلاد، صحيح أنه رباه وعلمه وعاش حتى وظفه، لكنه فشل فى أن يوعيه بالدنيا والناس، خيبه وأفسد عقله ولو لم أحرص علـــى شاكر فربما يخيب، شاكر غلبان، وأبوه حويط، عاش عمره بطوله ناصحا لنفسه، لو ورث شاكر بعض حرص أبيه لاطمأن قلبى من ناحيته، ولو خلص سيد من طباع حسن ما خفت منه على شاكر:

- بقـــى ولاد الناس الطيبين المستورين ح يتساووا مع الخلق الزبالة اللى لاوراهم ولا قدامهم ياسى سيد؟ دا حتى ربنا ماقالش كده.

قالها علام وانتظر من سيد الرد:

- ربـــنا مايرضاش ناس تمص دم ناس، تسرق عرق ناس، فكرك السرقة شطارة.

تدخلت:

- ماحدش قال كده، السرقة حرام لكن التجارة حلال.

وتحمس علام:

- دا قصـــر ديل يا أزعر، بقى أنا أبقى صاحب ملك وعايزنى أتساوى مع واحد من خدامينى؟ دا كلام جرانين.. ماحنا برضه بنقرا ياسى سيد.
- والتجارة شطارة.

قـــال شاكر وهو ينظر إلى أبيه فى محاولة لطمأنته عليه، قلت لنفسى أغير الموضوع:

- بقى ماتجيش غير وأنا راقدة يا سيد؟

تحـــير إن كـــان من اللائق أن يستمر فى جداله مع علام وبكرى وشاكر أو يرد على كلامى، قلت بنغمة عتاب وأنا أحاول إضحاكه وإضحاكهم:

- يا خويا خليك فـ حالك وبلاش وجع قلب.
- سيد أفندى بيتكلم فى السياسة يا أم شاكر.

قالها بكرى مباهيا فعلقت:

- قطـــيعة السياســـة واللـــى بيجى منها، أوعاك تكون صحيح من بتوع السياسة يا سيد.

بدت عليه الدهشة وهو يسأل:

- وهى السياسة عيب؟

تحفز علام واعتدل فى جلسته قبل أن يوضح:

- زى الست الوالدة ما بتقول كده، مابيجيش منها غير وجع القلب، طيب بلاش كده، سليمان ابن مطاوع بقالة قد ايه محبوس من جرة السياسة ياسى بكرى؟ أكثر من ثلاث سنين النهاردة.
- أصله إخوان مسلمين، إنما سى سيد اتحاد اشتراكى.

قال بكرى فعلق سيد باستفسار فيه إنكار:

- اتحاد اشتراكى؟

تدخل علام:

- أهـــم كلهـــم شبه بعض، دا الولد سليمان ابن مطاوع ده انضرب ضرب

هناك مايكلوش حرامى فى مولد، الكلام ده مش من عندى، دا من حنك أبـــوه نفســه، وأهــو سايب عياله متبهدلين، خد ايه بقى؟ دول ياعلام صايعين وعاوزين يأخرونا.

قلت انهى الأمر بأى شكل، زفرت بضيق وقلت:

- إحنا مش ح نبطل كلام بقى؟ ناكل لنا لقمة.

تململ سيد فى قعدته وتابعه علام فى تدقيق ظاهر، ولابد أنه كان يتوقع أن يخـاف سيد من كلامه عن سليمان ابن مطاوع، لكن سيد ظل على حاله.. متحفزا لمـزيد مـن الكلام وخجلانا من بدء حوار جديد ربما لكى يرضينى، لكننى لم أكن راضــية عليه فى تلك الظهيرة، فلو تركته على هواه لظل يتكلم لساعات فى أمور لا تفــيد، تأميم وإصلاح زراعى وحرب، ومن منا استفاد من هذه الأشياء، وكيف اســتطيع أن ألين لـــه دماغه الذى لابد أنه أصلب من حجر الطاحونة، تماما مثل أبيه.

فى الخميس الكبير حلت شعرها فانسدل على الصدر والظهر خصلات ذهبية ناعمـــة تحللت من ربطة الضفائر، خرجت من دارها حافية القدمين وحولها وفى أعقابها النسوة لابسات السواد وثوبها ملون، سبقت الرجال خلافا لما اعتدناه من طـباع أهـل الكفـر، كانت تناديه بصوت عال قبل أن تندب وترد عليها أصوات النسوة:

- يـــا قتيـل بعد الزفــة ..... يا عريس
- ملحقتش تفرح بالخلفة ..... يا عريس

بعدهـــا تهـبد صدرها براحتيها فيترجرج تحت قيمصها وقد تزايد احمرار لحمها الظاهر للعيون حراما مباحا من أثر النار الساكنة صدرها وصدورنا منذ قتل العـــم مـــرزوق، كانت عيون الخلق تطل والشفاه تتصعب تأسيا من أجلها وأجله، حـــتى أبـــى الـــذى مـــا حزن فى كل عمره كل هذا الحزن أبدا كان يناديها بوهن ويوصـــيها بأن ترحم نفسها ولا تستجيب، كانت تهبد صدرها بعنف أكثر، سبقتنا ونحـــن وراءها حتى وصلت إلى أول المدافن، انحنت وحطت على رأسها طينا من المســـرب، عاصـــت صدغيها وصدرها وأجزاء من ثوبها الملون، وعند قبره وقد أحاطوها لفت خصلة من شعرها حول كفها اليمنى وقربتها من عينيها، ثم أقسمت:

- وحــياة مقصوصى يا مرزوق ماحد ح ياخد بتارك غيرى، لاح أهدا ولا يرتاح لى بال غير لما ترتاح فى قبرك.

أحطناها من كل ناحية فنظرت إلى الكل بغل وكراهية لم أفهم أسبابها، طلبت مــنهم أن ينزاحوا بعيدا عنها، كانت تقصد إبعاد الرجال فانسلتوا من أمام المدفن رجلا فى أثر رجل وما تبقى حوله غير الحريم والعيال، كانت جالسة على ركبتيها كأنهــا أمام ما جور عجين وهى تضرب براحتيها جداره فتنغرسان كفوفا مفرودة فــى الطمى المخلوط بنخالة التبن جافا ومستجيبا للخبطات، كأنها من كثرة لهفتها توقــظ حــيا راحت عليه نومة وسوف يقوم بعد الخبطة التالية ويخرج من خلف الجدار:

- قوم يا سبع من رقدتك، يا خيبتى فى الرجالة من بعدك، قوم يا مرزوق، قمصان عروستك فى الصندوق ألوان ألوان. وتارك فى رقابى النسوان.

وتــنطلق الأصــوات، يتقارب الرجال ويتباعدون بحذر، وعندما بدا لهم أن قواهــا انهدت وبح صوتها ولم تكف عن النحيب، اقتربت منها زاهية بنت فضالى وحاولــت إبعادهــا عــن المدفن، لعلها استجابت دون وعى وقامت نصف قومة بمساعدة النسوة، همست زاهية بصوتها الحزين:

- كلنا مجروحين يا ختى، خليه يرتاح فى نومته.

وكأنما أفاقت العمة من غفوة طارئة، نظرت أمامها وإلى وجه زاهية وكأنها مــا توقعــت أن تــراها، فردت ذراعيها بطولهما فسقطت زاهية بعيدا عند حافة المسرب، زامت نسوة وساعدن زاهية على الوقوف ثم جرؤن جميعا على الاقتراب وأحطــن العمة من كل جانب، وفى صمت استجابت بوعى أو بغير وعى وسارت بينهن إلى الطريق خارجات من مدخل المدافن والرجال يجرجرون مداساتهم على الأرض ويثيرون مزيدا من الرماد.

عــند الــبوابة الكبيرة بدأت تولول وتلطم وتنادى مرزوق، وقفت فى نفس المكــان الــذى كــان يقف فيه عبد القادر وما عاد، كانت تبدو حائرة ولا أحد فى مواجهــتها، ســارت خطــوات وبدا لها أنها رأته واقفا وسط رجال من أهله وما رأيناه، سمعناها تسبه وتلعنه، وترمى على الجدار الذى تمثلته خصما نظرة وعيد

بانــتقام وعيد بانتقام يجرى على ألسنة الناس فى مستقبل قريب، ربما انحفر فى قلبها جب لكراهية ليس له قرار ولا تقدر أن تمحوها دورة الأيام والسنين.

حدثــتى فى هدأة الليل عن وحدته فى طفولته وصباه، عن قسوة الأشواق التى ما تحققت طوال العمر ليكون لـــه أخ أو أخت أو ابن عم شقيق، صعب على حالــه وطيبــت خاطرة، دعوت لشاكر وسعاد بدوام البقاء، تنهد فى حسرة وهز دماغه المستسلم:

- ما هو طالع زى حالاتى، وحدانى ومالوش ضهر.

وأكمل بعدها وكأنما تذكر أمرا وقد زاغت نظراته:

- هــو سـيد ابنك مبعد عننا ليه؟ دا اللى مالوش أهل بيشترى لـــه أهل، خايف يكون أبوه مقريه ومحفضه كلام غلط عنك.
- هــو حــر، إحنا مش محتاجين لـــه فى حاجة ولا فى محتاج لنا. لعلنى قصدت أن أؤكد لـــه عدم حاجته أكثر، ربما كنت أطمئنه وأطمئن نفسى فى ذات الوقت، سمعته يجارينى ويسايرنى وقد زاد استعداده للكلام:
- مــا أنا عارف كل حاجة، ح يحتاج لنا فى إيه بس، داحنا اللى محتاجين أخ لابنك، وحتى لو كان محتاج لنا هو غريب؟

كانــت نبرة التساهل فى صوته لا ترضينى، وكان فى داخلى كلام محبوس أعجــز عـــن الـــرد بـــه، خفت إن اندفعت أن أغضب وأغضبه وإذا عمل مجلس للتحقـــيق أكــون غلطانـــة، يطلـــع من الموضوع مثلما تطلع الشعرة من العجين وأنغرس أنا فيه كما هى العادة، فضلت السكوت، وفكرت، كانت زيارات سيد التى لم أتوقعها قد غيرت فى علام أشياء، بعد زمان عشناه بلا قلق أثر خلافه مع أبى الذى طال حول حسابات قديمة ثم خلافه مع أمى وحرمانى من زيارتها أو زيارتى جاء سيد، لعله بعد أن جالسه مرارا وحدثه واستكشف أغراضه حسبها بينه وبين نفسه، ربما قال لنفسه أن وجود أخ غير شقيق لشاكر أفضل من وحدته الكاملة، ولعله خاف أيضا، لعل مرارته الحقيقة كانت بسبب تأكده من استحالة مقدرته على خلفة جديدة من صلبه، ولعله سلم على كره منه بقبول بديل يخشاه ويتخوف من وجوده فى نفس الوقت، قبل أن يراه وعلى امتداد السنوات كان لا يطيق سيرته، لكنه بعد أن رآه تبدل وجعل يحوم بأسئلته عنه فى الأيام الأخيرة، ولعلنى بحذرى

لم أقدم جوابا شافيا لسؤال واحد، ربما لأن الأسئلة نفسها كانت تحوم فى دماغى ولا أجد لها جوابا أو تفسيرا، وهل كان سيد بالنسبة لى مجرد امتداد أو أثر حى لحياتى مع حسن، تلك الحياة القصيرة التى أنهاها هو بغشم وخلف لى مهانة العمر المدفونة كجمرة تحت رماد هزيل بنفخ فيه ولد من بطنى بجرأة فينزاح وتتقد الجمرة من جديد؟ وهل هو وإن حمل نفس الملامح ابنه وحده أو أننى شريكته فيه شركة الأعداء، لعلنى كنت قد ارتحت منه وتعودت على مجرد الاشتياق، لعلنى جننت وحرصت على كتمان أمارات جنونى بالصمت وكل ما أخشاه هو البوح، الولد نفسه يختلف أكثر مما يتشابه مع كل صنفه، على الأقل هذا هو ما تبدى لى وربما لا يكون صحيحا، وكيف أحكم عليه وأفهمه وهو فى كل لقاء محاصر معى بنظراتهم، يتدخلون فى كل عبارة تقال مجاملة أو حرصا على إبعاده عنى وإبعادى عنه، ربما لو اختليت به ساعتين أفهمه، وربما لو خلص هو من إحساسه بالغربة عن المكان والناس لفهمته وفهمنى، لكننى أمه، أمه وما يربطنى به حبل سرى جديد ومختلف، لعله لم ينقطع أبدا، قال علام متلطفا قدر المستطاع ليقطع على سرحانى فى البعيد:

- بس العلام حاجة تانية، اللى محيرنى يا أم شاكر، أبوه كان بيصرف ليه منين؟ أنا سمعت أن حالته كانت مش ولابد.
- ماعرفش

قلتها بشىء من الغضب، لعله أدرك أننى على غير استعداد للاستمرار فى السماع أو الرد، قام من مكانه، تلفت حواليه وكأنه يبحث عن شىء ضاع منه فى غفلة، خرج من باب «المقعد» ثم عاد، أطل بنظرة ليتأكد من وجودى فى نفس مكانى، سمعت صوت خطواته وهو ينزل السلم إلى وسط الدار، متباطئا فى نزوله وربما متوقعا منى أن أناديه وأسأله إلى أين يتجه وقد انتصف الليل وسيطرت خارج القاعة عتمة.

بعد دفنة عبد الونيس ابن الزناتى عوف بأيام طلبتنى فذهبت إلى دارها، حطت أمامى صحنا فيه «سد الحنك» وطلبت منى أن أكله ففعلت حتى امتلأت، أحضرت لى قلما وورقة وطلبت منى أن أكتب:

البيه المأمور:

نعرفك أن عبد الونيس عوف مات قتيل والقاتل ابن عمه عبد القادر جاره

فـــى الأرض والـــدار والســـبب نزاع على فدان ملك، والكاتب يخاف على روحه وأولاده من ظلم العمده المنسوب لأولاد عوف، والذى رجع بعد عزله وزاد ظلمه، والمولـــى عـــز وجـــل أمرنا والرسول أمرنا «ومن رأى منكم منكرا» وقال «ولا تكتموا الشهادة» وبلاغى لكم شهادة لوجه الله الكريم، والكاتب نفر مؤمن من كفر عسكر التى زاد فيها الظلم ويخاف يبوح باسمه ولوان الأعمار بيد الله.

أخـــذت مـــنى الورقة وحطتها فى دولاب الحائط وناولتنى ظرفا لأكتب عليه عنوان مدير مديرية الأمن، فعلت فقبلتنى وطالبتنى بعدم البوح أبدا لأى إنسان بما كان، وعدتها بالكتمان فأحاطتنى بيديها وسرحت فى البعيد.

بعـــد أيـــام جـــاءت الحكومة، عسكر وهجانة بربر على جمال، انتشروا فى دروب الكفر ومداخله، قالوا إن الحكومة بحثت عن عبد القادر فما وجدته، وقالوا إن الصـــول الـــراجع أقســـم بشرف أمه هذه المرة أن يسعى وراءه ولو راح فى «ســـفا العفاريت». دخل المعاون دوار العمدة والتقى بحكيم الصحة ووكيل النيابة قـــبل أن يـــتحرك الجمـــيع إلـــى المدافن، رأينا عسكر الحكومة وبرابرة الهجانة يحوطونهـــا من كل جانب، يدفعون النسوة من أولاد عوف بكعوب البنادق والشوم ويطـــاردون الـــرجال بالكرابيج السودانى، كانوا يطاردونهم فى دروب الكفر حتى يدخلـــوا البيوت، وكانت الحكومة قد أمرت بفتح المدفن وإخراج جثة عبد الونيس ليكشف عليها الحكيم ثم يأمر بإعادتها إلى نفس المكان، قالوا إن العمدة سعى لكل أولاد عـــوف وجمـــع منهم الأموال التى دفعها للحكيم كى يكتب أن الوفاة طبيعية وليســـت بفعل فاعل وأن يحافظ أيضا على حرمة الميت ولا يشرح الجثة، وعندما قـــرر حكيم الصحة أن البلاغ كاذب جمع المعاون عسكره وبرابرة الهجانة وتخلف الصـــول، رحلـــوا ونبهوا على العمدة بإبلاغهم بما يستجد فى مسألة غياب الول، وعاد الحذر مسيطرة على جماعتنا، غضب أبى وسب ولعن كاتب البلاغ:

- نصايب وبتتلقح علينا، كله من هارون، عايز يولع فى الكفر نار، كرهته فـــى تلـــك الليلة، ربما لأننى شاركت العمة فى كتابة البلاغ، ربما لأننى حزنت مثلها على العم مرزوق الذى تسبب عبد القادر فى موته.
- عـــبد القـــادر مالوش دعوة، مرزوق أخويا كان واكل سمك مسموم مع نفر فى كفر الشرفا مات فى ليلتها ولا حد دريان.

تشككنا فى الأمر وكرهنا فيه كل هذا الخنوع، لم يكن ما رأيناه بأعيننا لعبة كمـا يقول، ولم يكن ما يشاع عن عبد القادر كله أكاذيب، حتى لو كانت الحكومة قـد كفـت عن البحث عنه فهو مازال قادرا على رمى بلاه على خلق الله، رأيناه واقفـا عند البوابة الكبيرة يلاعب إبراهيم عوف لعبة التحطيب، مزهوا بنفسه إلى حـد الغرور، وعندما كسب إبراهيم ضحك الأخير وحذره من الصول الساعى فى وسـط الـزراعات بحثا عنه فضحك بملء شدقيه ساخرا، ذكروا اسم العمة التى توعدته فى غيابه فجاوبهم.

- نسوان مش لاقيه اللى يكسرها ومالهاش كبير.

اغتظـت منه ورحت أحدث العمة فأخذتنى إلى دار الجد هارون وطلبت منى أن أكـرر ما سمعته أمامه، هز رأسه وأوصانى بإبلاغ أبى بضرورة أن يأتى إلى داره فى المساء، وفى المساء أخذنى أبى معه ودخل الدار، كانت العمة هناك وكان جمـع مـن الرجال، وهى إلى جوار الجد هارون تشبهه فى الكثير، قال المنصور شلبى:

- نأجر المرسى الدباغ عليه.

رد الجد هارون:

- نلم فلوس ونشترى بارودة تانية ولا اتنين.

تململ أبى وهو جالس إلى جانبى، لعله أراد أن يعترض وخاف من مواجهة الجميع، انكمش فى عباءته وفضل السكوت:

- الكفة مالت ويانا والضرب النهاردة أحسن من التأجيل.
- مالكيش كلام فى وجود أبويا هارون يافطوم.

قالهـا الحاج مرسى فلم تكلف نفسها عناء الرد عليه. قام المنصور ودارت عيناه فى الوجوه، حدث الجد هارون:

- أخـبط الكبـير فـيهم بالبلطة فى عز الضهر، بس اكتبوا لعيالى خمس فدادين.
- مفيش غير السلاح، المقاريط، ح نلم فلوس.

عقب الجد هارون بحسم:

- وأنا دفاعة فى اللى تقولوا عليه.

قالت العمة باطمئنان من يملك تنفيذ الكلمة لكن الحاج مرسى اعترض.

- تانى يافطوم، خبر أيه يابا هارون؟هى مجالسنا ح تتحكم برأى النسوان؟

ســأل مستنكرا وقد قام محتجا على سكوت المجلس، لكنها أضافت وبنفس الثقة:

- مفــيش فى عيلتنا رجاله وحريم، اللى ح يقدر على حاجة يعملها راجل أو ست حتى عيلة صغيرة زى دهه..

أشــارت إلى فالتفتوا وشعرت بأن لى قيمة وأننى شريكة فى هذه الجلسات، معمــول لهــا حســاب، كان الجد هارون ينظر ناحيتى ويبتسم عندما وقف الحاج مرسى ثائرا:

- أنا مليش قعاد فى ملجس تحضره فطوم من بعد الليلة.

قالهــا وهو واقف، تلفع بالعباءة على عجل وهو يسب الزمان الذى أخرس الرجال وطوّل ألسنة النساء تناطح الرجال وتلاوعهم ولا تقيم لهيبتهم وزنا، خرج من الدار وفى أثره ابنه الكبير، وساد صمت قطعته العمة بكلام عن ديون مطلوبة من الحاج مرسى الذى يشترى الأرض ويورط نفسه طمعانا أن يكون صاحب أكبر حيازة فى الكفر، وأن كل ما فعله مجرد هروب من حكم المجلس على الحاضرين، ربمــا كانوا قد اتفقوا على دفع مبالغ جديدة، وربما كان أبى قد وعد بالدفع غدا، لكــنه فــى سكة الرجوع كان يبرطم بكلام لا أفهمه عن الجد هارون الذى قبل أن تسيره العمة بحسب ما ترجو وما تريد، كان يخبط كفا بكف مبديا سخطه على بنت بهانة التى تملك وتحكم وتتحكم فى مصائر الرجال، وكنت أشعر أنه يهيننى لأننى بنــت وسوف أكون عندما أكبر مثل العمة فطوم، وسوف أفعل فى مجالس الرجال ما يحلو لى وسوف أقدر على الكثير.

فتح حقيبته وأخرج منها قطعة قماش ناولها لى، وعلبة صغيرة فيها سلسلة وآية الكرسى من الفضة لسعاد وقلم حبر لشاكر، كانت أول مرة أتلقى منه هدية، علقــت سعاد سلسلتها الفضة فى رقبتها وبدت سعيدة، جرب شاكر قلم الحبر فى الكتابة بخطه المنكوش ونزل المطر، قمنا من وسط الدار ودخلنا المندرة، عاتبته

لأنـه كلف نفسه فقال إنها أشياء بسيطة وجدها فى طريقه وهو يتجول استعدادا لميعاد السفر، زادت رخات المطر ودخل علام مبلول الثوب يتشكى من شدة المطر، سلم وجلس فأريناه هدايا سيد، فتفحصها ولامها لأنه يشغل نفسه بهذه الأمور وكل شىء موجود فى البندر، وزادت حدة المطر، وكان الجو قد تلبد بغيوم عتمت النهار وما توقف المطر.. ساعة أو ساعتين وما كفت السماء عن انزال المطر، نظر فى ساعته بقلق فسألته عن أسباب ذلك القلق، كان قد اعتاد الذهاب إلى دار صالح فى دربهم وكنت لا أعترض، أقول لنفسى يكون على راحته مادمت أراه كلما جاء لزيارة الكفر، لكن الأمر كان يختلف، طرق الكفر موحلة والعتمة مسيطرة وعلام جالس لا ينطق بالمزيد.. قام سيد عاقدا العزم على الذهاب إلى دار صالح:

- استنى ياسى سيد لما النطره تخف شويه، مش قادر أقولك بات مع أخواتك تكسفنى.

قال علام فتشجعت وأيدته:

- ماحدش يقدر يمشى دلوقت، ح تروح فين..؟

تحمس شاكر لرقاده تلك الليلة معه، ومن جديد سكت علام، كنت فى مأزق وكان هو الآخر فى مأزق وكان من المستحيل أن أعرضه لمخاطر السقوط فى وحل دربنا وكل دروب الكفر من أجل ليلة يبيت فيها فى دار صالح، فقطعت الصمت وأجلسته وهلل الأولاد لأننى أفلحت فى التأثير عليه ليبيت فى الدار لأول مرة منذ رأيناه بفضل المطر.

دخل الدرب رمحا والمنصور أمامه، اعترض الرجال المتربصون طريقه فراح يطوح بعصاه فى كل اتجاه، كانوا يتحاشون ضرباته بالابتعاد ثم يتكاثرون عليه بعصيهم فيدور حول نفسه والعصا مفرودة «دوخينى ياليمونة» يتباعدون ويلبدون فى الأركان ومداخل البيوت وجنب الحيطان، سمعتهم يتعجلون عودة المنصور بالبلطة ورأيناه يعدل نفسه ليرى باب دار المنصور الذى ما انفتح، قال البكرى من فوق السطح إن المنصور فر بجلده ولن يعود، كانوا يحومون حول على عوف بجرأة معتمدين على كثرتهم، يكسرون خوفهم القديم منه لأنه كما يقولون أحسن من يستخدم النبوت فى دائرة المديرية، كان وسط الدرب يلعب أكثر

مما يتعارك، أو على الأقل هذا هو ما ظهر بسبب ضحكاته وسخرياته من أمور لا أعـرفها، وهـم يجعرون عندما توشك عصاه أن تطول أطرافهم، كأنه ثور هائج مطلـوق وجمع من الناس حوله وأمامه يبحثون عن مكان المسكة الصائبة بعيدا عن احتمالات الخطر ثم انفتح بابها فتباطأت العصى التى يحملونها ثم استكانت، لا اذكـر أنهـا طالبتهم بذلك، ربما كان فى طلوعها من الباب أمرا محسوسا وربما كانـت لهيبتها أثر على الجميع، تناثروا فى الأركان وتراخت العصا فى يمين على عوف ثم انحط طرفها على الأرض وارتكز عليها، كانت هى تقترب منه على مهل وعلـى وجههـا ترف ابتسامة حسب بسببها أن المعركة قد انتهت عند هذا الحد، نظر إليها بثبات وطرف جلبابه مرفوع بيده الخالية دون قصد، لعله هم بأن يقول كلاما أو جهز نفسه للسماع منها وقد صارت أمامه تماما، لكنه خلافا لكل توقعاته وتوقعـات من كانوا ينظرون وينتظرون تجاسرت وأمسكته بيدها اليمنى من مكان القدرة فيه، بوغت وارتبك وحارت عيناه، حاول أن يتراجع خطوة إلى الخلف لكنه لـم يفلح، عافر ليخلص نفسه دون جدوى، كان فمه المفتوح يفرز لعابا عجز عن السيطرة عليه، أصدر أصواتا مبهمة وازرقت سحنته، احمرت عيناه ثم نخ كجمل جـريح، بركـت هى فوقه، تباطأت حركته أكثر وهى تكز على أسنانها لتستجلب عـزما فـوق عـزمها، تشـنج وارتعش رأسه الذى انفك طرف شاله الملفوف وتدحرجت طاقيته التى على شكل عمامة انقلبت قريبا منه، حسبناه قد مات لحظة أن كف بدنه عن الحركة تماما، تساندت هى على صدره بركبتيها وقامت، مسحت كفهـا المفـرود فى قميصها الملون فوق فخذها اليمنى عدة مرات وابتعدت عنه، بصقت على الأرض وقالت بصوت مبحوح للرجال:

- اضربوه.

تـبادلوا بضع نظرات، ربما قالت نظراتهم إن الضرب فى الميت حرام لكنها أمـرتهم مرة أخرى بحزم فنزلت الضربات فوق بدنه ورأسه المكشوف وظهر لنا أنه لم يكن ميتا، كان ينتفض انتفاضات هزيلة إثر كل ضربة مؤثرة وكأنه قرموط سمك مرمى على الأرض قبل تمام السكوت، أشارت لهم بأن يكفوا فكفوا، اقتربت مـنه بعـد أن شـمرت ساعديها، قلبته فانقلب راقدا على ظهره وتقاطيع الوجه المغلوب مكسوة ببقايا ألم، شالت عصاه من على الأرض واستندت عليها، حدثتهم أو حدثت نفسها:

- كده يبقى انقطع خلفه.

ظهـر المنصـور حاملا فى يمينه البلطة المسنونة تبرق فى ضوء الشمس سألها وكأنه يعرف ردها قبل أن يسأل:

- اقطع لك رقبته؟

لـم تكلـف نفسها عناء الرد واكتفت بأن تشير إليه ليبتعد، ثم قررت وهى تنظر إلى بابها المفتوح:

- دخلوه وسط الدار.

حملوه وأدخلوه فنظرت إلى بكرى:

- طيران ع المركز، بلغ عن قتيل فى الدار واطلب المأمور.

خرج البكرى وخرجوا تباعا، بقيت معها ورأيتها تمزق قميصها بيديها عن صدرها فينتفض متفجرا والبطن عار، طلبت منى أن آتيها بملاءة غطت بها عريها وجلسـت علـى طـرف الدكـة تفكر أو تنتظر، طال الوقت فسكت بابها بالضبة والمفتاح، كان وجهها الحزين فى تلك القيلولة لا يشبه العمة فطوم أكثر مما يشبه ذلك الرسم الذى كنت أراه فى صندوق الدنيا على فترات متباعدة ويسميه صاحب الصندوق «فاطمة بنت برى» التى ضحكت على البدوى.

لسعتنى حلة الطبيخ فكتمت وجعى، كسرت على مكان اللسعة بيضة ولفقتها بقطعـة قمـاش، فاتت سعاد فداريت اليد الملسوعة حتى دخلت القاعة، تشاغلت بتجهـيز العشـاء، سمعت نداء علام يستعجلنى فاستمهلته ليتشرب الأرز، جلست أسـترجع مـا قالـه علام فى عصر نفس اليوم عن سيد «موظف على قدر حاله ويحـتاج المسـاعدة» «أى مساعدة يا علام؟» حرصك على مالك خوفنى وجعلنى أراجع نفسى فى كل شىء وقبل أى تصرف مخافة أن تظن أننى أرسلت إليهم من حر مالك قرشا، كنت أحاسبك بالمليم فتسكتنى وتقول عبارتك المكررة. «المصلحة واحـدة» لكنها أبدا لم تكن واحدة، حساباتك مع أبى كانت مجرد كلام ناعم وورق مكتوب تكسر به عينيه أمام الناس، مازلت أذكر صوته الأسيان الممرور:

- يا بنتى إنتى مالكيش دعوة بحسابى معاه.

لكـنه كـان يتعامل معى على أساس أننى كنت السبب، لم ينتظر كثيرا بعد

موت أبى وأغضبنى، رمانى فى الدار الخراب ما يزيد عن سنة وهو عارف، طلبت الطلاق فما رضى، جعلنى بحسب ما كان يقول للناس مثل بيت الوقف، والآن يلمح لى بسيد، ليته يكف عن المجىء إلى الكفر أو يدخل داره، ربما انخدعت بمعسول الكلام وسعيت بكل طاقتى لأجعل سيد يدخلها، وكيف يتحكم عقلى وأعصابى حتى لا تنزرع فى قلبه الشكوك الجديدة، وهل ألوم أبى الذى رحل أو ألوم العمة التى تخلت عنى فى أصعب الظروف، أو ألوم نفسى لأننى تدخلت بالفعل فى أمر لا يخصنى وتسببت فى خلافات لم تنته ومازالت قابلة للنمو من جديد؟

- خبر ايه.. الرز باينه شاط.

قالها علام وهو واقف قبالتى وسعاد تنزل الحلة عن النار.. تقلب محتوياتها فى إناء آخر، كنت أشعر بدوخة ومكان اللسعة فى كفى يكوينى، كان ينظر إلى سعاد ويهز كتفيه إلى أعلى علامة الدهشة وعدم فهم الأسباب:

- هى مالها؟..

لم يتلق ردا من البنت، ربما لأن البنت نفسها لم تكن تعرف، كانت مشغولة بتجهيز العشاء وإصلاح ما أفسدته وأنا تائهة فى أفكارى، دخل شاكر على عادته يستفسر عن عشاء ويكشف الأغطية ليطمئن، دخل القاعة وخرجت سعاد، وقفت أمامى فى صمت، نظرت على كفى الملفوف وارتكزت على ركبتيها، نظرت إلى فى حنو وهمست:

- إيدك مالها؟
- مفيش..
- ورينى كده.. ياه دى مفأفأه.. حرق؟
- لسعة..
- وسايباها كده؟
- كسرت عليها بيضه.
- بيضة؟ ح أجيب لك مرهم الحروق.
- اسكتى دلوقت، بعد ما يتعشوا.

لم يعجبها اقتراحى وخرجت إلى المندرة البحرية، سمعت صوت علام الذى يمضغ:

- هو انتومش ح تتعشوا الليلة، أمك باينها غضبانه يا شاكر.
- ليه..؟

جاءت سعاد، حطت على مكان اللسعة مرهم الحروق ومن فوقه قطنة وربطتها بشاش، شعرت بالتآكل فى كفى، ابتسمت البنت.. «البنت حبيبة أمها» تشعر بها وتحنو عليها فلماذا تعشق نسوة الكفر خلفة الأولاد ويشعرن بحسرة لخلفة البنات؟.. مدت يدها ليدى تساعدنى على القيام، سبقتنى ووسعت لى مكانا بينها وبين شاكر، كان علام يمضغ وشاكر يمضغ وسعاد تنتظر ناظرة إلى مؤجلة البداية إلى أن أبدأ على عادتها، قال علام من بين أسنانه:

- مالك؟
- مفيش.
- أيدها اتحرقت.

قالت سعاد نظر شاكر باهتمام قليل أما علام فحاول أن يتضاحك أو يضحكهم

- تستاهلى، من ظلمك.
- شمتان؟
- كلى كلى.. تحبى أأكلك؟ زمان كنت باأكلها بايدى.. فاكره يا أم شاكر؟
- فاكره.

ضحك علام، ربما أدرك أننى على غير استعداد للضحك أو حتى سماع الكلام، مددت يدى السليمة وبدأت فى تناول الطعام، لعلنى كنت أدعوها هى لتناول وجبة العشاء.

- هو سيد أخوك بياخد ماهيه كام يا شاكر؟
- ماعرفش..
- صرف كتير فى المولد؟
- مش كتير ولا حاجة..
- المثل بيقول أن كنتوا أخوات اتحاسبوا، ولا رأيك إيه يا أم شاكر؟
- اللى تشوفه.
- الواحد ما بياخدش منك عقاد نافع، أنتى أمهم هما الاتنين واجب تكونى بينهم حكم عدل..

كـــان من الواضح أنه يحاصرنى لأتكلم، كنت خالية الذهن عن احتمالات أن يفتح مثل هذا الموضوع أمام الولد والبنت بهذه الطريقة، كدت أكرر عليه ما قلته بـــالأمس «الولـــد دخل دارنا موظف وليته مادخلها» لكننى منعت نفس من الكلام وعـــلام يكيدنى بضحكاته وحكاياته عن خلق التقى بهم فى الزمن القديم وكانت له معهم نوادر، وكان الولد يضحك والبنت تضحك وأنا أجاريهم وأضحك ربما لا بعده عن معاودة الأسئلة التى ليست لها أجوبة.

بعد العشاء قمت وتولت سعاد ترتيب المكان، كنت وحيدة وخائفة، خائفة أن يفســـد عـــلام علاقـــة الولديـــن، شاكر وحدانى وقليل الحيلة، فرحته بوجود سيد أسعدتنى وفرحة سيد بوجوده أراحتنى، ربما يكون عند علام حق فى استفساراته، شـــاكر كفه مخروم وما فى يده ليس ملكا لـــه، بارع فى الإنفاق على من يستحق ومـــن لا يستحق، وربما مازلت عاجزة عن فهم سيد، وهل هو مثل حسن مستعد للـــتفريط فـــى حقه كما جرى فى الزمن القديم أم أنه ناصح لنفسه، وإذا كنت لم أفهمه وأنا أمه فكيف يطمئن إليه علام؟

بعـــد الصلح الكبير مع أولاد عوف راجت الأحوال، تنازلنا عن دم المنصور وتنازلوا عن دم على عوف، جهز البك سالم كل شيء، حضر المأمرو وابن الباشا الكبـــير مديـــر المديـــرية وحضر من ناحيتهم العمدة مصطفى عوف وعبد القادر وحضر الجد هارون فى آخر أيامه، كانت فرحة أبى لا تعادلها فرحة وكان يحاول فى كل كلمة يقولها أن يؤكد لنا أنه لولاه ما تم صلح وما هدأت الأحوال، عاملناهم وعاملونـــا ردمـــنا على ما فات، تاجر أبى فى القماش وأدخل إلى الكفر «بوابير الجـــاز» وكـــان يتـــندر علـــى أهالى الكفر ممن يرونها لأول مرة بنارها الشديدة وصـــوتها القـــوى «يوش» فى الآذان مثل القطارات فيرمحون خوفا ويحسبونـها عفاريـــت طالعة من تحت الأرض، يخوفهم أبى من انفجارها فيرمحون ويضحك، ومـــن جـــرأة البهنســـى أنه وقف إلى جانب الوابور قال أنه «مخاوى» من تحت الأرض وقلـــبه ميـــت فسماه أبى «البهنسى المخاوى» شغل الحاج مرسى وأبور الطحيـــن فـــأدهش الـــناس، اســـتغنى الناس عن الطواحين القديمة التى تدورها المواشـــى، ولـــم يبطل اندهاشهم، أدخل عثمان المرسى أول ساقية صاج بتروس حديـــد علـــى رأس غيطه فكانت مفخرة قلدها من بعده خلق كثار، شالوا توابيتهم

القديمـــة بـــتروس الخشب وبدلوها بسواق من الصاج تنزح من الماء أضعاف ما يـــنزحه الـــتابوت، واشترى أبى أول كلوب فى الناحية فنور الدكان فى عز الليل وكأننا فى نور النهار، أبدل من يستطيع فانوس داره بكلوب «براتينه» من حرير لا تحرقه النار فكانت أعجوبة الأعاجيب، وتوسع أبى فاشترى مندرة صالحة بنت حســنين الســـاكت وضمها إلى دكانه، تاجر فى النقل والزبيب وجوز الهند وأبى الفرو وما ترك شيئا من البندر يحتاجه الخلق إلا وفره لهم فى الدكان لراحتهم كما كان يقول، زاد الخير فدخلت العمة فطوم شريكة له برأس المال، فتح عزت شلبى خمـــارة للقادريـــن تسهر حتى الفجر وجلب غازية ترقص للسكارى وتأخذ منهم «النقوط» ومن كثرة فلوس الناس لعبوا القمار يخسرون ويكسبون.

كانـــت أمـــى تكـــره عـــزت كراهيتها للعمى «الحيسى» بسبب تلك الخمارة واجـــتلاب الغـــوازى والسماح لمن يدخلونها بلعب القمار، لكن تحذيراتها لأبى لم تغـــير من طباعه، كان إذا رجع مبكرا ليرضيها يخفى زجاجة فى كمه، يناولها لى عند الباب لأخفيها فى مكان وأقدمها له وقت الحاجة، وكثيرا ما كان يرجع فرحانا مـــن عـــند عزت، يفرغ جيوبه المملوءة بالجنيهات وأنصافها وأرباعها وعشرات القروش الورقية والفضية، يرصها وينظمها فى صفوف ويربطها بأساتك ويضعها فـــى خزانة الجدار ويقفل عليها بالمفتاح والقفل، يعدنا بأحسن الجهاز ولا تصدمه أمى:

- وإيـــه اللى مانعك؟ ماتصيغهم وتشترى لكل واحدة سوارها من دلوقت، دانتو اتنين على وش جواز.
- أصل إنتى هبله، القرش فى أيد التاجر بيجيب قرش زيه، عايزانى أحط فلوس فى شوية دهب ونحاس من دلوقت؟

كان يرد عليها متهربا فتسكت عاجزة عن الاستمرار فى معارضته وكان هو ينـــتحى ركـــنا بعـــيدا علامة الغضب، ربما يطلب الزجاجة ويشرب منها جرعات ويسدها ثم يتمدد مكانه دون أن يشعر به أحد، وذات مساء عاد محزونا على غير عادتـــه وســـمعناها تتباكى وهى تلومه ربما فى المرة الوحيدة التى جرؤت على توجيه اللوم له فى كل حياتها معه:

- يامـــا قلـــت لك يا عبد الستار، سكة القمار مكسبها خسارة، ماسمعتش

الكلام، كده فطوم حاتتحكم أكتر وأكتر.

وكــلام كثير قالته ولم يرد.. من بعدها تغيرت عاداته ونادرا ما كان يتوجه لأمى بكلام، كثرت زيارات العمة فطوم لدارنا ونقصت البضاعة من الدكان.

بعدهــا فــتح البكرى مندرة دارهم ورص فيها سراير الحديد بوصة إلا ربع وبوصـــة وبوصة ونصف يبيعها للأهالى مع طبالى العشاء والخبيز والحبال التيل ورءوس الفــئوس وبــاكوات المعسل ثم أقماع السكر وبلاليص العسل وقراطيس الشــاى، يبيع وتجارة أبى تبور، لكنها كانت أزمة زالت بمساعدة جديدة من العمة التى باعت أرضا زود بها الحاج مرسى جنينة الموالح التى يملكها.

أيامهــا بنى الحاج مرسى أول دار بالطوب الأحمر فى الكفر، عمل «أمينة» كبــيرة رص فيها الطوب صفوفا صفوفا بعلو دار وفيها فتحة فى الجنب يشعلون فــيها النار وأخرى لا نراها يطلع منها الدخان، كنا نذهب للفرجة مع ناس الكفر ونــراهم يضربون كفا بكف لأن الطوب الأخضر تلون وازداد صلابة، وعند البناء لأول مــرة علــى السكة الزراعية من ناحية المدافن غوط البناءون أساس الدار وركبوا مكان الباب البرانى بوابة من حديد ملفوف دوائر ودهنوها باللون الأحمر فكانــت داره مثل سراية الباشا الكبير فى البندر وكانت جلسته مع أهله وأصحابه مطــلا مــن شرفته العالية عزوة وقيمة لكل أهل الدرب، وربما بسبب هذه الدار نفســها لــم يجرؤ أى واحد من الأهالى على ترشيح نفسه للعمادة ضده بعد موت الحــاج مصــطفى عمــدة الكفر القديم وتحولت الدار إلى دوار وراحت أيام الجد هارون فما عاد أحد يسهر عنده كما كان من قبل بناية الدوار الجديد.

وكــان مــوت الجد هارون فى هذه الأيام من حسن طالعه فقد شاله الحاج مرســى «شــيلة» عزيز مقتدر، عزانا فيه كل الأكابر، الباشا وأكبر أولاده والبك ســالم ومــأمور المركز ومندوب عن مدير المديرية وكل الأهالى من أولاد عوف وغيرهم جاءوا ليروا بأعينهم الفارق بين ليلة كبيرهم وكبيرنا، ذبح الحاج مرسى الذبــائح ونــور بالكلوبات وأجر مقرئين من الإذاعة وما بخل بشىء حتى صارت ليلــته ســيرة الخلق فى كل كفور الناحية ونجوعها الذين ما كفوا من يومها عن ذكرنا بكل خير.

جهزنا الزيارة ورحنا له أنا وشاكر وسعاد، دخلنا شقته فى الحلمية الجديدة فمــا صــدق عينيه، نسى أننى عشت فى هذه المدينة زمنا قبل أن يولد، كان فى الشــقة ســرير واحــد وعــدد من الكراسى الخيزران وترابيزة مفروشة بروقة وصــفوف متراصــة من الكتب فى كل مكان.. على الأرض والأرفف المعلقة على الحيطان ولم يكن فى مطبخة مواعين ولا صحون ولا أكواب تكفى أكثر من نفرين، وكان يبدو فرحانا أكثر مما كنت أتوقع، تحيرنا فى أى شىء نفرغ السلال فتركناها وعلــى حالها واكتفينا باخراج ما هو ساخن مازال أو قابل للفساد، قلب شاكر فى الأوراق ثم تركها دون اقتناع، وسألته عن الكتب المتراصة فضحك وحدثنى، عن أشــياء ما سمعت بها قبلا ولا انشغلت بها وهو يحدثنى كانت تعجبنى طريقته فى الكلام، مجرد طريقته فى الحماس للأشياء أو ضدها، حدثنى عن الآثار التى يعمل مفتشا بها ووعدنا بزيارة للمتحف والأهرامات، كنت قد زرت الأهرامات فى الزمن القديــم لكننى لم أعترض حماسه، حدثنى عن تاريخ قديم غير ذلك الذى حدثنا به الجــد هــارون، دهشــت وأنــا أسمع عن فراعين وقبط وعرب مسلمين، كنا فى المــدارس نقرأ القليل عن هذه الأشياء ونحفظ بعض الأسماء لنكتبها فى الامتحان لكــنه كان يعرف الكثير ويستشهد بالرسوم والكتابات القديمة للفراعين، تلك التى كان من الواضح أنه قادر على ترجمتها بيسر، وعندما ذهبنا إلى الأهرامات رأيتها معه بشكل مختلف، وفى المتحف رأينا تماثيل تشبه الرسوم فى كتبه وهو لا يكف عــن ذكــر الحكايات التى نادرا ما كنا نسمع عنها وأن سمعنا فمجرد سماع اسم بشكل عابر فى الراديو سرعان ما ننساه، حتى حديقة الحيوان معه كانت تختلف، بــدا لى أننى كنت ازورها لأول مرة إلى حد أننى سألته إن كانوا قد أنشأوا واحدة جديــدة مكــان القديمة فأنكر وأكد أنها كانت منذ البداية فى نفس المكان، ودخلنا ســينما فيها فيلم عربى لعبد الحليم وشادية وإفرنجى فيه ضرب نار، ومسرح فيه نــاس تتصايح وطواف نحيل يلف بالخبز على البيوت أبكانى لأنه ظل حافيا يحلم بحذاء لم يملكه أبدا:

- نشتريله جزمة يا سيد يا بنى.. دا باين عليه غلبان.

ضحك وأشار إلى بأن ألزم الصمت ففعلت، ولابد أننى بوجودى فى الكفر لم أعــد أعرف ما يجرى فى مصر من أفعال ولابد أن أخذ منه كتابا وأحاول قراءته وفهم ما فيه من أسرار.

فـــى اللـــيل قـــبل سفرنا كنا نتسامر، حدثته عن حكايات من تلك التى كان يحكـــيها الجد هارون عن الملك الشلبى فكان يتسمع باهتمام ويستزيدنى فاسترجع مـــا كدت أن أنساه وأقول وهو فى سرحانه يتفكر ويبدو دهشته وكأنه ليس عارفا لأى شىء عن أهله من ناحية الأم، أغاظنى جهله بحكايات الملك الشلبى التى لابد أنها مكتوبة فى أوراق مثل هذه الأوراق المرصوصة كتباً لا حصر لها، سألته:

- معقولة يا سيد يا بنى ماتعرفش تاريخ جدك وأنت بتاع آثارات؟

ضحك قبل أن يطلب منى أن أحدثه عن الجد هارون، ذلك الذى سمع باسمه ولم يلتق به أبدا فحدثته، هز دماغه وسرح بعيدا ثم دمدم:

- شخصية غريبة جدا، جاب الكلام ده منين؟
- قصدك إيه؟ كان حافض زى ما أنت حافض كده.
- بس أنا حافض تاريخ مكتوب، إنما ده.
- قصدك إيه؟

قالها شاكر بعصبية وغيرة على الجد هارون فرد سيد:

- دا أكيد كان راجل عقله صاحى وقادر يخترع لنفسه تاريخ.. كلام يسلى بيه الناس.
- دا غل بقى..

قالها شاكر وقد زادت عصبيته:

- غـــل؟ من إيه؟ هما مش قالو لك إن عيلتنا خدت منكم العمودية وملكت أرض الزمام؟ لأنهم ملوك وولاد ملوك.
- قالوا لى.. بس دا مش معناه..

لـــم يكمـــل عـــبارته ونظـــر إلى شاكر وكأنه يقيسه، كان شاكر فى السنة الإعداديـــة للعام الثانى لا يزال، أصغر منه بعشر سنوات أو يزيد، حدثنى متهربا من الاستمرار فى نفس الموضوع الذى تسبب فى غضبة شاكر:

- نتكلم فى موضوع غير ده.

لا أذكر أننا تكلمنا فى الموضوع نفسه أو غيره، أذكر أن شاكرا كان يشعر بالضيق وكنت بدورى تائهة وعاجزة عن الاعتراض.

كنـــت انـــتظر مجيـــئها علـــى نار فى أيام الإجازات، كنت أشعر بها وهى «تهـــرس» وســـط الدار مرواحا ومجيئا، لا أعرف من فتح لها الباب والكل نيام،

أتســـمع أنفاسها وأميزها وأنا بين النوم واليقظة، أقاوم فرحتى بوصولها وأتمطى قبل أن أتأكد، ربما أحس حركة أمى هى تنزاح من تحت الغطاء «منسلة» فى حذر فأعرف أنها بالفعل جاءت أتابع الضوء المتباعد للمصباح وهو يخرج من المندرة محمـــولا بـــيد أمـــى، أســـمع همسات العمة تحادثها بصوتها الخافت «المغلف» بخرخشات الصحو المبكر، أبعد الغطاء عنى وأقوم لأراها بعودها القصير الممتلئ ووجهها المستدير حازم التقاطيع، أتبعهما فى صمت وأراها وهى تدس يمينها ما فـــوق الكوع فى حلق الزلع، تذوق بطرف لسانها طعم المش وتشير إلى أمى لكى تصـــب لها الماء من إبريق النحاس فتغسل ساعدها وتجففه دائما فى ذيل جلباب أمـــى التى تقدمه إليها فى حماس وهى تقترب منها أكثر، وتثبت فى مكانها حتى تـــتركه العمة، بعدها تنظر فى «برانى» السمن، تتشممها ثم تحكم وضع أغطيتها الفخارية على حلوقها وتعيد ربطها بحذق، تلقى بنظرة خاطفة على مخزون الأرز وتمـــيل بطـــرف عيـــنها نحو كوم البطاطس فى ركن الخزانة تقيسه، تهز رأسها وتخـــرج من باب الخزانة لتدخل ونحن فى أثرها إلى قاعة الطيور، توارب الباب بحـــرص بما يسمح لبدنها بالدخول ولا يسمح لطائر بالخروج إلى وسط الدار فى تلـــك الساعة البدرية التى تسبق طلوع الفجر، تهمس لنا وهى فى الداخل تأمرنا بالـــتمهل عـــند الدخول، أحمل المصباح عن أمى حتى تدخل وتتناوله منى فأنزلق بســـرعة لأسمع صوصوة الكتاكيت وهديل الحمام وفحيح ذكر البط الواقف بجانب البطة الراقدة على البيض خائفا ويخوف، أتحاشى عضات ذكر الأوز العجوز وأنا أتـــابع مع أمى حركات العمة السريعة الواثقة وهى تتحسس بنانى الحمام لتطمئن على الزغليل، وهى تزيح فى خفة الدجاجات والأوزات الراقدة على البيض، أقترب مـــنها بالمصباح فتوسط بإصبعيها البيض واحدة فى أثر أخرى بين عينها وضوء المصـــباح، «تفـــره» وتعـــيده إلى مكانه فى دربة، ترج بعض البيضات فى حذر وتتسمع منها أصواتا قبل أن تعيدها إلى مكانها أو تبعدها ثم تدفع الطائر لاحتضان البـــيض قـــبل أن يـــبرد، تشير إلى فأخرج وأعود مسرعة إلى القاعة وقد حملت حـــزمة برسيم من ذلك الحمل المحطوط على دكة النورج فى وسط الدار، تبعثرها حول جحور الأرانب وتنتظر حتى تطل منها فى حذر قبل أن تخرج بحرص أولا ثم باطمئـــنان وكـــثرة، تنفرش أركان القاعة بالأرانب الكبيرة والمتوسطة والصغيرة

والأصغر، تمسك هى أرنبا كبيرا أو أرنبة وتحك بطرف إبهامها الشعر حول الأنف والبوز وتنظر إلى ما قد يعلق بطرف إصبعها من قشر أبيض دقيق من أثر الحك، تـترك الأرانـب وتـتجه نحو الباب وتخرج فى خفة فلا يفلح طائر فى النفاذ إلى الخـارج، نتبعها وربما يفلت أرنب أو كتكوت من بين قدمى أو جلباب أمى، تحكم هـى أغلاق باب القاعة وتطلع السلم الخشبى إلى سطح «المقاعد» وتمد يدها فى «زالـوع» القمـح، تطمئن على حجم المخزون وتخرج براحتها وفيها حفنة منه نتفحصها بنظرة متأنية ثم تعيدها، تقيس ببصة عابرة كوم كيزان الذرة المحطوط جنـب جدار الغباشى، تقشر كوزين أو أكثر من أغلفتها وتلف كل واحد منها أمام عينيها وكأنها تقرأ فى كتاب ثم تلقى بالكيزان إلى وسط الدار، تتقدمنا نازلة على السلم، أنظر إلى وجه أمى فأحس قلقها وأسمعها تتودد إليها وتحذرها من الدرجة الأخـيرة أو ذلك المسمار البارز مخافة أن يقطع طرف طرحتها أو ثوبها، لا يبدو علـيها أى اهتمام بتحذير أمى وتنزل فى هدوء وثقة، تتشاغل عنا بلملمة بعض الأشياء أو تأمل الجدران حتى تتأكد من نزولنا فتتحرك من مكانها وأمى تؤكد لها أن الـدار زارهـا نبى وأن بركاتها سوف تحل، وربما تعتذر لأننا أصبحنا نكلفها الجهد والمشقة، تهز رأسها وتفتح باب الزريبة، تتحسس فى تؤدة ظهور العجول اللـبانى وعجـول التسمين، ربما تجس جاموسة أو بقرة لتطمئن على «البذرة» أسـرع نحوهـا بالإبريق أصب ماءه لتغسل ساعدها الملوث وأمى تعتذر لها فى حمـاس أو تـتولى عنى الإبريق وتصب لها قبل أن تناولها طرف ثوبها لتجفف يديها وتهمس فى خجل:

- يادى الكسوف ياعمه، وبتعوصى ايدك اللى تتلف فى حرير؟
- دامعاش أخويا يا هبله، ح أتعب لمين أعز منه؟

يشجع أمى ردها غير العصبى فتسألها بلهفة:

- حلوه البهايم يا عمه؟

لا تـرد علـيها وتظـل ماشية فى طول وسط الدار وعرضها، تعدل طاجنا مقلوبـا أو تحـط طوبة مرمية جنب جدار، تلملم كناسة الحطب بمداسها فى ركن وتأمرنى بحملها أمام الفرن، تلم كيزان الذرة التى ألقت بها قبلا وهى فوق السطح وتقـوم بـتفريطها فى آلية وترمى الحبوب فى الأركان، وقبل أن تخرج من باب

«الخوخـــة» إلى صحن الدار البرانية تكون أمى قد أسرعت بفرش فروة الخروف الكبيرة فوق الحصير المفروش، تعدل المسند خلف ظهرها لترتاح فى قعدتها بينما تتكوم أمى فى استكانة تنتظر عند طرف الحصير، تأخذنى هى إلى جوارها وتربت علـــى ظهـــرى فى حنو، يتزايد القلق على وجه أمى تعض هى على طرف شفتها السفلى على عادتها كلما أرادت أن تتكلم فى أمر لا تقبل فيه معارضة:

- دكر الوز خاب، ادبحوه واطلقوا دكرين من البطن البدرية.
- يندبح يا عمه حاضر.
- الأرانـــب يصـــيبها الجرب، ارموا نقلتين رطش فى القاعة وهاتوا لهم قزازة دوا من عند القطار.
- نجيب يا عمه.. حاضر.
- البطاطس تتبدر يا مريم لاجل مايطولهاش السوس.
- نبدرها يا عمه.. حاضر.
- والعجول دول تنصحوا لهم، انتو ح تربوهم ع التبن؟
- بنرش لهم يا عمه فول ورده و...
- الكلامده مش نافع، أنا قلت انصحوا لهم وخلاص.
- ننصح يا عمه.. حاضر.
- زلعـــة الجبنه الكبيرة ملحها ناقص ليه؟ ماتعرفيش تدوبى حفانين ملح رشيدى فى طاجنين لبن رايب وتزوديها؟ اللى ح تنقصيه منها حطيه فى الزلعه أم ودن واحده، ناقصها مش يا مريم.
- حاضر يا عمه.. حاضر نعمل كده.
- وسط دراكم مش نضيف، ح يجيب لكم الواغش، البنات بتعمل ايه طول النهار؟
- باغلب معاهم يا عمه.
- معاشكم ح يخيب يا مريم.
- دى البركة ح تحط يا عمه على ايديكى، سامعه يا شوق؟

تقولهـــا أمـــى وهـــى تنظر نحوى وكأنما تخفف عن نفسها ثقل المسئولية وترميها على أكتاف البنات فتحيط العمة أكتافى بذراعيها وكأنها تدافع عنى:

- شوفى أنتى! الثلاثة راقدين جوه. راقدين لدلوقت ليه؟

تقــول العمة وهى تعدل خصلة من شعر رأسى، أشعر بالفرح لكننى أحزن من أجل أمى التى تعجز عن المجادلة دائما وتحط رأسها فى الأرض وكأنها تلميذة غلطانـــة حطــت وجههـــا فـــى الحائط كما أمرها الأستاذ أو ناظر المدرسة لابس طربوش النسر.

دخلـــت العمة من باب الدار على غير توقع وعلام خلفها، كان سيد يجلس علـــى طـــرف الدكـــة وصالح إلى جواره، كانت العمة تتحرك بعسر فى اتجاههما وتـــتفحص الوجهين، اختارت سيد لتسأله أولا من يكون فجاوبها ثم سألها بدوره من تكون بأدب لكنها لم ترد عليه، جلست بصعوبة على طرف الحصير المفروش واستندت إلى المسند وسيد ينتظر وربما يقدر كبر عمرها ويتعاطف معها، نظرت إلـــى صالح وسألته من يكون فحرك لسانه فى أركان فمه وفتحه ولم يجاوب، بدا وكأنه يستهين بها وبسؤالها فى نفس الوقت، كانت فى نظراته كراهية لم يخلص منها، تطوع علام ورد على العمة:

- ده سى صالح ابن سى حسن برضه يا عمه.
- آه.. وايش جمع الشامى ع المغربى دلوقت؟.. ياحامى..

انـــتفض صـــالح واقفا باحتجاج غاضب وهو ينظر ناحية العمة ثم إلى سيد الذى بدا له حائرا لا يعرف كيف يتصرف.

- قوم بينا يا أستاذ.

قـــام سيد نصف قومة لكن علام أفلح فى إجلاسه مرة أخرى وإن فشل مع صـــالح، وبرغم كل ما سمعه ظل واقفا مكانه وفى عينيه غضب، كنت أراقب سيد الذى بدا لى غير قادر على فهم ما كان يدور حوله، حسم صالح أمر نفسه قائلا:

- أنـــا ح اسبقه ع الدار يا ست أم شاكر، إتهيأ لى مش ح يتوه ف الكفر، اوعاك تتوه ياسى سيد فى بلد أبوك وجدك وجد جدك من قديم الأزل..

خرج وسمعناه يتندر على ما قالته العمة بصوت مسموع:

- قال شامى ومغربى قال.. مين بقى الشامى ومين المغربى؟

كـــان عـــلام يـــدور بـــنظراته فى كل الوجوه ويستجدى من يفاتحه فى أى موضوع.. وعندما سيطر الصمت قطعه:

- أهلا ياسى سيد.. حِمَقى قوى صالح أخوك.

تدخلت العمه:

- ح يتحمق علينا ليه؟

ومــرة أخــرى ساد صمت، كنت أخاصم العمة ولا أرغب فى مفاتحتها فى الكلام رغم دخولها الدار مع علام، عندما جاءت سعاد من داخل الدار تحمل أكواب الشــاى أدهشــها وجود العمة ورحيل صالح الذى دخل دارنا لأول مرة مع سيد، ربمــا لكــى يؤكد لى أنه يخصه أكثر مما يخصنى، أو أنه أراد أن تكون المسألة مجــرد تعريف بالمكان ورفقة عابرة لا تطول، كنت أريد أن أسأل سيد إن كان قد الــتقى بــه صــدفة أو أنه طالع من داره إلى مكان فقام بتوصيله فى سكته، لكن دخــول العمــة كهرب الجو فى أعقاب دخولهما بدقائق لم يتم خلالها إعداد شاى التحــية، كــأن الجمــيع كانوا على موعد لتعكير الجو وسيادة الكدر، شىء ضيع فرحتى وجعلنى لا أطمئن إلى إمكانية تكرار زيارته لى.

قطع علام الصمت الذى سيطر على الجميع بكلام غريب:

- الله يــرحمه جدك عبد القادر كان حاجة تانية، كان قد الدنيا ولا يغلطش فــى حــد أبــدا، إنما سى صالح ده زى ما يكون ما حدش مالى عينه، شوف اتحايلنا عليه قد إيه؟ ودى أول مرة يدخل دارنا.
- أنت صحيت لعبد القادر يا علام؟
- خبر إيه يا عمة.. هو أنا صغير؟

كان سيد يتابعهما بنظراته وكنت أشعر بالقلق لذلك الشكل من اللقاء الذى لا يتيح لى فرصة المشاركة، ويبدو أن سيد نفسه أدرك ذلك فالتفت إلى وابتسم قبل أن يسأل العمة متبسطا:

- ماقلتليش لسه.. حضرتك تبقى مين؟
- فطوم.. سمعت عن فطوم؟
- كتير.
- قالولك عنى إيه؟
- أنا ح أستأذن.

قالهــا وهو يقوم من جلسته وعلى ثغره ابتسامة هادئة، مد يده وسلم على

الجميع رغم اعتراضاتى واعتراضات علام، وعندما خرج كان كوب الشاى مكانه لم يمس وكان المشروب فيه قد فتر أو برد إلى حد يصعب على النفس أن تشرب منه جرعة.

فـــى تلـــك الأمســـيات كانت تبقى عندنا، وكان هو يقفل دكانه مبكرا ويعود حاملا اللفافات الورقية، يناولها لأمى فى زهو ويطلب منها أن تجهز العشاء تجيب «بالحاضــــر» وتغطــس مـــع البنات فى وسط الدار، يجلس أبى إلى جوار العمة ويرحـــب بهـــا فى حماس قبل أن يسألها إن كانت راضية عن حال الدار متوجسا وتجاوبه:

- عاوزاك مستور قصاد العدو والحبيب يا عبد الستار.
- البركة فيكى يا فطوم.. لولاكى.
- أسكت.

تقـــول محـــذرة فينظر ناحيتى ويسكت، ثم يحادثها فى أخبار الناس وما قد يكـــون قد جرى فى الكفر من أحداث، يفتح لها سيرة الدكان وما يكون قد أضافه من أصناف جديدة وتلك التى كف عن المتاجرة فيها، تحذره من القعاد فى خمارة عـــزت شلبى فيطرق فى حيرة حتى تنحط طبلية العشاء وفوقها الصينية الكبيرة، يضع أمامها طبق «الزفر» الكبير ويهمس فى تبسط:

- فرقى ع العيال يا فطوم.

تمد هى يدها وتبدأ فى التقطيع، تبدأ به والبنات ثم تضع نصيب أمى وتقول عبارتها المألوفة للجميع:

- اللى منابه صغير يقول.

لا يقـــول أبنا شيئا عن نصيبه، ربما لأن تلك الأمسيات التى كانت تشاركنا فـــيها وجبة العشاء يكون النصيب فيها مضاعفا ونادرا ما كانت الواحدة منا تقدر علـــى إكمالـــه، ينتهى العشاء وتقدم أمى محتويات الأكياس التى جاء بها أبى من دكانـــه، أكـــثر مـــا كنت أحبه أن نتحلق فى الشتاء حول راكية النار ونشوى «أبا الفـــرو» أســـمع طقطقاتـــه وأرى قشرته وهى تنفتح وأصبح من السهل الخلاص منها، وتلك الحلوى المخلوطة بالحمص والسمسم على هيئة أقراص وأصابع، كنا نشـــبع فى تلك الأمسيات أكثر، وكانت هى تحكى تلك الحكايات التى لا تنتهى أبدا

عن جدها الملك الشلبى الذى حكم الدنيا المسكونة زمنا، والذى كان يرسل فى كل ركـن من أركانها أميرا من نسله يحكم بالعدل ويحاسب الظالمين، تقول إن نسله كان كثيرا إلى درجة أنه كان لا يعرف له عددا، وأنه كان نسلا من الرجال فى أول الأمر حيث كانت كل خلفته صبيانا، وتؤكد العمة أنه برغم كل ما كان يملكه وكثرة خلفـته يشـعر بالحزن ويبكى، وعندما نسألها تقول إنه كان يشتاق إلى خلفة من البـنات ويرى أن الدنيا ظلمته ولم يحقق فيها مرامه، يسألها أبى كيف؟ فتجاوب علـى الفور بأن الملك الشلبى كان يقول لأكبر أبنائه إن البنات جذور فى الأرض يصعب اقتلاعها وإن الأولاد فروع مهما قويت سهلة التكسير، وتضيف وهى تنظر إلـينا بحـب إن البنت أم وماعون والولد ريح طيار صعب الاحتفاظ به، كنا نفرح بـتلك الحكايات ونتباهى بأننا بنات، نفرح أكثر لأن الملك الشلبى خلف من البنات أضـعاف خلفـته من الأولاد، تسألها أمى بعد تردد عن أملاك الملك الشلبى فتبلع ريقها وترد بأنه كان يضع الذهب فى صناديق كبيرة يملأ بها خزائن أصغرها فى حجـم مندرتنا الكبيرة، أذكر أنها قالت عنه أو عن ملك من نسله أن قصره الكبير كلـه كـان مبنـيا بطوبة من الذهب وطوبة من الفضة، وكانت نصف ثياب بناته وحـريمه من الحرير الهندى والتى لا تشبه ثياب الخلق فى زماننا، تسألها نعمات بجـرأة إن كانت واحدة من بنات بناته احتفظت بواحد من تلك الثياب، فتحكى أن جدتهـا احتفظت بواحد منها فى صندوقها وهى فى أرض البرارى، وأنه حدث أن سطت على بيتها هناك عصابة من اللصوص وحملوا الصندوق بما يحويه فظهرت أمـامهم وقايضـتهم ببعض مصاغها من الذهب مقابل الصندوق، وأن اللصوص حسبوها امرأة بلهاء لأنها ضحت بالذهب مقابل بعض الثياب القديمة فى صندوق لا يسـاوى، لكنهم أدركوا الخدعة عندما باعت جواهر الثوب المخبوءة فى طياته كل جوهرة بمال لا يقدر، ذلك أن الجواهر كانت مخفية بطريقة لا يعرف سرها إلا صـاحبة الـثوب بنفسـها، تقـول العمة إن جدتها تركت أرض البرارى وجاءت لتشـترى زمـام الكفر من أولاد عوف الكبار ودفعت الثمن ذهبا خالصا لكنهم بعد موتها أنكروا الأمر وعاركوا أولادها وأولاد أولادها.

كنا نغضب من أولاد عوف ونود لو كنا رجالا لنعاركهم ونأخذ منهم ما سبق

وأخـــذوه بـــالقوة واستعادوه ظلما، لكننا كنا نفيق على حقيقة كوننا بناتا والعمة نفســـها امرأة لا تقوى على حرب الرجال، وأحياناً كانت العمة تنسى وتحدثنا عن اعـــتزاز جدها بذكورة نسله ويتباهى بهم قائلا إن ذراع الولد سند وعون وسلاح وأنـــه بهـــم حكـــم الدنيا، وأن البنات هم وعار إن غفل عنهم أو سرح بعيدا عن أرضه، وعلى المرأة أن تعوض ضعفها بالحيلة والدهاء، كنا نحتار فى أمر الملك الشـــلبى، هل كان يحب خلفة الصبيان أكثر أم خلفة البنات، ونسألها عن بلده تلك الـــتى تحكى عنها فتشرد بنظراتها إلى البعيد وتحكى عن بلاد بعيدة يحيطها نهر وبحـــر بـــلا قرار وعلى أطرفها صحراء ممتدة وبرارى براح، تحكى عن مخاطر الســـكة إلـــيها واســـتحالة الوصـــول إليها فى الطرق المسكونة بالذئاب والثعالب والســـباع، تحرص على أن تؤكد أن برارى أرض الملك الشلبى غير تلك البرارى الـــتى جاءت منها جدتها التى اشترت زمام الكفر بالذهب وتلك التى يسكنها البك الشـــلبى، يـــبدو علـــيها التعـــب مـــن كثرة الأسئلة وتتوه أحيانا بين الرغبة فى الاســـتمرار أو الســـكوت بعد أن تقول عبارتها التى اعتدنا سماعها فى مثل هذه الحالات:

- وجعتوا دماغى بقى.
- أحكى لكم عن عمتكم فطوم أيام زمان.

يـــتدخل أبـــى بحمـــاس فنعرف أن دوره فى الحكى قد جاء، كان يحكى عن صباها وشبابها الذى لم نشهده، وكيف إنها كانت بألف رجل، عن جمالها الساحر وفتنـــتها التى تسحر العابد، وكيف أنها مازالت قادرة على تعمير بيوت وتخريب دور الكارهيـــن الظلمة أن فكروا فى معاداتها مهما بدا للخلق أنهم أقوياء، وكان ينظر إلى كل واحدة منا ويباهى بأنها أخذت من العمة شيئا:

- نعمـــات واخـــده مـــنك النضـــافة يا فطوم، شاطرة فى الطبيخ والعجين والخبيز وكافة طلبات الدار.
- جواهـــر بنتى عزم وصحة، أهو من غيرها لا نطحن ولا نغسل حب ولا نعرف نترب لمواشى ولا نشيل سباخ.
- عطـــيات ســـهتانة وواعية ولا يفوتهاش فايت، القرش ع القرش وفى الحساب لبلب، يقول نمسكها مصروف الدار من دلوقت هىء – هىء.

يضـــحك فتضحك، لا يقول عنى شيئا لأنها تسبقه. تحوطنى ذراعيها كأنها

تحمينى من خطر لا أراه وتقول:

- شوق دى حته منى.

أشـــعر بالزهو أكثر من كل البنات، التصق بها أكثر حتى يحين الوقت الذى تفكـــر هى فيه أن ترحل، تقف وتحبك طرحتها حول وجهها وتتغطى بالملس وهم يطمئـــنونها بـــأن السـهرة لــم تبدأ دون جدوى، تخرج ويخرج أبى فى أعقابها ليوصـــلها حـــتى تدخل دارها، وعندما يعود لاهثا يحدث أمى بصوت خافت وكأنه يذيـــع ســـرا أعلـــنه على مسمع منا عشرات المرات وإن كان يخشى أن تسمعه الحيطان التى بها أذان مستورة لا نراها:

- دى رسمالنا دلوقت يا مريم، قرشها فـ عبنا ولا لناش حد غيرها..
- عارفه يا خويا.. عارفه.
- أوعى تزعليها يا مريم بكلمة كده ولا كده.
- يـــالهوى، دانـــا لجـــل خاطرك أحطها فـ حبابى عنيه وأعمل لها خدى مداس.
- إن جـــرالها حاجـــة بعيد الشر كله ح يبقى للبنات.. فطوم مهياش هبله تضيع شقاها على حد غريب..
- عارفة يا خويا.
- سايسيها يا مريم ولا ترديش عليها غير بكلمة نعم وحاضر.
- حاضر.
- البنت شوق تروح تبات معاها الليلة الجاية، تسليها.
- حاضر.. تروح.. وماله.

رأيـــته فى المنام يوبخنى، يخطف مصاغى ويرمح فوق سطوح الدور وقد خلص من عجزة وقام، يدخل خمارة عزت شلبى ويلعب بالورق وأنا أرمح لأخلص ذهـــنى مـــن بين أصابعه، يقامرنى رغما عن أرادتى فألاعبه «الكومى» وأخسر، أبكى وأتضرع لـــه أن يعيد إلى مالى المخطوف ويعاندنى، يعايرنى بخلفتى الأولى ويهددنـــى بخطـــف الولد الثانى إن ظللت أبكى، أسعى لأمى وأحيلها عليه ترجوه حيـــنا وأرجوه حينا، وهو يتضاحك فرحانا لأنه أمتلك، استعاد ماله الضائع بمالى وحوط عليه فى مقبرة، أمشى سكة المدافن وقد فشلت، أتباكى مع أمى، أقول لها

إنـــه لـــو كان أبى ما خرب حياتى مرتين فتواسينى وتمزق ثوبها فأدارى عريها بشـــالى وأظـــل أبكى وأبكى وأدعو عليه وقد نالنى التعب، أستند على جذع نخلة فأراه على مقربة من يكيدنى ويزود همى وعلام واقف وقد احمرت عيناه يسألنى عـــن ماله الذى أضاعه أبى، يجف ريقى من كثرة النداء ولا يرد وأقوم مفزوعة أصرخ طلبا لجرعة ماء.

كانـــت تكـــره فـــى السابق خلفة البنات، قال أبى إنها أشارت عليه ليتزوج أخـــرى تنجـــب الولد وإنه طاوعها وهجر أمى لسبع سنوات وأدعى أنها انقطعت خلفتها، ولما طالت عشرة الأخرى التى لم نرها ولم تنجب لا بنت ولا ولد أشارت علـــيه لـــيجرب مـــرة أخرى فلم يوافقها، هل قال أنه طلق الأخرى أو أنها ماتت بحسرة؟ تاهت من ذاكرتى حكاياته القليلة عنها وما تبقى غير مرارته عند ما كان يحكى عن خصام العمة له زمنا، كان يحرص على أن يقول لنا:

- فطوم كانت عايزه مصلحتى يا ولاد، وكل شىء نصيب.

يسكت فترة ثم يقول:

- صـــعبت عليا العشرة معاكى يا مريم، أهو لو ماكانش حصل اللى حصل ماكناش شفنا عطيات ولا شوق.

كانـــت أمى تغضب على روحها وتبدى أنها سامحتها من زمن، تحسب أنها ترضيه وكلنا يعرف أنها ما سامحت ولا غفرت لها أبدا، صحيح أنها كانت تطاوع وتمـــتدح وتقبل كل ما تشير به العمة دون اعتراض تنفيذا لوصاياه، وكنت أنتظر منها أن تعترض مرة أو ترفض أو حتى تثور فى وجهها لكنها لم تفعل أبدا، ظللت أنـــتظر دون جدوى، وكنت أغتاظ منها عندما تقبل منها محاولات الإذلال وتسكت فأوشـــك أن أطالبها بعدم السكوت ولا أجرؤ، ما كان يزود وجعى من ناحيتها أنها كانـــت تضـــعنى وأنا ابنتها فى صف العمة، سمعتها بنفسى تحذر البنات بصوتها المهموس المحاذر:

- شوق دى عيّلة ماتعرفش، ما حدش منكم يغلط قصادها بكلمة لا تنقلها لهـــا، يامـــا نفسى أشوف فيكى يوم يا فطوم يا بنت بهانه، سبحانك يا خـــلاف الظـــنون، أهـــى لا طالت ولد ولا بنت، اتفرعنت بالكلام وبس، عاشت وبكره تموت وهى بتتمنى ضوفر عيله عميا ولا هياش ح تطول.

عـندما أحست أمى بوقع خطواتى بان فى عينيها الفزع وكأننى هم الموت نـزل علـيها علـى غـير توقع، وسرعان ما غيرت نبرات صوتها وتعمدت أن تسمعنى:

- عمتكم فطوم يا بنات ما فيش أشطر منها فى الدنيا دى بحالها، شملوله وكلمتها صايبة، بس يا خسارة..

جلسـت إلـى جوار نعمات وكأننى أحتمى بها من ظنون أمى التى أجبرت نفسـها على الكذب خوفا منى وأنا التى أعشقها وأكره ضعفها، وعندما تحسست نعمـات ظهـرى فى حنو وكأنها تواسينى انفتحت فى البكاء بحرقة، سألتنى أمى والبنات عن السبب قلت أن كلاب «الواطيه» طاردتنى وأنا راجعة وخوفتنى، كنت بـالفعل خائفـة لكنـنى أيضا كنت غاضبة لأننى عجزت عن تخليص الصدق من الكذب، ربما كنت أرغب فى البوح بأسباب بكائى ولا أستطيع.

فـى الليل جلست مع البنات وهن يستعدن ما جرى للعمة التى مازالت أمى تريد أن ترى فيها يوما أكثر مما رأت، كانت قد تعذبت فى الدنيا دون ذنب، دارت علـى الحكمـاء والمشايخ والأولياء سعيا وراء الحلم فى الإنجاب دون فائدة، لم تسـمع عـن شيخ إلا وزارته، ودفعت ثمن الحجاب وفك السحر المكتوب لها بلا جـدوى، راحت لحكيم البندر وحيكم طنطا وكفر الشيخ فوصفوا لها حبوبا ولبوسا وشرابا مرا مثل العلقم كانت تشربه على كره منها عسى أن يكون فيه الشفاء ولم يـنفع، تمرغت أمام أمى والبنات فى حوش زاوية أولاد عوف قبل الفجر بساعة، حطـت بدنهـا بين قضبان قطار مر فوقها وشيب خصلة من شعر رأسها، كنست مقـام سيدى الأربعين وأطعمت مساكين الدرب لحما وأرزا ووزعت عليهم مقاطع القمـاش عشـرات المرات، دقت مسمارا فى لحد طفل مسلم وقت صلاة الجمعة اليتـيمة، رشت ماء الورد وماء الزهر على مدفن نصرانى أسلم فى الكفر ومات، بالت على شاهد قبر امرأة عاقر لم تنجب، ظلت تحنو على أطفال الناس وتملأ بهم دراهـا، تطعمهـم وتسقيهم السكر المبلول، استخدمت صوفة وعرت جسمها لبدر الـتمام، شـاف فيها أهل الكفر أياما لكن أمى لم تشبع، كانت تعايرها من بعيد.. لبعيد بوحدتها وهى تتكلم عن خلفة الأخريات، وحدثتها مرة بنغمة إنكار عن أحد أزواجها السابقين وكأنها تريد أن تؤكد تصديقها لما سمعته عنه:

- الخلــق فى كفرنا بيولدوا البغلة، قال إيه يا عمة شافوا المخفى درويش شلبى فى البرارى ومعاه عيل بيقول عليه ابنه، مش كان كشف والحكيم قال إن مالوش فى الخلفة زمان وإنتى وياه؟

شــردت هــى لحظات، علها تذكرت خلالها الرجل الذى عاشرته زمنا مثلما عاشرت غيره بلا ثمرة، لم تستنكر الخبر ولم تسلم بصدق حدوثه:

- كل حى بياخد نصيبه يا مريم، أهو كلام وربنا يسهل لعبيده.

ليلــتها أخذتنى معها كما كانت تفعل فتحمينى وتمشط شعرى وتلبسنى ثوبا جديدا تكون قد اشترته لى وحفظته فى صندوقها، تطعمنى من سد الحنك وتحدثنى عــن أشــياء لا أعرفها وتجاوبنى مهما كثرت أسئلتى، لا تشكو من وجع الرأس أبــدا، تجعلنى أتمدد بينها وبين الحاج فرج، أغفو وأصحو لأجدها وقد أخذتنى فى حضــنها، وعندما أتقلب تجذبنى مرة أخرى إلى صدرها الناعم وتقبلنى لأطمئن ثم تهمس لى وقد أسبلت عينيها:

- قولى لى يا أمه.

أقــول فتشــدنى إليها أكثر إلى درجة أشعر فيها بالألم، ينكتم نفسى عندما يندفس فمى وأنفى فى لحم صدرها الطرى، أعجز عن تخليص روحى وأشعر بيد الحــاج فــرج وهى ترخى يدها التى تحيط برأسى وهو يهمس معتذرا لها وخائفا على:

- على مهلك يا فطوم.

تخفــف مــن مسكتها وتربت على ظهرى فأنام وأصحو، أشعر بقطرات من عــرقها الدافئ تتساقط على شعرى ووجهى، أسمع همسها فحيحا لا هثا لا يشبه صوتها المألوف:

- قولى لى يابت.. قولى لى يامه.

تكــررها عشــرات المرات فأناديها بأمى وهى لا تكف عن الرجاء، كأنما لا تســمع صــوتى، يسكن بدنها بعد انتفاضة يسيرة أحسها ويبقى اللهاث المتتابع، يمســح الحاج فرج قطرات العرق عن وجهها ورقبتها، ربما يحملنى إلى مؤخرة السرير العريض، وربما أشعر به يغطيها ويتغطى، ربما أسمع صوته يحادثها ولا

تـــرد، وربمـــا أنام ولا أصحو إلا بعد الفجر بساعة فأراها تبتسم لى وقد استحمت وابيضت أكثر فى قميص جديد لم أشهده قبلا، لا تلومنى على الصحو المتأخر فى تلــك الأيـــام، وربما تطالبنى بمعاودة النوم فى حضنها فأنام وأنعم برطوبة البدن المستحم.

دخلــت عـــنايات بنت أم بكرى من باب المندرة مدفوعة على غير عادتها، كانـــت تنهج وتلتقط أنفاسها بعسر وتدور بعينيها فى تردد، كأنما فاجأها أن ترى علام، انطفأ حماسها وكادت تخرج وهى تتلعثم فى كلماتها:

- كنت فاكراكى لوحدك..

ناديـــتها وناداهـــا عـــلام فوقفـــت عند الباب حائرة ومترددة، شجعها علام لتتخلص من ارتباكها عندما رأته:

- مـــالك يابت، متبرجلة كد ليه؟ البلد نزلها مفتشين التموين ولا انحطت عليها داهيه؟
- لأ.. مفيش.. أصل..

قلت أطمئنها:

- أقعدى يا عنايات وخدى نفسك، حصل إيه؟
- أصل فيه ضيف عايزك أنتى.. ف دار أبوكى.

تبادلـــت نظـــرة مندهشة مع علام، أى ضيف؟ وفى دار أبى التى لا أدخلها بأمر علام، لو كان من الكفر لجاء إلى هنا فالكل يعرفون، لابد أنه غريب.. ولابد أننى كنت قد أوشكت على لومها لأنها تعرف فبادرت تدافع عن نفسها:

- مـــا أنـــا عارفـــه أنك ما بتروحيش هناك، بس هو محكم دماغه، أهو مستنيكى هناك.
- وده مين بقى النبى حارسه اللى محكم دماغه كمان؟

قلت بإنكار وأنا أرقبها وأتشكك فى وعيها فردت دفعة واحدة لتتخلص نفسها من الموضوع:

- ســيد.. ســـيد ابـــنك.. دابسم الله ما شاء الله بقى راجل، طول وعرض وعليه القيمة، قلتى إيه؟

لــم تنـــتظر جوابى وتسللت من المكان كأنما تهرب من النظرات والموقف الــذى لا تملك فيه حق إبداء الرأى.. «وما على الرسول إلا البلاغ» كما يقولون، نظرت إلى علام فوجدته مطرقا وكأن الأمر لا يعنيه أو يعنيه إلى درجة أنه ينتظر مــنى أن اســـأله السماح لى بأن أذهب إلى دار أبى تلك التى امتنعت عن الذهاب إلــيها تنفيذا لا رادته، رفع رأسه فى تكاسل ونظر إلى ملياً، لعله أراد أن يتكلم ثم تراجع:

- ح نعمل إيه؟

سألته بحذر فرد:

- كيفك.

كانــت قد مرت سنة أو يزيد منذ تعارك مع أمى بسبب رغبته فى أخذ جزء من الدار يوسع بها دكان ويعمل مخزنا للبضائع سدادا لبعض دين أبى القديم لكنها لــم توافق، طالبها بميراثى فامتنعت، تمنى لها الموت وتطاول عليها فلم تسكت، انقطــع بينهما حبل الوداد تماما وكان الاختيار أمامى، إما أن أخرب على روحى مــن أجلها أو أميل مع الريح حتى تهدأ الزوبعة وترجع المياه إلى مجاريها، وقد أراحتــنى هــى عــندما بعثت عنايات لتسر إلى على لسانها عبارة واحدة مازلت أذكرها:

- دارك وعيالك أولى بيكى.

ربمــا كانت وصيتها قد جاءت على راحتى فهززت رأسى علامة الموافقة، أصــبح من المألوف أن ألقاها فى دور الغرباء، أم بكرى أو واصفه أو النبوية أو أى واحدة من دور الدرب، قطع على صمتى بعبارته:

- مستنيه إيه؟ قومى البسى.

ترددت فأصر فقمت، أخذت سعاد معى وسمعته يقول مودعاً.

- ح احصلك.

كنــت بيــن مصدق ومكذب والبنت تسبقنى فأستمهلها حتى وصلنا إلى باب الدار المفتوح، رأيته واقفا قبالتى وأمى تتنفس بارتياح وهى تنظر ناحيتى:

- أهى جت.

واجهــنى الولد الذى أخذوه منى وغاب أو غيبوه، كان يتأملنى وأتأمله فى

صــمت، وجهــه الباســم يدارى حزنا مدفونا خلف تقاطيعه، والعود فارغ وصلب يســكنه جرح نزف على امتداد عمره، هل بكيت أولا أم أن عينيه دمعتا قلبى؟ لا أذكــر، أذكــر أننى أخذته فى حضنى بفرح وتحسست بدنه وأنا أتذكر قطعة اللحم الطــرى الصــارخ يوم أخذوه منى آخر مرة، ربما أكون عاتبته على اختيار مكان اللقاء فى هذه الدار الخراب واحتجت أمى، وربما تكلم هو عن أصول يرعاها فلم أعلق على كلامه، رحت أتامله ويتأملنى قبل أن ألومه لأننى سمعت أنه ذهب مرة إلى دار صالح ولم يفكر فى زيارتى، لعله شعر بالخجل فدافعت عنه أمى:

- كان جاى مع أبوه يعزوا فى ابن عم أبوه.

نظر إلى سعاد وسألها:

- فى سنة كام؟
- سنة رابعة..

لم يعلق.. دخل علام سلم بحرارة اراحتنى وهو يتمتم:

- ما شاء الله..

تبسط علام ووجه الحديث لأمى فردت عليه بنفس البساطة وقلت لنفسى هى بشــرة خير أن يصالحها يوم زيارة سيد، سأله علام عن مدرسته فضحك وأوضح أنــه أنهــى دراســته فى الجامعة منذ عامين وأنه موظف، سأله عن مكان عمله وعنوانه فكتب لـــه كل شىء، كان من الواضح أنه لا يعرف علام ويناديه أو يرد عليه قائلا له:

- يا حاج.
- حاج إيه؟ أنت مش عارفنى؟ اعتبرنى خالك علام بلاش جوز أمك. طيب بلاش دى، مش كان يصح برضه تروح لأمك دارها؟
- أصل..
- أصل إيه وفصل إيه يا بنى.. داحنا قبل كل شىء أهل، قومى يا ست أم شــاكر واســبقينا ع الدار، عاوزين نتغدى غدوه حلوة من أيديكى، ح نحصلك.

أذكــر أنـــنى قمــت وانتظرت ساعة ولم يحضر سيد أو علام ولا بعثوا لى مرسالا يعفينى من الانشغال بغداء لم يكن له منه نصيب.

اعــتدنا مــن جواهــر أن تجلــس وحيدة على أول درجات السلم أو على «الحصــير» أو فــى صــحن الدار، حافية القدمين غالبا، وثوبها متسخ بالأوحال والروث، ونادرا ما كانت تشاركنا جلساتنا الليلية فى المندرة أو القاعة، يتذكرونها عــندما يحــتاجون إليها فينادون أو يبعثون إليها لتجيء تطلب منها أمى أن تملأ الزيــر مــن مــاء الترعة أو تأمرها نعمات بغسيل الحبوب فيها، يطلب منها أبى تتريب الزريبة فتهز رأسها علامة الموافقة وتبدأ العمل، تغطس فى وسط الدار أو تــنزرع فــى داخل الزريبة لساعات وساعات تفرش الرماد تحت حوافر العجول والجاموســة «الحلابة» وتكوم «السبخ» فى ركن حتى يدخل ابن الزناتى بالحمير ويقــوم بتحمــيله ونقله إلى الغيط، ربما يفوت موعد الغداء أو العشاء وهى فى الداخل دون أن يذكرها أحد وعندما يتذكرونها يتحدثون عن التعب الذى لابد وأنها بــه شعرت والشقاء الذى احتملته دون اعتراض أو شكاية، كانت تأتى من الداخل تنفــيذا لطلــب أو ردا على نداء بثوبها الذى شمرته وجعلته مربوطا إلى وسطها والعــرق ينز من عنقها ولو كنا فى عز الشتاء، يطالبونها بأن ترتاح وتكف عن الشــغل فــتكف، تجلس فى أحد الأركان فى هدوء وتبدو للصغير والكبير جاهزة لــتلقى الأوامــر وتنفيذها دون مناقشة، مفصولة عن أهل الدار وكأنها ليست من لحمــنا ودمــنا، كانت تبدو لى غريبة بالفعل عنا، غريبة ومختلفة بشكل ملحوظ، ونــادرا مــا كانت تستحم دون عراك مع أمى أو العمة أو حتى نعمات التى كانت تعايرها بعفونة ثيابها والكسل: لا أذكر أنها لبست أمامى ثوبا جديدا يخصها، ربما كــان «الخليع» أما ما تستغنى عنه أمى أو تخلعه نعمات هو كل كسوتها، وربما كان أبى مسئولا عن ذلك لأنه قبل دخول الأعياد ومواسم الكساء كان يطيب له أن يرتب الأمر معنا، يتحدث عن نواياه وعدد الأمتار التى سوف يأتى بها لكل واحدة، كــان يذكرنا جميعا وينساها حتى عندما تنبهه العمة أو أمى بجواهر يدارى خجله بعبارة حفظناها وتندرنا بها من كثرة تكرارها:

وهو معقول أنسى جواهر؟ دى جواهر.

لكــنه كثيرا ما كان ينساها أو يتناساها، يتصادف أن تكون معنا بدعوة من الكبار لترى قطع القماش وألوانها ولمن اختارها أبى، ونادرا ما كان يظهر لنا أن لجواهر نصيبا مثلنا، حتى لو لامته العمة يضحك وهو ينظر إلى جواهر ويقول:

- أصل جواهر دى عاقلة، هى اللى فيهم، ماهيش بتاعة كلام فارغ من ده

تلبس من هدوم أمها أو هدوم نعمات، مش كده يا جواهر؟ قلبها على أبوها وعايزة توفر له.

يقول ويضحك وربما نجاريه ونضحك فتضحك ولا تبدى أى اعتراض أو احتجاج حتى نوشك أن نصدق أنها بالفعل الوحيدة العاقلة بيننا، لكنها فى الحالات النادرة والتى يقدم لها أبى قطعة من القماش تخصها، كانت تقلب طرف القماش بين أصابعها بفرح وتسأل الجميع كان لونها يليق بها وتتلقى الأجوبة، تبدو سعيدة ومنشرحة لساعة أو ساعتين ثم تشير إلى نعمات أن تقترب منها لترجوها وهى تحوطها بين يديها وكأنها تستجديها:

- يا ريت تفصليها عليكى.

كانت نعمات لا تعترض لأنها تفعل نفس الشيء فى ثياب أمى التى تفصلها على مقاسها، الفارق الوحيد هو أن أمى كانت تأخذ ثيابها الجديدة بعد تفصيلها وتجريبها على نعمات، أما جواهر فكانت تنتظر إلى نعمات وهى تقيس ثوبها الجديد، ثم تقول لنفسها:

- حلو عليها خالص.

وبعدها توجه كلامها لنعمات:

- مبروك عليكى.. أنا وأنت واحد.

ومهما حاولت نعمات إفهامها أن لديها ثيابا جديدة لا تقبل أخذ الثوب منها أبداً، قد تترك المكان إلى وسط الدار فرارا من الإلحاح أو تطلب من نعمات البديل من الثياب القديمة:

- إبقى إدينى بداله القميص أبو وردة زرقة.

كانوا يتبادلون النظرات ويؤكدون أن هذه البنت فيها شيء لله وزاهدة فى الدنيا، كنت أشعر بالخوف منها فى بعض الأحيان، تطمئننى نعمات وهى تسخر منها بجرأة:

- دى عبيطة ومعفنه وتلاقى القمل بيشغى فى راسها من كتر الوساخة.

كنت أصدق كلام نعمات وأتخيل أن رأس جواهر المربوط دائماً بالمنديل والذى نادراً ما تحل ضفائره لابد وأن يكون فيه قمل؛ حتى يجبرونها على

الاستحمام أو غسيل رأسها تحت الطلمبة فأرى شعرها المحلول طويلا وناعما وغزيرا وهم متحمسون فى تمشيطه بحثا عن حشرة واحدة ولا يجدون، لا تغضب منهم مهما قالوا عنها، وتقوم بكل الأعمال الصعبة فى الدار، تحمل قفف القمح المغسول والذرة وتطلع بها إلى السطوح، تفرشها على الملاءات والأحرمة والحصر حتى تنشف فى الشمس قبل النقاوة والطحين تقوم بتنزيلها وتنتظر حتى تنقى القمح من الحصو والكحريد لكى تحملها قفة وراء قفة إلى الطاحونة عدة مرات، تطحنها وتعود بها دقيقا ناعما وقد تعفرت، كنت أذهب معها أحيانا فأراها وهى تهيد فتحة الطاحونة الصاج براحتيها بعنف وقوة لينزل كل دقيقنا من الفتحة ولا يتبقى منه شىء مركون فى «القادوس»، كانت أمى ترضيها يوم الطحين بعبارة لا تتغير:

- أخرتك ح تبقى بيضه زى الدقيق العلامة.

تفرح جواهر وتبدو كما لو أنها لم تتعب طوال النهار، وكثيرا ما كانت تتطوع فى الصباح التالى بتجميع روث البهائم فى حفرة وتضيف له نخالة التبن الناعمة وترسه بقدميها هرسا متواصلا، وربما فى الليل ترصه أقراصا جديدة فوق القديمة أو فى فراغات السطح وتهمس للأم بأنها جهزت للخبيز وقوده فتدعو لها بالستر وعدم الفضيحة.

وكانت هى الوحيدة التى تجرؤ على ربط العجول المحلولة فى حلقاتها إذا انفكت حبالها، حتى أبى لم يكن يعرف كيف يقود عجلا معلوفا أو يسايسه كما كانت تفعل، بارعة فى سقاية المواشى وتقديم العلف لها فى الأوقات المناسبة، وكم وعدها أبى بمكافأة نظير جهدها فى الدار ونادرا ما كان ينفذ أو يوفى لها وعده، كان يكفيها سماع كلمة طيبة منه أو ربتة على كتفها.

وعندما كنا نجتمع ساعة العشاء فى المواسم كانت تأتى تنفيذا لاستدعائهم، تجلس على مقربة من الطبلية عند طرف الحصير وتمد يدها برغيف جاف لتضع لها أمى نصيبها من الغموس أو «الزفر»، وفى كل مرة كانت تتعلل بأن ثوبها ليس نظيفا أو أن قدميها قذرتان أو أن يديها متسختان، كانت تأخذ نصيبها المقسوم وتغطس فى وسط الدار، ربما تبلعه بلعاً أو تداريه فى مكان، لكنها تعود بسرعة وتجلس فى انتظار انتهائنا من العشاء لتتولى حمل الطبلية وصينية

العشـــاء، كان أبى يتابعها بنظراته عندما تترك المكان ذاهبة إلى وسط الدار وهى تحمل ما نابها ويحدثنا بحماس الواثق:

- أقطع دراعى إن ما كانتشى البنت دى مخاوية جنى من تحت الأرض.

وربمـــا قـــبل أن يكمل عبارته تكون جواهر قد عادت ووقفت أمامنا فأشعر بشـــىء مـــن الخـــوف مـــنها والرهبة، وربما كنت فى الصباح التالى أتودد إليها وأحـــاول أن أرضـــيها بعـــبارة تدل على الحب، وفى كل مرة كانت ترد على من يسألها إن كانت قد أكلت نصيبها قائلة:

- مقطوع منه النصيب، كلته القطط والكلاب.

وكنـــت أتشـــكك وأقول لنفسى إنها أكلته بمشاركة الجنى بعد رقادنا، وربما لأنـــنى لـــم أشـــعر ولو مرة واحدة أنها أحست بالندم لفقدان نصيبها، بل العكس يحدث، كانت تبدو وكأنها أدت واجبا مفروضا نحو تلك القطط والكلاب التى تتحدث عنها وأمى تعلق وهى توشك على الانفجار غيظا:

- أنا طهقت م الكلام معاكى، خلصت من ذنبك، كنتى دافساه فد وسط الدار يعمل إيه؟ وماتتعشيش ف وسطنا ليه؟..

ولا يـــبدو على جواهر أنها تأثرت بالكلام مرة أو فكرت فى تغيير عادتها، كانـــت تتركها وتدخل إلى وسط الدار، تجلس على أول درجات السلم وتضع خدها على راحتها وتتوه عن دنيانا، تدخل دنيا غير الدنيا، ومهما حاولنا الكلام معها أو التخفـــيف من وحدتها لا ترد، نتركها وننساها وربما تبقى فى وسط الدار يوما أو يومين لا نسمع لها صوتا قبل أن نفاجأ بها تسب ابن الزناتى شيال «السباخ» لأى ســـبب مـــن الأسباب، وهكذا دائما كانت موجودة بيننا وغائبة عنا حتى حدث ما حدث عندما عدنا إلى الكفر فى عصر ذلك اليوم بصعوبة من مدرسة البندر، وكان المطـــر قـــد حول السكة الزراعية إلى وحل طرى أملس، سقطنا فيه أنا وعطيات أكـــثر من مرة واتسخت ملابسنا الجديدة، كنا نرتجف ورخات المطر تتساقط فوق رأســـنا، دخلـــنا الدرب الساكت وقد خلا على غير عادته من الناس، لكننا وجدنا زحامـــا عـــند بـــاب دارنا عندما انحرفنا فى الزقاق، كانت الدار نفسها مزحومة بالـــرجال والنساء والأولاد وأمى تلبس السواد وإلى جوارها أم بكرى وأبى هناك عـــند بـــاب المـــندرة وسط رجال العائلة وبينهم تقف العمة محاطة بهم وعيناها

زائغتان وغائبتان إلى درجة أنها لم تلتفت إلينا أو تحدثنا، كان هناك همس وصخب ودمدمة وصراخ مكتوم فى حلوق النسوة، جاءت نعمات وأخذتنا من وسط الزحام، لم نسمع ما قالته وأن كنا أطعناها وطلعنا معها إلى المقعد الشرقى، طلبت منا أن نخلع ثيابنا المبلولة ونبدلها بجلابيب البيت ففعلنا، سألتها عطيات عن سر الزحام واللمة فحاولت أن تدارى لكنها لم تستطع، قالت من بين نشيجها المكتوم:

- أختكم جواهر، الديب قتلها، نط فى وسط الدار ولكها، كانت بايته فى الخلا والديب طالها، كفنوها ودفنوها وانتوف المدرسة، سنة سودة السنة دى.

أوشكت أن أصرخ فحطت هى كفها اليمنى على فمى وطالبتنى وعطيات بعدم الصراخ أو مجرد البكاء بصوت محذرة:

- ماحدش منكم يفتح حنكه، إحنا لنا عدوين ف الكفر، ونهار الحكومة ما تشم خبر ح يطلعوها م التربة وياخدوا أبوكم يحبسوه ومش بعيد ينشنق.

أصابنى خرس مرعوب والحزن العاجز يغزونى لأول مرة فى حياتى، كانت هناك فجيعة فى أخت دفنوها فى غيبتنا وكانت فى الليل معنا، وقلق مجهول على أب مهدد بحبس أو شنق دون ذنب، وخوف مبهم من ذئب جسور يتخطى كل الجدران ويقتل، ربما من كثرة الرعب نمت وأفقت على تلك الحقيقة الجديدة وهى أم جواهر ليست فى وسط الدار.

كنا فى الأيام التالية نتخوف من وسط الدار وصحنها، حتى نعمات وأمى وأبى والعمة كانوا يتهربون من الدخول لسقاية المواشى أو تقديم العلف لها، وكان البكرى هو الذى تطوع بتأدية هذا الواجب الصعب أيامه.

وفى المدرسة تحدثنا للبنات عما جرى فووجهنا بحكايات خسيسة عن إبن الزناتى وتدبيرات العمة ومقتل البنت فى المتبن وسر اختفاء ابن الزناتى نفسه من الكفر فى نفس التوقيت «ولو كان لابن الزناتى أهل لأبلغوا الحكومة وأخذوا قاتله بدمه.. ولو كان للذئب البرىء من دم البنت الفسدانة صاحب لدافع عنه بأعلى

صوت فى دروب الكفر الذى يعرف كل ناسه ويكفون على الخبر ماجور».

قلنا لنعمات فأمرتنا بأن نف عن ترديد هذا الكلام الفارغ مرة أخرى، شتمت البنات قليلات الحياء ممن يجرؤن على نقل مثل هذا الكلام الفارغ والفاجر عن بنات الناس الطيبة بهدف خراب البيوت العمرانة، بعدها اعتدنا السماع دون رد أو فتح السيرة لنعمات أو غيرها من الكبار، وما عدنا نتجاسر على ذكر اسم جواهر فى حضورهم، تماما مثلما كانوا يفعلون.

شاكر وجع قلبى وحيرنى فى أمره خاب فى المدارس سنة بعد سنة، جربنا معه كل الطرق، نقلناه من مدرسة إلى مدرسة، اكترينا له الأساتذة بأجر فما استجاب، زودنا مصروفه ومنعناه، سلمناه الدكان فى إجازة الصيف فما باع بضاعته الرائجة بسبب لسانه المفلوت وما احتاط لقرش ولا صرف فى المفيد، عجينة فسدانه استعصت على التشكيل، وفى كل مرة كان علام يلومنى ويعايرنى ناسيا أنه بذرته وقطعة منه، بطريقته يمشى ويتكلم «أنت مفسدته وهو عملك، عملك الردىء» يقولها علام فيشعل فى قلبى نارا ويزود فيه المرار، فرحته بخلفته زادت عن حدها المعقول، كان يأخذه معه فى كل مكان وهو صبى ما زال، يسهر به وسط مساطيل الكفر والكفور المجاورة، ويصاحب أولاد الليل وخباصين الناحية، لا أدب عندهم ولا حياء، وكلما اعترضت عارضنى:

- ما لكيش دعوة بيه، خليه يعرف الدنيا على حقيقتها.

فى السابق كنت أقول لنفسى لا بأس، أن يزرع فيه طباع الرجل رجاء أتمناه، حتى عندما كان يتطاول بلسانه فى الرد على كنت أتسامح، أعفو عنه إذا ضرب البنت، وكنت أرى فيه الأخ الذى حرمنا من وجوده وانكسرت نفوسنا لأننا لم نحصل عليه أبدا، أداديه كرجل ينمو ويغلظ صوته، وأطيب خواطر البنات الشاكيات من مشاكساته بالفعل أو باللسان، أتخيله رجلا وأستعجل دورة الأيام والسنين لكننى أفقت من خدر الأمنيات ليلة أن بلغنى أنه جالس رجال السيد الدباغ فى البندر فى قعدة حشيش يدخنون على حسابه، ماخوفنى غير استغلاله فى دفع الثمن هو احتمالات إفساده فى أمور لا أعرفها، أولاد الدباغين شهرتهم فى الفساد والإفساد لا تقف عند حدود، تجارة مخدرات وتقليع زرع وسم مواشى وتأجير

لقتل الخصوم وخطف بنات وتخريب دور، يفعلون كل المصائب ولا يهابون حبسا ولا حكومـــة والولـــد مجرد تلميذ فى الإعدادية فهل يطمئن عليه قلب الأم؟ ليلتها فاتحت علام وحذرته من الخطر، لم يوقفنى ما كان يتهمنى به:

- كلـــه مـــنك، دلعتـــيه لحد ما خاب، والخلق دول مالـهمش أمان، خايف يكونوا متأجرين عليه.

ولأول مرة تمتد يده على الولد، ربطه بحبل وظل يضرب بعيدان القطن التى تتكســـر على جسم الولد فيبدلها بأخرى تترك أثارا دامية وكأنـها كرابيج سودانى وصـــراخ الولـــد لا يفيد، كان يضرب بخوف كامن فى أعماقه من احتمالات فقده والولد يستجير ويفشى أسرارا ما كنا ننتظر سماعها تزود خوفنا عليه..

وفـــى اللـــيل حدثنى علام عن سر ابن الزفتاوى الذى دفنوه فى أرض أبيه بواسطة أولاد الدباغين فاندهشت، ما كنت أعرفه وشاع هو أن ابن الزفتاى طفش من أبيه بليل وما ظهرت عنه أخبار:

- أصل إنتى فى نومه، نسيتى التار اللى كان بين أبوه وبين ولاد الملاح، أهو ده راح قصاد التار.
- بس دول اتصالحوا، الملاحين والزفتاوية.
- كلام، صلح الديب ع الغنم، هو التار القديم بيموت؟

تذكـــرت مـــا كان يشيع عن ذلك الصلح الذى تم بين السعيد الزفتاوى ودار المـــلاح وكـــيف سرت حكايات عن الصلح بعد العداوة فصدقناها حتى طلع السعيد الزفـــتاوى من وسط زراعات الذره فى عز الظهر حاملا بلطته لزين الملاح ونزل بها على رأسه فقسمها نصفين كما أكد كل من حضر الواقعة وهو يهدر:

- دم الشريف الزفتاوى ما راحش هدر يا ملاحين.

ومـــن جديـــد عقـــدوا صـــلحا بعد أن دفنوا زين الملاح، وقالوا هو دم بدم والصلح الجديد تدعمه المصاهرات واختلاط النسب، لكنها كانت إن صح كلام علام مجـــرد أكاذيـــب وكـــلام فض مجالس، ولابد أنه سيجىء اليوم الذى يكتشف فيه السعيد الزفتاوى أمر ضناه، يومها من يدرى كيف يكون حال الكفر.

- وعرفت ده كله إزاى؟

سألته فبدا عليه أنه تذكر أمرا كان قد نساه وقام فى منتصف الليل إلى الولد المربوط يضربه من جديد ويحذره من مصاحبة أولاد الدباغين، قال الكثير وهو فى غير وعيه وعرفت الكثير، ولكثرة ما عرفت زاد خوفى على شاكر، هل كانت بينه وبينهم اتفاقات قديمة على دم مسفوح، أم أنه هو نفسه الذى كان حريصا إلى أبعد الحدود قد شارك فى قتل نساه الناس أيام تجارة الصنف، وماذا أفعل لو تعرض شاكر لمثل ما تعرض فهيم ابن الجازية التى رأته مرميا على طرف المصرف القديم ودمه الجاف من وقدة الشمس قد صار هدفاً لأسراب الذباب الأزرق قرب المدافن ولوح الإردواز مكسور تحته ومطموسة منه نصف الآية التى كتبها فى صباح نفس اليوم فى الكتاب، من يومها تدور فى دروب الكفر وتنادى على فهيم، تمسك كل صبى يلقاها وتسحبه من يده فيصاب برعب وهى تقوده غصبا فى اتجاه دارها كما كانت تفعل مع القتيل، نارها لم تبرد وعقلها لم يحتمل صدمة ضياعه دون أمل فى تعويضه أو أخذ ثأره، وربما بسبب عجزها غاب عنها العقل وما عاد، تذكرتها وخفت أكثر وأصبح شاكر همى ووجعى على مدى الأيام.

عطيات كانت بارعة فى عمل عرائس القطن لنفسها والبنات، تقص قماشها وتخيطه وتحشوه بالقطن المحلوج فيصبح على شكل عروس، ترسم عينيها وحاجبيها وأنفها وشفتيها وتضع فوق رأسها خصلة من شعر البنات المدفوس فى الشقوق فيتعجب كل من يراها ويقول إن عطيات استطاعت أن تجعل عروس القطن شبه البنى آدم، كانت العمة تتفحص كل عروس جديدة وتبدى استحسانها ورضاها:

- عجايب.. ناقصها تتكلم.. شاطره يابت.

تفرح عطيات وتجرى فى طول الدار وعرضها لنراها قبل أن تضعها مع بقية العرائس التى عملتها، كانت عطيات رغم ضعف جسمها أكبر منى بسنة وإن كان من يراها يحسبها أصغر، صفراء الوجه ممقوتة وعودها ممصوص، عصبية ولا تشارك فى شغل الدار ولو انهدت الدنيا، إذا أجبروها على عمل شىء تفسده عمدا أو بغير عمد، وإذا عاقبتها أمى أو وبخها أبى تشوح بيديها فى الفراغ

وتــبرطم بكلام غامض فنضحك عليها وأحيانا نفاجأ بها وقد ارتمت على الأرض، يحملونها وتصرخ أمي:

– البنت قطعت النفس.

كــنا نعــرف علاجهــا، مجرد بصلة نكسرها ونقربها من منخارها فتشمها وتفــيق، ربما تتلفت حواليها وتسأل أول من تراه عما جرى فنعاود الضحك وقد زال عنها الخطر، نسمع أمي تحمد الرب لأنه رد فيها الروح، وإذا كا أبي حاضرا يداعب أمي ليطمئنها على البنت:

– قلبك خفيف قوى كده ليه؟ بكره المزغوده دى تكبر وتوريكى النجوم ف عز الضهر.

– بس تعيش.

ترد أمي وقد اطمأنت مبدية استعدادها لاحتمال عطيات في كل الحالات وهى تربت على شعرها في حنو زائد.

وعندما سقطت عطيات في حوش المدرسة الابتدائي لأول مرة التف حولها الــناظر والأســاتذة في قلق، صبوا أكواب الماء البارد على رأسها ووجهها دون فــائدة، ضــحت «الأبلــة» الجديدة بما تبقى من زجاجة العطر في حقيبتها دون جدوى، تحيروا في أمرها وحملها عم شافعي الفراش إلى حجرة الناظر وأنا خلفهم أصرخ:

– هاتوا لها بصلة.. هاتوا لها بصلة.

وبصــعوبة فهمــوا قصــدى، جرى عم شافعي وأتى ببصلة كبيرة كسرها وقربها من أنفها فارتعشت تقاطيعها وجبهتها قبل أن تفتح عينيها وتغمضهما عدة مــرات وقــد نزلت منهما الدموع من أثر رائحة البصل، سألت هي الناظر لابس الطــربوش الذي كان في مواجهتها وأول من تحققت من وجوده عما جرى ولماذا جــاءت فضــحك وضــحكت الأبلة وضحك الأساتذة وعم شافعي قبل أن يقول لها الناظر بفرحة من انزاح عن صدره هم ثقيل مفاجئ:

– قومي ادخلي فصلك يا أم بصلة.

قهقهوا وأنا أخرج وراءها من حجرة الناظر وأحدثها عما جرى، بعدها شاع الاســم الذي أطلقه الناظر عليها، «أم بصلة» ولم يكن يغضبها سماعه من الناظر

أو الأبلـــة الجديدة أو أى واحد من الأساتذة لابسى الطرابيش أو حتى عم شافعى، لكنها فى الدار كانت تركبها العفاريت الزرق والجان إذا سمعته، ضربتنى فى أول مـــرة أقولهـــا لها فى وسط الدار، قطعت خصلات شعرى ومزقت قميصى الجديد، قوتها التى لم أتوقعها أربكتنى، بعدها طلبت من نعمات أن تخاصمنى.

- دى فتانة وح تتكوى بنار جهنم يوم القيامة.

كانـــت غضبانة لأننى نقلت الاسم الشائع فى المدرسة إلى الدار، كان اسمها الجديـــد قـــد شاع فى المدرسة وتردد على ألسنة البنات والأساتذة والناظر لابس الطربوش، لكنها لم تكن تغضب، كأنها عملت حاجزا بين المدرسة والدار وحددت المسموح وغير المسموح بحسب هواها، وإذا انفلت لسان فى الدار يناديها بالاسم كانت تبكى وتنتحب حتى يغلبها النعاس وتتكوم راقدة فى أى مكان.

وحرصـــا علـــى عطيات أفهمونى أننى مسئولة عنها فى طريق الذهاب إلى المدرسة والعودة منها، كانت تضع فى «مخلاتها» بصلة وسط الكتب والكراريس وكنـــت أسيرها بحسب رغبتى، أخوفها بأنها ما لم تطاوعنى فسوف أتركها تموت فـــى ســـكة البندر إذا أصابتها الدوخة وغابت عن الوعى ورغم أنه لم يحدث أن أصيبت بها فى الطريق مرة، كانت تخاف، تأخذنى فى حضنها وتسألنى بإنكار:

- ح أهون عليكى؟

- لأ ما تهونيش.. بس اسمعى الكلام.

كانـــت تحبـــنى وأحـــبها، وكانت تحب الناظر لابس الطربوش وتفهمنى أن طربوشه يختلف عن طربوش عصمت أفندى الصراف أو طربوش أبى الذى يلبسه فى المناسبات:

- طربوش نسر زى اللى بيلبسه الملك ابن الملك قريبنا.

أضـــحك أحـــيانا وأعترض على حماسها وأحيانا أسايرها وأمتدح طربوش الـــناظر وطربوش الملك فتفرح وتوشك أن تطير ولا تكف عن الكلام، حتى نصل إلى باب المدرسة أو باب الدار.

كانـــت الاجازة الحزينة التى قضيناها من غير جواهر قد فاتت وانشغلنا أنا وهى فى المدرسة، وكان خوفنا من دخول وسط الدار وصحنها أو طلوع سطوحها ومقاعدهـــا قد قل، كنا نتواجد فى تلك الأماكن وقد نسينا ما سمعناه، وذات ظهيرة

عدنـــا مـــن المدرسة ودخلنا وسط الدار نرمح لنرى العمة التى كانت تجلس أمام الكـــانون مزرودة الوجه من أثر النار والدخان يحاصرها وهى تنفخ فيها بعصبية، عـــندما رأتـــنا نادتـــنى لأنفخ النار المدخنة وطلبت من عطيات أن تركن مخلاتها وتـــناولها بصلتين من قاعة الخزين، رجعت عطيات فى اتجاه القاعة وظللت أنفخ والـــنار تبعـــث الدخـــان ولا تشتعل، كانت العمة تمسك فى يدها السكين استعدادا لـــتخريط البصـــل الـــذى بدا لها أن عطيات تلكأت فى إحضاره، فنادت عليها عدة مرات تتعجلها:

– البصل يا مخفية.. هى مابتردش ليه أم بصلة دى كما؟

وعـــندما أكملت العمة عبارتها رأيت عطيات من خلال الدخان الكثيف تعبر «الخوخـــة» وتقـــف مكانها، تلقى على طول ذراعها عدة بصلات فى اتجاه العمة أمام الكانون، سمعتها تبرطم وتشوح بيديها وتصرخ محتجة:

– اسمى نيله عطيات.. اسمى نيله عطيات.

تأججـــت نـــار الكانون فجأة وشعرت بالسخوخة فانزحت إلى الخلف وقامت العمـــة بعســـر فـــى اتجاه صحن الدار وهى تكيل الشتائم لعطيات وصنف عطيات والمدرســـة التى علمتها قلة الأدب، سألت عن شبشبها وملسها وطرحتها علامة الغضـــب الشديد وتهديدا بالخروج من الدار، ولابد أن أمى أو نعمات قامت بإخفاء هذه الأشياء حتى لا تتمكن من تنفيذ رغبتها وتهدأ وقد ينتهى الغضب على خير، جلست العمة تهدر وحاولت نعمات إقناع البنت بالذهاب إلى العمة لتطيب خاطرها بيـــنما الأم تحاول الاعتذار بدلا من عطيات، لكن البنت عاندت وركبت دماغها ولم تذهـــب، حاولـــت معهـــا الأم فلم تستجب، حتى عندما جاء أبى وحاول معها على طريقـــته لم يفلح، بل إن البنت تعصبت أكثر فتركها تأكل روحها كما قال وجالس العمـــة مبسطا الأمر ومؤكدا أن البنت صغيرة لا تدرك ولا تقصد حتى أكملت أمى ونعمات العشاء، رصوه على الصينية وشد أبى يد العمة التى هدأت لتنزل:

– اقعـــدى يا فطوم اقعدى.. إحنا ح ننكد على روحنا فى ليلة مفترجة زى دى عشان عيلة ماتدركش؟

– يخيبك يا بعيدة، أنا يا خويا مالحقتش، هو إيه اصله؟

– يكونش بصل الناظر بتاعكم حلو وبصلنا حراق يابت؟

قالـــت وهى تنظر ناحيتى فضحكوا بشدة، ربما كانوا يصالحون العمة بتلك

الضـحكة وربمـا توقعوا أن تلين عطيات وتأتى، لكننا سمعنا شهقات البنت حارة ونهـنهاتها تفلـت منها لتؤكد لنا أنها كانت تبكى بحرقة، كان وجه أمى قد ارتبك خوفـا أن يحدث للبنت مكروه وهى وحيدة فى القاعة، وكان وجه العمة قد صار مغلـولا وبـياض خديها يوشك أن يتحول إلى زرقة خالصة ثم قامت تسب وتلعن البنات وخلفة البنات وقلة أدب البنات، ولا أدرى كيف أفلحت هذه المرة فى العثور علـى الأشـياء المخفية، جهزت نفسها وخلصت أطرافها بعنف فاق كل محاولات إبقائهـا، كانـت النعمة قد انفلت عيارها وأصبحت واحدة أخرى، خرجت من باب الـدار بلـيل وأبى فى إثرها يحاول إعادتها وتزداد صخبا وهى تمشى فى الدرب ناحـية دارهـا حتى ابتعد صوتها فاختفى أو كاد، وعلا صوت الشهقات المتقطعة الآتية من القاعة، ذهبت نعمات والأم إلى البنت ووقفت حائرة وقلقة من احتمالات توهانهـا كعادتها، عندما عاد أبى كان يبدو غاضبا وثائرا على الجميع، كان يسب ويلعن هائجا بلا حدود ثم أصدر أمره بعلو صوته مؤكدا على كل حرف:

- البنـت دى ماتـروحش مدارس من بكره، تقعد ف البيت وكفاية الكلام اللى اتقال علينا لحد كده.

كـان مـن الواضـح أنه اتفق مع العمة على ذلك وأنه ليس على استعداد للـتراجع، لـم يعلق على قراره أحد، تكورنا فى أماكننا وسمعنا هزهزات السرير الذى طلع للرقاد عليه بجلبابه الكشمير دون أن يفكر فى تغييره، كان يلف الدخان لفافات يدخنها ويرمى أعقاب السجائر فى أرضية المندرة، وكلما غفوت وصحوت وجدته يدخن أو يلف سيجارة جديدة حتى طلع النهار وأيقظتنى نعمات لألبس ثياب المدرسـة وحـدى وأخـرج وحدى وعطيات راقدة مكانها تتقلب وأمى تتجاهلها وكأنها اتفقت مع أبى خلسة أثناء الليل بأن يكون ذلك اليوم هو أول أيام انقطاعها الدائـم عـم المدرسـة التى عشقتها مثل الناظر الذى كان يؤكد لكل الأساتذة أن عطـيات سـوف تشـرف مدرسته بنجاح متفوق فى ابتدائية هذا العام، وربما لم يعرف أبدا أنه دون أن يدرى كان سببا فى منع تلميذته المتفوقة من الاستمرار فى الدارسة، مجرد الاستمرار.

بعـد أيـام من الرقاد المتواصل الذى امتنعت فيه عطيات عن تناول الطعام رغم الإلحاح عليها من الجميع جاءت العمة، اقتربت منها أمى ورجتها:

- أبوس إيدك يا عمة، أبوس رجلك تعفى عنها وتسامحيها.

قالت وهى تمسك بالفعل بيدها اليمنى وتقبلها مرات متكررة على ظهرها، ثم تنحنى وتمسك بساقها التى خلصتها العمة من يديها بقوة فانكفأت أمى بشدة على وجههـا، ولابد أن الخبطة أوجعتها وإن احتملت وزحفت على الحصير وقد انحل المنديل عن رأسها وزحفت على الحصير ضفيرتاها مستمرة فى الرجاء بمذلة أكثر للعمة الواقفة:

- البنت يا عمة ح تروح فطيس.
- تقطـع بـروحها يـا مريم، أروح أحب على رأسها لجل تتسمم وتأكل، أتحـايل على بنت لا راحت ولا جت بعد شعرى ما شاب؟ ياريتها كانت ولد يا مريم وأنا اتحايل عليه.

كانت تنظر ناحية القاعة حيث ترقد البنت، لعلها ترددت قبل أن تتجه ناحية باب الخروج غير مستجيبة لكل النداءات التى تئن بها أمى، لعلنى فى تلك الساعة كرهـت ضـعف أمـى وقسوة العمة، كانت نعمات فى القاعة وبدا لى أننى أسمع صوت عطيات لاهثا بعسر إنما بإصرار:

- هى السبب ف كل حاجة.. هى السبب.

ومازلـت لا أعرف إن كانت تقصد العمة أو أمى، تلك التى كانت تنظر إلى مصـدر الصـوت بيأس كامل، لعلها كانت قد أدركت قبلنا أن نهاية عطيات كانت تقـترب وأن أيامها معدودة بيننا، كانت البنت قد كفت عن تناول أكواب الماء التى تحلـيها نعمـات بقطـع السكر، كانت تكتفى بالماء الخالى من أى إضافة، وكان وجههـا قـد ازداد صـفرة وجسدها يتصبب عرقا ولا يجف، ولم يكن هناك غير عينـيها الملونتيـن تـنظران إلى الوجوه فى سماحة أو إلى خشب السقف، كانت تجرؤ على تأنيب أبى لأن العمة تسيره على هواها بمالها وكان لا يرد عليها، يبدو متألما وعاجزا عن فعل شىء فيخرج من القاعة أو يهرب من كل الدار تاركا أمى وحيدة وقد أحنت رأسها فى انتظار الموت.

- يا كبدى يا بنتى.. هو إنتى حمل ده كله؟

كانـت تسـألنى عن المدرسة والناظر لابس طربوش النسر فأحكى وأحكى وفـى داخلـى إحساس بأن هذه الأيام لن تتكرر، وبأنها سوف تموت وتذهب إلى الجنة وترتاح من تعب الدنيا وقسوة الكبار.

الوحـــيدة التى لم تتراجع أو تطل عليها مجرد إطلالة كانت هى العمة، تأتى مـــتجهمة طـــوال الوقـــت كما تخرج، لعلها فى كل مرة كانت ترغب فى مصالحة عطـــيات كما أكدت لى بعد ذلك لكنها لم تستطع أبدا، شىء غامض كان يمنعها فى اللحظة الأخيرة، وكانت عطيات رغم قلة وعيها فى الأيام الأخيرة بما يدور حولها تتجهم إذا سمعت صوت العمة، فأوشك أن أطلب منها الرحيل ولا أجرؤ، كنت ألوم نفسى وأشعر أننى كنت مسئولة عما جرى لها دون قصد، ولولا أنها قالت لى مرة قبل أن ترحل وهى تمسك يدى بينما أحكى لها عن المدرسة والناظر بعسر:

- مالكيش إنتى دعوة يا شوق.. مالكيش دعوة يا ختى..

لولا أنها قالت وسمعت لمتُّ مقهورة بعدها وبنفس الطريقة، ففى صباح شم النسيم وجدناها راقدة مكانها وقد انقطعت أنفاسها تماما، عيناها مفتوحتان ترقبان خشب السقف ويداها على صدرها وكأنها على استعداد لتسميع درس حفظته عن ظهـــر قلـــب، بكيـــناها بحرقة، حتى العمة بكتها، ولا أظن أنها بكت غيرها بنفس الكـــثرة، وما تبقى من عطيات غير عرائس القطن أجمعها وأتحدث إليها كما كنت أتحـــدث إلـــى عطيات وأبلغها أخبار ناظر المدرسة لابس الطربوش حتى أخفوها عـــنى أو تخلصـــوا منها فى مكان مجهول خوفا على عقلى من الضياع كما كانوا يقولون.

دخول الحاج مرسى إلى دارنا أو ما تبقى منها أشعرنى بالخجل، رجل لـــه مثل هيبته فى الكفر يجلس على بقايا الحصير الكالح المهترئ ويستند على مسند ممـــزق الكـــيس يطل قطن حشوه فى أكثر من مكان، وقفت أمامه مطرقة وحائرة فتبسط وهو يحدثنى:

- أقعـــدى يـــا بنتى أقعدى.. واقفة كده ليه؟ دانا ابن عم المرحوم أبوكى، يعنى عمك واسد بداله.
- كتر الف خيرك.

جلست مستطلعة سبب زيارته ومرحبة أدارى تمزيق ثوبى وتآكل نسيجه فى أكثر من مكان، كانت أمى قد عملت لـــه كوب الشاى وقدمته فتناوله ووضعه إلى جـــواره «خفيف ولابد أن سكّره ناقص» عاودت الترحيب به و«زارنا نبى وخطوة عزيزة» هز رأسه شاكرا وباغتنى بالسؤال:

- مش ناويه ترجعى بيتك بقى؟
- ما أنا ف بيتى يابا الحاج.
- قصدى بيت جوزك، عشان تربى عيالك ف خير أبوهم.

شعرت بغصة وهو يتحدث عن خير علام، كأنه يعايرنى بفقرى وعوزى فى دار أبى، سألته إن كان علام قد طلب منه ذلك فأنكر وأدعى أنه جاء متطوعاً وأنه سوف يمر على علام فى دكانه بعد أن يصل معى إلى حل، أشار بطرف خفى إلى علاقـــة عـــلام ببنت بحر فأبديت قرفى لأنه «لاف» على من تناسبه، قلت للحاج مرسى إننى احتملته كثيرا رغم نجاسة ذيله وأنه لم يعد يشغلنى بأفعاله فهدأنى:

- إحنا عاوزين نردم ع اللى فات.. إنتى عاجبك قعادك هنا؟
- دار أبويا تساعنى ولو كانت فى خرابة، ح أروح فين يا حاج؟

هو أنت مش عارف اللى حصل؟

- لينى دماغك شوية.

ولـــم أرد «لينت دماغى سنوات وما عاد فى قدرتى أن أحتمل المزيد، كنت أحـــنى رأسى حتى تهدأ العاصفة، وفى كل مرة أحاول إفهامه أننى أرتكب ذنبا فى حقـــه وأن أخطاء أهلى لم تعجبنى وأن حسابه مع أبى لم يكن فى حضورى، ولم يكن فى مقدرتى أن اسدد ديونه لعلام وقد خربها وباع سقفها وأبوابها فى رقدته المشـــلولة التى طالت، وقبل موته كنس كل شىء، الأرض والدكان والسمعة التى كانت فى السابق طبلا فخلفها وحلا وجعل من سيرته لبانة يتشدق بها من يساوى مـــن لا يساوى، كل يوم يظهر لنا دائن جديد بأوراق ويطالب أمى فتشرح الحال، تـــرق لهـــا القلوب ويستعرض الغرباء حقوقهم على مرأى ومسمع من علام، لم نطالـــبه بســـداد دين أو مساعدة للمرأة التى عاشت من بعد الزوج على الكفاف، وكان يعادينى، يحاول إذلالى وتجريحى فى كل وقت، أتصابر من أجل الولد والبنت الوليدة، يفتعل الخلاف معى ويجمع المجالس من الأهل والغرباء ويتشكى، يكشف أسرارنا بلا خجل ويتيه زهوا بما يملك، يستفتيهم فى كل مجلس كيف يكون نظام الـــدار، مصـــروفا شهريا أو يوميا، معاشا من محصول الأرض المزروعة ونتاج الدار لبنا وسمنا وجبنا وبيض دجاج، مخزونا من دقيق وأرز أو طبخة بطبخة من

الدكـــان، حـــيرنى وكلما وصلنا إلى اتفاق بحسب رأى كل مجلس. ينفذه يوما أو يومين ثم يتراجع ولا يستمر:

- الاتفاق ده مش ح يمشي.

ومن جديد يستدعى مجلسا من الغرباء، أغرق فى ثيابى وأتمنى لو انفتحت الأرض لتبتلعنى وأرتاح، عشرات المجالس وعشرات الاتفاقات وعشرات الوجوه، كأنـــه لـــيس فى الدنيا دار غير داره ولا دكان غير دكانه، وأنا استجير بالحيطان لتدارينى فيكشفنى، أحاول أن أصل معه إلى بر أمان فلا أستطيع، أعارك أمى وأبى الـــراقد الذى كان سببا فى كل هذا القلق، ألومه فيسمع ولا يرد، أقول لنفسى إنهم خيـــبوا أملـــى وأن لعلام الحق فى أن يتشكك فى كل شىء، فى ذمتى ورغبتى أن أعـــيش فى راحة بال، وصل معه إلى حد عدم الاطمئنان إلى أكل الدار، يأخذ الولد معـــه فى الصباح ويعود فى الليل، لا يكسر لقمة من خبزنا ولا يشرب جرعة ماء ويوصـــى الولد أن يفعل نفس الشىء، أى أم تلك التى تحتمل شكوك صبى ولدته فى طعام جهزته له أو شراب، كأننى عدوة تدس له السم لتقضى عليه.

- ما تخدش من أيدها حاجة يا وله، دى عايزة تسمك.

يقولها للولد فى حضورى فبأى المخاوف كان يغذيه بعيدا عنى؟ وإذا رضيت بخوفه على حياته منى فكيف أرضى بخوف الولد؟

- ح اسم ابنى يا علام؟

أسأله بإنكار فيواجهنى وكأنه صاحب حق لا تنكسر عيناه وإن كانت تقوى:

- مـــش بعـــيد عليكى.. فاكره عمتك عملت إيه ف الحاج فرج؟ فاكره؟.. عاشرته كام سنة قبل ما تعمل عملتها؟ وعاوزانى أكل من إيدك؟

لا أذكر أننى عارضته ليلتها، ربما خفت أن يجمع مجلسا من الناس ويقول نفـــس الشىء فتكون مصيبة وفضيحة تروج فى كل الأنحاء، وطوعت نفسى على السكوت:

- وصلتى لحد فين؟

قالها الحاج مرسى ليعيدنى إلى المكان والزمان فجاوبته:

- معاك.

- خلاصـــة الكـــلام، قعـــادك هنا مش عاجبنى، المدارس ح تفتح والولد محتاجك، علام ح أجيبه غصب عنه وح ترجعى دارك، قلتى إيه؟
- اللى تشوفه يابا الحاج.

قلتها مستسلمة وعاجزة عن الاعتراض فقام الرجل، سلم وخرج وترك كوب الشـــاى بـــاردا حيث كان، لعله أراد أن يوضح لى إلى أى حد صار إليه حالنا وقد عجـــزنا عن تقديم أى واجب يليق حتى ولو كان مجرد كوب شاى تقبل النفس أن تشربه، لعله ذاقه ولم يعجبه أو أن شكله يغنى عنه.

وأنا أرفع المسند لمحت شيئا يلمع، رفعته فوجدت ريالا فضيا محطوطا تحت قاعدتـــه، هل صعب عليه حالنا إلى هذا الحد أو أنه أراد لنا الستر ساعة أن يأتى مصـــحوبا بالغرباء بهدف الصلح فى المساء، دين جديد لا أملك رده أو سداده من ابـــن عم العم يا أبى يضاف إلى ما ورثناه من ديون خلفتها فى أعناقنا، ما حيرنى هو كيف ومتى رفع المسند وحط تحته ريال الملك فؤاد لابس الطربوش.

فـــى اللـــيل ســـمعنا جلبة عند باب الدار، هل كان الحاج مرسى مازال يلين رأســـه ليقـــبل الدخول؟ لكنهم دخلوا، كان الولد معه، محكوما وأنا أراه من خلال الفتحة الخالية مكان باب المندرة ويرانى ولا يفكر فى المجىء، جلسوا على نفس الحصير واستندوا على نفس المساند القديمة، علام وبكرى والولد والحاج مرسى الذى نادانى فذهبت، جلست انتظر وبدا لى أن علام كان يمسح كفه الذى لابد وأنه «إنعاص» من أرضية المندرة الموحلة، كان يمط بوزة فى قرف أو تظاهر بالقرف من كل ما كان يحيط به وبنا من أشياء، قال الحاج مرسى:

- ح نقرا الفاتحة ربنا يهدى النفوس.

تمتموا بها وتمتمت ثم توجه الحاج مرسى بكلامه إلى علام:

- إحنا ح ننسى اللى فات ونردم عليه، نقول إن إحنا ولاد النهارده ياسى علام.
- بشروطى يا حاج.

قالهـــا بنبرة من لا يرغب فى شراء بضاعة بارت لآخر السوق مطمئنا إلى استعداد البائع للتفريط فيها بأبخس الأثمان.

- سى علام له حق ياخد على خاطره منك ياست أم شاكر.

قالهـا بكـرى فلـم أكلف نفسى عناء الاعتراض أو التأييد، تنحنح الحاج مرسـى لـيزيل أثر انحياز بكرى «أس الفساد» إلى علام، ذلك الذى يجلس الولد علـى ركبـته وهـو ينظر ناحيتى وكأننى زوج لأبيه ولست أمه، رأسه الصغير مشحون بأكاذيب دسها عنى فى زمن الغياب:

- إحنا مش ح نرمى لحمنا ياسى علام.
- دار أبوها ماتدخلهاشى.

اشترط علام فسايره الحاج.

- ما تدخلهاشى.
- تخـدم الصغير قبل الكبير، ما تمسكش المصروف ولا تطلبش منى اللى ما قدرش عليه.

كانت نغمة التحكم فيه بادية «وعنطزته» الزائدة تكيد، تصابرت لأننى كنت مكشـوفة أمامهم فى عراء، لا أخ ولا أخت ولا أب ولا أم معمول لها حساب ولا دار فيها خير يكفى لإطعام الدود، عراء فى عراء:

- ماتفتحشى حنكها ولا تقول تلت التلاتة كام، أهى جربت دار أبوها سنة، يمكن تكون عرفت قيمة الراجل ف بيته، تعمل زى أمها ما كانت بتعمل مع المرحوم.
- وماله يا علام.. وماله.

رد عليه الحاج مرسى وقد امتعض، ربما شعر بالندم لأنه تدخل هذه المرة، وواجهنى علام:

- ويكون ف علمك من دلوقت، أنا ح أرجعك عشان خاطر الولد ده بس.

كانت أول عبارة يتوجه فيها مباشرة لى، وكنت مغلولة ومكتومة فانفجرت فيه:

- أنت تبيع وتشترى ف واحده م الجوارى اللى فاتهم لك أبوك، أبوك اللى مات عريان.. شايف يابا الحاج.. ولد ايه يابو ولد..

كتم أنفاسى كف الحاج مرسى الذى قام وحذرنى من الاستمرار لقول المزيد لكنه قام وخرج فى أعقابه البكرى والولد، بقى الحاج مرسى لتهدئتى، بصرنى إلى مـا صار إليه حالى وحال البنت، قال إن الكلام ليس عليه جمرك وهو مجرد كلام

طائــر فــى الـهــواء، شكوت لـــه من نصيبى الذى رمانى معه وواسانى، وعدنى بــالوقوف معى ما لم يستجب علام للأصول ولو وصل الأمر للمحاكم وصرف من جنـــيه لألــف، لا أذكـــر أننى شعرت بمهانة فى كل عمرى أكثر مما كنت فى ذلك المســـاء، كنـــت أبكى والرجل الكبير يلطف الجو ويريحنى فى كل ما كنت أرجوه ســـاعتها، الخـــلاص وأخذ الولد ونفقة تكفينا لنعيش، أتعبت الرجل معى ساعة أو يزيد أقسم خلالها ألف يمين أن يطمئن على معيشتى أن رجعت أو بقيت فى دارنا، صـــدقته ودعـــوت لـــه بدوام الصحة، وأوصانى قبل الخروج إن جاءنى علام فى الصباح أن أكتفى بمجرد الذهاب معه دون إعادة فتح الموضوع:

- أنـــا من ناحيتى ح أجيبها لـــه على بلاطه، يا تعيشى معاه رافعه راسك يا يسيبك ويبقى لى تصريف معاه.

طمأننى وأن لم يشف غليلى، عز على النوم حتى طلع النهار وبدنى مهدود وحلقى جاف وقلبى جريح، لكنه قبل الضحى دخل الولد من باب الدار، اقترب منى وسألنى إن كنت مازلت أخاصمه فأنكرت خصامه، بكى فأخذته فى حضنى ومسحت دموعه ودموعى وسمعت صوت علام:

- هات أمك وأختك وحصلونى ع الدار يا شاكر.

كدت أعبر لـــه عن اعتراضى فجلس إلى جوارى، وحاول أن يتنصل من كل ما قاله:

- طيب أنتى وأبنك وكنتم متخاصمين واتصالحتم، يبقى ذنبى أنا إيه؟

لم أعلق.

- شـــوفى أنتى غلطتى ليلة إمبارح قد إيه؟ وبرضه مسامح ف حقى، هو أنا يجينى أعز منك؟

لم أكن أصدقه، لعلنى عودت نفسى بعدها على السماع دون تصديق، دعانى للقيام إلى دارى فتنهدت وقمت أجمع ملابسى فمنعنى:

- خلـــيهم لأمـــك تســـتفاد بيهم، قيمتك عندى حاجة تانية، إنتى ح تلبسى أحسن لبس، إنتى مستقلة بروحك؟

كأنـــنى خارجـــة مـــن ســـجن وذاهبة إلى سجن آخر قريب ولن يتغير غير الســـجان، ربما أخلص من رغيف «السن» وقطعة اللفت وابدلهما برغيف القمح

والإدام، لكننى لن أهنأ بعد المرار فى غضبتى الطويلة أو استشعر الأمان، ولعلنى تأكدت فى داره أن كل ما فيها لا يخصنى بأى حال، وأنه فى لمح البصر يمكن أن يجـــردنى هـــو من كل حق أدعيه ولا أملكه، ولعلنى جهزت نفسى للحياة فى داره مســتعدة لتركها فى أى وقت يشاء مغصوبة وراضية لأننى انغلبت على أمرى كى أرعاهم وأحرس جدرانهم وخير الدار.

- حتى دكر النحل يا مريم بيعمل عملته ويتوكل على الله.

سمعت أبى يقولها وأنا أدخل المندرة، كان فى المندرة دفء «وراكية» نار قوالـــح تـــتوهج، اقتربت من النار وفردت راحتى وقربتهما من الوهج ثم مسحت بهما على وجهى وصدرى عدة مرات، استمرأت الدفء فجلست مكانى قرب النار، كانـــا يتـــبادلان النظرات ولا يتكلمان، فكرت أنهما ربما يودان لو أخرج واتركهما يكملان الكلام، نظرت نحوها فوجدتها تنظر إلى قبل أن تقول لتشركنى:

- قول لها، لا هى صغيرة ولا غريبة عنك، بنتك زى ما هى بنتى.
- كله فوق دماغى؟ ما حدش بيرحم ولا يقول بايدك أبدا؟
- عايزين اللقمة جاهزة فى الحنك من غير تعب خالص؟

كـــان فـــى صـــوته احتجاج يوشك أن يكون تباكيا، لملم ساقيه المفرودتين ونفض «حجر» جلبابه فلم يتناثر منه شىء، انتفض واقفا وخرج من باب المندرة الموارب، شده إلى الخارج بشدة فرن صوته ثم ذاب وساد صمت كانت هى تنظر إلـــىّ وكأنهـــا تستغيث بى لأنقذها لا أدرى من أى شىء. ظلت تتأملنى وملامحها تتـــبدل وتتغـــير والشفتان تنفرجان وتنضمان دون أن يصدر عنهما حرف، كانت الـــنار تـــنعكس فى عينيها بريقا أحمر عدوانياً وهى تنظر ناحية الباب وكنت أنعم بالدفء، أطل وجه أبى من باب المندرة، اندس فى نفس مكانه يتدفأ قبل أن يبرر عودته:

- النطره مغرقه الدنيا بره والشوارع روبه لحد الركب، أمال أنتم ساكتين كده ليه؟

لم تجبه واكتفت بالنظر إليه فى حيرة، سألنى هو:

- أمال إنتى رجعتى من عند عمتك إزاى؟
- من جنب الحيطان، رجلين الخلق عاملة مدقات.

نظـــر إلـــى ســـاعدى واطمأن على زوج «الغوايش» الذى كانت عمتى قد اشترته لى مكافأة على نجاحى فى الابتدائية كما وعدت، تحسسه بفرح وزهو:

– مبروكين عليكى، حلوين، باين عليهم تقال.

وقبل أن أعلق معبرة عن فرحتى بالهدية اعتدلت هى فى جلستها وبان فى عينيها استنكار فواصل أبى:

– عمـــتك راقدة على خير كتير، شرك مواشى وأرض ملك غير الجنيهات الدهب المجيدى والبندقى.

– بكره كل ده يروح ف عب الحاج فرج ولا نطول أبيض ولا أسود.

قالـــت أمى مستمرة فى التعبير عن عدم ارتياحها على عكس ما كنت أنتظر منها وأتوقع، رد عليها متضررا:

– وإحنا ف إيدنا إيه بس أكتر من كده؟ أهو اللى بنطوله فايده.

– ف إيدنـــا شـــوق حبيبتها وسرها العمر كله، واخداها ف حضنها العمر كله، ولا ده ببلاش؟

علـــى هذا النحو كان يحاورها وتحاوره لأفهم أنه فى أزمة وأنه يخاف من موتهـــا المباغت وكل ما يحوطه ويتاجر فيه ملكها بأوراق مكتوبة يستطيع الحاج فـــرج أن يظهـــرها ويأخذ كل ما نملك ومن العدل أن تحتاط لحسابى أن كانت قد غابت عنها الفكرة:

– الحكـــيم يـــا بنتى قالها لى بينى وبينه، والأعمار بيد الله، بس هى اللى قالـــت لـــك، مش عيب تسأليها كتبت لك إيه؟ الحاج فرج محوط عليها وماحدش ف الزمن ده له أمان.

فـــى يوم السوق رحت لها فأدهشنى أنها فاتحتنى فى علاقتها بالحاج فرج قـــبل أن أفاتحهـــا، كأنهـــا كانـــت معنا أنا وأمى وأبى يوم تحدثنا عن قلقهما من احـــتمالات موتهـــا فجأة، حدثتنى عنه من غير احتراس، وأزاحت عن قلبها همًّا شالته وحدها عمرا دون بوح أو شكاية، كان الحزن يطل من عينيها الخضراوين بزرقة وهى تستعيد ما كان، كيف رأته شابا عفيا فى سوق الخميس، اشترت منه عجل جاموس تصعب قيادته، وكيف تطوع بسحبه حتى باب دارها، كيف اعتاد بعد

ذلك أن يشترى لها كل ما كانت تحتاجه من سوق الخميس ثم يقوم بتوصيله حتى باب الدار يرفض أن يعبر العتبة ليبل ريقه ولو بجرعة ماء.

- «كان زى البنت البنوت وحقانى» اشتريتلك يا ست هانم بخمس قروش وعــرقى وتعب مشوارى ما يجوش حاجة ف إنسانيتك وكرم أخلاقك» لكــن ولاد شلبى ما يعجبهمش العجب ولا الصيام فى رجب، طلعوا فيه القطــط الفاطســه، زنّــوا وزاد كلامهم، قالوا عليه طمعان ف مالى.. وقــالوا، كتبــت عليه ودخلته دارى، رقدته ف فرشتى ولبسته صوف وكشمير وشاهى لكن ما حصلش منه نصيب ولا خلفة، عشر سنين لحد النهارده ما قاليش تلت التلاته كام.

كان فى صوتها حسرة على مشوارها معه، على شبابه الذى انطفأ الآن أو أوشــك على الانطفاء، برقت فى عينيها دمعتان محبوستان، أشفقت عليه وعليها وشفت جرح عمرها الغويط، شفت الزمان غير المطاوع وشماتة الأعداء يعيرونها بحظهــا فــى آخــر الأزواج وسن اليأس وانعدام الرجاء، كوّرت هى راحتيها ثم فــردتهما بشدة عدة مرات وكأنها تطرد خاطرا أو فكرة تسللت إلى عقلها خلسة، ربما فكرت مثلى أن الحاج فرج قام بدوره على خير وجه، وربما كانت قد قررت علــى عكــس مــا فكــرت أن تبعده عن حياتها وحياة أولاد شلبى زمت شفتيها وسألتنى:

- إنتى.. رأيك إيه؟

كنت قد أطرقت حزنا لأننى تأثرت بكلامهم عنه وخوفهم من أطماعه إن هى ماتــت فجأة مثلما قال الحكيم، زفرت هى وربتت على كتفى فى حنو بالغ، ولأول مــرة أرى دموعها تتساقط دون صوت والتقاطيع على حالها، بكيت فطالبتنى بأن أكــف عن البكاء وما كفت عيناها عن إفراز الدموع، احتضنتنى واحتضنتها بقوة كراهيتى للموت الذى حام حولها طوال العام الأخير، سألتنى ماذا أتصور إن ماتت هى فجأة فبكيت بصوت مسموع، طمأنتنى بثقة أنها لن تموت قبل أن تطمئن على حــالى، أمســكتنى من الكتفين ونظرت إلى وجهى ومسحت بكفها اليمنى دموعى وبكم جلبابها وجهها وعينيها ثم ابتسمت فى ثقة وسألتنى:

- يروح لحاله؟ مش كده؟

أومأت لها علامة الموافقة، ربما لو كان الوقت غير الوقت لفكرت واستفسرت منها إلى أين سوف يروح، رفعت هى وجهى بإصبعها المحطوط أسفل ذقنى وتقابلت عيناى بالبريق الملون فى عينيها وكأننى تواطأت معها على ضرورة الخلاص منه.

كان المطر يتساقط وحصوات الثلج ترن على خشب السقف والنوافذ، وكانت «راكية» النار تتوهج أمامنا وتبعث فى المندرة دفئا كافيا وقد تركت الباب مفتوحا بعد أن تسرب كل الدخان من النافذتين، كنت أرى وسط الدار أمامى، وكرات الثلج الصغيرة تتقافز وهى تسقط فوق «طشت» النحاس المقلوب فيصدر عنها صوت مختلف عن تلك التى تسقط على حَجَر الطاحونة القديم وتلك التى تسقط على الأرضية العارية وسط الدار، كأننا كنا نترقب عودته دون كلام منطوق، مجرد نظرات صامتة لم نعتدها وإن اتفقنا على فهمها، كأنه حط علينا خرس مباغت بمحض اختيارنا ورضانا، سكتنا لزمن طال أو قصر كف فيه الثلج عن السقوط ثم عاود السقوط، كأننى كنت أعيش حلما يختلف عن كل ما ألفته معها من مجرد الكلام فى الفارغة والمليانة، وكأنما كانت روح الحاج فرج تحوم حولنا وتأسرنا وتجعلنا ندور فى مدارها إلى حد أنه عندما تنحنح مقتربا من الدار قمت على غير عادتى لأفتح له قبل أن يصل إلى الباب، ابتسمت له وكان يبتسم، كان جلبابه مبلولا وملطخاً من ذيله بمساحات من الطين الطرى الذى يتساقط بعضه مع قطرات الماء، خلع مداسه قبل أن يدخل القاعة ثم يتوجه إلى المندرة، فكرت أن أخذ مداسه وأخلصه من كتل الطين لكنها نادتنى:

- سيبى المداس دلوقت وتعالى شوفى جوز عمتك جايب إيه معاه.

تركت المداس ومسحت راحتى فى جلباب قديم، كان يخلص قبضته من فتحة جلبابه وتحته منديل محلاوى مربوط حول علبة من الصفيح، قال بزهو وهو يلتفت إليها:

- شوية عسل م المنحل بتاعك ياست فطوم، سليم النحال بتاع طوخ بيقول إنهم أكل ملكات، ما يغلاش عليكى، بيقول حته على طرف المعلقة كل يوم الصبح وتقومى زى الحصان.

كان يدفئ يديه على نار «الراكية» ويحكهما فى حركة سريعة منتشية،

وكان جلبابه المبلول مكوما فوق الصندوق وقد لبس غيره دون أن ألحظه، أومأت هى:

- هاتى لجوز عمتك فطيره من عمايل اختك نعمات يتغدى.

بـدت علـىّ الحـيرة لأن نعمـات لم تعمل فطيرا، ربما ادركت هى ربكتى فأسعفتنى:

- محطـوط فـ دولاب الحيطه والجنبه صحن الجنبه القديمة هاتى صحن فاضى نحط له معلقة عسل، يدوقه قبل ما احطه على لسانى.

فتحـت بـاب دولاب الحائط فوجدت فطيرة مفرودة تفتح النفس المسدودة، سـألت نفسـى كيف استطاعت أن تعجن وتلت وتفرد وتسوى فطيرة وقد دخلت عليها فوجدتها راقدة تئن، وان لم تكن هى التى فعلت فمن غيرها؟ وهل أصدق ما قالـته أمـى بـأن العمة تؤاخى الجن الساكن سابع أرض وتشغله لحسابها وقتما تشـاء، حضرت كل شيء ووضعته على صينية العشاء أمامه فمد يده وكور لقمة بين أصابعه وهمس بآلية لى:

- بسم الله.

كـان يبدو جائعا ولا ينتظر رداً، يلتهم اللقيمات المغموسة فى صحن الجبن القديـم الـتهاما، يـزدرد بنهم وشهية رجل مطمئن، ويتبلّع بماء القلة، لكنه كف فجأة، نظر إليها ثم على وقال بصوت مبحوح:

- ناولينى معلقة.

ناولـته الملعقة والصحن الفارغ ففتح بطرفها غطاء العلبة، ملأها من غذاء الملكـات وابـتلعها ثم أعاد ملأها وابتلاعها أكثر من مرة وبسرعة وكأنه يطفئ بغذاء الملكات نارا فى جوفه استشعرها فجأة، قالت هى وكأنها تكشف غطاء لعبة:

- حامى عليك؟

فهـق مـن حلقه عدة مرات وزاغت عيناه، احتقن وجهه وأحنى رأسه ثم تكور عن نفسه واضعا راحتيه على بطنه وضاغطا عليها بكل ما تبقى من عزمه.

- نا..ر.. نـ .. ا.. ر

مـد يده ناحيتها مستجيرا، خفت وقبضته ملمومة بقسوة وهى عاجزة عن الاقـتراب منها أكثر أو الابتعاد، كان هناك هدف خفى يسعى للوصول إليه عندها

ولا يقدر، وكانت هى تنظر إليه مجرد نظرات، هل امتزج خوفى منه بكراهيتى لها فى تلك اللحظة؟

- غ.. ى.. تـــ... ى.. نـــ..ى

قالها ولعابه يتساقط من شدقيه.

- خلاص يا فرج، دلوقت ترتاح.
- آه.. آه..
- سلامتك م الآه يا عشره ع الغالى.

كانـــت تندبه لنفسها وله وهو وحى، يسمع ويرى وينطق بعسر، ربما كان يســمع ويــرى بعسر لكنه كان معنا فى تلك المندرة المدفوسة فى آخر الدار من ناحية فراغ الواطية بعيد عن ناس الدرب، ينظر مرعوبا وربما يدرك ما جرى له أولا يــدرك علــى وجه اليقين، كنت أرقب فى هلع، منكمشة على نفسى فى ركن أتســمع خــبطات قلــبى كلمــا توقفــت هى عن الندب وهى ترفع راحتيها معا، مضمومتين فيما عدا السبابتين المفرودتين تحركهما إلى اليمين ثم إلى اليسار فى ليونة ونعومة وصنعة.

«نعش الغريب فـ البحر ما يمشى
كان خاطره فـ الحى ما قسمشى»
«نعش الغريب يوطى ويعلا لفوق
داير على أحبابه يبل الشوق»

وكـــان يرفرف بعسر كفرخ داسته خف جمل، ينشال وينحط مكانه بلا أمل، يـــتلوى ويئـــن ثم يكف، يصدر أصواتا لم تكن تخصه قبلا، مكتومة وعاجزة، هل أدرك الـــنهاية قـــبل أن تتســـع عيـــناه وتثبتان على نظرة لائمة نحوها فيها من الاســـتكانة والاستســـلام أكـــثر مما فيها من الاحتجاج، هل ارتضى شكل نهايته بتدبيرها على هذا النحو فأراح نفسه من كل عناء؟ سمعتها تأمرنى:

- اغسلى أيديكى بالميه والصابون.

خرجـــت فى اتجاه الطلمبة مترددة، فرغم الخوف كنت أود أن أعرف كيف تطلـــع الروح من البدن الحى، رأيت الحفرة العميقة التى تتسع لدفن رجل بطوله واقفـــا، هل حفرها الجن من أجل العمة؟ كانت العتمة قد سيطرت وضوء المصباح

لا يكفــى لبث الطمأنينة والريح تعابثنى وعواء الكلاب يتزايد فى أرض الواطية، ربما كانت تطارد الشيطان أو الجن الطالع من سابع أرض ليساعد العمة تلك التى رجعت إليها بعد أن غسلت يدى لأسمعها تحادثه.

- ح أعمــل لك أحسن خارجة، وح أجيب لك صييته من مصر، وح أخلى الخلق تتكلم عن موتتك اللى زى ميتة الأنبياء، ويمكن أبنى لك مقام.

كان هو يتمدد أو أنها مددته وغطت بدنه دون وجهه بملاءة سندسية اللون لم أشهدها قبلا، وبدا لى أنه كف عن التنفس واكتفى بالإطلال نحوها. ولد هشتى لــم أر أثرا للفطيرة أو الصحون أو القلة، اختفى كل شىء، كأنما انشفت الأرض وابتلعــتها، هل كان كابوسا رأيته خلال تلك الساعات أم أنها كانت مجرد تهيؤات تخيلتها؟

فى الدرب قالوا بعد دفنه شرب فشرق فمات، وقالوا سكر مخالفا شرع الرب وأكل فانكتم نفسه بينما كان نائما ولم يصح بعدها، وقالوا إنه كان مبروكا من أهل الخطــوة طــار نعشــه مــتعجلا الدفن، وقالت أمى إن الله أخذ من عمر الغريب وأعطاهــا، ذلك أنه فى أعقاب ذلك قامت العمة وتحركت من مرقدها، حسبناها فى أول الأمر مجرد واجبات تؤديها غصبا بسبب العزاء فى المرحوم، لكنها استمرت وتزايدت حركتها على نحو كذب تأكيدات الحكيم، وكادت أن تصبح كما كانت عفية وصلبة وقادرة.

قال علام إن البك الشلبى «كَدَّاب زفة» وأنه لا يستحق كل هذا الاحترام، أكد لمــن جــاءوا يهنــئونه بالخروج أنه كاد أن يخرج من القضية براءة لولا خيبة المحامى الذى اكتراه البك الشلبى، ذلك الذى حسب أن له كلمة فى الحكومة أو أنه معــروف عندها، صحيح أن ابنه ضابط فى الحدود وله زملاء ضباط فى السجون أراحوه فى الحبس وسمحوا له بالممنوع، لكن البك الشلبى نفسه خيب كل رجاء:

- دا حتى ما خدش البهوية رسمى.

تململــت العمــة احــتجاجا، خافت أن يتناقل أهل الكفر كلامه فتضيع هيبة الرجل، تراجع علام:

- ولا يمكن خدها بس ما خدمنيش.

- قول كده بقى، قول أنك منكاد منه.
- معلوم.. منكاد ع الآخر، ح أخبى عليكى؟
- كفاره يا علام، دول كلهم سنه وتسع أشهر فاتوا ما حدش حس بيهم.

دارت عيناه في وجوه الغرباء، لعله كان يمنع نفسه من الاستمرار في السخط على البك شلبى على مسمع من الغرباء، ولعله كان يتذكر كيف أنه يسلم نفسه إلا بعد تأكيدات الرجل وابنه الضابط بأن القضية سوف تنتهى ببراءة، وربما كانت غضبته لأن الرجل لم يكلف نفسه عناء الذهاب لزيارته فى الحبس، كان يربت على ظهر شاكر الذى كان طفلا ما زال ولا يدرك شيئا مما يقال، ربما لو كان أكبر بسنة أو سنتين لعايره الأولاد بحبس أبيه، ربما أنكسر خاطره بينهم، لكنه كان معى، أحوطه وأحميه من مكائد الكارهين، استأذن الغرباء وسلموا وما تبقى فى المندرة غير أولاد شلبى، نظرت هى إليه مليا قبل أن تلومه:

- اللى مالوش كبير بيدور له على كبير يا علام، وكلامك عن البيه بتاعنا قصاد الأغراب ينزلنا من نظرهم، ما يعملوش لنا حساب، داحنا نكبره مش نقل قيمته.
- ما فيش حاجة مستخبية يا عمة.

كانت أول مرة يناديها بالعمة، عله أرضاها بالنداء أولاً ثم كرر ما قاله بحماس أكثر وزود عليه، ذكرها أنه يعرف أن ذلك الكبير مجرد رجل بارع فى التعرف على الأكابر، بكوات وباشوات حقيقيين «سلكوا» له مصالحه وأنه إن كان قد زود ملكيته فى أرض البرارى وعمل لنفسه فيها تفتيش فلأنها أرض مشاع قابلة للامتلاك بوضع اليد، وهى أرض فقيرة المحصول قليلة الخصوبة، فدان الكفر يساوى خمسين فدان فيها، حاولت إسكاته فلم يستجب وردد حكاية دخول ابنه الحربية وكيف حصل على كارت توصية من باشا كبير تعرف إليه مرة بتقبيل الأيادى، عاودت محاولات إسكاته فاستمر، طول لسانه عليها فتدخل أبى يوصيه بأن يحاسب عل كلامه فانفجر فيه وقال له ما لا يليق:

- فضلت شايلك ومطاولك بمالى واسمى، عشت على حسى فى الكفر، والبندر سنين، سددت ديونك اللى خسرتها ف القمار وأخرتها إيه؟ اتفقت معاها وخدت الورق المكتوب عليك، زرتنى؟ كلفت خاطرك

وجيتنى أنت ولا هى؟.. ما تخلى الطابق مستور..

أطـرق أبـى مجروحا وعاجزا عن الدفاع وقامت هى محتجة تسب وتلعن وتقسـم ألا تدخل داره.. وعندما خرج الجميع وبقيت وحدى فى مواجهته كاد أن يضـيف المزيد لكنه تراجع قبل أن ينفلت اللسان، سحب الولد فى يده وخرج وما عاد إلا بعد أن انتصف الليل بزمان.

بعدهـا صارت حياتى معه على كف عفريت، لا أمان ولا اطمئنان ولا ثقة، كـان يمـنع نفسه من الكلام فى الدار أو حتى مجرد شرب الشاى، يخرج وقتما يشـاء ويـرجع وقتما يشاء، بوزة ملوى والوجه دائم العبوس، ويوم مولد سعاد تحول الأمر إلى محزنة، أول ما عرف أنها وسمعت خطواته خارجا ولم يرجع إلا بعد أيام، هل كنت قد أفقدته أخر الآمال بولادة البنت على غير إرادة منى؟ أو أنه كان يبحث عن أى شىء يتعلل به ليكمل حولى دائرة الخصام؟ لا يكلمنى ولا ينظر ناحيتى أو يطمئن على حال البنت، ضناه التى تتوجع وتصرخ وتحتاج إلى رعايته فيصـم عـنها أذنيه ويقسو عليها قلبه بلا ذنب، كان يحوط الولد بذراعيه ويربت علـى ظهـره فـى حنو وكأنه يعاندنى باحتواء الولد وإهمال البنت، لا سألته ولا حاولـت أن أطلب منه التفسير، كان يرجع فى الليل حاملا لفافة طعام من البندر، يوقـظ الولـد مـن أحلى نوم ويدهوه للأكل، حتى لو كان الولد شبعانا يحايله أو يجـبره على تناول الطعام، ويما فى إثر اجتذب الولد إليه، يأخذه ويسهر به حتى سـاعة متأخرة، لا أدرى أين ولا يتيح لى فرصة الاعتراض فاطمئن نفسى بنفسى لأرتـاح مـن قلـق يساورنى ويشقينى، ومرت الأيام انعزالا بلا رجاء، كبر الولد وملأت البنت أركان الدار رمحا وثرثرة وهو يرقبها من بعيد، كأنها لا تخصه، إن نادتـه يتشـاغل وإن رد فبجفاء أو اختصار، هل كانت فى الثالثة أو الرابعة يوم ضحك لها أول ضحكة؟ ربما أجبرته خفتها على أن يجاريها فاستبشرت خيرا وفى الليل حدثنى عن ضرورة وضع نظام جديد للدار فلم أمانع:

- الولد ح يدخل المدرسة، وأنا مش ح أسرح بيه ليل ونهار.
- محدش قال كده.
- يكفيكى ربع جنيه ف اليوم؟
- يكفى.

- تمسكى أيدك شوية ف مصروف البيت.
- أكتر من كده؟
- الكسوة ف القطن.
- ومن غير كسوة خالص.

كنت غاضبة، كأنه يجود علينا بثمن اللقمة ويمن على بمطالب العيال، لكننى كنت راغبة فى استمرار الحياة، قلت أدبر حالى فى حدود المصروف، أربى البط والحمام والأرانب والكتاكيت واعتمد على شغل الدار وشقاء من يحكم عليها الزمان بقلة القرش فى متناول اليدين، واستمرت الحياة مستورة لا تنكشف اسرار الدار، حتى عندما كان يتعمد أن ينقص القروش بحسب هواه لا أتشكى ولا أبوح، أتحامل من أجل الأولاد، ومن تعبى كنت أوفر القرش على القرش، ثمن البيضة والفرخة والبطة والأرنب، اشتريت ماكينة الخياطة وعلمت نفسى بنفسى تفصيل الملابس للأولاد ونسوة الدرب، وكلما وجدنى قادرة على تدبير مطالب الدار كف عن دفع المصروف، افاتحه فيلاوعنى:

- مصروف إيه اللى أنتى عاوزاه؟ دانتى داخل جيبك النهارده نص جنيه، فاكرانى نايم على ودانى؟

لا أجادله، أقول لنفسى مادمت مستورة فلا داعى للقرش الذى يقطعه من جلده بطلوع الروح، أقص جلابيب النسوة والأولاد وأدقها على الماكينة وأقبض، أشترى السكر والشاى والأرز والزيت من الدكان مثل الغرباء، وعندما مزق الولد جلبابه حاولت أن أزود وعيه، كيف أننى أشقى وأبوه لا يشغل نفسه بمطالب الدار لكن الولد رد على بسفالة:

- وإيه يعنى؟ اشترى غيرها.
- منين يا شاكر؟
- من فلوس أبويا، مش تحمدى ربنا اللى معيشك عشان خاطرى..

كلام كبير على الولد، كلام محفوظ، كأنه رمى على رأسى لتر «جاز» وأشعل فيه النار، قمت أبحث عن عود حطب واضرب الولد طويل اللسان، وكلما ضربته بعود الحطب طول لسانه أكثر بكلام لابد أنه كان يسمعه ويردده دون أن يدرك معناه، كنت فى غير وعى حتى انزرع علام أمامى، ضربنى بكل غل فأدمى

فمــى، شــعرت بأســنانى تــنزف وبواحدة منها تسقط فى فمى، واستمر يضرب ويضــرب، ويسـب ويلعن ويعاير ويتهم ويقول مالا يقال، وعندما أتعبه الضرب جلس وعيناه تنضحان كراهية لم أشهدها فى عينىّ عدو أو حبيب.

- طول ما أنا عايش ماتمديش إيدك عليه.

كانــت الــدار مزحومة بالنسوة والرجال وكنت تائهة وهم يحاولون معالجة جــرح الفــم النازف والسن المكسور، ترك هو الدار ساعة أو ساعتين، كانت أم بكــرى بجــوارى، تجاملــنى وتحاول أن تدارى شماتتها فلا تفلح، وعندما دخل المندرة حاولت هى أن تفتح معه الكلام فأخرج ما كان مدفونا فى أعماقه:

- أنا ما حيلتيش غيره، تضربه إزاى..؟
- مــش أبنها ياسى علام؟ طيب دانا ياما ضربت بكرى اللى أنت بتشوفه ده.
- مش كل الناس، دى حيا لله ماعون.
- يوه.. جرالك إيه ياسى علام.. دى أمه مهما كان..
- وإيه يعنى.. طيب ما هى عندها شحط ما تعرفش فين أراضيه، اسأليها إن كانت تعرف شكله إيه؟ هى الحنيه كلام وبس؟
- دانت شايل بقى ومن زمان..

قالت هى وقد زادت نغمة الشماته، ولم يكن عندى غير ترك المكان، جمعت ثــيابى فى صرة وهى تحاول أن تمنعنى بالكلام وتدفعنى فى حقيقة الأمر إلى ترك الدار.

- طيب خليكى للصبح.. النهار له عينين.
- سيبيها يا أم بكرى..
- دى دار أبوها خراب، ح تروح هناك تسخم إيه؟
- سيبيها يا أم بكرى.

وخرجت بالليل، كنت أتعثر فى خطواتى واوشك على السقوط، لعلنى بالفعل ســقطت فارتكــزت علــى ركبتى وواصلت المسير حتى وصلت، دخلت الخراب، مجــروحة ومهانة وعاجزة عن البوح لمن كانوا سببا فى العناء، والبنت معى، لا أعــرف كيف جاءت ولا أذكر أننى كنت قد فكرت فى أخذها أو تركها، كأنها كانت

مــربوطة معــى بخــيط خفى لا ينفك، رقدنا بالهم حتى طلع صباح مضبب، أمى بطــرف طرحتها التى تشد بها دماغها كانما تخشى عليه من الضياع، وأبى بشلل شاقه وذراعه ونصف وجهه واللسان، هل اعتذرت عينه القادرة على الإطلال عن الخطــأ القديــم الــذى لا يداويه طب ولا دواء هل كان يستدر عطفى لأعفر له ما وصــل إلــيه حاله أو يشركنى فى همى، كان هو وهى سببا فى ميلة البخت منذ الــبداية لو لم تمتد يده ليأخذ مصاغى ويخسر ويأخذ مزيدا ويبيع ويخسر ويأخذ ويكتــب دون أن يفكــر فى السداد ما وصل حالنا إلى ما وصل إليه، لو أبقى على الدار ما نزلت عند علام من فوق الرأس إلى أسفل القدمين.

وكأنمــا كــان علام يصفى حسابه القديم منى، لا سأل ولا أرسل من يسأل، كأنــنى سقطت فى جب مكسورة القلب وواحدة من الأسنان، طالت غضبتى، دارت السنة أو أوشكت على الدوران، أرسلت عشرات المرات أطلب ماكينة الخياطة فما جاءنى رد، طلبتها منه مرارا فاخجلنى بالرفض أمام الغرباء.. وكابدت شقاء الأيام الســود وقد عز كل شىء، اللقمة والهدمة وجرعة اللبن للبنت، فكرت فى العمة، تلــك الــتى خاصمت أبى وقاطعته بعد أن أخذ من صندوقها تلك الأوراق الملعونة التى احتفظت بها باعتبارها كبيرة عائلة مأمونة فخاب فيها الرجاء، عندما ذهبت إلــيها قابلتــنى بجفاء وحدثتنى بغلظة، أعلنت أنها تبرأت من أبى ومن كل نسله فانكســر خاطرى ورجعت من دارها وقد انسدت الدنيا فى وجهى من كل الأركان، حــتى تربية الكتاكيت لم تنفع لأن الفئران والعرس كانت تسكن الدار وتقضى على الطــيور، رغــيف السن وقطعة اللفت غذائى، وكل ما أوفره لا يكفى ثمنا لقطعة الســكر وجرعة اللبن للبنت كأننا انقطعنا من جذورنا فما عاد يطل علينا أهل ولا غــرباء، حــتى نعمات التى بعثت لها رسالة لم تسأل، ولا أدرى إن كانت الرسالة وصــلتها أو أنهــا تاهت فى البريد، وعلام عارف دون ريب ما صار إليه حالنا، ســارح بــالولد فى الدرب ومسيطر عليه بحيث لا يلتفت إن رآنى، ولابد أنه عبأه بأكاذيب محبوكة عنى لا يملك أن يخلص منها، ولا أملك غير الانتظار ليوم يجىء أطلــع فيه من عمق الكابوس الممتد، كابوس الفقر والعوز محاطا برغبة التماسك وبقايا إصرار على عدم الانكسار التام، ولا أذكر فى أى ليلة من ليالى «برمهات» ســمعت صرخة أمى المفجوعة فيه بوهن، أذهب لأراه ممددا على فراشه فأحبط صــدرى مصدومة بالموت الذى أراحه وخطنا فى مواجهة مطالب التكفين والدفن

وطلـــوع المواسم من خراب الدار، لكنهم شالوه وتحدثوا عن كرامته ونزاهته فى الزمـــن القديـــم، قبل أن يفرط فى كل شىء، أبواب وشبابيك وعروق سقف داره، دكانـــه وتجارته وماله الذى رماه فى مجالس الشرب والقمار، ولم يكن هناك غير مندرة واحدة مسقوفة بلا باب وقاعة مدفونة تطل على فراغ الواطية استخدمناها فـــى الزمن القديم للخزين، وبقايا جدران من الطوب الأخضر تتقافز عليها الكلاب الغريبة فى وضح النهار، وما تبقى لى غير القدرة على الاحتمال، مجرد الاحتمال.

خلـــت عليها الدار فكانت تستدعينى لألازمها أكثر الأوقات، تكسينى وتزود مصاغى، تشجعنى على إعداد الطعام بإشرافها وهى راقدة على فراشها، مرضانة أكـــثر الوقـــت ينتابها صحو لا يدوم، إن جاءها الزوار تماسكت وجلست فبدت لى ملكة من بنات الملك الشلبى فى حواديت الجد هارون، ملكة لها شعر أصفر غزير مضـــفور فـــى ضفيرتين طويلتين، تجلسنى بعد رحيل الكل إلى جوارها وتؤكد لى أننى كنت شاطره، تحوطنى بذراعيها المكتنزتين وربما تعابثنى فأضحك وتضحك، أتمـــدد إلـــى جوارهـــا وقد أشعر بنشوة وأنا بين الصحو والغفلة، أتشمم رائحة أنفاسها وهى تحادثنى:

- شاركت لك على عجل بقر باسمك فـ دار زينهم الساكت.
- كتر خيرك يا عمة.
- وح أكتـــب لـــك أرض باسمك لجل تبقى مسنوده، خايفة أموت قبل ما أشوفك فـ بيت العدل.
- يديكى طولة العمر.
- كبرتى يا شوق وبقيتى عروسة، ورينى كده.
- لسه بدرى..
- ابن عبد القادر كان فايت م النواحيدى ليه؟
- وأنا إيش عرفنى؟
- صحيح سايب بنت عمه وقاعد فى مصر..
- .....

ربمـــا أغفـــو إلى جوارها، وربما أسرح بخيالى فى البعيد، أفكر فى الأرض التى وعدت بكتابتها والمواشى التى شاركت عليها باسمى، أمنى نفسى بزمان من الهناء والمتعة مع صاحب النصيب كما كانت تقول، ورغم طول مدة مرضها كنت

أرى فـــى عينـــيها الخضراوين بزرقة إصرارا على البقاء يرفض أن يبدو عليهما الوهن.

يوم «سبت النور» قامت من مرقدها قبلى، كحلت عينيها وجلست فى صحن الدار، نادتنى فقمت، طلبت فطورا من قشدة وجبن قديم وبيض مقلى بسمن وعسل نحـل، كانـت تـأكل بشهية وتدعونى لمشاركتها، قالت إنها تشعر بتحسن وإنها خلصـت مـن زمـن الرقاد، فرحت بصحوتها وجلست أتسمع لكلامها عن قسوة الوجع الذى كانت تداريه:

- دانا كنت شفت الموت بعينى ومداريه عشان ما أزعلكيش.
- حمد الله على سلامتك.
- عاوزاكى تحشى لنا جوزين حمام بالفريك.

قالـتها بصوت بدا لى غريبا فتحيرت، ربما كنت أفر من المكان وأنا أبحث عن الزغاليل فى «بنانى» الحمام، وعلى غير توقع رأيتها قبالتى وفى يدها سكين الذبـح يلمع نصله فى شمس الضحى والدار ساكتة إلا من صوت الذباب الأخضر الـذى لابد وأنه جاء من ناحية المدافن، كنت أمسك لها رءوس الزغاليل فتقطعها قطعا وتأمرنى بأن أرميها خلافا لما اعتادته عندما كانت تحرص على إبقاء الرأس معلقا بجسم الطائر، جمعت الزغاليل فى غربال ووضعته على ظهر الفرن، أشعلت نار الكانون ووضعت الماء، خفت عليها من وقدة الشمس التى حميت فطلبت منها أن ترتاح فى الظل فبدا لى وكأنها لم تسمع أو سمعت ولم تهتم، جلست «أسمط» الزغاليل واحدة فى إثر واحدة فى الماء المغلى:

- اللى تنضّفيها هاتيها أطلع لك حوصلتها.

كان صوتها يزداد غلظة إلى حد أخافنى فلم أعارض، كنت أناولها الحمامات فـــى صمت فأسمعها تتكلم مع الطيور التى تتصايح وتتقافز فى وسط الدار، أطرد من ذاكرتى كل الحكايات التى سمعتها عن الجن وعفاريت الظهر الأحمر، أتمنى لو تسـكت أو أجـرؤ على طلب سكوتها، لكنها كانت مستمرة، فكرت فى البحث عن حجة أخرج بها من الدار فلم أصل إلى سبب معقول يمكن أن يقنعها، ربما لم أكن خائفة من حديثها الذى لا يليق للطيور وكأنها بشر يعقلون، وإنما هو ذلك الفحيح الغريـب والنبرات الجافة التى تخرج من حلقها على هذا النحو لأول مرة، لعلنى

حبست صرختى المستجيرة خوفا من فضيحة تنالنى وتنالها إذا جاء الغرباء، كنت محبوسة فى اختيارى لسكة الاحتمال، أن أحتمل حتى لا تصفنى هى أو غيرها بالجنون، ربما تفزع هى أن فعلت وتندم لأنها اختارتنى لها ابنة وعوضا عن كل عمرها الضائع بلا خلفة، وكيف لا أحتملها والكل يعرف بمرضها وليس على مريضة مثلها من حرج، كان الحمام المحشى يطيب والعرق يشملنى وربما ارتجفت أصابعى وأنا اختبره:

- إن كان استوى هاتى فردة.

قالتها بنفس الصوت فانتشلت واحدة ووضعتها فى صحن غويط قدمته لها وصاج الصحن يلسعنى، أخذتها فى قبضة يدها اليمنى دون أن يبدو عليها أنها تأثرت بالسخونة وراحت تقضم منها والدخان يخرج من فمها مع كلماتها وهى تمضغ، وقبل أن تكملها قالت بنفس الصوت:

- هاتى فردة تانيه.

كان صمت وسخونة وصهد شمس قيلولة وصوت غليظ وعينان تطلبان وفم يبتلع النار ولا يخشاها، وفى القلب رعب من أن تكون تلك الجالسة أمامى واحدة من تحت الأرض على شكل العمة، ربما لو دخلت المندرة أرى عمتى واحتمى بها من تلك الغولة المتربصة لى تحاصرنى بطلب المزيد وأناولها وتبلع حتى أتت على ست حمامات محشية بفريك وسألتنى.

- فاضل ف الحلة يا بت؟

- لأ..

قامت ومشت أمامى ثم دخلت المندرة وتمددت على فراشها، لعلها أسبلت عينيها وأغفت فرأيت العمة وطردت فى ذاكرتى تلك التى لابد أنها ما زالت فى وسط الدار تقلب فى الحلة التى تغلى على الكانون، تبحث عن بقايا الفريك الساكن فى قاعها لتبلعه.

جلست على الأرض أقاوم الرجفة التى سكنتنى حتى تقلبت هى وقالت بصوتها المألوف بينما تجلس:

- هاتى القلة.

ناولتها القلة فشربت وشربت حتى أفرغتها فى جوفها، هل بردت بالماء

سـخونة الأحشـاء فعـادت كما كانت تبتسم وتبعث فى قلبى الطمأنينة؟ تجشأت فشممت رائحة «تقلية» ثوم محروق قبل أن تعاود الرقاد فى سكينة.

فى الليل قامت من رقدتها، جلست وسط من جاءوا يهنئونها بسلامة القيام مـن رقـدة المـرض، أمرتنى فسقيتهم من شايها وسكرها، أطعمتهم من كعكها وتمرها المخزون وسمعتهم يتهامسون فى الأركان بأنها مثل القطط بسبعة أرواح.

كـبس المخـبرون على الدكان وحوطوه وبعث الضابط شيخ الخفراء يطلب منى المفتاح، كان يرتجف وهو يحادثنى:

- بايئه بلاغ تموين ياست أم شاكر، هاتى المفتاح..

أخـذت المفـتاح بنفسـى وذهبت، سألنى الضابط عن علام فقلت لـه غير موجود، قالوا له إنه ترك المفتاح معى فطلبه وطمأننى، فتح ودخل مع المخبرين.. قلـبوا فـى الأركان وخرجوا ومعهم شىء ملفوف فى كيس قماش، عاود الضابط سؤالى عن علام فجاوبته بعدم المعرفة همس فى آذان المخبرين والعسكر فوقفوا فـى الأركـان، سألته عن غرضه فلم يكشف لى سر التفتيش أو الانتظار، لمحت زعتر المواوى وأنا راجعة ارتجف من الخوف فطلبت منه أن يبحث عن علام فى السـوق ويخبره بما جرى، وجلست انتظر، فى العصر طلبونى وسلموا لى مفتاح الدكـان وأوصـانى الضـابط بإبلاغ علام ضرورة أن يسلم نفسه، ركبوا البوكس وطلعوا من الكفر، قال الناس إنهم ضبطوا فى الدكان مخدرات وقالوا أوراق عطة مـزورة وقـالوا ممنوعات وقالوا سلاح بدون ترخيص وكثر كلام الناس وظللت سهرانة وحائرة وعاجزة عن تصديق ما كانوا يرددونه من أن الأمر لا خطر فيه، حتى دخل زعتر المواوى وهمس فى أذنى:

- لقيـته فى بيت الدباغين وقلت لـه، بيقولك ماتقلقيش لو بات ليلة ولا اتنين أصله ح يروح لبيه ف البرارى..

وفاتـت أيام رجع بعدها علام متخفيا فى الليل، دخل صامتا ثم جلس، لامنى لأنـنى سـلمت لهم مفتاح الدكان فلم أدافع عن نفسى، استمر قلقا، يطل من جنب النافذة ويتأكد من خلو الطريق من الأغراب:

- دى تهمة باطلة ومتلقحة علينا.. مخدرات إيه وبتاع إيه؛ حد عامل فينا بلاغ.

- مين؟
- وأنا إش عرفني وأنا كنت أجيب أجله..
- والعمل؟
- المحامى ح يكلم البيه بعد ما يطلع ع الأوراق.

وعشنا أيام القلق، أن دخل الدار غريب يختبئ فى الزريبة أو يطلع الكرار، يلبد فيه ولا ينزل إلا بعد الاطمئنان من خلو الدار.. كان يتشكك فى كل خطوة تقطع الدرب ويتهم الجميع أقارب وأغرابا حتى جاء البك الشلبى ونصحه بتسليم نفسه، طمأنه بأن المحامى سيخرجه من القضية مثلما تطلع الشعرة من العجينة أوصاه بأن يقول إنه كان مسافرا ولا يعرف شيئا عن الموضوع وأنه لن يتكلم فى غير وجود المحامى..

لم يطمئن قلبى رغم كل التأكيدات بأنهم لن يحبسوه، وعندما ذهب بنفسه ليسلم روحه بكيت ظلم الخلق وعداوة الكارهين، وقف حالنا أياما وأنا حائرة كيف أتصرف حتى همست لى العمة بأن أقف بنفسى فى الدكان أبيع وأشترى، وافقتها وفتحت الدكان، وكان خوفى من القضية كبيرا، كنت أزور علام وأنفذ كل طلباته من خير الدار والدكان، أدس فى يده الجنيهات ليشترى راحته حتى يخرج من الحبس بسلام، كان بنفسه يطمئننى فى كل مرة على المصير وكيف أن المحامى شاطر ومعارف البك سوف يسهلون له كل الصعاب، أبدى استحسانه لأننى فتحت الدكان، كان يسألنى عن الولد بلهفة فأطمئنه، يحذرنى من اصطحابه معى حتى لا يراه محبوسا يتحكم فيه العساكر والمخبرون.

قابلنى السبكرى وأنا راجعة، رآنى وهو جالس على المقهى فى أول سكة الكفر فقام.. حمل بضاعة الدكان فى صمت وسألنى عن حال علام، طمأنته بأنه بخير وأن المحامى وعده بالبراءة كما وعده البك:

- براءة إيه بس.. دى القضية لابساه.

شعرت بوجع فى بطنى وصداع فى رأسى، كانت فى ملامحه شماتة زودت كراهيتى له، لكننى تماسكت، قلت لنفسى أجاريه وأشترى منه لأعرف ما يعرفه وربما يداريه إن أبديت غضبى، قطع علىّ سرحانى.

- لا كان لكى ولا كنتى له.
- نصيب يا بكرى.
- أهــو أنتى فيها.. دا كل يوم مغضبك ومش عامل قيمة لحماه.. فاضحه ف كل الناحية.. وايه يعنى لما يكون اداه قرشين سلف..؟ يكسر رقبته؟
- ايوه غلطان يا بكرى.. خدهم يعمل بيهم إيه..؟ ضيعهم فى الخسارة.
- مــا حــدش قــال حاجــة.. بس يكتب عليه ورق ويبيعه حته الأرض، مالكيش عنده خاطر خالص؟ مخلفة لــه ولد زى خلف الملوك، واخداه على عيبه، دا واخد قبلك تلاته ما خلفش منهم ومبقالوش سعر غير بعد ما خدك.
- نصيب بقى. منهم لله اللى كانوا السبب.
- عارف، هو ح ياخد حكم ح ياخد حكم، ساعتها تطلبى الطلاق..
- طلاق؟
- ايوه.. وتشوفى حالك، عارفه الورق اللى مكتوب على أبوكى فين؟ فى دولاب الحيطه.. عند عمتك فطوم.
- عمتى..؟
- امــال انــتى نايمة على ودانك، دى وصولات أمانة تودى فى داهية.. وشيكات على بنوك، هو انتى أبوكى له فلوس فى البنوك؟

كان يبدو كما لو أنه اندفع وباح بأسرار خطيرة بلا مقابل، وكان يرغب فى أخذ الثمن ولا يعرف كيف يطلب:

- أنا لولا باعزك طول عمرى ماكنتش أقولك على حاجات زى دى.. إنما أنتى أختى مهما أن كان.

جاريته فاستمر يحدثنى عن تجارة علام المكشوفة فى الصنف، عن علاقته بأولاد الدباغين وخطورة الاستمرار معه وهو يمشى فى سكة الخطر. كل ما فعلته هــو أننى سايرته، وربما تعلمت فى ذلك المشوار درسا لن أنساه، فأى رجل فى كفــرنا جاهز دائما للبوح بأخطر الأسرار إذا صادف المرأة التى تعرف كيف ومتى تدفعــه لأن يــبوح، وعرفــت أنه ليس بخسارة السمعة أو الخلاعة فى القول أو السلوك فقط تستطيع الواحدة منا أن تستخرج المخبوء، ففى وسط ناس مثل ناس

كفـــرنا يلزم أن تحتاط الواحدة لنفسها من مطامع الخلق فى الأزمنة الصعب أكثر من المألوف، وأن الحرص لا يكون فقط من الغرباء وإنما من أقرب الأقارب أكثر، لقــد كـــان يتخيل نفسه أبو زيد الهلالى وعنتر ابن شداد عندما ابتسم لـــه مجرد ابتسامة فيفاجئنى بمزيد من أسرار الكفر لينال دهشتى، مجرد الدهشة.

عندما بانت بيوت الكفر خلف الزراعات رغبت فى أن أبعده عنى دون صد، ربما أحتاج إليه رغم كراهيتى له، قلت أحذره:

- مـــا بلاش ندخل الكفر مع بعض يا بكرى، أنت مايرضيكش الناس تتكلم على بنت خالتك، يا تسبقنى يا تتأخر عنى.
- ومالـــه يـــا خـــتى، ماله، عين العقل برضه، أنا ح أركن هنا واتفضلى أنتى.. الحاجة ح توصل لحد عندك.

تـــباطأت خطواته التى كانت توازينى، فكرت أنه احتفظ بالبضاعة لكى يأتى بعد ساعة ويصدع دماغى بالمزيد من الحكايات، كان قد زرع الشكوك فى دماغى بـــالقدر الكـــافى، وكنـــت متأكدة أن كلامه لم يأت من فراغ، ربما هو نفسه كاتب الـــبلاغ، وربما يتأخر فى الصنف، تغيرت أحواله، لبس الصوف وحط فى أصبعه خاتم ذهب وداوم على نزول السوق، يشترى المواشى ويبيع بعد زمان كانت أمه تصـــرف علـــيه وتتشكى من قعوده على بوابة الدرب لا شغلة ولا صنعة، ينتظر موسم الحصاد وسرحان أمه فى الأجران تنسف القمح قبل تعبئته فى الأكياس، ابن النســـافة يضع العباءة فوق الكشمير مثل الأكابر ويحرضنى على الزوج أب الولد لأطلب منه إن حبسوه الطلاق، قلت لنفسى اسيره بحسب إرادتى وهواى، وقلت لن ينال منى أكثر من أن أمنحه مجرد استعدادى لسماعه دون نفور وابتسامة دهشة تدعوه للبوح بأخطر الأسرار وقول المزيد.

كنت فى المقعد البحرى أطل على الدرب، رأيته بالمعطف فوق الجلباب يطل هـــو الآخـــر بطرف عينه ناحية الشباك، كان طربوش النشر على رأسه والعصا «المحلـــب» فـــى يمينه، يحركها مباهيا وكأنه يشهدنى على قدرته فى تحريكها، تـــباطأت خطواته وحط يمينه فى جيب صداره وأخرج الساعة المربوطة بسلسلة تلمع، داس عليها فانفتح غطاؤها وبانت عقارب الساعة، رفع عينيه ناحية الشباك ليطمئـــن إن كنـــت أراه وابتســـم، انسحبت للخلف وأنا ألهث فى ارتباك وحيرة،

وعـندما عـاودت الاطـلال رأيت ظهره وهو يخطو ناحية الدكان بطوله الفارع وعصاه الضارب فوق أرضية الدرب بخفة، وعندما انحرف ناحية «الشرم» جلست وأنفاسـى تـتلاحق، لا أدرى خوفـا أو قلقا أو فرحة، تنحنح البكرى فقطع خيطا منسوجا بمشاعر أجهلها وأود لو امتدت أطرافه:

- ابن عبد القادر ابن الجن الأزرق مايفوتش من هنا.

سمعت صوت بكرى فنظرت لأراه واقفا مع ابن الجازية الكبير، أطلا ناحيتى فشعرت بنفور، جلست ولم أعاود الإطلال إلا عندما سمعت صوت العصى ترتطم، كـان هـو بينهما بعصاه وعلى وجهه ابتسامة واثقة، وببوز الحذاء «الأجلسيه» شـنكل ابـن الجازيـة وأصبح همه أن يطول دماغ البكرى حتى جاء أبى، وكفت العصى عن الارتطام..

- يـا بـنى دانت اللى ما يعرفك يجهلك، دا إن ماشليتاكش الأرض نشيلك على دماغنا من فوق، داحنا أهل وحبايب.

كان أبى يحادثه وكان البكرى واقفا بصفرة وجهه المغلول ينهج وخلق كثار مـن أهـل الـدرب يحوطونهم ويطيبون خاطره، دعاه أبى لشرب الشاى فاعتذر ورأيـت وجـه العمة يهل ويدخل دائرة الزحمة، نظرت إلى الشباك فقالت عيناها كلامـا أخجلنى، هل كانت تلومنى لأننى كنت أبارك ما قاله أبى وهو يودع الغريب عن دربنا برقة، ذلك الذى تحدثوا عنه بليل وهم ينظرون ناحيتى دون أن يتوجهوا إلى بلوم أو اعتراض.

قالت أمى:

- علام رجع لشرب المعوق.

كأنهـا أسقطت فوق دماغى جدارا من طوب أحمر أو سقف مندرة مسنودا علـى كتلة حديد، أوصتنى أمى أن احذره وقد صار لـه ولد، ذكرتها باعتراضى فتجاهلت كل ما كنت أقول:

- الحكومة اليومين دول بتقفش الناس عمال على بطال.. اللى بيتاجر فيه واللى بيتعاصاه.. أنا قلت لك وإنتى حره.

قالت ثم قامت، رمتنى فى البحر مكتوفة وطالبتنى بالعبور إلى الشط البعيد، جاءنى بعد أذان الفجر بعوده النحيل عاجزا أن يصلب طوله، أبدى دهشته لسهرى

ولهفته على الولد الوليد، اقترب منه يطمئن عليه ولم يكن مالكا لوعيه:

- جراله حاجة الولد؟
- لا..
- اوعى تقولى سهرانة استناك.. دى تبقى القيامة قامت.
- كنت فين لدلوقت..؟
- إنتى ح تحاسبينى؟ كنت مطرح ما كنت.

قالها بوعى وعناد أغاظنى، كنا قد اتفقنا أن يمشى فى الطريق المعدول، أن يترك المفاسد القديمة، هل كان يريحنى ويريحهم ليصل إلى غرضه ويفعل بعد أن يتمكـــن منى ما بداله؟ وهل أخطأت عندما طاوعتهم وكذبت مشاعرى بالخوف من أنــــه لن يفى بالوعد وإن حلف على البخارى؟ طالبنى وقد طلع النهار أن أجهز له العشـــاء، أى عشـــاء؟ فطورك عشاء وعشاؤك غداء الملامة دائما.. دائما يلتف حولــــى مثل ثعبان بارع، يخطئ ويسب ويلعن وأحيانا يضرب ثم يخرج من جعبته كلامـــا باطلا يلبسه ثوب الحق فأصبح غطانة، أغضب ويصالحنى بوعود ولا يمل الاعتذار.

فــــى دارنا قلت إننى لن أطيق مزيدا من الاحتمال، استشهدت بما قالته أمى أمــــام أبى والعمة فأنكرت أمى أنها قالت، عجبت لأمرها، تخافهم أو تكذب، نظرت إليها العمة تلومها لأنها باحت لى بسر معروف للكل ما عداى، كان أبى يطل فقط ولا يتكلم.. تتكلم العمة تحاول تهدئتى مثل كل مرة لكننى صرخت:

- مش ح أرجع له.
- والولد..
- الولد معايا..
- أهــو كــلام.. مــا تقول لبنتك يا عبد الستار.. أبوكى غرق ف الدين، مانفعوش غير علام.. كاتب عليه وصولات.. لو عاندتى ح يبعه الأرض والدار والدكان.. ومش بعيده يحبسه كمان..

نظرت إليه وهو ساكت بعجز، مطرق برأسه لا يواجهنى، كأننى نذرت نفسى للاحـــتمال مـــن أجلـــه رغم إرادتى، وكأن العمة نفسها تواطأت ضدى وضد أبى لحســـاب عـــلام فجهزت نفسى للعودة إلى داره مغصوبة وعاجزة وقد سقط آخر

جدار كان يداريه ويداريهم، وتبدى لى أن حياتى توشك على الانتهاء، وأن إرادتى ليس لها عندهم حساب.

نعمات طلبها ضابط الحدود ابن ساكن البرارى، جاءوا بعشرات الجمال يركبها عسكر الحدود «البرابرة» ازدحم الكفر بهم والأهالى معهم وحولهم يضاحكونهم ويقلدونهم دون خوف من كرابيج أو أوامر بالرقاد فى الدور بعد العشاء، جاءت الغوازى من أرض البرارى بثيابهن الشفافة المشغولة بخرج النجف والترتر والخرز الملون، يرقصون عند بوابة الدرب وعلى أبواب الدور، وناس الكفر يتوافدون يهنئون ويلعبون بعصيهم أمام البك وابنه عزيز ببدلته الحربية والتاج على كتفيه ذهبا خالصا، وعمتى فطوم ترقص عند بابنا وتميل فتفتن القلوب وتكيد الأعادى والناس تتمنى لى فرحا مثل فرح نعمات:

- لو كان له أخ كان خد أختها.

ولف فى دروب الكفر «نقرزان» على جمل وخرجت البنادق والمقاريط غير المرخصة وانطلقت الأعيرة، وجاء خلق كثار وعند الدوار وقفت أول عربة ملاكى تدخل الكفر وتمشى بالبنزين ولا يجرها خيل ولا حمير فكانت عجيبة مثل تلك التى يملكها الباشا كبير البندر ساكن مصر، كانت ليلة لا شاف مثلها أهل الكفر ولا سمعوا، وفيها رأيته خلف أبيه عبد القادر بطربوش النسر والجلباب «السمنى» والعصا الأبنوس، دخل دارنا وتهامس وهو فى المندرة مع أبى بكلام.. وهو خارج بحثت عيناه عنى حتى رآنى.. ابتسم وأشار بيده الخالية ولعله قال كلمة لم أسمعها قبل أن يخرج فى أعقاب أبيه..

- عقبالك يا شوق.

قالتها أم بكرى فشكرتها، استمرت وهى تضحك.

- ح ناخدك لبكرى.

تركت المكان ولم أرد.. فى الزحمة همست أمى..

- كانت بتقولك إيه؟

لم أرد، أطرقت فى ضيق:

- دا لما يشوف حلمة ودنه.

قالـــتها وتركتنى، ربما فاتحتها أم بكرى ولم توافق وربما كان فى دماغها كلام لم تبح به وسط الزحام، لكننى شعرت براحة وتأملت وجه نعمات الحلو الذى زوقوه بالأحمر والأبيض وهى تجلس إلى جوار ضابط الحدود.

فـــى اليوم التالى شالت الجمال شوارها من نحاس وثياب وفرش وداروا به فـــى دروب الكفر قبل الرحيل، وفى العصر سافرت نعمات مع العريس، بكيت من أثر الفراق فداعبتنى العمة فى حضور أبى وأمى:

- بكره تحصليها، هو مش طلبها يا عبد الستار؟
- طلـــبها.. بـــس أنا اتزنقت ف شوار نعمات، اندينت يا فطوم لجل أطول رقبتكم ف أرض البرارى..
- إن كـــان على شوق.. جهازها وشوارها من كله من عب عمتها.. بس هى توافق ع العريس..

قمت خجلانة وفرحانة ومطئنة وحالمة بوجه صاحب النصيب.

فرحـــته بـــالولد طيرت عقله، كان يتمدد إلى جوار الولد ساعات وساعات، يـــتأمله ويتحسس بدنه الطرى ويكاد أن يعد أنفاسه، طلع لى من تحت جلده علام جديـــد، كأنـــه طفل انقلب ميزانه وعجز عن إخفاء فرحة عمره، لازمنى فى الدار وأهمل تجارته، يرجونى أن أرضع الولد إن بكى، وإذا أغفى راح يتأمله ويدعونى لكـــى أراه، كـــان يتمنى أهدئه وأكلمه وهو الكبير وكأنه صغير فاته أن يعرف أن الصغير مصيره أن يكبر وأن الأيام تمضى وأن طول الصبر يبلغ الأمل، كان يبدو لـــى مثل طائر يسكن العش ويحوط فرخه الوحيد بجناحيه، يخشى عليه من نسمة الهـــواء، يترقبنى وأنا أغير ثيابه يتحسس الما الفاتر الذى أجهزة لتنظيفه مخافة أن يكـــون أكـــثر بـــرودة أو ســـخونة، كان يمنع أى واحدة من حمله أن حاولت ويهمس فى أذنى:

- الخلق مالهاش أمان.. واللى بيكره أكتر م اللى بيحب.

كـــان علـــى اســـتعداد لفعل أى شىء من أجل الولد، طيب وحنون إلى أبعد الحـــدود، لعلـــنى أيامها لمت نفسى لأننى رفضته زوجا فى أول الأمر، لعل كل ما كـــان يتبدى للخلق من طباعه كان مجرد ضيق أو حزن لأنه فشل فى السابق أن

تكـون لـــه خلفـة فلما تحققت زالت أسباب الضيق والحزن القديم وجاءت أيام الفـرح.. يوم حدث العمة طالبا الزواج جاءت وأبلغت أبى، وربما كانت هى المرة الوحيدة التى جرؤت فيها أمى على الاعتراض:

- لأ.. ماياخدهاش أبدا.. دا زى التعلب الدحلاب، ما يخدهاش..
- مريم..

قالتها العمة بدهشة فاستمرت أمى..

- لأيا عمه.
- لأ ف عينك - أنتى انهبلتى؟
- ايوه انهبلت.

قالتها وقامت واستمرت فى الاعتراض بعيدا، أذكر أنها قالت أنه مثل الحية الـناعمة التى تزحف على بطنها لتصل إلى غرضها دون أن يحس بها أحد وأنه كبير فى السن وبارع فى الملاوعة و لا أمان له، يومها خفت، لكنه شاكر أزاح كل الخـوف وجلعـنى وهو الطفل الوليد أصدق ما كانت تقول به العمة من أنه وحيد وراغب فى خلفة من صلبه تبدل حاله وتفتح له السكة لكى يريح ويستريح.

يومهـا كـان الولد على صدرى، سلاحى وسندى حملته وطرت، لا أعرف كيف خرجت من الكفر قبل طلوع الفجر، كنت طائرا مذبوحا بسلاح ماض لا أتحكم فـى أطـرافى، أحـس آلام الجرح ولا أكف عن الحركة، أطير وأحط والولد على صدرى، أحميه وأحتمى به من لفحة الشرد والندى يتساقط علينا نقاطا متتابعة من بيـن فـروع الشجر المزروع على شط ترعة الرّياح القديم، ركبت مع العربجى. الـذى بكر بالذهاب إلى سوق البندر لينقل بضائع تجار الكفور والبلدان، خفت أن يعرفـنى فداريـت وجهـى بغطاء الرأس، ركبت قطارا من محطة البندر ونزلت «مصـر» بعـد الضحى العالى، ركبت تراما مثلما كنت أفعل معه ومشيت مشوارا طـال وأنـا أمنى نفسى أن أصل إلى العش المأمون أو ما كنت أحسبه المأمون، طلعت سلم الحوش ولم أشغل نفسى بساكناته من النسوة الجالسات والناظرات فى اسـتطلاع يتغامزن عنى، طرقت الباب الذى كان معفرا وخيوط العنكبوت منسوجة أعـلاه وفـى الأركان، طالت وقفتى وخفت أن يكون قد ترك السكن، ليتنى سألت الجالسات حتى أحمى نفسى من لومهن لطلوعى دون سؤال أو اهتمام، لكن الباب

انفــتح، كـــان فى عينيه نوم وكسل، تأملنى بعد أن دعك عينيه واندهش، اتسعت حدقــتاه تكذيبا ممزوجا بالفرح، أزحته فانزاح موسعا لأدخل، سك الباب المفتوح وقالها:

- أهلا..

وجلـــس، كـــان يـــنظر إلى خشب الأرضية الذى اتسخ ساكتا وكأنه أصيب بالخـــرس، كنـــت فـــى حال يصعب على العدو قبل الحبيب، مهدودة والعرق يملأ جبيـــنى وأحســـه يسرى فوق سلسلة ظهرى وتمتصه الثياب، لكن نسمة الهواء تلســـع الوجـــه وسلسلة ظهرى، كنت أتوقع أن يلقانى بمزيد من الترحاب ويترك لنفسه حرية الفرح. لكنه لم يفعل، هل كانت دموعى تتساقط رغما عنى لأننى جئت ولـــم يتلهف على رؤية الولد؟ غيره كان يقوم ويكشف الغطاء عن وجهه، يجفف دموعـــى ويهنئنى بسلامة الوصول، يسألنى كيف جئت رغم اعتراضاتهم هربانة أنتظر كلمة ود لكنه سكت، كأننى غريبة عنه مع الولد، ضناه، يراه لأول مرة ولا ينشغل، لو كان بينى وبينه مطارق الحداد فما ذنب الولد؟ الناس فى الكفر تغضب وتتصالح، والمطلقة يردها الرجل إلى عصمته إن خلفت ولدا.. شعرت بالندم لأننى لجـــأت إلـــيه، تشككت فى إمكانية أن تعود المياه إلى مجاريها بيسر، قلت أغضب على روحى وأحاول تحريك السكون الذى بدا لى غريبا:

- مش عاوز تشوف الولد؟

- عاوز.

قالها ثم قام، رفع الغطاء الرقيق الأزرق عن وجهه «المزرود» بص فيه ثم أعاد الغطاء، نظر إلى بعيد قبل أن يسأل:

- عاوزانى أعمل إيه؟

كنت أغلى وأحاول تهدئة نفسى:

- ابنك تربيه.

- إزاى؟

قـــال هو وقد قام من جلسته القلقة ودار حول نفسه بغير هدف كان وجهه شـــاحبا ومخطوقـــا وغـــير حليق، أصابعه تتشابك بعنف وتنفك بعنف وفى عينيه حيرة، كأنه سقط فى بئر، يطل من خلال النافذة نصف المفتوحة التى تسمح لخيط

نحـيل من شعاع الشمس بالدخول، يتحاشانى ويطل خلسة وكأنه لص يخشى أن يضبطه المسروق متلبسا، لعلنى شعرت نحوه بعطف وأردت أن أساعده:

- نرجع لبعض عشان الولد يا حسن.

قلـتها ولـم أتمالك نفسى، جعلت أبكى وأبكى بحرقة ومرارة لأننى كشفت ضـعفى أكثر مما كنت أعتقد، لم يحاول تهدئتى ولو بكلمة، هل كان كل الكلام فى السابق كذبا؟ هل لاف على غيرى واستغنى؟ كدت أن أهدأ فسمعت صوته:

- ياريت العياط بيحل، علام كتب كتابه عليكى يا شوق؟

فزعت لأنه عرف ما جرى فى الكفر، أبلغه أولاد الحلال إذن لتكتمل القطيعة وينقطع كل رجاء فى الرجوع، قلت من بين دموعى.

- ما لكش دعوه بعلام، علام فى أيدنا وخلوصى منه سهل..
- تبقى أنتى على نياتك وما تعرفيش علام، ما تروحيش بعيد واسألى أمك عليه..
- يعنى إيه؟
- يعـنى العـوض على الله.. خمس أيام من يوم ما وصلنى الخبر الأغبر وأنا لا أكل ولا شرب ولا شغل.. العوض على الله.
- اقف جنبى وخلصنى.
- مـا لكـيش خلوص منه غير بضرب النار، أضيع نفسى عشان واحدة زيك؟

طـير البرج الباقى من عقلى كأنه يعايرنى ويكيدنى لأننى استجبت لهم فى لحظـة ضعف، كان من الممكن أن أقول لـه كل ما بلغنى عنه وأنا هناك، لكننى شـعرت بالعجـز عـن الاستمرار معه فى حوار بلا لزوم، كنت أحسبه ابن ناس يشترينى ولا يتشفى، يتخلى عنى وهو العارف أنهم كانوا سبب الخراب، والذى لا يعرفه أننى ما جئت إلا من أجل الولد، وضعت الولد على طرف السرير وامسكته مـن طـرق جلبابه بغل المشوار وما سوف ألقاه فى الكفر من سخريات، لم تبرد نارى وقد بدا لى أننى بعته أكثر مما باعنى، كنت أرجه رجا فيبدوا لى أنه يوشك أن يسقط من طوله، جاءتنى قوة لا أعرف مصدرها أدهشته وأربكته وجعلته يعافر بعسر ليخلص طوق جلبابه من قبضتى المستميتتين وفى عينيه مخاوف رجل من

امــرأة عاشرها وحسب قوتها فخابت حساباته، كان يجاهد أن يدارى خوفه لكنه فشل، ليس الأمر مجرد أكتاف عريضة أو شوارب مفتولة، سقط من عينى تأكدت مــن خوفــه، تركته يتحسس عنقه وصدره ويلهث، فتحت بابه وخرجت منتصرة رغــم الجــرح فى القلب، لم يسع فى أعقابى ولم أفكر فى الرجوع لآخذ الولد «يا روح ما بعدك روح» شعرت بالبرد وأنا أسعى لا أدرى فى أى اتجاه وصهد بؤونة يترك على الرأس سخونة والأطراف ترتعش، كنت شاردة ومهمومة «عقل غشيم عاجــز عــن التمييز وقلب أعمى، الرجل يخسر الدنيا ولا يخسر ضناه»، كرهت نفســى وكرهت أولاد عوف وأولاد شلبى، لو كان لى أخ، كان فى القلب غم وفى الصدر وجع وخطواتى تسعى بعسر مكرهة فى طريقها إلى كفر عسكر.

دخلــت الكفــر بليل سترنى الظلام وغطانى الملس، فتحت هى الباب فربت وجهها من وجهى وكأنها تتحقق من ضيف غريب، سألتنى بهلع:

- الولد راح فين؟
- عند أبوه.

قلت وأنا أخطو ناحية السلم لأصعد إلى «المقعد» البحرى، توقعت منها هبدة براحتــيها المفرودتيــن فــوق ظهرى كما كان يحدث عندما تغتاظ من واحدة منا فتكفــيها علــى وجههــا لكنها لم تفعل، لعلنى كنت أتمنى أن تفعل لأفيق من كف الــزمان المعــاند، لو فعلت لأراحتنى من وجع يفوق طاقتى على احتمال المهانة والانكسار، سمعت صوتها من تحت السلم تندب:

- قلــت لك ما تسمعيش كلامها، قلت لك ماتسمعيش كلامها، رايحه لــه تسخمى إيه؟ وفايته الولد عنده يعمل إيه؟

داســت بكلامهــا علــى قلب الجرح أو جرح القلب، وما كنت أملك غير الا نخــراط فــى بكاء حبسته طول السكة من حوش المغربلين حتى دارنا فى الكفر، انهــدت قــواى ولم أشعر بنفسى إلا وشعاع الشمس يلسعنى وهى تقف بالمقلوب طــيفا نحيلا عاجزا والصندوق بجوارها مقلوبا أو كأن رأسى هو المقلوب، أنسك الشــباك بــيدها فغربت شمس النهار وساد صمت لابد أنها هى التى سقتنى كوز المــاء فمــا كنــت أقدر على حمله وهو إلى جوار الفراش مقلوبا أو مائلا، لعلها

حاولت أن تطعمنى فلم تستطع، لعلنى تذكرت عطيات، تلك التى حرموها من دخول المدرسة أو رؤية الناظر لابس طربوش النسر، وربما كنت قد قررت أن أفعل مثلما فعلت، تذكرت نعمات وتمنيت لو أنها كانت إلى جوارى وتذكرت الولد، لو كان معى يؤنسنى لاحتملت، أرضعه وأنظفه وأناغيه، أبثه همومى، واستفتيه، تداخلت كل الوجوه التى راحت فى وجه الولد، شعرت بوخزة الجوع فى البطن فقلت لنفسى جاع الولد، كان لبنه المحبوس ينز من الحلمتين ويبلل صدر الجلباب، جفت منه قطرات فتحولت إلى رقائق خشنة مستديرة تصلب النسيج وتزود الوجع، لعلنى قمت واتركزت أو حلمت أننى قمت وارتكزت وأخرجتهما وعصرتهما على الأرض وما نقص الوجع ولا سكن الصدر، كنت أشتعل من الداخل والخارج.. الجوف والصدر والدماغ والحلق والعينين ورغبتى فى الموت تدعونى للاحتمال.

بكرى أو علام وكان على أن أختار، قلت لها يا عمة انتظرى حتى ينزل ما فى بطنى وأكمل العدة، كنت بين نارين، أن أوافق أو أن أبقى وسيرتى لبانة فى كل الأفواه، يسهرون الليل وينهشون لحمى الحى، وكل ليلة كلام ومجلس من رجال بشوارب يتحمسون ويهددون ونسوة بارعات فى مصمصة الشفاه شماتة وتأسيا مصنوعاً على النصيب الذى مال والأب الذى خاب واستدان من الكبار والصغار، سلم ذقنه كما قالت أمى ــ فى لحظة جرأة نادرا ما تنتابها ــ للعمة، أخته غير الشقيقة لأب، كأنه كان فى الخفاء بينهما سباق انتهى لصالحها، ولأنه كان دائما يضيع كل ما تطوله كفاه فى مجالس الشرب والقمار، استسلم لسلطان قرشها، لعله ذات مساء تأكد أنه خسر رهان العمر معها فاستكان وارتضى لنفسه أن يعيش ظلا لرجل كان، ولعلنى لم أخطئ كثيرا عندما تعلقت بها إلى أبعد الحدود، ربما لأنها فى كل الحالات، تسير حياته بحسب إرادتها وأفكارها، ولعلها أيضا كانت بديلا عن الأم الساكتة دوما، تتلقى الأوامر وتنفذها برضاها أو غصبا عنها ونادرا ما كانت تنشغل بتعليم واحدة منا عملا من أعمال الدار، كانت هناك دائما وربما قبل أن نوجد إرادة العمة، احسبنى لم أراجع حساباتى فى رأى قالته إلا عندما أشارت على بأن اختار علام، كنت أميل إلى رأى أمى الذى تمسكت به وعاندت على غير عادتها.

لعلـــنى لـــم أكـــن أفكر فى دخول تجربة جديدة مع رجل جديد ومازالت فى أحشـــائى نطفة كيان لم يولد من صلب رجل عاشرته، واختلفت معه، غضبت كما تغضب الكثيرات وتنتظر صلحا يعيد المياه إلى مجاريها، وفى الكفر يقولون «الولد يـــرد أمه» ولعله يكون ولدا قادرا على رد الأمور إلى مجاريها، هكذا كنت أفكر، لكن العمة جاءت وعارضتنى:

- الواحـــدة إن مـــال بختها فى المدن تعيش، تنتقل فى سكن غير السكن، تخرج من حارة وتدخل حارة، والناس هناك كتار وكل حى فيهم مشغول بحاله، إنما هنا فى الكفر لأ.. الكفر ضيق وعقول ناسه أضيق.
- نستنى شويه يا عمه.
- لأ.. مانستناش، ما دام ماجاش يصالح منستناش.
- يا عمة.
- وعلام ما يتعيبش باينت، بكره يكتب لك اللى وراه واللى قدامه.. سيبك من بكرى..
- أنا عارفة بقى..

كأننى وافقت، وكأنهم حسبوا الأيام، بعد ميلاد الولد جاءوا.. رجال بشوارب ونســـوة بفســـاتين ملونـــة وصبية وبنات صغيرات ترقص على دقات طبل فى يد الناعســـة، وكفـــوف تصفق، ومأذون بدفتر وزغاريد وعقدوا القران وأنا غفلانة وأمى تلطم فى قاعة الخزين بلا حيلة، وبثوب البيت أراد أن يأخذنى علام «وخير الـــبر عاجله» فأقع فى عرض العمة فى قاعة الخزين كى تتوسط لتأجيل الدخول، مجرد تأجيل الدخول.

أغرانى وجهه البسام وجرأة فى العينين تقتحمان الوجوه والأشياء باطمئنان إلـــى قدرتـــه على تصريف الأمور، وكنت قد سمعت عنه الكثير، عراكه مع الأب الـــذى لـــم تنكسر شوكته أبدا، وخروجه إلى تلك المدن البعيدة مع أخ شقيق مات وبقى هو، يرفض الرجوع ويظل مبتورا عن الأهل ومستغنيا عن الميراث، وماذا تطلـــب الواحدة منا أكثر من رجل قادر أن يحوطها ويحميها ويفرجها على الدنيا الواســـعة؟ يحـــنو علـــيها ويبعـــث فى قلبها البهجة، ينسيها شقاء الأيام ويسمح لأحلامهـــا بأن تتفجر، تسلم نفسها إليه وتطمئن إلى وعد صادق النبرات قاله بعد

عقد القران، ورغم أنهم حاولوا جميعا أن تموت الفرحة فى قلبه كان يبدو فرحانا ومنتصرا، قلة من أولاد عوف وأولاد شلبى جاءوا على عكس كل ما كنت أنتظر، وسألت نفسى إن كانوا قد استعادوا فى تلك الليلة عداواتهم القديمة أو أنه كان عدوا لأهله وخارجا عن طاعتهم لمجرد أنه فكر فى أخذى وترك بنت عمه أم الولد؟ وكان أبى الباحث عن صلح أبدى معهم على عكس إرادة الكبار من أهله هو الآخر خصما يستحق المقاطعة كما قالت العمة، تلك التى كانت لا تعترض أيام كانت تراه يمر من الدرب ويطل فتسألنى دون اعتراض عن سر عبوره فى كل اجازة ينزل فيها الكفر وما كان يتعرض له من سخافات بكرى وغيره من شباب الدرب الذين عاشوا زمن العداوات القديمة وفسروا عبوره من دربنا على أنه «دهوسة» عليهم، كانت العمة تبدو راضية عن مشاغلاته لى من بعيد، ربما لأنها وجدتنى لا أعترض، وربما لأنها لم تتصور أن الأمر سوف يصل إلى حد أن يطلبنى للزواج، لكنه عندما فعل اعترضت وهددت بأن تتخلى عن وعدها القديم بتجهيزى من حر مالها، لكن أبى لم يتراجع، استدان وجهزنى بحسب قدراته، ورضى هو رغم تحريضات أهله ليطلب المزيد، تبسط وقال إنه اشترانى فاطمأن إليه قلبى، رتبت أمرى لكى أرضيه، أن أبعث فى قلبه الأمان وانسيه مرارة الترحال فى المدن البعيدة سعيا وراء اللقمة كما كان يقول لى بعد عقد القران وقبل الرحيل إلى تلك المدينة البعيدة التى سمعت عنها وما رأيتها، كان يمنينى وأمنيه بخلفة من صلبه قادرة على تذويب الكراهية المدفونة فى قلوب الخلق دربنا ودربهم، كان يحدثنى عن مدينة برا ح يتوه الناس فيها، وترام وأسواق لا تنفض ونساء بملاءات وبراقع وافندية بطرابيش وعساكر سلطة تفض مظاهرات تهتف للوفد وتطلب الجلاء، وملك يتخفى فى قصر محروس من غضب الشعب، وحكومات لا يرضى عنها الخلق، كنت أشعر بالفرح يملؤنى وأتعجل بينى وبين نفسى رحلة الطلوع.

أذكر أنه جاء محاطا برجال من دربهم وأفندية غرباء بطرابيش، أذكر أننى ركبت العربية المخصوص وأننى تركت الكفر ورائى ودخلت وأنا إلى جواره شوارع المدينة، مشتاقة للسؤال وخجلانة حتى نزلنا عند الباب المفتوح، حوش واسع وسلم على جنب طلعنا عليه ونسوة تختلف عن نساء الكفر تزغرد وترش

الملــح حــتى دخلنا مسكنه، حجرتان موصولتان بباب وطرقة وباب ينسك علينا وتصــفيق وغـنـاء وهو واقف أمامى بجلبابه المكوى وطربوشه يبتسم، وكرباج سودانى معلق جنب عامود السرير، هل خوفنى وهو يطلب منى أن أغير ثيابى فى حضــوره؟ أو أنــنى كنــت جاهزة للخوف وعيناى على طرف الكرباج، هل كان يضاحكنى وهو يتناوله ويطوح به فى الفراغ مهددا إن لم أطاوع فسوف يشوينى أو أنه كان يعنى ما يقول؟ كنت خائفة وخجلانة ومستعدة للعناد، هل طالنى طرف كــرباجه فعلا أو أننى ادعيت ذلك وبكيت فحاول أن يطمئننى فلم أطمئن؟ وكم ليلة تصابر فيها على نفسه قبل أن يضرب بجد؟ وهل نفذ وعيده ونالنى غصبا أو أننى أسلمت إليه روحى برغبتى؟ تتوه منى الحقيقة ويبقى ذلك الخوف الذى ترسب فى قلــبى مــن ناحيته، خوف خجلان متحفز لثأر لابد أن آخذه وقد فعلت ذات مساء وهــو يــنظر إلى طرف الكرباج الذى كان فى متناول يدى فأخذته ونزلت به على جســده وقد خلع الجلباب، كان يضحك ويتأوه من أثر الضربات أو المفاجأة حتى خلصــه مــن يــدى ورماه بعيدا واتهمنى بالجنون، ليلتها حذرته من معاودة تلك المحاولــة الــتى كانــت فأكد لى أنه لن يحاول، لكننى لم أطمئن إلا بعد أن ألقيت بالكرباج من النافذة إلى الشارع وسيطر الصمت.

كان يفرجنى على الميادين البراح والنيل العريض ودكاكين التجار والعمائر العالــية الفسيحة والأهرامات، وكنت مازلت أخافه وإن ملت إلى رغبة الاطمئنان له، وكان يحدثنى عن شريك لــه فى الدكان لا رأيته ولا جاء يناديه من تحت كما يفعل الآخرون، يناولنى مكسب الدكان ويطلب منى أن أوفر النصف بما يرضى الله لذلك الشريك الغائب وأفعل، وعندما أفاتحه فى حكاية إسماعيل يتحدث عنه بحزن لا أعــرف ســره، يسألنى عن نصيبه وأن كانت تمتد إليه يدى، فأطمئنه، أحيانا يطلــب مــا وفــرته ويحصيه ويطلب منى أن احتفظ به مكانه لحين تسليمه إلى صاحبه فأعجب، وعندما جاء أبى فى زيارته الثانية وسألنى عن الأحوال طمأنته، ســألنى عــن المال فانفلت لسانى وتباهيت بما وفرناه فكذبنى، اندفعت وأخرجت المال المحفوظ من كرن الدولاب، وسمعت على الباب طرقاته المميزة، ودخل، سلم واستفســر بالعينيــن عــن تلك الجنيهات المحطوطة أمام أبى، لامتنى عيناه وأنا أحدثــه عن رغبتى فى طمأنة الأب على حالى، هل أفلح أبى فى توريطه للموافقة

على أخذ سلفة يحتاجها إلى قريب أو أنه لم يمانع رغم نظرة منى كادت أن تحذره مــن ذلك الوعد بالسداد الذى لا أضمنه؟ وهل كان فى مقدورى أن اشكك فى ذمة أبى فى حضوره أو حتى غيابه؟ وكيف تحولت زيارة الأب بعد رحيله إلى عاصفة كنست ما كان بيننا من ود ورغبة فى التآلف؟ كان يلومنى وأتحامل، يعذبنى لأننى بحــت بســره ولا يحاسب نفسه لأنه استسلم فى لحظة خجل وسلم ذقنه بإرادته، والخجــل فـــى الرجال يورث الفقر كما قال هو نفسه مرات، كنا نرقد على نفس الفـــراش ولا نتكلم، أضع بينى وبينه وسادة بطول السرير حتى لا أنسى فى لحظة الغفلة خصامى أو ينساه، وزادت النار بعد زيارة أبيه ولم تنطفئ، همس له ببضع كلمات فزفر فى يأس ولم يعد ينظر ناحيتى أو يوجه إلى كلمة مجرد كلمة، وعندما جــاءت أمه وشافت أحوالنا كلمته وأوصته بأن يغفر لى فمازلت صغيرة لا أدرك لكــنه لــم يفعل، ظل على حاله عندما يدخل أو يخرج فاسودت الدنيا أمامى زمنا، قلــت أطلــب منه أن يوصلنى إلى الكفر لأطلب من أبى رد ما أخذه فلم يعترض، أوصــلنى إلى باب الدار ولم يدخل، وكان آخر ما قاله لى متوقعا فشلى فى تحقيق غرضى:

- ابقى قابلينى.

لكنــنى لــم أقابلــه، عقدوا فى المندرة مجالس وقالوا كلاما، وسعى الخلق يــنقلون إلينا أخباره وأقواله ونواياه، أمرونى بالبقاء حتى يأتى ويأخذنى من دار أبـــى مثل كل الخلق فى كفرنا الذى يرعى الأصول ويصونها، لكنه خيب كل رجاء فيه وغاب، وطال الغياب لاحس ولا خبر، وبدا لى أن كل ما كنت أسمعه عن غدر الــزمان ينطــبق علـــى حالى، فلا الرجل الذى جعلته سندى وملجأى جاء ليعرف أخــبارى أو يعــيدنى إليه، ولا الأب الذى أفسد علاقتنا بثمن بخس فكر أو انشغل بحــالى، ولا العمـــة ساعدتنى برأى صائب، وكانت أمه تأتينى، تطمئننى وتمنينى وتبعــث فـــى قلبى الرجاء بأنه لابد سوف يجىء وإن طالت غيبته والغائب حجته معـــه، أفــتح لها قلبى «وأفضفض» وأحلم معها وأنا أتحسس بطنى، بنت أم ولد، ولد، ولد قادر على كنس فساد الدنيا من حولى، ولد أرعاه وأحميه، ولد يخلصنى من عواصف الأيام المعاندة، أمنحه الدفء ويمنحنى القدرة.

تفــوت الأيـــام وتنقضـــى الأمسيات وأنا أرقب حركته فى البطن، إذا تحرك

حلمت بالولد، ولد/ ابن/ أخ/ أب/ زوج/ عم/ خال/ ولد، وإذا سكن ساعة أخاف أن يضـيع الحلم أو يختنق، أسأل نفسى إن كان ميعاد مولده قد فات، أو أن يكون قد رفض الزمان والمكان والناس من حولى واعترض، أدعوه دون صوت بكل خلايا نفسى أن يأتى ليقيلنى من كل العثرات التى تصادفنى، استشعره يصحو من نعاسه بوهـن ثـم يـتمطى بكسل قبل أن يتحرك حركة هينة ويزغدنى بكل قوته مؤكدا صحوه فى داخلى وباعثا فى القلب المهموم تباشير أمل.

المجلس الأعلى للثقافة

إبداعات الفرع

صدر من هذه السلسلة:

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

هذا الكـــاتب



أحمد الشيخ

• ليسانس آداب قسم تاريخ ١٩٦٧ آداب عين شمس.
• جائزة الدولة التشجيعية عن مجموعة النبش فى الدماغ ١٩٨٥.
• عضو مؤسس وعضو مجلس إدارة اتحاد الكتاب، وعضو نادى القصة.
• عضو أتيليه القاهرة للفنانين والأدباء.
• سافر ضمن وفود الكتاب والأدباء لتمثيل مصر إلى كل من الصين/ السعودية/ العراق/ ليبيا.
• صدر للكاتب:
– دائرة الإنحناء مجموعة قصص ١٩٧٠.
– الناس فى كفر عسكر، رواية ١٩٧٩.
– النبش فى الدماغ، مجموعة قصص ١٩٨١.
– مدينة الباب، مجموعة قصص ١٩٨٣.
– كشف المستور، مجموعة قصص ١٩٨٤.
– الختان الصيفى، مجموعة قصص ١٩٨٧.
– حكاية شوق، رواية١٩٩١.
– البحر الرمادى مجموعة قصص ١٩٩٣.
– حكايات المدندش، رواية ١٩٩٦.
– نصف الساعة السعيد، مجموعة ١٩٩٦.
– المنام المراوغ، مجموعة٢٠٠٠
– ملاعيب الأكابر، مجموعة قصص ٢٠٠١.
– الأعمال الكاملة (ج١) ٢٠٠٠.
– الأعمال الكاملة (ج٢) ٢٠٠١.
– وله مجموعة متنوعة من قصص الأطفال.

الزمان الهابط والزمان الصاعد، أو قل الزمان المتتابع والزمان المتراجع عندما يلتقيان فى بؤرة.. ربما حول موقف أو ذكرى أو شخص.. دوامات يصعب الإمساك الأكيد بمسارها المرعوش برغبة الامتزاج.. البدايات والنهايات فى لحظة الانهزام، رنين الأنات وصدى الصوت الحى، متشابكاً مع الشحوب الخافت لأنفاس ذويها الفراغ لكنها ما زالت فى الأذهان تحيا، وكأنها تتبادل مع الزمن الدوار غير الثابت رغبة البقاء المستحيل. كان العبء فوق الطاقة، مغامرة تتطلب الجسارة، والرغبة - إن كان للرغبة وزن - فى الاستمرار. هبوطا وصعوداً يتقابلان فى الزمان الفائت.

والأرض، الحرب، الموت، بؤر امتزاج.

أحمد الشيخ



